ABU ABDO ALBAGL

ضمن قائمة «نيويورك تايمز» للكتب الأكثر مبيعاً

# زَوْجَةُ النَّمِرِ

# THE TIGER'S WIFE

مدونة أبو عبدو

NATIONAL BOOK AWARD FINALIST

الفائزة النهائية
لـ «الجائزة الوطنية للكتاب»
في أمريكا

رواية

## تيا أوبرهت

## TÉA OBREHT

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

SBBS

# زَوْجَـةُ النَّـمِر

THE TIGER'S WIFE

# زَوْجَةُ النَّمِرِ

# THE TIGER'S WIFE

رواية


تيا أوبرهت

TÉA OBREHT


ترجمة

أفنان سعد الدين

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة


الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

**The Tiger's Wife**

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Weidenfeld & Nicolson - London

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2011 by Téa Obreht

All rights reserved

Arabic Copyright © 2012 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

**الطبعة الأولى**

**1433 هـ - 2012 م**

**ردمك 978-614-01-0500-3**

**جميع الحقوق محفوظة للناشر**

**الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

**Arab Scientific Publishers, Inc.** S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

**يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.**

**إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

# المحتويات


الفصل الأول: الساحل ........................................ 11

الفصل الثاني: الحرب ........................................ 39

الفصل الثالث: الحفّارون ........................................ 95

الفصل الرابع: النمر ........................................ 109

الفصل الخامس: دار الأيتام ........................................ 145

الفصل السادس: الحريق ........................................ 173

الفصل السابع: الجزّار ........................................ 219

الفصل الثامن: القلب ........................................ 261

الفصل التاسع: الدب ........................................ 273

الفصل العاشر: مفترق الطرق ........................................ 305

الفصا الحادي عشر: القصف ........................................ 315

الفصل الثاني عشر: الصيدلي ........................................ 345

الفصل الثالث عشر: النهر ........................................ 367

إن أول صورة انطبعت في ذاكرتي عن جدي وأنا صغيرة هي صورته وهو يصطحبني في نزهة لزيارة السور. لن أنسى أبداً صورته وهو معتمرٌ قبعته، ومرتدٍ سترته المطرية ذات الأزرار الكبيرة بينما كنت منتعلة حذائي اللمّاع ومرتدية فستاني المخملي. أتذكر أن الفصل كان خريفاً، وأنني لم أكن قد تجاوزت الرابعة من عمري. وأرتب أحداث ذلك اليوم بدءاً من يد جدي التي تمسك بيدي، وصوت العربة الخافت المبهج في أذني، ورطوبة الصباح المنعشة، والممشى المزدحم المؤدي إلى قمة التل وصولاً إلى متنزه القلعة. أما رواية الغابة ذات الغلاف الورقي الذهبي والصفحات القديمة المصفرَّة، فتحتل مكانها المعهود في جيب سترة جدي الأمامي. لا يسمح لي جدي بالإمساك بالرواية، ولكنه يبقيها مفتوحة على ركبتيه طوال فترة العصر، ويتلو على مسمعيّ مقاطع منها. وعلى الرغم من أن جدي لا يرتدي زيّه الأبيض أو يضع سماعته الطبية، إلا أن السيدة الجالسة خلف شباك قطع التذاكر عند المدخل الأمامي تدعوه بلقب دكتور.

هناك عربة لبيع الفشار ومشجب لتعليق المظلات، وكشك يبيع بطاقات بريدية وصوراً. ننزل الدرج، ونتجاوز ذلك القفصَ الكبير الذي تنام فيه طيور البوم ذات الآذان المدببة، والدوامةَ التي تدور على طول جدار القلعة وتحيط بها الأقفاص. في الماضي، كان السلطان العثماني يتحصن هنا مع الإنكشارية. والآن، أصبحت النوافذ المطلة على الشارع – حيث كانت المدافع تنصب – تحمل أحواضاً مليئة بالماء الفاتر. تبدو قضبان القفص محدبة الشكل وبرتقالية اللون بسبب الصدأ. يحمل جدي

بيـده الأخـرى كيسـاً أزرق حضّرتـه لنا جدتي، ويحـوي رؤوس ملفوف لإطعام فرس النهر، وجزراً وكرفساً من أجل الخرفان والغزلان والموظ الضخـم الـذي يشـكل بحـدّ ذاته ظاهرة نادرة الوجـود. يخفي جدي في جيبه بعض مكعبات السكر ليطعمها للمهر الذي يجر عربة المتنزه. فلا أجد في سلوكه دليلاً على العاطفة الجياشة وإنما على العظمة الحقيقية.

تعيـش النمـور في الخندق الخارجـي للحصن. نصعد درج القلعة، ونتجاوز طيور الماء وبيت القردة بنوافذه المكسوة بالبخار، ونمرّ بجانب الذئـب الـذي لا يـزال فروه الشـتوي ينمو، والطيـور الجارحة الملتحية، والدببة دائمة النوم فنشم رائحة أشبه برائحة التراب والجيف تفوح منها. يرفعنـي جـدي عـن الأرض ويضـع قدمي على السـياج لأقف وأشـاهد النمور في خندقها.

لا يدعو جدي زوجة النمر باسمها الحقيقي أبداً، ولكنه يضع ذراعه حولـي وأنـا أقـف على السـياج، ويقول: "كنت فـي الماضي أعرف فتاة أحبـت النمـور مـن كل قلبها لدرجة أنهـا كادت تصبح نمرة". فيجعلني صغر سـني وحبي للنمور الذي أسـتمده من حبي له أظنه يتحدث عني، ويروي لي جدي قصة خيالية أستطيع أن أتخيل نفسي بطلة فيها، وهذا ما أفعله فعلاً طوال سنوات عدة.

نـنـزل الـدرج، ونتوجـه نحو الأقفاص المطلة على الباحة، ونمشـي الهوينـا بيـن قفـص وآخـر. يوجـد فـي أحد الأقفـاص فهدٌ تكسـو فروه المصقول الأملس بقع فاتحة تضفي عليه مسحة باهتة. وفي قفص آخر أسـدٌ أفريقي ضخم وكسـول. ولكن النمور تبدو يقظة ومفعمة بالحيوية ومتألقة بحقد دفين. تمشـي متجاورة على طول الممر الحجري الضيق وتفـوح منهـا رائحـة قويـة تمـلأ المـكان. فتلازمني تلـك الرائحة طوال اليـوم حتـى بعـد أن آخـذ حماماً وآوي إلى فراشـي، وتعود إلى ذاكرتي في أوقات غير متوقعة؛ وأنا في المدرسة أو في حفل ذكرى مولد إحدى

صديقاتي، وحتى بعد سنوات عدة بينما أعمل في مختبر علم الأمراض، أو في طريق عودتي إلى البيت من قرية غالينا.

إنني أتذكر أيضاً وقوع حادثة مؤسفة في ذلك اليوم. إذ احتشدت مجموعة صغيرة من الناس حول قفص النمر، ومن بينهم صبيٌ معه بالون على شكل جزرة، وسيدةٌ ترتدي معطفاً أرجوانياً، ورجلٌ ملتحٍ يرتدي زياً موحداً بني اللون يشبه زي عمال حديقة الحيوانات. يمسك الرجل بيده مكنسة ذات عصا طويلة وسلة قمامة، ويكنس الأرض بين القفص والحاجز الخارجي. فيمشي من أول الممر إلى آخره ويكنس علب العصير، وأوراق تغليف الحلوى، وحبات الفشار الصغيرة المتناثرة التي حاول الناس أن يرموها للنمور. فتمشي النمور إلى جانبه من أول الممر إلى آخره. تتفوه السيدة ذات الملابس الأرجوانية بشيء ما وتبتسم، فيبتسم الرجل لها، ويتوقف ممسكاً بالسلة ومتكئاً على عصا مكنسته. يقترب النمر من القضبان ويحتك بها وهو يخرخر. فيمد الرجل يده من خلال القضبان ويتحسس النمر. تمرّ لحظة قصيرة لا يحدث فيها شيء، ثم تقع الكارثة.

يهاجم النمر الرجل بسرعة خاطفة، فتصرخ المرأة رعباً. وفجأة، تصبح كتف الرجل محشورة بين القضبان، فيحاول أن يبعد رأسه، ويمد يده الأخرى إلى الحاجز الخارجي ليتمسك به. يتشبث النمر بيد العامل كما لو أنه كلب يمسك عظمة كبيرة بشكل عموديّ بين قائمتيه ويحشرها بين فكيه. يقفز رجلان كانا واقفين قريباً مع أولادهما من فوق الحاجز ويمسكان بخصر العامل وذراعه الحرة، ويحاولان أن يبعداه عن القفص. ويدفع رجل ثالث مظلته عبر القضبان ويضرب بها مراراً وتكراراً أضلاع النمر. ينطلق صوت غاضب من الحيوان، ثم يقف على قائمتيه الخلفيتين، ويحضن ذراع العامل، ويهز رأسه من جانب إلى آخر وكأنه يشد حبلاً. وتبدو أذناه مسطحتين وهو يصدر ضجة عالية كصوت

القطار، فيما يبدو وجه عامل الحديقة شاحباً كالأشباح وهو عاجز عن الكلام؛ وكأن الرعب قد عقد لسانه.

عندئذ، تنتهي الواقعة فجأة كما بدأت. حيث يفلت النمر يد الرجل، ويسحبه الرجال الثلاثة الآخرون. فألاحظ بقعاً من الدم متناثرة في الأنحاء. وأرى النمر يهز ذيله، والعامل يزحف تحت الحاجز الخارجي محاولاً النهوض على قدميه. أكتشف أن المرأة ذات المعطف الأرجواني قد اختفت فجأة عن الأنظار. طوال هذا الوقت، لا يشيح جدي بوجهه بعيداً عن المشهد، ولا يحاول أن يبعد وجهي أيضاً على الرغم من أنني في الرابعة من عمري. فأشاهد كل تفاصيل الحادث، وأدرك لاحقاً الحقيقة التي تعمد أن يريني إياها.

يمشي عامل النظافة مسرعاً باتجاهنا وهو يلف قطعة قماش ممزقة حول ذراعه. ويبدو وجهه محمراً من فرط الغضب وهو في طريقه إلى المستشفى. في ذلك الوقت، ظننت أن ما يشعر به هو الخوف، ولكنني أدركت في ما بعد أنه مجرد شعور بالإحراج والخجل. تندفع النمور بعد أن أثير غضبها إلى التجول في القفص جيئة وذهاباً. يمشي العامل مخلفاً وراءه خطاً داكناً من الدم على الحصى. وبينما هو يمر بنا، يقول له جدي: "يا للهول! يا لك من أحمق!". فيرد عليه الرجل بكلام أدرك أنه لا ينبغي لي أن أكرره.

وبدلاً من ذلك، أصيح بغرور وبشجاعة لأن جدي يمسك بيدي: "إنه أحمق، أليس كذلك يا جدي؟".

ولكن جدي يحث الخطى ليلحق بالرجل، ويجرني خلفه وهو يناديه ويطلب منه أن يتوقف ليمده بيد العون.

# الفَصْلُ الأوّلُ

# الساحل

ذكر في الخرافات أنه تبدأ الأيام الأربعون لانتقال روح الميت في صبيحة أول يوم بعد وفاته. في تلك الليلة الأولى، وقبل أن تستهل الروح أيامها الأربعين، تظل مستلقية بسكون على وسائد مبللة بالعرق، وتتأمل الأحياء وهم يضعون يدي الميت فوق صدره، ويغمضون عينيه، ويملأون الغرفة بالدخان والصمت ليحولوا بين الروح التي غادرت الجسد لتوها وبين الأبواب والنوافذ وشقوق الأرضية خوفاً من أن تهرب من البيت، وتتسرب خارجه كما يتسرب الهواء. يعرف الأحياء أن الروح ستغادرهم عند انبلاج الفجر، وستبدأ رحلة العودة إلى ماضيها لتزور المدارس والمهاجع التي عاشت فيها في شبابها، والثكنات العسكرية، والشقق والبيوت التي دُمِّرت وسُوِّيت بالأرض ثم أعيد بناؤها، والأماكن التي تذكرها بالحب والذنب والصعوبات التي واجهتها وسعادتها العارمة وتفاؤلها ونشوتها وذكرياتها العذبة التي قد لا تعني شيئاً للآخرين. وقد تأخذها هذه الرحلة أيضاً إلى أماكن قاصية وتنسيها طريق العودة. ولهذا السبب، يوقف الأحياء طقوس حياتهم اليومية. إذ يمتنعون - في سبيل الترحيب بالروح المحررة حديثاً - عن تنظيف النوافذ أو غسل الثياب أو ترتيب البيوت. ويتعمدون عدم تحريك أغراض الميت من مكانها مدة أربعين يوماً آملين أن تعيد العاطفة والحنين روحه إلى بيتها، وأن يغرياها بإيصال رسالة أو إشارة أو غفران.

فإن نجحت هذه الطقوس بإغراء الروح، عادت بمرور الأيام

لتجوب الأدراج، وتسترق النظر إلى الخزائن، وتنشد الراحة الملموسة التي عرفها كيانها الحي وهي تتفقد رف الأطباق وجرس الباب والهاتف، وتذكر نفسها بوظيفتها، وتلمس الأشياء التي تصدر صوتاً لتشعر سكان البيت بوجودها.

ذكرتني جدتي، وهي تتحدث إليّ بهدوء عبر الهاتف، بهذه الخرافات بعد أن أطلعتني على خبر وفاة جدي. لطالما اعتبرت جدتي فترة الأربعين حقيقة لا مفر منها، وأمراً واقعاً مفروغاً منه، ومعرفة ترسخت في وجدانها بعد أن دفنت والديها وشقيقتها الكبرى وعدداً من أقاربها وجيرانها في بلدتها الأصلية. واعتادت أن تردد هذه الخرافات لتخفف عن جدي كلما فقد مريضاً يهمه أمره. فكان يراها معتقدات خرافية، ولكنه اعتبرها في الوقت نفسه شيئاً يجب عليه أن يعتاد عدم الاعتراض عليه كلما ازدادت آراء جدتي رسوخاً مع تقدّمها في السن.

شعرت جدتي بالصدمة، وثارت ثائرتها لأنها خسرت جزءاً من أيام جدي الأربعين. فقد انخفض عددها إلى سبعة وثلاثين أو ثمانية وثلاثين يوماً بسبب ظروف وفاة جدي. إذ توفي خلال ذهابه في رحلة وحده بعيداً عن البيت. فلم يدر بخلدها أنه كان ميتاً عندما كوت ملابسه في اليوم الفائت، أو عندما غسلت الأطباق في صباح ذلك اليوم. وعجزت عن غضِّ الطرف عن العواقب الروحية الناجمة عن جهلها. لقد وافت المنية جدي في إحدى العيادات في بلدة غريبة تدعى جريفكوف في الجانب الآخر من الحدود. لم يعرف أحد ممن تكلمت معهم جدتي أين تقع جريفكوف هذه. وعندما سألتني عنها، أخبرتها الحقيقة؛ وهي أنني أجهل السبب الذي قد يدفعه إلى التوجه إلى هناك.

قالت جدتي: "إنك تكذبين".

"إنني لا أكذب يا جدتي".

"لقد قال لي إنه في طريقه للقائك".

فقلت: "لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً".

أدركتُ أنه كذب عليّ كما كذب عليها، وأنه استغل فرصة رحلتي عبر البلاد ليتسلل إلى هناك، ورحل لسبب ما نجهله كلتانا. قالت جدتي إن أفراد طاقم عيادة جريفكوف استغرقوا ثلاثة أيام كاملة ليتعقبوا عنوانها، ويطلعوها ووالدتي على خبر وفاته، ويرتبوا إجراءات إرسال جثمانه. لذا، وصل جثمانه إلى مشرحة المدينة في صباح ذلك اليوم. ولكنني في تلك الأثناء كنت في مكان يبعد أربعمئة ميل عن البيت، وواقفة في حمام عمومي في آخر محطة وقود قبل نقطة الحدود، والهاتف العمومي على أذني، وقدماي حافيتان، وساقا بنطالي مطويتان إلى الأعلى، وصندلي في يدي، وأنا أرتب ألواح السيراميك الخضراء تحت المغسلة المكسورة.

كان أحدهم قد ثبت خرطوماً مثنياً في الصنبور، فوجدته معلقاً وفوهته إلى الأسفل، وهناك سيل من الماء يتدفق منه على الأرض. لا بد أن تدفق المياه دام لساعات. فقد ملأ الماء المكان، وغمر الأخاديد بين ألواح السيراميك، وتجمع حول حواف المراحيض، وأخذ يتقاطر من الدرج على الحديقة الجافة خلف الكوخ. لم تزعج هذه الفوضى عاملة المرحاض التي كانت في أواسط العمر وتضع وشاحاً برتقالياً على شعرها. فقد وجدتها غافية على كرسي في الزاوية وفي يدها قبضة من الأوراق النقدية، ولكنني دخلت متوجسة شراً من تلك الإشارات السبع الفائتة التي أرسلتها لي جدتي على جهاز البيجر.

تملكني الغضب من جدتي لأنها لم تخبرني أن جدي قد غادر الديار بواسطة الحافلة قبل أسبوع تقريباً بعد أن انطلقت في رحلتي مباشرة. فقد قال لجدتي وأمي إنه قلق بشأن مهمتي الإنسانية التي تتضمن حملة تلقيح في دار أيتام بريجيفينا، وإنه لذلك السبب قرر التوجه إلى هناك لمساعدتي. ولكن، لم يسعني أن ألوم جدتي على سماحها له بالسفر

من دون أن أكشف سري؛ لأنها كانت بلا شك ستقول لي إنها ليست على علم بأمر مرضه الذي كتمت وجدي أمره عنها، ولهذا تركتها تتكلم ولم أحدثها عما جرى في اليوم الذي رافقتُه فيه إلى أكاديمية الطب العسكرية قبل ثلاثة أشهر عندما أراه طبيب الأورام، وهو أحد زملائه القدامى، نتائج الفحوصات الطبية، فوضع جدي قبعته على ركبته، وقال: "تباً! تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن!".

وضعت قطعتين نقديتين إضافيتين في الشق، فرن الهاتف. راحت العصافير تقفز من الحواف القرميدية لجدران الحمام، وتقف قرب برك الماء عند قدمي، وترش الماء على ريشها. وألقت الشمس وهجها الحار الذي أضفى مسحة من الجمود على المكان. وشعرت بالهواء الحار والرطب يملأ الغرفة بجو خانق، وذراتُه تلمع في المدخل المؤدي إلى الطريق حيث بدت السيارات الواقفة عند نقطة الحدود مصفوفة في رتل متراص على طول الإسفلت الأملس. استطعت أن أرى جانب سيارتنا الأيسر المعطوب من جراء حادثة تصادم وقعت حديثاً عندما اصطدمت بأحد الجرارات الزراعية. ورأيت زورا جالسة على مقعد السائق، والباب مفتوح، وساقها الممدودة منه تنجر على طول الطريق وهي تلقي بالمزيد من النظرات الخاطفة باتجاه الحمام كلما اقتربت أكثر من مكتب الجمارك.

قالت جدتي بصوت أعلى: "لقد اتصلوا بي البارحة فظننت أنهم ارتكبوا خطأ. ولم أرغب في الاتصال بك لئلا أثير قلقك إلى أن تأكدنا من الخبر. ولكن والدتك ذهبت إلى المشرحة صباح اليوم". وسكتت جدتي ثم تابعت: "ما الذي جرى؟ إنني لا أفهم شيئاً مما حدث".

فقلت: "وأنا أيضاً يا جدتي".

"لقد كان ذاهباً للقائك".

"لم أكن أعرف شيئاً عن هذا".

عندئذ، تغيرت نبرة صوتها. ولا بد أن الشكوك بدأت تخامرها بسبب عدم بكائي وانفعالي. طوال الدقائق العشر الأولى من محادثتنا، كانت على الأرجح قد سمحت لنفسها بالاعتقاد أن هدوئي ناجم عن تواجدي في مستشفى أجنبي لأنجز مهمتي وأنني محاطة بالزملاء. ولا بد أنها كانت ستتحداني في وقت أبكر بكثير لو عرفت أنني مختبئة في حمام عمومي قرب الحدود لكي لا تسمع زورا شيئاً من حديثنا.

قالت: "أليس لديك ما تقولينه لي؟".

"إنني لا أعرف شيئاً يا جدتي. لماذا قد يخفي عني نيته القدوم للقائي؟".

فقالت: "لم تسأليني إن كان قد تعرض لحادث. لماذا لم تسألي عن ذلك؟ لماذا لم تستفسري عن سبب وفاته؟".

قلت: "لم أكن أعرف حتى أنه غادر المنزل. لست على علم بحدوث كل هذا".

فقالت: "إنك لا تبكين".

"وأنت أيضاً يا جدتي".

فقالت لي: "إن أمك مفطورة الفؤاد. لا بد أن جدك كان يشعر بدنو أجله. فقد قالوا لنا إنه كان مريضاً جداً. إذاً، لا بد أنه عرف الحقيقة قبل أن يسافر، أو أخبر شخصاً ما. هل أخبرك شيئاً؟".

قلت لها بقناعة كنت آمل أن تصدقها: "لو كان يعرف شيئاً لما ذهب إلى أي مكان وهو في تلك الحالة، فهو يتمتع بالقدر الكافي من الوعي بحيث لا يقوم بمخاطرة كتلك". وجدت بعض المناشف البيضاء مرتبة بأناقة على رف معدني فوق المرآة، فمسحت وجهي وعنقي بمنشفة منها. ووجدتها قد تلطخت ببقع رمادية، فأخذت منشفة تلو أخرى إلى أن استخدمت خمس مناشف. لم أجد سلة غسيل لأضعها فيها، لذا تركتها على المغسلة. قلت: "أين عثروا عليه؟ إلى أي مسافة وصل في

سفره؟".

قالت لي: "لست أدري. لم يخبرونا شيئاً. إنه في مكان ما على الجانب الآخر من الحدود".

قلت: "إنها ربما عيادة تخصصية".

"لقد كان في طريقه للقائك".

"هل ترك رسالة؟".

لكن جدي لم يترك أي رسالة. فأدركت أن كُلاً من أمي وجدتي اعتبرتا مغادرته على الأرجح مظهراً من مظاهر رفضه للتقاعد؛ كإصراره على معاينة مريضه الجديد حبيس الفراش خارج المدينة، وهو مريض اختلقناه كذريعة ليتمكن من زيارة أحد أصدقائه القدامى في غداء الأطباء الأسبوعي؛ حيث اعتاد أن يعطيه حقناً من تركيبة جديدة يفترض أنها تساعد على تسكين الألم، ولكنه قال بعد أن عاد إلى البيت إنها مجرد تركيبات ملونة - وكأنه يظن أنها ليست إلا مجرد ماء ممزوج بملونات الطعام - وإنه لم يعد يكترث بعد الآن. حافظ جدي بطريقة ما على مظهره الصحي، وهذا ما جعل إخفاء حقيقة مرضه مهمة أكثر سهولة. ولكن، بعد أن رأيته ذات مرة يعود من إحدى تلك الجلسات، هددته بأن أخبر أمي. فقال: "إياك أن تجرؤي على ذلك". وهكذا، فقد التزمت الصمت.

سألتني جدتي قائلة: "هل وصلت إلى بريجيفينا؟".

فقلت: "إننا على الحدود. لقد وصلنا لتونا على متن المركب".

بدأ رتل السيارات في الخارج يتحرك مجدّداً. فرأيت زورا تلقي سيجارتها على الأرض وتدخل ساقها وتغلق باب السيارة. وشرع حشد المسافرين بالعودة إلى سياراتهم باهتياج. وكانوا قبل ذلك واقفين على الرصيف ليرخوا عضلاتهم ويدخنوا، أو ليتفقدوا إطاراتهم، أو ليملأوا قوارير المياه من النافورة، أو ليتأملوا الرتل بنفاد صبر، أو ليتخلصوا من

المعجنات والشطائر التي كانوا يحاولون تهريبها، أو ليقضوا حاجتهم على جدار الحمام الخارجي.

التزمت جدتي الصمت للحظات. فسمعت صوت تكتكة، ثم قالت جدتي: "تريد أمك أن تقيم الجنازة في الأيام القليلة القادمة. ألا يمكن لزورا أن تذهب إلى بريجيفينا بمفردها؟".

لو أنني أخبرت زورا بالأمر، لطلبت مني أن أعود إلى البيت على الفور، ولأعطتني سيارتها وأخذت علب التبريد التي تحوي اللقاحات، وركبت متطفلة عبر الحدود لتوصل اللقاحات المقدّمة من الجامعة إلى دار أيتام بريجيفينا في الساحل كمبادرة حسن نية. ولكنني قلت لجدتي: "لقد شارفنا على الوصول يا جدتي. هناك الكثير من الأطفال ينتظرون هذه الحقن".

لم تلح عليّ بالطلب، بل أخبرتني بموعد الجنازة ومكانها على الرغم من أنني عرفت سلفاً أنها ستقام في تل سترمينا المطل على المدينة حيث دفنت جدتي الكبرى الأم فيرا. بعد أن أنهت جدتي المكالمة، فتحت الصنبور بمرفقي وملأت قوارير المياه التي أحضرتها معي كذريعة للترجل من السيارة. غسلت قدمي على الحصى في الخارج قبل أن أنتعل حذائي. تركت زورا محرك السيارة قيد العمل، وقفزت إلى مقعد الراكب بينما جلست على مقعد السائق، وقرّبتُ الكرسي إلى الأمام ليناسب طولي. وحرصت على وضع رخصتينا، ووثائق استيرادنا للأدوية بالترتيب الصحيح على لوحة السيارة. كانت هناك سيارتان أمامنا. رأينا ضابطَ جمارك مرتدياً قميصاً أخضر ملتصقاً بجسمه وهو يفتح صندوق سيارة زوجين عجوزين ويفتشه بعناية، ثم يفتح الحقائب بيديه المكسوتين بقفازين.

عندما عدت إلى السيارة، لم أخبر زورا شيئاً عن جدي. إذ يكفيها ما مررنا به من كآبة وإحباط في السنة الفائتة عندما ارتكبتُ خطأ

بالمشاركة في إضراب الممرضات في شهر كانون الثاني. فتمت مكافأة جهودي بتعليق عملي لوقت غير محدد في عيادة فوجفودجا، وبقيت حبيسة المنزل لعدة أشهر. ولكن، ربَّ ضارة نافعة. إذ أتاح لي هذا فرصة التواجد إلى جانب جدي عندما تم تشخيص مرضه. سر جدي كثيراً في بادئ الأمر، ولكنه لم يفوت الفرصة ليوبخني وينعتني بالحمقاء لأنني عرّضت نفسي لتعليق العمل. وعلى الرغم من تدهور حالته، فقد أصبح يمضي وقتاً طويلاً خارج البيت. واقترح عليّ أن أفعل الشيء نفسه. إذ لم يكن يريدني أن أتسكع في الأنحاء بكآبة، وأحوم قرب سريره في منتصف الليل وأجعله يستيقظ فزعاً. وقال لي إن تصرفاتي تفضح حقيقة مرضه لجدتي، وتثير الشكوك في نفسها بسبب طول صمتنا وأحاديثنا الهامسة وازدياد انشغالنا أكثر من أي وقت مضى؛ على الرغم من أنني ممنوعة من العمل وهو متقاعد. نصحني جدي بالتفكير أيضاً في التخصص الذي أريد أن أختاره لمهنتي المستقبلية، وفي ما أنوي أن أفعله حالما يُسمح لي بالعمل مجدّداً. ولم يندهش عندما عرف أن أستاذ هندسة الكيمياء الحيوية سردجان - الذي لم أكن على وفاق معه - قد رفض أن يدلي بتزكية تفيدني في لجنة تعليق العمل. عدت للتطوع، بناء على اقتراح جدي، في برنامج العيادات المتحدة في الجامعة؛ وهو شيء لم أقم به منذ أن وضعت الحرب أوزارها.

أرادت زورا أن تستغل هذه المهمة التطوعية كعذر للتهرب من شجار تورطت فيه في الأكاديمية العسكرية للطب. إذ بعد مضي أربع سنوات على حصولها على درجتها الجامعية بالطب، ظلت تتدرب في قسم الإصابات على أمل أن يساعدها التعامل مع نوعيات كثيرة من الإجراءات الجراحية على اختيار تخصص ما. ولسوء الحظ، فقد أمضت معظم وقتها تحت إمرة مدير قسم إصابات يُعرف في أنحاء المدينة باسم آيرونغلوف (القفاز الحديدي)، وهو اسم اكتسبه خلال الأيام

التي أمضاها كرئيس لقسم التوليد، بسبب السوارين الفضيين اللذين اعتاد أن يحتفظ بهما حول معصميه خلال الفحص النسائي. تسببت أربع سنوات أمضتها زورا وهي على احتكاك مباشر مع آيرونغلوف في تأجج حادثة تعرّضت لها لاحقاً، ولكنها مُنعت من مناقشتها بناءً على توجيه من المدعي العام. فالتزمت زورا الكتمان حول الموضوع حتى معي أنا، ولكن النزر اليسير الذي سمعته في أنحاء ممرات المستشفى تلخَّصَ حول عامل في السكة الحديدية وحادثٍ تعرض له وعملية بتر قال خلالها آيرونغلوف - الذي ربما كان ثملاً حينئذ - شيئاً مثل: "لا تقلق يا سيدي، فمن الأسهل أن ترى إصبعك الثانية تبتر إن كنت تعض على الأولى".

نتيجة لذلك، تم رفع دعوى قضائية ضد الطبيب. واستدعيت زورا للشهادة ضد آيرونغلوف. وعلى الرغم من سمعة ذلك الطبيب السيئة، فقد كان يتمتع بعلاقات جيدة في المجتمع الطبي. فأصبحت زورا حائرة بين الالتزام بالتدريب مع رجل احتقرته لسنوات، وبين المخاطرة بمهنتها وسمعتها الطبية التي بدأت للتوّ تبنيها لنفسها. وللمرة الأولى، لم أستطع أنا أو حتى والدها أو صديقها المقرب من توجيهها إلى الاتجاه الصحيح. وأمضينا أسبوعاً ونحن نتنقل بين مقرات العيادات المتحدة من أجل الحصول على معلوماتنا وتدريبنا. وطوال هذا الوقت، تعاملت زورا مع كل من فضولي ومكالمات المدعي العام المستمرة بالصمت المطبق نفسه. فاعترفت لي البارحة، وعلى الرغم من كل ما جرى، أنها تريد طلب النصيحة من جدي حالما نعود إلى المدينة، ولكنها لم تكن قد رأته في أنحاء المستشفى خلال الشهر الماضي، ولم تر وجهه الشاحب، وكيف بدأ الجلد الذي يغطي عظامه يصبح متهدلاً ومرتخياً.

شاهدنا ضابط الجمارك يصادر مرطبانين من حصى الشاطئ من

الزوجين المسنين، ويلوح للسيارة التالية لتتقدم إلى الأمام. وعندما وصل دورنا، استغرق الضابط عشرين دقيقة وهو يتفحص جوازي سفرنا، وبطاقتي الهوية، ورخصتينا الجامعيتين. وفتح علب التبريد الطبية وصفها على الطريق المعبد بينما وقفت زورا أمامه ويداها مشبوكتان أمام صدرها باستياء وقالت: "إنك تدرك بالطبع أن وضع الأدوية في علب تبريد يعني أنها حساسة حيال تقلب درجات الحرارة. أم إنك لم تتلقَّ أي معلومات عن التبريد في مدرسة القرية!؟". كانت تدرك أن كل شيء خاضع للنظام، وأن الضابط لا يستطيع أن يمسنا بسوء. ومع ذلك، فقد دفعه هذا التحدي إلى تفتيش السيارة بحثاً عن الأسلحة والمسافرين المختبئين والمحار والحيوانات الأليفة غير المرخصة لمدة ثلاثين دقيقة أخرى.

قبيل اندلاع الحرب قبل اثنتي عشرة سنة، كان شعب بريجيفينا شعبنا. وكان التفتيش عند الحدود مجرد إجراء شكلي سخيف نضطر إلى القيام به بين الحين والآخر. فاعتدنا أن نستقل السيارة أو نركب الطائرة لنعبر الحدود كما نشاء عبر الغابات أو النهر أو السهول. واعتدنا أن نقدم لموظفي الجمارك الشطائر ومرطبانات الفلفل المخلل في أثناء سير الإجراءات. فلم يكن أحد منهم يسألنا عن أسمائنا، ولكن تبين لنا لاحقاً أن القلق اعتاد أن يتملكهم طوال الوقت حيال بداية أسمائنا ونهايتها. كان من المقرر لبعثتنا إلى بريجيفينا أن تعيد بناء شيء مما هدمته الحرب. فقد أرادت جامعتنا أن تتعاون مع الحكومة المحلية في مساعدة عدة دور أيتام على النهوض، وأن تبدأ في جذب اليافعين من الجانب الآخر للحدود للعودة إلى المدينة. كان هذا هو الهدف الدبلوماسي طويل الأمد لرحلتنا. ولكن بعبارة أكثر بساطة، لقد انطلقت وزورا إلى هناك لنساعد الأطفال الذين تعرضوا لليتم على يد جنودنا، ولنفحصهم بهدف تشخيص مرض الالتهاب الرئوي

والسـل والقمـل، ولنلقحهم ضـد الحصبة والنـكاف والحصبة الألمانية وأمـراض شـتى أصيبـوا بها خلال الحرب وسـنوات الفقـر والعوز التي تلتهـا. كان الشـخص الـذي نعرفه هناك، وهو رجل دين فرانسيسـكاني يدعى أنطون، رجلاً متحمساً ومضيافاً. فقد ظل يتواصل معنا عن طريق جهـاز البيجـر ليحـرص علـى أن تمضي رحلتنا بسلاسـة ومن دون أي معوقـات، وليطمْئِننـا بـأن والديه - اللذين يعيشـان حياة مريحة إلى حدٍّ ما - متلهفان لاستقبالنا. ولطالما بدا صوته مفعماً بالبهجة والتفاؤل ولا سيما بالنسبة إلى رجل أمضى السنوات الثلاث المنصرمة من حياته وهو يبذل قصارى جهده ليموِّل المؤسسة ويبني أول دار رسمية للأيتام على الساحل، وهو في غِضون ذلك يأوي ستين طفلاً يتيماً في معتزل مجهز لإيواء عشرين رجل دين.

أردت وزورا أن نقـوم برحلـة هادفـة أخيـرة قبـل أن تفرقنـا الحيـاة للمرة الأولى منذ أن عرفنا بعضنا قبل ثمانية وعشـرين عاماً. اعتدنا أن نرتدي زي الأطباء الأبيض حتى خارج سـاعات الدوام لنبدو جديرتين بالثقة ومربكتين في آن معاً. وكان هذا سيضفي علينا مظهراً مؤثراً عندما نحمـل علـب التبريـد الأربع المليئة بقوارير اللقاحات، وعلبَ السـكاكر لنحول دون بكاء الأطفال؛ الأمر الذي سيحدث لا محالة حالما تدخل إبر اللقاح أجسـادهم. أخذنا معنا خريطة قديمة احتفظنا بها في السـيارة طيلة سـنوات؛ مع أنها لم تعد دقيقة قطّ. ومع ذلك، فقد اسـتعنا بتلك الخريطـة فـي كل رحلـة قمنـا بهـا علـى الإطلاق. وبدا ذلـك ظاهراً في خربشـات القلـم التـي ملأتهـا، والمناطق المحذوفة التـي يفترض بنا أن نتجنبهـا فـي طريقنـا إلى مؤتمر طبي، أو الرسـم غير المتقن الذي يظهر رجـلاً يتزلـج فـي المنتجـع الجبلي الذي كنا نحبه ولكنه لم يعد يشـكل جزءاً من بلادنا.

لـم تكـن جريفكـوف - المكان الذي توفـي فيه جدي - موجودة

علـى الخريطـة، وكذلك بريجيفينا، ولكننا أدركنا مسـبقاً أنه سـيتوجب علينا البحث عنها، ولهذا فقد رسـمناها عليها. وكانت عبارة عن قرية سـاحلية صغيـرة تبعـد أربعين كيلومتراً شـرق الحـدود الجديدة. عبرنا بالسـيارة قـرى تهيمـن عليها البيوت ذات السـقوف الحمراء المنتشـرة على طول الخط الساحلي، ومررنا بدور عبادة، ومراع للجياد، وسهول واسـعة تتوهـج بلون الزهـور الأرجوانية. ورأينا شـلالاتٍ مياهُها براقة تعكس أشعة الشمس وتتدفق على الصخور الحادة المواجهة للطريق. وعبرنـا بيـن الحيـن والآخـر غابـات مليئة بأشـجار الصنوبـر والزيتون والسـرو. ولاح البحر من بعيد لامعاً كنصل السـكين. كانت أجزاء من الطريق مرصوفة جيداً، ولكننا مررنا بأجزاء أخرى مليئة بالأخاديد التي تركتها العجلات، وبمسـاحات مليئة بالحصى، ولم يتم إصلاحها منذ سنوات.

أخـذت السـيارة تقفـز إلى الأعلى والأسـفل بسـبب الأخاديد على جانب الطريق. فاستطعت أن أسمع صوت الزجاجات في علب التبريد وهـي تصطـدم ببعضهـا. وعندمـا أصبحنا على بعد ثلاثيـن كيلومتراً من بريجيفينـا، بدأنـا نـرى المزيـد من المظاهـر المألوفة كالفنـادق الصغيرة والمطاعـم والأماكـن السـياحية التي بـدأت تدريجياً تعتمـد على الجزر الشـاطئية من أجل كسـب رزقها. وبدأنا نرى أكشـاك الفاكهة، والطعام المحلـي، وكعـك الفلفـل المنزلـي، والشـراب، والعسـل، والفاكهـة المحفوظـة. اكتشـفت أننـي فوتُّ ثلاث إشـارات مـن جدتي على جهاز البيجر. وكانت زورا تحمل هاتفاً خليوياً، ولكنني لم أتمكن من الاتصال بجدتـي بوجودهـا في السـيارة. لذا، توقفنا في موقف الاسـتراحة التالية التـي تحـوي هاتفـاً عمومياً، وكشـكاً لبيع شـطائر اللحم المشـوي على الطريق، وظلة زرقاء، ومرحاضاً خارجياً في الحقل الفارغ.

رأيـت شـاحنة مركونـة قرب كشـك الشـطائر الـذي يتزاحـم أمامه

صف طويل من الجنود. كان الرجال يرتدون ملابس مموهة، ويحملون قبعاتهم بأيديهم، ويلوّحون بها للتخفيف من شدّة الحرّ. لوحوا لي عندما ترجلت من السيارة وتوجهت إلى كشك الهاتف. وضحك لي بعض أطفال الغجر المحليين من خلف الزجاج وهم يوزعون إعلانات لافتتاح ناد ليلي جديد في براك. وبعد ذلك، أسرعوا إلى الجانب الآخر من السيارة ليستجدوا بعض السجائر من زورا.

استطعت أن أرى من داخل الكشك شاحنةَ الجيش المكسوة بقماش مشمع مغبر، وأسياخَ الشواء في كشك بورو، وخلفها يقف رجل ضخم يقلب شرائح البرغر ولحم العجل والنقانق بسكينه. ورأيت خلف الكشك بقرةً بنية غريبة الشكل مربوطة إلى وتدٍ في الأرض. فتملكني شعور مفاجئ بأن صاحب الكشك سيستخدم يوماً ما السكين نفسها لذبح البقرة كما يستخدمها الآن لتقليب البرغر وقطع الخبز، وجعلني هذا أشعر ببعض الأسى على الجندي الذي وقف بجانب نضد التوابل ليفرش البصل المفروم على كامل شطيرته.

لم ألاحظ الصداع الذي أصابني وأنا أقود السيارة، ولكنه باغتني فجأة عندما رفعت جدتي السماعة بعد الرنة السادسة، وتبع ذلك صوت أداة تقوية السمع الحاد والمزعج الذي اخترق خط الهاتف وكاد أن يخترق طبلة أذني، ثم انطلق منها صفيرٌ قصيرٌ خافتٌ عندما شغلتها. سمعت صوت أمي من بعيد، فبدا لي هادئاً ولكنه ممتلئ تصميماً وهي تتحدث إلى شخص ما جاء ليزورها ويقدم تعازيه.

تحدثت جدتي بنبرة عصبية وانفعالية قائلة: "لقد سُرقت أشياؤه".

فطلبت منها أن تهدِّئ من روعها وتشرح لي ما جرى.

قالت: "أشياؤه! أشياء جدك... إنها... لقد ذهبت أمك إلى المشرحة، فوجدت لديهم بذلته ومعطفه وحذاءه، ولكن أشياءه الأخرى قد اختفت يا ناتاليا. إنها ليست بحوزته".

"أي أشياء؟".

"يا الله! أي أشياء؟". وسمعتها تضرب كفاً بكف، ثم قالت: "هل تسمعينني جيداً؟ قلت لك إن أغراضه قد اختفت. لقد سرقها أولئك الأوغاد في العيادة؛ سرقوا قبعته ومظلته ومحفظته. هل تصدقين هذا؟ كيف يجرؤون على سرقة أغراض رجل ميت؟".

ولكن ما حدث لم يفاجئني كثيراً. فقد سمعت قصصاً كثيرة من هذا القبيل في مستشفانا. وكانت تحدث عادة مع الأموات الذين لا يطالب بهم أحد، وغالباً ما تمضي من دون عقاب، ولكنني قلت: "إن الفوضى تعم في بعض الأحيان. لا بد أنها ليست عيادة منظمة جداً يا جدتي، لذا ربما حدث تأخير في إرسال الأغراض، أو نسوا أن يرسلوها".

"لقد سرقوا ساعته يا ناتاليا".

"من فضلك يا جدتي". فكرت في رواية الغابة التي يضعها دائماً في جيب معطفه. فوددت أن أسألها إن كانت مفقودة أيضاً، ولكن جدتي لم تكن قد بكت بعدُ على حدّ علمي. فخشيت أن أتفوه بشيء يدفعها إلى البكاء. ولا بد أنني فكرت في قصة الرجل المُحصّن في تلك اللحظة، ولكن الفكرة ظلت بعيدة عن متناول يدي. فلم أستطع التفكير فيها مجدداً إلى وقت لاحق.

"ساعته!".

قلت لها: "هل تعرفين رقم هاتف العيادة؟ هل اتصلت بهم؟".

قالت: "إنني ما برحت أتصل بهم، ولكن من دون جدوى. لا يوجد أحد هناك. لقد سرقوا أغراضه يا ناتاليا. يا الله! ونظارته أيضاً! لقد اختفت كلها".

ففكرت في نظارته، وتذكرت الطريقة التي اعتاد أن يلمعها بها؛ إذ كان يضع كامل العدسة في فمه لينفخ البخار عليها ثم يمسحها بقطعة القماش الحريرية الصغيرة التي يحتفظ بها في جيبه. فسرت رعشة باردة

في قلبي.

قالـت جدتـي: "أي نـوع مـن الأماكن هو ذلك المـكان الذي مات فيه؟". وبدا صوتها الذي أصبح أجش من شـدة الصراخ موشـكاً على الانهيار.

قلت: "لست أدري يا جدتي. ليتني عرفت قبل أن يرحل".

"لـم تكـن الأمـور لتجري على هذا النحو لو أنكما لم تكذبا عليّ. لطالمـا كنـت أراكمـا تتهامسـان في مـا بينكما. لقد كـذب عليّ وكذلك فعلت أنت". سمعت أمي تحاول أن تأخذ سماعة الهاتف منها، ولكن جدتي قالت: "كلا". شـاهدت زورا تترجل من السـيارة، وتشـد جسـمها ببـطء، ثـم تقفـل البـاب تاركـة علبـة تبريـد علـى الأرض بجانـب باب الراكـب. وكان الأولاد الغجـر متكئيـن على الجزء الخلفي من السـيارة وهم يتبادلون سـيجارة في ما بينهم. سـألت قائلة: "هل أنت واثقة من أنه لم يترك رسـالة؟". فسـألتني جدتي عن نوع الرسـائل الذي أقصده. فقلت لها: "أي رسالة".

قالت: "قلت لك إنني لا أعرف شيئاً".

"ماذا قال قبل أن يغادر؟".

"قال إنه ذاهب لمقابلتك".

حان دوري الآن لتسـاورني الشـكوك ولأقيِّم مقدار ما يعرفه كل شـخص ومـا لا يعرفـه. لقد اعتاد جدي أن يعـوِّل على الثقة المتبادلة، وقلة التواصل، والنمط الذي جمع بيننا كعائلة على مر السنين، وعلى ميلنا للكذب بشأن حالة بعضنا الصحية، ومكان تواجدنا لنحافظ على مشـاعر الآخريـن ونمنـع عنهـم المخاوف. فحين كسـرت أمي سـاقها عندما سقطت عن مرأب بيت البحيرة في فيريموفو، أخبرْنا جدي أننا أجّلنـا رحلـة عودتنـا إلى البيت لأن منزل البحيرة تعرض لطوفان. وفي اليوم الذي أجرت فيه جدتي عملية قلب مفتوح في عيادة ستريكوفاك،

ظللتُ وأمي غافلتين عن الأمر، ونحن نمضي عطلتنا في البندقية. وقد كذب جدي علينا عندما تحدثنا إليه عبر الهاتف مستغلاً فرصة رداءة الخط، وأصر على أنه اصطحب جدتي في رحلة مفاجئة إلى منتجع في لوزيرن.

قلت لجدتي: "أعطيني رقم هاتف تلك العيادة في جريفكوف".

فقالت وهي لا تزال ميالة إلى الشك: "لماذا؟".

قلت: "أعطيني إياه وحسب". أخرجت وصلاً قديماً مجعداً من جيب معطفي وملسته على الزجاج. وكان قلم الرصاص الوحيد الذي أملكه مبرياً حتى عقبه. إن جدي هو من أورثني عادته هذه في استخدام قلم الرصاص نفسه إلى ألا يعود بالإمكان الإمساك به لفرط صغره. دونت الرقم الذي أعطتني إياه جدتي.

رأيت زورا تلوّح لي، وتشير باتجاه بورو وشطائر لحم البقر والحشد الواقف أمام الكشك. فهززت رأسي، ونظرت إليها بيأس وهي تعبر فوق آثار العجلات على الطين، وتقف في الصف خلف جندي ذي عينين زرقاوين لا يتجاوز التاسعة عشرة من عمره. رأيت الفتى يتأملها من فوق إلى تحت بحذر، ثم قالت زورا شيئاً لم أتمكن من سماعه. فوصل هدير الضحك الذي انفجر من الجنود الواقفين أمام الجندي ذي العينين الزرقاوين إلى مسمعيّ في كشك الهاتف. على أي حال، لقد احمرت أذنا الفتى من فرط الخجل، وألقت زورا نظرة رضا نحوي، ثم واصلت الوقوف هناك ويداها مشبوكتان على صدرها وهي تتأمل اللائحة المكتوبة على اللوح فوق رسم لبقرة على رأسها قبعة أرجوانية اللون تبدو شبيهة كثيراً بالبقرة المربوطة في الخلف.

قالت جدتي: "أين أنتما الآن؟".

قلت: "سنصل إلى بريجيفينا بحلول الليل، ثم سنعطي الأطفال الحقن، وسنعود إلى البيت سريعاً. أعدك بأن أحاول العودة إلى البيت

بحلـول بعـد غـد". لـم تقل جدتي شـيئاً. فتابعت قائلة: "سـأتصل بتلك العيادة في جريفكوف. وإن كانت في طريق عودتي إلى البيت، فسأذهب إلى هناك وأحضر أغراض جدي".

قالت أخيراً: "لا أزال غير قادرة على استيعاب كيف أن أحداً منّا لـم يعـرف شـيئاً؟". ولا بـد أنهـا توقعـت مني أن أعترف لهـا بالحقيقة. فقالت: "إنك تكذبين عليّ".

"لا أعرف شيئاً يا جدتي".

أرادت منـي أن أقـول لهـا إننـي لاحظـت الأعـراض عليـه ولكنني تجاهلتهـا، أو إننـي تحدثـت إليـه عـن مرضـه، أو أي شـيء يخفّف من خشـيتها أن يكـون قـد عانى وحده بصمـت وهو مدرك تماماً حقيقة دنو أجله على الرغم من وجودنا حوله.

قالـت: "إذاً، أقسـمي علـى ذلك. هيا، أقسـمي لـي بحياتي إنك لم تعرفي شيئاً".

حـان دوري الآن لألتـزم الصمـت. انتظرت جدتي حتى أقسـم لها. ولكن، عندما لم يصدر مني ذلك القسم قالت: "لا بد أن الطقس حار جداً هناك. هل تشربان الكثير من الماء؟".

"إننا بخير".

توقفـت عـن الكلام قليلاً ثم تابعـت: "إن تناولت لحماً، فاحرصي على ألا يكون وسطه زهري اللون".

قلـت لهـا إننـي أحبهـا، وأنهيت المكالمة من دون أن أضيف شـيئاً آخر. أصغيت إلى صوت الصفير الصادر من السماعة لبضع ثوان أخرى، ثـم اتصلـت بالعيـادة في جريفكوف. يمكن للمرء دائماً أن يميز الأماكن النائية لأنها تسـتغرق وقتاً طويلاً ليتم الاتصال بها. وعندما تم الاتصال فعلاً، بدا الصوت بعيداً ومكتوماً. ولم يجب أحد.

عنـد السـاعة السـابعة والنصف، ظهرت الشـمس المائلـة للغروب

من بعيد تحت ستار من السحب الزرقاء، وبدأت بريجيفينا تلوح في الأفق. انحرفنا عن الطريق الرئيس لنسلك طريق البلدة باتجاه البحر. وجدت هذه البلدة أصغر ممّا كنت أتوقع. فيها ممشى خشبي تحفُّه أشجار النخيل من الجانبين، ويمر ضيقاً بين الشاطئ والمحالّ والمطاعم مفتوحة الأبواب. رأينا كراسي مقاه، وأكشاكاً تبيع بطاقات بريدية في وسط الطريق، وأطفالاً يركبون الدراجات ويلمسون الجزء الخلفي من السيارة بأكفهم المفتوحة. كان الوقت لا يزال مبكراً جداً على بلوغ موسم السياحة أوجَه، ولكنني استطعت أن أسمع من خلال النوافذ المفتوحة اللغة البولندية والإيطالية ونحن نتجول ببطء مروراً بالاستراحة، ومكتب البريد، وساحة المعتزل حيث كنا سنقيم العيادة المجانية من أجل دار الأيتام.

كان رجل الدين أنطون قد دلنا على بيت والديه، فوجدناه مخفياً عن الأنظار داخل بستان مليء بالزهور البيضاء في أقصى البلدة. وبدا منزلاً متواضعاً ومكوناً من طابقين، له نوافذ زرقاء ذات مصاريع، وسقف من ألواح خشبية باهتة، وكان قائماً على قمة جرف طبيعي في سفح جبل يبعد قرابة خمسين ياردة عن البحر. كانت هناك شجرة زيتون كبيرة عليها أرجوحة مكونة من إطار سيارة، وبجانبها خمّ دجاج تهاوى على ما يبدو مرة واحدة على الأقل خلال السنوات القليلة الماضية ثم تم تجميعه بشكل عشوائي، ونصبه على الجدار الحجري المنخفض الممتد على طول الجهة الجنوبية من البيت. أخذت بضع دجاجات تحوم حول الباب، بينما جثم الديك على أحد الأصص الموضوعة قرب النافذة في الطابق السفلي. بدا المكان مهملاً ولكنه صالح للسكن. ودل مظهر الطلاء الأزرق العالق على المصاريع، والباب، والأصيص المكسور المليء بأزهار الخزامى على العزيمة والإصرار. كان والد رجل الدين أنطون، واسمه إيفان، صياد

أسـماك محليًـا. وفـي اللحظة التـي وصلنا فيها إلى قمة الدرج المؤدي إلـى البيـت، رأينـاه يحث الخطى عبـر الحديقة ليرحب بنا. كان مرتدياً سـروالاً بحمالتين ورداء رجل دين أحمر فاقعاً لا بد أنه كلف زوجته ثـروة، ومنتعـلاً صنـدلاً. وكان يمشـي إلـى جانبه كلـب أبيض من نوع كلاب الصيد له رأس مربع أسود، وعينان كبيرتان، وملامح تظهر تعبيراً مندهشاً وساذجاً.

قال رجل الدين إيفان: "ها قد أتت الطبيبتان! أهلاً وسهلاً بكما". تقدم نحونا، وحاول أن يأخذ حاجياتنا كلها دفعة واحدة. وبعد شيء من الصد والرد، تمكنا من إقناعه بالاكتفاء بحقيبة زورا التي راح يدحرجها على الممر المرصوف بالحصى بين الشـجيرات والورود. وجدنا زوجة رجل الدين إيفان، واسمها نادا، منتظرة بجانب الباب وهي تدخن. وكان شـعرها أشـيب خفيفاً، فيما امتدت على عنقها وذراعيها عروق خضراء. قبلـت وجهينـا بحركـة روتينية، ثم اعتـذرت عن حالة الفوضى التي تعم الحديقة، قبل أن تطفئ سيجارتها وتدعونا للدخول.

وجدنا البيت في الداخل هادئاً ودافئاً ومضيئاً على الرغم من حلول المساء. وكان الممر الذي تركنا فيه أحذيتنا يطل على غرفة معيشة صغيرة مفروشـة بكراسٍ ذات وسـائد زرقاء، وأريكة من الواضح أن فرشـها لم ينجـد منـذ وقـت طويـل. اعتقدنا أن أحد سـكان المنزل يهوى الرسـم. فقـد شـاهدنا بجانـب النافذة حامل لوحـات عليه لوحة غير منتهية تظهر مخلوقـاً أشـبه بكلـب الصيـد، وأوراق صحـف ملطخة بالطلاء منشـورة على الأرض. وكانت الجدران مليئة بلوحات مرسـومة بالألوان المائية. فلاحظت على الفور أنها جميعها تظهر الكلب الجميل المضحك نفسه ذا الرأس الأسود الذي رأيناه خارج المنزل. وعلى الرغم من أنهم فتحوا جميع النوافذ إلا أن حرارة الخارج تسربت إلينا، ووصلت إلى مسامعنا أغنيـة الجداجـد المسـائية الإيقاعية. دعتنا نادا لدخـول المطبخ وهي لا

تزال تعتذر لنا عن الفوضى التي تعم المكان، بينما استغل إيفان الفرصة ليستولي على كل الأمتعة. فأخذ حقيبة زورا ومعدات التخييم الخاصة بي وحقيبتي الظهر، وانطلق صاعداً الدرج في آخر القاعة. أدخلتنا نادا المطبخ، ودلتنا على مكان حفظ الأطباق والكؤوس، وأخبرتنا عن مكان علبة الخبز، وفتحت الثلاجة وأشارت إلى الحليب والعصير والكمثرى واللحم وطلبت منا أن نأخذ منها ما نريده في كل الأوقات، وحتى الكولا.

فوجئنا بوجود ببغاء أحمر وأصفر جاثم في قفص معدني تحت نافذة المطبخ، وبلوحة أخرى بالألوان المائية للكلب ذي الرأس الأسود. وعندما دخلنا المطبخ، راح الببغاء ينظر إلى زورا بريبة. واستغل تلك اللحظة، وصرخ قائلاً: "يا الله! انظروا إلى هذه الروعة!". فعزونا تصرفه في أول الأمر إلى رد فعل ناجم عن رؤيته عنق زورا وذراعيها، ولكن نادا اعتذرت بشدة، وألقت منشفة صحون على قفص الببغاء.

قالت نادا: "إنه يحب أن يلقي الشعر". فأدركنا أن الببغاء كان يهم بإلقاء مقدمة قصيدة ملحمية قديمة. قالت نادا: "لقد حاولت أن أعلمه قول أشياء مثل: صباح الخير وأريد بعض الخبز والزبدة".

رافقتنا نادا لرؤية الطابق العلوي. فكنت وزورا سنقيم معاً في غرفة واحدة مزودة بسريرين متنقلين، عليهما لحافان أزرقان صوفيان مزركشان، وبطاولة زينة من الخشب المصقول لها بضعة أدراج مكسورة، بالإضافة إلى حمام صغير فيه حوض استحمام قديم الطراز ومرحاض. وحذرتنا نادا من أنه قد لا يحوي ماء جارياً في بعض أوقات النهار. رأينا المزيد من الرسومات للكلب، واسمه بيس، يظهر في بعضها واقفاً تحت شجرة التين، وفي البعض الآخر نائماً على الأريكة في الطابق السفلي. كانت نافذتنا تطل على الباحة الخلفية للبناء التي تحوي أشجار برتقال وليمون ترتعش أوراقها عندما يهب النسيم. رأينا خلفها سهلاً منحدراً

في سـفح الجبل عليه صفوف من الكروم المنخفضة بفعل الرياح. كما رأينـا مجموعـة من الرجال الذين يحفرون حولها، واسـتطعنا أن نسـمع ضجيج أدواتهم وأصواتهم وهم ينادون بعضهم.

قالـت نـادا: "إنهـا كرومنا، ولكـن لا تكترثا لأمر أولئـك الرجال". وأغلقت أحد مصراعي النافذة.

بحلول الوقت الذي أحضرنا فيه علب التبريد والصناديق من السيارة وصففناها في زاوية غرفتنا، وجدنا العشاء جاهزاً. فقد أعدت نادا بعض أسـماك السـردين المقلية، وحبّارين، وأسـماكاً مشـوية كبيرة يبلغ حجم السمكة منها حجم رأس رجل. ولهذا، لم يعد أمامنا خيار سوى أن نقبل حسن ضيافتها شاكرتين، وتحلّقنا جميعاً حول الطاولة في المطبخ. صب لنـا إيفـان فنجانين من الشـراب المنزلي بينمـا راح الببغاء، وهو لا يزال مغطى بمنشفة الصحون، يصيح بين الحين والآخر قائلاً: "آه! أتسمعون الرعد؟ هل تهتز الأرض؟". وبعد ذلك، أجاب عن سؤاله بنفسه فقال: "كلا! إنه ليس رعداً! الأرض لا تهتز!".

قدمت لنا نادا الخبز الأسـمر، والفلفل الأخضر المقطع، والبطاطا المسلوقة مع الشمندر والثوم. بذلت جهداً جباراً، ورتبت الطعام بعناية على طبق خزفي أزرق مكسور يبدو ملمعاً بشكل جميل بعد أن مضت عليه سـنوات على الأرجح في القبو بعيداً عن أنظار الناهبين. اسـتمتعنا بهبوب نسيم المساء البارد القادم من البحر من الشرفة السفلى، وبمنظر أسـماك السـردين المملحة المكومة، وسـمكتي القاروص المسـفوعتين اللتيـن تلمعـان بفضـل زيـت الزيتـون. قـال إيفـان: "إن هـذا الزيت من أشجارنا". وأمال الزجاجة لكي أشم رائحتها. فتصورته جالساً في وقت مبكـر مـن اليوم في زورق يمخـر عباب مياه الخليج المتدفقة، وتخيلت شكل الشبكة الرقيقة التي يسحبها بين يديه، والجهد الذي يبذله ليخرج منها الأسماك بيديه السمراوين الضخمتين.

لم يسألنا إيفان ونادا عن رحلتنا، أو عملنا، أو عائلتينا. وبدلاً من ذلك، ولكي نتجنب أي خلافات دينية أو سياسية محتملة، فقد تحول مجرى الحديث بيننا إلى المحاصيل الزراعية. فحدثانا عن فصل الربيع المنصرم الشاق الذي اتسم بالأمطار الغزيرة، وبتدفق مياه الجداول، والفيضانات التي جرفت التربة في أدنى الساحل وأقصاه، وأتلفت نبات الخس والبصل، وعن الطماطم التي أثمرت في وقت متأخر، وعن ندرة نبات السبانخ. تذكرت جدي عندما عاد ذات مرة من السوق وبحوزته أوراق من نبات الطرخشقون باعه المزارع إياها على أنها سبانخ. وتذكرت صورة جدتي وهي تدهن العجينة الرقيقة بالزبدة لتعد الطعام، ثم تخرج كتلة الأوراق الخشنة التي أحضرها إلى البيت من حقيبة التسوق، وتصيح قائلة: "ما هذا الذي أحضرته؟". إنها أول مرة أفكر فيها بجدي منذ بضع ساعات. فأحيت تلك الذكرى حزناً دفيناً في داخلي؛ حتى إنني لم أعد أقوى على الكلام. وأصغيت بلا انتباه إلى حديث إيفان الذي راح يصر على أن محصول صيف ذلك العام أتى مدهشاً جداً خلافاً لتوقعاته. فقد أثمرت أشجار البرتقال والحمضيات وأنتجت محصولاً وفيراً، وانتشر نبات الفراولة في كل مكان، ونضجت ثمار التين وكبرت. قالت زورا: "إنني أحب التين كثيراً".

تناولنا معظم اللحم الموجود في أسماكنا، واحتسينا كؤوس الشراب بتهور. وحاولنا أن نساعد الببغاء على تذكر أبيات الشعر، ثم اتضح لنا أنه يحفظها عن ظهر قلب أكثر منا جميعاً. وعندئذ ظهرت طفلة ضئيلة الحجم لدرجة أنني ظننت أن أحداً منا لم يكن ليلاحظ وجودها لو لم تدخل وهي تسعل بشدة وبصوت مرتفع حيث إن جسدها راح يهتز بعنف وهي تقف على الشرفة. وبعد ذلك، دخلت المطبخ. لاحظت بطنها الصغير المستدير وهي واقفة عند المدخل منتعلة فردتي حذاء غير متطابقتين، ورأسها المغطى بخصلات شعرها البني المجعد المتشابك.

بـدا أن الفتـاة لا تتجـاوز الخامسـة أو السادسـة مـن عمرها. رأيتها تتكئ بإحدى يديها على إطار الباب، ويدها الأخرى مدسوسة في جيب فسـتانها الصيفي الأصفر. وتأملت مظهرها المشـعث وعينيها المنهكتين. جعـل دخولهـا الهـدوء يخيـم علـى المـكان. ولهذا، عندما سـعلت مرة أخرى، كنا جميعاً ننظر إليها، ثم وضعت إحدى أصابعها في أذنها.

قلت: "مرحباً. من أنت؟".

فبادرت نادا بالرد قائلة: "الله وحده يدري". ثم وقفت وبدأت بإزالة الأطباق وتابعت قائلة: "إنها ابنة أحد العمال الذين يعملون على الحفر هنـاك فـي الكـرم". لـم أكـن قد أدركت حتى تلـك اللحظة أنهم يقيمون هنـاك أيضـاً. دنـت نادا مـن الفتاة الصغيرة وقالت بصـوت مرتفع: "أين أمـك؟". وعندمـا التزمـت الطفلـة الصمت، قالت نـادا: "ادخلي وخذي بسكويتة".

اتـكأ إيفـان على كرسـيه، ومد يده إلـى الخزانة خلفه، وأخرج علبة معدنيـة تحـوي بعـض قطع البسـكويت، ثم فتح الغطـاء وقدمها للطفلة، ولكنهـا لـم تحرك سـاكناً. ابتعدت نـادا عن حوض الجلي، وحاولت أن تقدم لها كأساً من عصير الليمون، ولكن الطفلة أبت أن تدخل. لاحظت وجود كيس بنفسجي اللون مربوط حول عنقها بشريط مهترئ. وراحت الطفلـة تؤرجحـه بيدهـا الحرة وتصيب وجههـا بين الحين والآخر وهي تحـاول أن تمنـع المخـاط مـن السيلان من أنفها. سـمعنا مـن الخارج أصوات الرجال الخشنة وهم عائدون من الكرم، وصوت صليل أدواتهم الزراعية عندما ألقوا بها على الأرض، ووقع أقدامهم على ساحة الدرج. بدأوا يحضرون عشاءهم في الخارج على الطاولة تحت شجرة الزيتون الكبيرة. قالت نادا: "من الأفضل أن ننهي تنظيف مائدتنا". وبدأت تجمع أدوات المائـدة. فحاولـت زورا أن تقـف وتسـاعدها، ولكـن نادا دفعتها برفق لتعود للجلوس على كرسـيها. أثار الاجتماع الحاصل في الخارج

انتبـاه بيـس، فاندفع إلـى الخارج وأذناه تتمايلان بطريقة مضحكة، وراح يشمّ الطفلة التي تقف عند مدخل الباب بلا اهتمام، ثم لفت شيء آخر في الحديقة انتباهه فتركها.

كان إيفان لا يزال يمسك علبة البسكويت عندما مرت شابة نحيلة بجانـب البـاب، وجذبـت الطفلة بين ذراعيهـا. فتوجهت نادا إلى الباب، ونظرت منه إلى الخارج، ثم التفتت وقالت: "لا ينبغي أن يبقوا هنا".

أفضـى إيفـان لـزورا قائلاً: "ليسـت الحلوى مفيدة كثيـراً للأطفال. فهذه العادة السـيئة؛ أقصد تناول الحلوى قبل العشـاء، تؤذي أسـنانهم. ولكن، ماذا يفترض بنا أن نفعل غير ذلك؟ لا يمكننا أن نأكل كل هذه الحلوى وحدنا".

قالت نادا وهي تكدس الأطباق المتسخة على حافة حوض الجلي: "من السخف أن ندعهم يبقون هنا".

قرب إيفان العلبة مني وقال: "في الماضي، كنت أسـتطيع أن آكل كعكة مكسـرات كاملة وحدي وأنا أسـتريح في فترة بعد الظهر. ولكن، الآن، أمرنـي طبيبـي بـأن أتوخـى الحذر، وقال لي إنني أتقدم في السـن ويجب عليّ أن أبذل المزيد من الاهتمام بصحتي".

قالت نادا: "لقد قلت إن هذا قد يحدث، أليس كذلك؟". وراحت تسكب بقايا البطاطا والشمندر في طبق ووضعته على الأرض. وتابعت قائلة: "مر يومان، ثم ثلاثة أيام، ثم أسبوع وهم يتجولون داخل المنزل وخارجه طوال ساعات الليل ويسعلون على ملاءاتي".

قال إيفان: "لقد بدأوا يسـنون شـتى القواعد لحياتي الآن: لا تأكل الزبدة، ولا تحتسِ الشراب، وتناول هذا القدر من الفاكهة والخضراوات كل يوم". ومد يديه في الهواء ليشير إلى حجم برميل صغير.

قالـت نـادا هـذه المـرة بصـوت مرتفـع: "إن كل واحد منهم أشـد مرضاً من الآخر". وانحنت باتجاه الباب لتسـمعهم كلامها وهي تقول:

"ينبغـي لهـؤلاء الأطفـال أن يكونـوا في المدرسـة أو في المستشـفى أو بصحبة الناس الذين يستطيعون أن يتحملوا نفقات ذهابهم إلى المدرسة والمستشفى".

قـال إيفـان: "قلت للطبيب: أصغِ إلـيّ! إنني آكل الخضراوات، لذا لا تخبرني شـيئاً عنها. فأنت تشـتريها من السـوق وأنا أزرعها في حديقة بيتـي". مـدّ إيفـان يديـه وأخـذ يعد على أصابعه أنـواع الخضراوات التي يزرعها مثل الطماطم والفلفل والخس والبصل الأخضر والكراث. وتابع قائلاً: "إنني رجل يعرف الخضراوات حق المعرفة، ولكنني أيضاً أكلت الخبـز طيلـة أيـام حياتـي، وكذلـك فعل والـدي. لقد اعتاد أن يحتسـي الشـراب مـع كل الوجبـات. أتعرفيـن ما يقوله طبيبي؟". فهززت رأسـي وأنا أثبت ابتسامة مصطنعة على وجهي.

قالـت نـادا: "لقـد قلت لـك ولأنطون إنني لا أريدهـم هنا. والآن، أتت الطبيبتان وهم لا يزالون هنا يفعلون ما لا يعلمه إلا الله، ويقلبون كل الكرم رأساً على عقب. إن هذا غير لائق".

"يقول إن هذا سيساعدني على العيش مدة أطول. أصغي إلى هذا الهراء! يا الله! هل يحسبني أريد أن أطيل عمري؟".

قالـت نـادا وهـي تلمس كتـف زورا: "قولي لي إن هذا ليس خطراً أيتها الطبيبة. إنهم عشرة أشخاص ينامون في غرفتين، كل خمسة منهم على سرير واحد، وهم جميعاً شديدو المرض".

"لماذا قد أود أن أعيش حياة طويلة إن كنت سأمضيها بأكل الأرز وهذا... ماذا تسمونه؟ الخوخ المجفف".

"إنني لا أقول إن جميع سـكان الشـمال ينامون بهذا الشـكل، أي خمسة أشخاص على سرير واحد. لست أقول هذا على الإطلاق".

"ليذهب خوخك المجفف إلى الجحيم".

سـألتنا نـادا نحـن الاثنتيـن معـاً وهي تمسـح يديهـا بمئزرها: "هل

سمعتما قط عن وضع كهذا؟ هل سمعتما؟".

قالت زورا لتجاملها: "كلا".

فقالت نادا مجدداً: "إنه ليس صواباً. وماذا عن تلك الأكياس التي تفوح رائحتها الكريهة إلى آخر الدنيا. من سمع عن شيء كهذا؟ ليس لدى الكاثوليكيين أو المسلمين شيء من هذا القبيل".

فأدار إيفان كرسيه لينظر إليها وملامحه تتسم بالجدية، وقال: "ومع ذلك، فإن هؤلاء الناس أحرار. وليس من شأننا التدخل بأمورهم الخاصة. إنهم يقيمون هنا ويدفعون أجرة الإقامة، لذا لا يهمني أي شيء آخر".

قالت نادا: "إن هذا منزلي، وذاك كرمي".

فقال إيفان بقلق: "إن المشكلة الحقيقية تكمن في حالة الأطفال؛ لأن المرض يهد أجسادهم وحالتهم تزداد سوءاً". أغلق غطاء علبة البسكويت، وأعاد وضعها على الرف، وقال: "لقد قيل لي إنهم لم يزوروا طبيباً قط، ولكنني لست متأكداً من صحة هذا الكلام". تغير تعبير ووجهه وهو يربت على عنقه قائلاً: "إن الأكياس بالتأكيد لا تساعدهم في حالتهم الصحية هذه، كما أنها قذرة".

قالت نادا: "قذرة جداً".

كانا ربما سيستمران على هذا المنوال لو لم يدخل أحد الحفارين، وهو صبي بني الشعر سفعت أشعة الشمس وجهه، ويبلغ الثالثة عشرة من عمره تقريباً، ليطلب بعض الحليب بخجل. فخفف وجوده من سخط نادا لدرجة أنها لم تعاود فتح الحديث مجدداً حتى بعد أن غادر.

في وقت لاحق، وعندما صعدنا إلى الطابق العلوي، شاطرتني زورا رأيي بأن كلاً من إيفان وزوجته عاجزان بشكل واضح عن اتخاذ قرار بالإفصاح عن مخاوفهما الحقيقية حيال الحفارين، ولكننا اكتشفنا أن هناك مسائل أكثر إلحاحاً في الوقت الحاضر. فقد وجدنا مياه المرحاض

مقطوعـة، ومياه المغسـلة باردة، والسـخان معطـلاً، ولكن زورا غامرت بالاستحمام لأنها ليست من النوع الذي يثنيه شيء عن ذلك. وقفتُ أمام النافذة بينما راحت زورا تولول تحت المياه الباردة. لم أعد أستطيع أن أرى الكروم جيداً من بعيد، ولكنني سمعت صوت صليل الأدوات وهي تسـتأنف الحفـر مجـدّداً وأصـوات العمال المرتفعة كأصـوات الأطفال. وراحـت الجداجـد تغنـي مـن حيـث تقـف علـى شـجيرة الدفلى تحت النافذة، وطيور السـنونو تحوم عالياً في دوائر فوق المنازل. وقفت عثة رماديـة مرقطة منكمشـة فـي الزاوية الخارجية للناموسية. خرجت زورا مـن الحمـام وأعلنـت قائلـة بظفر إن الهدف من وجـود الزرّادية الصدئة في الحمام هو رفع المسمار الذي يشغل "الدوش"، ثم صففت شعرها المبلـل علـى شـكل ذيـل حصـان، ووقفـت أمـام النافذة وقالـت: "هل سيواصلون الحفر طوال الليل؟".

لم تكن لديّ أي فكرة. فأجبتها: "لا بد أنهم عمال، ولا بد أن إيفان يأويهم هنا طوال الموسم من باب الصدقة والإحسان".

كان المدعـي العـام قـد طلبهـا علـى جهـاز البيجر مرتيـن في أثناء استحمامها، فقلت لها: "ينبغي أن تعاودي الاتصال به".

أشـعلت زورا سـيجارة وهـي تحمـل منفضة سـجائر بيدهـا الحرة، وراحت تحرك الرماد بالطرف المشتعل من السيجارة، وقالت: "بالنسبة إليّ، ليس لديّ ما أقوله لهم إلى أن أتكلم مع جدك". وابتسمت وهي تنفخ الدخان من النافذة بعناية وتلوح به بيدها بعيداً عن وجهي.

كانـت علـى وشـك أن تسـألني مـا الخطـب عندمـا بـادرت وقلت لها: "سـنطلب منهم الحضور إلى العيادة غداً". وصعدت إلى سـريري. فأنهـت زورا تدخيـن سـيجارتها، ولكنها ظلت تحـوم في الغرفة، وتنظر من النافذة، ثم تفقدت الباب.

"هل تظنين أنهما يقفلان الباب في الطابق السفلي؟".

فقلت: "كلا على الأرجح. إن الباب مفتوح على مصراعيه للترحيب بأفراد العصابات المسلحة".

ضغطت زورا مرغمة على زر الإنارة فعم الظلام الغرفة. ساد الصمت لوقت طويل، ولكنها ظلت مستيقظة وهي تحدق إليّ. فانتظرت إلى أن استغرقت في النوم لكي لا يتوجب علي التفكير في شيء أقوله لها.

في الطابق السفلي، راح الببغاء يردد قائلاً: "اغسلوا العظام، وأحضروا الجثمان، واتركوا القلب مكانه".

## الفصل الثاني

# الحرب

## غافران غاليه

من بين القصص التي أعرفُها عن حياة جدي، يمكنني أن أقص قصتين فقط؛ قصةَ زوجة النمر وقصةَ الرجل المُحصّن. قد لا تبدو هاتان القصتان مهمتين لأي شخص باستثنائي؛ لأنني الوحيدة التي تعرفهما، ولكنني اكتشفتُ أنهما تجريان كنهرين سريين عبر كل القصص الأخرى التي ليست لديّ الصلاحية للبوح بها، والتي تتحدث عن أيّام جدي في الجيش، وعن عشقه لجدتي، والسنوات التي أمضاها كجراح وأستاذ متسلط في الجامعة. وعلى الرغم من أن لا أحد يعرف هذه الحقيقة، إلا أن كلَّ ما يلزم لفهم شخصية جدي يكمن في هاتين القصتين. إحداهما - وهي قصة توجب عليّ أن أتقصاها بنفسي - تتناول أحداث الفترة التي نشأ فيها وترعرع حتى أصبح رجلاً. والأخرى - وهي التي أخبرني بها بنفسه على الرغم من أنني لم أفهمها إلا بعد أن دقّقت في كل المعلومات التي عرفتها وجمعتها - قصة الرجل المحصّن.

لقد امتد سرد أحداث القصة الثانية، وهي قصة الرجل المحصّن، خلال فترة اندلاع حربين، وخلال حياتي كلها التي أمضيت منها عشرين سنة في ارتياد صفوف المدارس والجامعة، وفي صداقة عمري مع زورا التي تبعتها رحلتي إلى بريجيفينا. ولكن، لكي يفهمها المرء، يجب عليه أولاً أن يدرك أنني وجدي فقدنا العلاقة التي تجمعنا كلياً لفترة من

الزمن، وأنني لولا هذا الفقدان ربما ما كنت لأسمع عن غافران غاليه مطلقاً.

* * *

لقد اندلعت الحرب بهدوء. فقد خفف من حدة بدايتها عقدٌ كامل من الزمن أمضيناه على شفير الهاوية، ونحن نترقب اندلاعها. واعتادَ الأولاد في المدرسة أن يرددوا عبارة \أصبحت \الآن متوقعة في أي يوم من دون أن يدركوا ما يتحدثون عنه، وكانوا يكررون ما سمعوه لسنوات طويلة في بيوتهم. في البداية، أتت الانتخابات، ثم أعمال الشغب، ثم اغتيال الوزير، ثم مجزرة الدلتا، ثم وقعت أحداث ساروبور. وبعد ذلك، حدث شيء أشبه بالانفلات أو الانفجار المباغت.

قبل الحرب، ومنذ أن كنت في الثالثة من عمري، اعتدت وجدي أن نذهب بمفردنا كل أسبوع في نزهة سيراً على الأقدام إلى القلعة لنتأمّل النمور. فكنا ننطلق من السفح ثم نصعد تل سترمينا على طول مسار العربات القديم، ونمرّ عبر وادي المتنزه في الجانب الغربي من البلدة، ونعبرُ عشرات الجداول الصغيرة الصافية التي ترشُّ رذاذاً خفيفاً على الأعشاب؛ حيث أمضيت وأنا طفلة صغيرة ساعات لا حصر لها والعصا في يدي وأنا أزيح الأوراق الرطبة الخريفية عن الصخور المغطاة بالطحالب في بحثي العقيم عن الشراغيف. اعتاد جدي أن يسير وكتفاه مقوّستان، وذراعاه تتأرجحان على جانبيه، وكأنه يجذف في البحر. وكانت جدتي تودعنا من حيث تقف على الشرفة، ثم تناديه قائلة: "إنك تجذف مجدداً يا دكتور". ولكن جدي ظل يمشي هكذا بخطوات واسعة، وبيده كيس طعام الحيوانات، وهو مرتدٍ سرواله وقميصه ذا الياقة والكمين الطويلين، ومنتعل حذاءه اللامع المخصص للمستشفى. لطالما حاولت أن أحث الخطى بحذائي الرياضي المهترئ لألاحقه وأنا أبدو خلفه كالأقزام. وبعد مسيرة تدوم خمساً وأربعين دقيقة، كان ميلان

الطريـق يـزداد انحـداراً، وذلك بعـد أن نعبر السـكة الحديدية، ونتجاوز المكان الذي سقطت فيه عن الدراجة وظللت أصرخ نصف ساعة بينما أخذ جدي يعالج ركبتيّ المخدوشتين بقماش مبلل بمادة معقمة.

فإن لاحظ جدي أنني أتخلف عنه في المشي، توقف ومسح العرق عـن جبينـه، وقـال: "ما هذا؟ ما هذا؟ إنني مجرد رجل عجوز. هيا! هل قلبك ضعيف إلى هذه الدرجة!؟".

فكنـت أحـث الخطـى، وأنا ألهث طوال الطريق. وكنا نتسـلق التل بينمـا يتذمـر جدي بلهجة غاضبة من خشـونة صوتـي، ويهددني بأنه لن يصطحبنـي فـي نزهاتـه بعد الآن إن أصررت على أن يظل صوتي أشـبه بصوت ابن عرس المحبوس في كيس من البطاطا، وإن أفسدت أوقاته اللطيفة في الهواء الطلق. من قمة سترمينا، كان الطريق ينحدر عبر مرج طويـل مفـروش بالزهـور يمكـن للمـرء أن يرى خلفه الجـدار الروماني المهـدم، والحجـارة المتناثـرة بفعل نيران المدافع بعيـدة المدى، وجادَّةَ البلدة القديمة المرصوفة بالحصى بنوافذها المغبرَّة المسفوعة بالشمس، وسـقوفها البرتقاليـة الباهتـة، ودخـان الشـواء الذي يتصاعـد عبر ظلات المقاهي ومحالّ الهدايا المزينة. وكانت طيور الحمام تبدو أشـبه بنسـاء يعتمرن قلنسـوات سـوداء وهي تمشي متلاصقة على طول الشارع الذي ينعطـف إلـى حوض السـفن حيث تتلاطم الأمواج طـوال الليل والنهار في رأس شبه الجزيرة. وعندئذ، كنا نصل إلى باحة القلعة، فنسدد رسم الدخـول عنـد مدخـل حديقة الحيوانات، ونقـف في الصف، ثم نتجاوز قفـص الجمـال، وحظيـرة فـرس النهر، ونتجه مباشـرة إلى حيث تتجول النمور بلا كلل على طول أقفاصها القديمة ذات القضبان الحديدية.

بحلول الوقت الذي بلغت فيه الثالثة عشرة من عمري، بدأت أعتبر طقس زيارة النمور مصدر إزعاج. فقد اعتدنا في طريق عودتنا إلى البيت مـن حديقـة الحيوانـات أن نصـادف أشـخاصاً من معارفـي وأصدقائي،

وأولاداً في مثل سـني تخلّوا منذ وقت طويل عن مرافقة الكبار. فكنت أراهم جالسين في المقاهي، أو يدخنون قرب الحاجز الحجري عند عتبة البرلمان. وكانوا يرونني ويتعمدون السـخرية مني سـراً في المدرسة. لم أجد سخريتهم فظة بل عفوية، ولكنها لطالما ذكرتني بأنني أسيرة روتين لم أعد أعتبره ضرورياً في حياتي. ولم أدرك في ذلك الوقت أن الهدف من تلك الزيارة ليس منفعتي وحدي.

بعـد انـدلاع الحـرب مباشـرة تقريبـاً، أغلقـت الحكومـة حديقـة الحيوانـات بذريعـة منـع وقـوع حـوادث شـبيهة بحادثة زوبـوف. إذ قام طالب جامعي من عاصمة جارتنا الجنوبية بنسـف كشـك تذاكر حديقة الحيوانات؛ مما أسفر عن مصرع ستة أشخاص. فأتى هذا الإجراء جزءاً مـن خطـة الحكومـة الأمنية؛ أي الدفاع الوقائي عـن المدينة ومواطنيها، وهـو دفـاع يعتمد كلياً على تكثيـف الفزع والتقدير المغالى فيه لمصادر العـدو. لـذا، تـم إغلاق حديقة الحيوانات وشـبكة الحافـلات والمكتبة الوطنية التي تم افتتاحها حديثاً.

إلى جانب منع طقس الطفولة الذي سـررت من كل قلبي للتخلي عنه، كان إغلاق حديقة الحيوانات بالكاد يعتبر سـبباً يدعو للذعر. فقد أيقنا جميعاً في قرارة نفوسنا أن الحرب شبه محتدمة على بعد سبعمئة ميل عنا، وأن السـيطرة على المدينة ضرب من المسـتحيل، وأننا باغتنا العدو من قبل وهو في حالة ضعف. وأدركنا أن ضربة جوية لن تحدث أبداً لأن مليشياتنا المسلحة قد استولت مسبقاً على مهابط الطائرات في مارهـان قبـل سـتة أشـهر. ولكن الحكومة فرضت حظـر تجول، وإطفاء إلزاميـاً للأنـوار عنـد السـاعة العاشـرة مسـاء تحسـباً لوقـوع أي طارئ، وأصـدرت نشـرات تحـذر مـن أن أي شـخص فـي أي مـكان قد يكون مخبراً لصالح العدو، وأنه من المهم جداً أن يعيد المرء النظر في أسماء أصدقائه وجيرانه قبل أن يقابلهم في المقهى، وأنه في حال وقوع الخيانة

فإن أي مواطن قد يعتبر مسؤولاً لأنه لم يبلغ عن معارفه الذين يشك في أمرهم.

ومع ذلك، فقد واصلت الحياة سيرها الطبيعي. ورغم أن ستة أو سبعة أطفال من صفي اختفوا فجأة ومن دون إنذار أو وداع كما يميل اللاجئون لأن يفعلوا، فقد واصلت التوجه إلى المدرسة كل صباح مشياً على الأقدام وغدائي في حقيبتي. وبينما كانت الدبابات المتجهة إلى الحدود تتقدم على طول الجادة، اعتدت أن أجلس عند النافذة، وأتدرب على عملية الجمع. ولأن الحرب اندلعت حديثاً في مكان بعيد عنا، وحول صراع لا ترغب عائلتي في أن يشغل تفكيري واهتمامي، فقد واصلت الالتحاق بالدروس الفنية، والذهاب في مواعيد إلى المقهى مع زورا، وإلى احتفالات أخرى، والقيام برحلات تسوق. وفي تلك الأثناء، استمر جدي بتدريس حلقة بحثه في الجامعة، وبالقيام بجولاته المعتادة في المستشفى، والذهاب إلى السوق المحلية كل أمسية، وغسل التفاح بالصابون قبل أن يقشره، والوقوف في طابور الخبز لست ساعات، ولكنني لم أعرف ذلك إلا في وقت لاحق. وظلت أمي تأخذ شرائح العرض الضوئية لتدرس تاريخ الفن في الجامعة، بينما استمرت جدتي بمشاهدة الأفلام الكلاسيكية لترى الممثل كلاك جيبل وهو يبتسم ساخراً من الممثلة فيفيان لي.

أضفى بُعد المسافة عن المكان الذي يدور فيه القتال شعوراً وهمياً بأن الحياة تسير بشكل طبيعي، ولكن القواعد الجديدة أنتجت تغييراً في المواقف لم يناسب خطط الحكومة. فقد أرادت تحقيق السيطرة والتماسك والفزع التي يترتب عليها الخضوع والانضباط بين صفوف المواطنين، ولكن النتيجة التي حصلت عليها بدلاً من ذلك جاءت على شكل انفلات اجتماعي وفوضى جنونية. فعلى الرغم من حظر التجول، أصبح المراهقون يركنون سياراتهم في رتل يتجاوز طوله أحياناً عشر

سيارات، ويجلسون على أغطيتها ويشربون طوال الليل. وبات الناس يغلقون محالّهم لتناول الغداء، ثم يتوجهون إلى النوادي ولا يعودون إلا بعد ثلاثة أيام. وأصبح المرء يتوجه إلى عيادة طبيب الأسنان فيجده جالساً على عتبة باب أحد المنازل مرتدياً قميصه الداخلي، وزجاجة الشراب في يده. وعندئذ، فهو مخير بين الانضمام إليه أو العودة أدراجه إلى البيت. بدا الوضع بريئاً جداً في بادئ الأمر قبل أن تبدأ عمليات النهب بعد بضع سنوات، وقبل أن تحكم المليشيات المسلحة قبضتها على السلطة. إن هذا النوع من الاستهتار يسود عندما يقف الناس جميعاً على حافة الهاوية من دون أن يعترفوا بسقوطهم الوشيك.

كانت بضع سنوات أخرى لا تزال تفصل الأولاد من جيلي عن الوقت الذي كان التضخم سيجبرنا فيه على التوجه إلى المخبز ونحن ندفع عربة يد عليها جبل من أموال أهالينا، أو على مقايضة القمصان في ممرات المدرسة. لم تحمل تلك الأشهر الستة عشر من بداية الحرب أي طابع حقيقي، وهذا ما جعلها لا تصدق ولا تقاوم في آن معاً، لأن حقيقة وقوع شيء رهيب في مكان ما، وفي بلادنا في الوقت نفسه منحتنا مجالاً للهروب من الفوضى السياسية السائدة؛ متجاهلين وضع الأطفال المختبئين في ملاجئ تحت الأرض على بعد ثلاثمئة ميل. ولم تؤثر الحرب فينا فقط - نحن سكان المدينة - بل جعلتنا متكلفين في كل شيء. فإن قال أحد الآباء لابنه: "هيا اذهب إلى المدرسة!"، بدا صواباً تماماً أن يقول له: "إن الحرب دائرة"، ثم يذهب إلى ضفة النهر بدلاً من ذلك. وإن ضبط الأهل ابنهم يتسلل إلى البيت عند الساعة الثالثة من بعد منتصف الليل، ورائحة الدخان تفوح من شعره، منعتهم الحرب المحتدمة في مكان ما من معاقبته. وإن سمعوا من الجيران أن أصدقاء ابنهم ضبطوا وهم يرتكبون حماقة ما على سطح أحد المنازل، لم يجدوا بُدًّا من أن يتفقوا مع القول السائد: "إن الحرب دائرة. وقد

نموت جميعاً في أيّ لحظة". لقد جعلتهم الحرب يشعرون بالمسؤولية. فاستغللنا نحن الشباب فرصة شعورهم بالذنب لأننا لم نجد شيئاً أفضل من ذلك لنقوم به.

رغم كل جهود نظام المدارس لمواصلة التعليم كالمعتاد، إلاّ أنّه لم يستطع منع الحرب - رغم بعدها - من التسلل إلى حياتنا المدرسية. فقد تمثلت نتائجها في غياب الطلاب ونقص الكتب. كان من المفترض بنا أن ندرس المعادلات الكيميائية الأساسية والتفاعلات عن طريق الملاحظة الأساسية. ولكن، لم تعد لدينا أيّ مواد كيميائية، فقد تم التحفظ عليها في أحد المختبرات في مكان ما على الحدود دائمة التغير. وبدلاً من ذلك، قمنا بصنع دارات كثيرة لا حصر لها بواسطة الأسلاك والمصابيح الكهربائية الصغيرة، وأصبحنا نترك قطع المال القديمة تحت المطر لتصبح صدئة، ثم نغلي الماء والملح وبيكربونات الصوديوم لننظفها. وتوجب علينا دراسة رسومات بيانية لتشريح الضفادع، وحفظها غيباً. وكان لدينا مقطع مستعرض لحافر حصان محفوظ في غاز الفورمالديهايد داخل زهريّة مستطيلة الشكل، فقمنا برسمه مراراً وتكراراً إلى أن أصبح بوسعنا، حسب اعتقادي، أن نجري جراحة بدائية لأي حصان يعاني من مشاكل بحوافره. واعتدنا أن نمضي أغلب الأيام منذ الساعة الثامنة صباحاً وحتى الساعة الرابعة عصراً ونحن نقرأ نصوص الكتاب قراءة جهريّة.

ومما عقّد الأمور أكثر أن الصّراع حتم علينا صعوداً متحيزاً إلى حد ما لطلاب الصفوف العليا إلى الطوابق العلوية. وبعبارة أخرى، كلما كبر المرء في السن، أصبح بعيداً عن الملجأ في قبو المدرسة. وهكذا، ففي السنة التي بلغت وزورا فيها الرابعة عشرة من عمرنا، انتهى بنا المطاف في صف على السطح الإسمنتي يطل على النهر، وهو عبارة عن برج صغير له نوافذ ضخمة كان في السابق يستقبل طلاب الحضانة. وبدا

مظهر الصفوف بعد الترتيب الجديد دالاً على العجلة التي تم بها إنجاز الأمر. فقد ظلت جدران الصف مكسوة برسومات للأميرات بالألوان المائية. ووجدنا أواني بلاستيكية مليئة بالتراب على أفاريز النوافذ. وقيل لنا إن نبتة الفاصولياء ستنمو منها في نهاية المطاف، وهذا ما حدث فعلاً. وكانت ثمة رسومات لشجرات عائلية، ولكن أحدهم كان حاضر الذهن بما يكفي لكي ينتزعها من مكانها، مما خلف رقعة فارغة على الجدار تحت السبورة. جلسنا هناك ونحن نرسم حافر الحصان ونردد أشياء مثل: "إن الحرب دائرة. فإن تعرضنا للقصف، لقينا مصرعنا قبل الطلاب الصغار". ولم نشعر بأي اكتراث لذلك على الإطلاق. منحتنا النافذة رؤية واضحة جداً للمدينة؛ بدءاً من التل الكبير شمالاً، إلى القلعة في الطرف المقابل من النهر، وخلفها الغابات الباسقة التي تشكل خطاً أخضر طويلاً. رأينا المداخن التي تقذف أعمدة دخانية سميكة وسوداء كالقطران، وسقوف البيوت القرميدية القديمة، والجسور الحديدية التي ظلت قائمة في مدينتنا ولكنها تهدمت فوق الأنهار في أماكن أخرى وغرقت أنقاضها في الماء. وشاهدنا الزوارق الصغيرة متروكة وصدئة على ضفتي النهر، ومدينة الكرتون التي يعيش فيها الغجر في بيوت ذات جدران رقيقة ورطبة، وحيث يتحلقون حول نيران المخيمات التي يتصاعد منها الدخان للحصول على الدفء.

كانت مدرِّستنا لتلك السنة سيدة صغيرة الحجم تعرف باسم م. دوبرافكا. يداها متوترتان ومرتجفتان، وتضع نظارة تنزلق باستمرار على أنفها؛ مما جعلها تعتاد رفعها عن طريق تحريكها أنفها بصورة مضحكة. عرفنا لاحقاً أن م. دوبرافكا عملت في الماضي كفنانة سياسية، وأنها انتقلت بعد أن تخرجنا إلى مكان آخر لتتجنب الاضطهاد. وبعد بضع سنوات، علمنا أنها شجعت مجموعة من طلاب المدرسة الثانوية على إنتاج ملصق إعلاني مضاد للحكومة مما أدى إلى زجهم في السجن،

وإلـى اختفائهـا ذات ليلـة وهـي فـي طريقها من شـقتها إلى كشـك لبيع الصحـف عنـد ناصيـة الشـارع المـؤدي إلـى بيتها. في ذلـك الوقت من الماضـي، كنـا نجدهـا مرحة جـداً؛ غير مدركين شـدة إصرارها، ومدى الإحباط الذي هيمن عليها لعدم امتلاكها الوسـيلة التي تسـاعدها على تدريسـنا مادتها الخاصة؛ ناهيك عن تدريس مادة ليسـت مألوفة لديها. وذات يوم، جلبت لنا هدية.

اكتسحت البلاد موجة حر شديدة في شهر آذار، فشعرنا وكأننا في منتصف فصل الصيف. ذات يوم، وصلنا إلى المدرسة، وخلعنا أحذيتنا وجواربنا وقمصاننا. وشـعرنا أن البرج بات أشـبه بدفيئة زجاجية لزراعة النباتات. أبقينا الباب مفتوحاً، ولكننا أخذنا نتصبب عرقاً، وأصبنا بحالة هياج بسبب هذا الطقس غير المعتاد. دخلت م. دوبرافكا متأخرة وهي متسـارعة الأنفـاس، وبحوزتهـا طـرد كبير ملفوف بالـورق تحت إحدى ذراعيهـا. فتحتـه وأخرجـت منـه رئتيـن كبيرتين زهريتي اللـون وطريتين وناعمتيـن كالسـاتان. وهـذا بالطبـع يعتبـر خرقاً لقوانين المدرسـة وأمراً محظوراً، لذا لم نسألها من أين أتت بهما.

قالـت ونظارتهـا تنزلـق على أنفها: "افرشـوا بعـض ورق الصحف علـى الطاولـة فـي الخـارج". وبعد عشـر دقائق، تحلقنـا حولها والعرق يسيل على وجوهنا بينما حاولتْ أن تشرّح الرئتين بسكين المطبخ التي أحضرتها معها. بدت الرئتان عصيّتين على التشريح، وظلّتا تنتفخان على جانبـي النصـل وكأنهمـا كرتـان مطاطيتان، وبدأت رائحة اللحم الفاسـد تفوح منهما، فحاولنا إبعاد الذباب عنهما.

قـال أحـد الطلاب، واسـمه بانْتِـه: "ربما ينبغي لنـا أن نضعهما في الثلاجـة". فـي مـا بعـد، أصبـح بانتـه مهندسـاً مدنيـاً، ثم قتـل حين بلغ الخامسة والعشرين من عمره.

ولكن م. دوبرافكا كانت امرأة هادئة ورابطة الجأش. وقد صممت

على أن تحقق شيئاً من تلك المخاطرة لترينا كيف تعمل الرئتان، ولتشقّهما، وتشير إلى حجيرة الهواء وأكياس الهواء الفارغة والغضروف الأبيض السميك في الأنابيب الشعبية. حاولت شقّ زاوية إحدى الرئتين. وبينما هي تفعل ذلك، ازداد مدى حركة يدها إلى الأمام والخلف إلى أن تراجعنا جميعاً إلى الوراء. وبدأت تشق طرف الرئة، ونظارتها تصعد وتهبط على أنفها، وهي تضغط بإحدى ذراعيها على الرئتين، وتحرك ذراعها الأخرى وكأنها تعمل على مكبس.

انزلقت الرئتان من يدها، وسقطتا عن حافة الطاولة على الأرض، واستقرتا عليها وهما تبدوان ثقيلتين وواضحتي المعالم. فتأملتهما م. دوبرافكا لبضع دقائق بينما عثر عليهما الذباب بسرعة، وراح يمشي بحذر على طول فتحة الرغامى. وبعد ذلك، انحنت المعلمة على الأرض والتقطتهما، وألقتهما مجدداً على ورقة الصحيفة.

قالت لي عندما وجدتني واقفة صدفة إلى جانبها: "أنت! أحضري قشة شرب من خزانة المقهى، وتعالي إلى هنا وانفخي في هذا الشيء. هيا! أسرعي".

في ما بعد، أصبحت أنظر إلى م. دوبرافكا على أنها شخصية تتمتع باحترام خاص يميزها عن بقية المدرسين. فقد كانت تانك الرئتان اللتان خاطرت بتهريبهما من أجلنا، والطريقة التي وقفت بها إلى جانبنا وكلّ منا يقوم بدوره بالنفخ داخلهما هي ما عمق في ذهني الاهتمام المطلق بمهنة الطب، ولكنها لامست أيضاً علاقتنا الجديدة بتهريب السلع المحظورة؛ وهذا الهوس بدأ منذ ذلك الحين يستولي على المدينة برمتها.

كانت المهربات بالنسبة إليها تنحصر في المستلزمات المدرسية، أما نحن فقد اتبعنا المبدأ نفسه ولكن من أجل اهتمامات مادية بحتة. فقد أصبحنا فجأة نرغب في بعض الأشياء لأننا لا نستطيع الحصول عليها، أو لأنها باهظة ومن الصعب تأمينها؛ على الرغم من أنها لم تخطر لنا على

بـال مـن قبل قط. إنها أشـياء تمنحنا الحـق بالتبجح على الآخرين، مثل حقائب المصممين المزيفة، والمجوهرات الصينية، والسجائر الأمريكية، والعطورات الإيطالية. بدأت زورا تتبرّج وتسـتعمل أحمر شـفاه والدتها، ولكنها بحثت أيضاً عن طرائق لتشتري أحمر شفاه لنفسها. وبعد مرور ستة أشهر على اندلاع الحرب، أصبحت تهوى السجائر الفرنسية وترفض أن تدخـن أي نـوع آخـر. فاعتادت وهي لم تتجاوز الخامسـة عشـرة أن تجلـس إلـى طاولـة في المقهى في سـاحة الثـورة، وترفع حاجبها للفتية الذيـن يبذلـون مـا في وسـعهم لإثارة انتباهها. ففـي حفلة لا أتذكر أنني حضرتها، أصبحت صديقة لشاب يدعى برانكو ويبلغ الحادية والعشرين من عمره، ويشـاع عنه أنه يعمل بتهريب الأسـلحة. لم يعجبني تصرفها هـذا، ولكننـي عللته كعادتـي باندلاع الحرب. وبالإضافة إلى ذلك، فقد اتضـح لاحقـاً أنـه مجـرد لـص صغير لم يرتكب جناية أعظم من سـرقة أجهزة الراديو.

في معظم عطلات نهاية الأسبوع، اعتدت وزورا أن نذهب إلى مركز البلـدة القديم، ونركن سـيارتنا عنـد رصيف التحميل الذي أصبح مركزاً لتسكع طلاب الجامعة وبؤرة لنشاط المهربين. فكان الصبية المراهقون الطـوال يجلسـون على طول السـياج، ويصفون طاولاتهـم وصناديقهم، ويعرضون عليها أجهزة الفيديو والنظارات الشمسية والقمصان القطنية. أخذت المعاكسـات تطارد زورا عندما تمشـي مرتدية أقصر تنورة لديها باتجـاه مـكان جلـوس برانكو حيث عرض بضائعـه، ثم تجلس متصالبة الساقين بينما يعزف هو على آلة الأوكورديون ويحتسي الشراب. وعند حلول المسـاء، اعتاد أن يأخذ اسـتراحة من بيع بضاعته ليغازلها خلف حاوية القمامة. وفي تلك الأثناء، كنت أجلس في السـيارة، وأمد سـاقي مـن النافـذة المفتوحـة، وأسـتمع إلـى الأغاني التي تصدح مـن المذياع خلف ظهري.

هكذا قابلت أوري، ذلك الشاب الذي اعتاد أن يبيع ماركات مصممين مقلدة، ويقسم إنه يستطيع أن يثبتها بشكل مثالي على الثياب والحقائب. كان شاباً نحيلاً وذا ابتسامة خجولة ويبلغ السابعة عشرة من عمره، ولكنه في الواقع ليس إلا شابًّا عاديًّا أضفى عليه وقت الحرب جاذبية ربما ما كان ليتمتع بها في وقت آخر، وأكسبه قدراً كافياً من الطيش والجرأة دفعه لأن يمد رأسه من نافذة السيارة ويسألني عن مجموعتي الموسيقية قائلاً: "أتحبين هذه الموسيقى؟ أتريدين المزيد منها؟".

لقد أصاب أوري الوتر الحساس ونقطة الضعف التي أعجز عن مقاومتها. إذ إن الحكومة أمرت بإغلاق كل محطات الإذاعة ما عدا محطتين اثنتين تصران على تكرار بث الأغاني الشعبية التي باتت الأذواق تعافها لشدة قدمها؛ حتى من وجهة نظر جدتي. وبحلول السنة الثانية من الحرب، سئمت سماع أغاني الحب السخيفة التي تستخدم العبارات المكررة المملة نفسها، وأصبحت أفتقد سماع أغاني بوب ديلان وبول سيمون وجوني كاش. في المرة الأولى التي أخرجني فيها أوري من السيارة، رافقني عبر رصيف التحميل إلى حيث يقف كلبه ذو القوائم الثلاث لحراسة قفص مقلوب رأساً على عقب يخفي تحته أشرطة الأغاني مرتبة بالترتيب الأبجدي، وداخل علبها أوراق دفاتر كتبت عليها كلمات الأغاني بخطّ اليد، وكانت ترجمتها رديئة. كان أوري يملك بفضل أعجوبة ما جهاز تسجيل "كاسيت" متنقلاً، وهذا بحد ذاته جعله يستحق مواعدة الفتيات. جلسنا على الأرض خلف طاولته وكل منا يضع سماعة في أذنه. فأسمعني كل مجموعته الموسيقية.

وعندما حاولت بعد بضعة أسابيع من الادخار أن أشتري منه أغنية غريسلاند، قال لي: "هناك حرب دائرة، لذا ليست هناك أي قيمة لمالك".

ظللنا نواعد بعضنا لثلاثة أشهر تضاعفت خلالها مجموعتي

الموسيقية إلى ثلاثة أضعاف. وبعد ذلك، اختفى أوري فجأة كما اختفى كل الفتية في مثل سنه. وكنت قد استعرت آلة التسجيل الخاصة به قبل اختفائه بثلاث ليال. وحين ذهبت جرياً إلى المقهى لكي أعيدها إليه، قال لي أحدهم إنه اختفى بلا أثر، وإن أحداً لا يعرف إن كان قد التحق بالجيش أو هرب خوفاً من أن تقع عليه القرعة. فاحتفظت بآلة التسجيل، وأصبحت أنام بجانبها على السرير ربما كتعبير مني عن افتقاده، ولكنني لم أستوعب حقيقة اختفائه فعلاً إلى أن بدأت أمور أخرى بالاختفاء أيضاً.

* * *

أمضى جدي السنوات التي أمضيتها منغمسة بحياة الحرب المتحررة من القوانين، وهو يعتقد أنها ستضع أوزارها قريباً، ويتظاهر أن شيئاً لم يتغير. إنني أدرك الآن أن خسارة النمور شكلت بالنسبة إليه صفعة لا يستهان بها، ولكنني أتساءل عمّا إذا كان تفاؤله متعلقاً أيضاً بسلوكي الذي جعله يخسرني؛ ولو لسنوات قليلة. فنحن لم نرَ بعضنا إلا نادراً. وعلى الرغم من أننا لم نتكلم عن مجريات تلك السنوات في ما بعد، إلا أنني أعرف أن طقوسه الأخرى استمرت بلا انقطاع أو تغيير. فقد ظل يتناول الفطور على جريدة، ثم يشرب فنجاناً من القهوة التركية التي تغليها له جدتي، ثم يقوم ببعض المراسلات الشخصية حسب الترتيب الأبجدي المدون في دفتر عناوينه الخاص. وبعد ذلك، اعتاد أن يذهب في نزهة سيراً على الأقدام إلى السوق ليشتري بعض الفاكهة أو أي شيء يستطيع الحصول عليه كي لا يعود إلى البيت صفر اليدين. وفي يومي الاثنين والأربعاء من كل أسبوع، كان يلقي محاضرة في الجامعة، ثم يتناول الغداء، ثم يأخذ قيلولة بعد الظهر، وبعد ذلك يجري بعض التمارين الخفيفة، قبل أن يجلس إلى طاولة المطبخ ويتناول وجبة صغيرة مؤلفة من بذور عباد الشمس. وبعد ذلك، تعوّد أن يمضي بضع

ساعات في غرفة المعيشة مع أمي وجدتي ليتبادلوا الحديث، أو أن يجلس معنا لتناول العشاء، ثم يمضي ساعة بالقراءة ويأوي إلى فراشه.

ظللنا على تواصل، ولكن من دون أي تعاطف أو حتى اعتراف بأن الأمور باتت مختلفة؛ كذلك اليوم الذي أجبرني فيه على البقاء في البيت لحضور حفلة الميلاد. حينها، أمضيت الليلة بأسرها وأنا أحتسي الشراب لأنني أدركت أنه لن يوبخني أمام الضيوف. أو كتلك الليلة التي عدت فيها إلى البيت عند الساعة الرابعة من بعد منتصف الليل، والكحل قد لطّخ عينيّ، وشعري مبعثر بعد لقاء طويل مع أوري خلف آلة بيع معطلة. في تلك الليلة، وجدت جدي واقفاً على الرصيف خارج بيتنا وهو في طريقه إلى البيت عائداً من غرفة الطوارئ، ويحاول أن يثني فتاة شقراء نحيلة الساقين عن عروضها. وأدركت لاحقاً أنها فتاة شارع.

عندما اقتربت منه، سمعته يقول: "انظري! ها قد وصلت حفيدتي". وبدا صوته أشبه بصوت رجل يغرق. وانبسطت أساريره بفضل الراحة التي شعر بها حين رآني، وهذا رد فعل لم أتوقعه نظراً إلى ظروف عودتي. خطوت على الرصيف بجانبه، فجذب ذراعي وقال لها ببهجة: "ها هي! أترين؟ ها قد عادت".

قلت للفتاة: "اغربي عن وجهي!".

أعطى جدي الفتاة خمسين ديناراً، وتقدَّم ليفتح الباب الأمامي. وقفت خلفه وراقبت الفتاة وهي تمشي إلى آخر الشارع، وتأمّلت ساقيها الهزيلتين، ولاحظت أن أحد كعبي حذائها بدا أقصر من الآخر بقليل.

عندما صعدنا إلى الطابق العلوي، سألته: "لماذا أعطيتها المال؟".

فقال: "لا ينبغي أن تتصرفي بهذه الوقاحة مع أحد. لم نربِّك هكذا". ثم أضاف من دون أن ينظر إليّ: "خجلاً منها".

استمر الوضع على هذا الحال لعدة سنوات. فقد عشت أنا وجدي في حالة جمود من دون أن نعترف بذلك. وتدنى مستوى تسامحه معي

إلـى مسـتوى أكثـر انخفاضاً. فأصبحـت معتادة على إقفـال باب غرفتي وتدخين السجائر تحت أغطية السرير.

في عصر أحد أيام الربيع، كنت مشغولة بالتدخين كعادتي عندما رن جرس الباب. وبعد بضع دقائق، رن مرة أخرى. لا بد أنني ناديت على أحدهم ليفتح الباب. وعندما لم يفعل أحد ذلك، وضعت سيجارتي على الحافة الخارجية لنافذة غرفتي، ونهضت لأفتح الباب بنفسي.

أتذكر شكل القبعة السوداء التي غطت معظم مجال الرؤية من العين السحرية. لم أميز شكل وجه الرجل صاحب القبعة، ولكنني كنت متلهفة للعودة إلى غرفتي ومنزعجة لأن أحداً آخر في المنزل لم يفتح الباب.

وعندمـا فتحـت البـاب، نزع الرجل القبعة عن رأسـه، وقال إنه أتى ليقابـل الطبيـب. كان صوتـه ناعمـاً، وشـاربه مضحكاً. في بـادئ الأمر، ظننـت أننـي رأيتـه من قبل، وأنه ربما أحد موظفي المستشـفى. فدعوته للدخول، وتركته واقفاً في الصالة ريثما أستدعي جدي. في ذلك اليوم، كانـت أمـي تُحضِّـر محاضرتها فـي الجامعة، بينما كان جـداي يتناولان غداء متأخراً في المطبخ. فرأيت جدي يأكل بإحدى يديه ويمسك باليد الأخرى يد جدتي على الطاولة. وكانت جدتي تبتسـم له. وفي اللحظة التي دخلت فيها، أشارت إلى قدر فيها فلفل محشو على الموقد.

وقالت: "تناولي شيئاً".

فقلـت: "لاحقـاً". ثـم وجهت كلامـي إلى جدي قائلة: "هناك رجل يريد أن يقابلك".

فقال جدي: "من؟".

قلت: "لست أدري".

تناول جدي بضع ملاعق أخرى من الفلفل المحشو وهو يفكر في الأمر بصوت عالٍ قائلاً: "حسناً، من يحسب نفسه؟ اطلبي منه أن ينتظر. فأنا أتناول الطعام مع زوجتي". فناولته جدتي بعض الخبز.

أرشـدتُ الرجـل ذا القبعـة إلى غرفة المعيشـة. فجلـس هناك لمدة امتدت عشرين دقيقة وهو يتأمل المكان من حوله. فيما ذهبت وأحضرت له بعض الماء لئلا يتهمني أحد بأنني لا أحسن الضيافة. وعندما عدت إليه، وجدت أنه قد أخرج دفتر ملاحظات من حقيبته، وأنه ينظر بتمعن إلى اللوحات المعلقة على جدران منزلنا، ثم راح يدوّن على دفتره شيئاً أشـبه ببيان بمحتويات البيت، ويتأمل صور زفاف جديّ، وطقم فناجين القهـوة القديـم الخـاص بجدتـي، وزجاجات الشـراب المصفوفة خلف الباب الزجاجي لخزانة المشروبات.

ظـل الرجـل منهمـكاً بالكتابة لوقـت طويل. فأدركـت مدى الخطأ الفادح الذي ارتكبته عندما سمحت له بدخول المنزل وأصابني الرعب. وعندما أخذ جرعتين من كوب الماء الذي أعطيته إياه، ثم استرق النظر إلـى داخـل الـكأس ليتأكد من نظافتهـا، تحول كل خوفي إلى موجة من الغضـب. فدخلـت غرفتـي ووضعـت شـريطاً للمغني بول سـايمون في مسـجلتي، وعـدت إلـى غرفـة المعيشـة وأنا أضـع السـماعتين في أذنيّ متظاهـرة أننـي أمسـح الغبـار. علقت المسـجلة على جيبـي لكي يتمكن من رؤيتها، وأخذت بكرتا الشـريط المهرب تدوران وتبدوان واضحتين من خلال النافذة البلاستيكية الشفافة. جلس الرجل محدقاً إليّ وأنا أمرر المنشـفة الرطبة على التلفاز وطاولة القهوة وصور زفاف جديّ. ظننت أننـي بهـذا التصرف أجعلـه يعاني، ولكنه لم يبد منزعجاً على الإطلاق، بل ظل يدوِّن الملاحظات على دفتره إلى أن خرج جدي من المطبخ.

قال جدي: "هل يمكنني أن أسـاعدك؟". فنهض الرجل ذو القبعة وصافحه.

حيـا الرجـل ذو القبعـة جـدي، وقـال لـه إنه قـادم مـن قِبَل مكتب التجنيد وأبرز بطاقته لجدي. أخفضت صوت المسـجلة، وبدأت أمسـح الغبار عن الكتب واحداً تلو الآخر.

قال جدي: "حسناً!". ولم يدعُ الرجل للجلوس.

فأجاب الرجل ذو القبعة: "لقد أتيت إلى هنا لأتأكد من تاريخ ميلادك، وسجل خدمتك في الجيش بناء على طلب من مكتب التجنيد".

وقف جدي بجانب طاولة القهوة، وذراعاه متصالبتان أمام صدره، وراح يتأمل الرجل من الأعلى إلى الأسفل. تابع الرجل قائلاً: "إن هذا إجراء ضروري، يا دكتور".

"إذاً، تفضَّل".

وضع الرجل نظارته على عينيه، وفتح دفتره على الصفحة التي كان يخربش عليها، ومرر إصبعه البيضاء الكبيرة على طولها، وسأل جدي من دون أن يرفع نظره عن الورقة: "هل صحيح أنك ولدت عام 1932؟".

فأومأ جدي مرة واحدة.

فسأل الرجل قائلاً: "أين؟".

"في قرية غالينا".

"وأين تقع هذه القرية؟". وكنت أنا نفسي لا أعرف.

"أظن أنها تقع على بعد أربعمئة ميل إلى الشمال الغربي من هنا".

"ألديك أشقاء أو شقيقات؟".

"كلا".

"لقد خدمت في الجيش الوطني من العام 47 إلى العام 56، أليس كذلك؟".

"هذا صحيح".

"لماذا غادرت؟".

"لأعمل في الجامعة".

سجل الرجل ذو القبعة ملاحظة، ثم رفع نظره إلى جدي وابتسم، ولكن جدي لم يبادله الابتسامة بمثلها. فتلاشت ابتسامة الرجل.

سأل الرجل قائلاً: "ألديك أولاد؟".

"ابنة واحدة".

"ألديك أحفاد؟".

"حفيدة واحدة".

"هل هناك أي شبان بين سن الثامنة عشرة والخامسة والأربعين يعيشون في منزلك؟ هل هناك من يعتبر هذا المنزل مكاناً لإقامته؟".

أجاب جدي قائلاً: "كلا".

"أين يعيش صهرك؟".

تحرك فم جدي وهو يمرر لسانه على أسنانه، ثم قال: "لا يوجد رجال آخرون يعيشون هنا".

"إنني آسف يا دكتور، ولكن الإجراءات تحتم علي أن أسأل عن زوجتك".

"ماذا تريد أن تعرف عنها؟".

"هل ولدت في غالينا أيضاً؟".

"لماذا تسأل؟ هل تأمل أن تجندها هي أيضاً؟".

لم يجب الرجل ذو القبعة، بل أخذ يتأمل الصفحة من الأعلى إلى الأسفل وكأنه يفكّر في شيء ما.

"ما اسم زوجتك الكامل من فضلك يا دكتور؟".

فقال جدي: "زوجة الطبيب". قال هذا الكلام بلهجة دفعت الرجل ذا القبعة إلى رفع نظره عن دفتر ملاحظاته.

قال الرجل: "لقد قلت لك يا دكتور إن هذا إجراء شكلي من أجل مكتب التجنيد".

"إنني لا أصدقك، ولا تعجبني أسئلتك. إنك تبحث عن شيء ما، لذا يمكنك أن تسألني مباشرة عما تريده لكي نتوصل معاً إلى خلاصة لزيارتك".

"أين ولدت زوجتك؟".

"في ساروبور".

قال الرجل: "فهمت". توقفت عن مسح الغبار، ووقفت مسمرة في مكاني هناك والمنشفة الرطبة في يدي، وأنا أنقل بصري بين جدي والرجل ذي القبعة. وتخيلت شكل جدتي وهي واقفة في المطبخ في الجانب الآخر من الباب تسترق السمع إلى هذا الحوار. لقد سمعنا من قبل عن حدوث هذا النوع من الأمور، فشعرت بالذنب لأنني سمحت للرجل بدخول بيتنا.

"أين تعيش عائلة زوجتك؟".

"إن عائلة زوجتي تعيش في هذا المنزل".

"هل زوجتك على اتصال مع أي شخص في ساروبور؟".

قال جدي: "بالطبع لا". ولكنني فهمت في وقت لاحق فقط معنى الكلام الذي أضافه قائلاً: "وحتى لو أرادت ذلك، فإنني أعتقد أنه أصبح من الصعوبة بمكان تحقيق ذلك باعتبار أنها سويت بالأرض".

قال الرجل ذو القبعة بابتسامة لبقة: "من واجبي أن أسأل عن ذلك". وبدا واضحاً عليه الآن أنه يريد أن يتراجع ويفوز باستحسان جدي، فلوح بيده وقال: "إنك رجل ذو ممتلكات لا بأس بها. فإن كان لا يزال لدى زوجتك إخوة أو أخوات في ساروبور...".

قال جدي: "اخرج من هنا". فحدق إليه الرجل بغباء من دون أن ينبس بحرف. وشعرت بعنقي يتشنج، وبقطرات من المنشفة المبللة تسيل على ساقي.

بدأ الرجل يقول: "أيها الطبيب...".

ولكن جدي قاطعه، ووضع يديه خلف ظهره، وبدأ يضرب الأرض بعقب قدمه قائلاً: "اخرج من هنا". بدت كتفاه مقوّستين ومتشنجتين، ووجهه برمته يقدح شرراً. وكرر قائلاً: "اخرج من منزلي! هيا اخرج!".

أغلق الرجل دفتره، وأعاده إلى مكانه، ثم أمسك حقيبته ووضعها

علـى حافـة طاولـة القهـوة. وقـال: "ليسـت هنـاك حاجة إلى أن تسـيء فهمي".

قال جدي: "هل سمعتني؟". ثم انحنى فوق الطاولة من دون سابق إنذار، وأمسك مقبض الحقيبة وشدها بحركة واحدة، ولكن الرجل تشبث بهـا ورفـض أن يفلتها وراح جسـمه يهتز إلى الأمـام والخلف، فانقلبت طاولة القهوة وسقطت الزهرية والصحف والمجلات القديمة كلها على الأرض كالشـلال، بالإضافـة إلـى محتويات الحقيبـة التي انفتحت على وسـعها. انحنـى الرجـل علـى الأرض، ووجهه محمر، وهـو ربما يقول في سـرّه: تباً! انظر إلى ما حدث. ليس هناك داعٍ لما تفعله، يا سـيدي. وحـاول أن يجمـع أوراقـه ويعيدهـا إلـى الحقيبـة. وفجـأة، شـعرت أن جدي قد تحول إلى شخصية من الرسوم المتحركة وهو يركل الأوراق المتسـاقطة والرسـائل والمجلات والنشـرات بقدميه، ويطيرها في الهواء وكأنها أوراق أشجار. بدا مظهره سخيفاً تماماً بساقيه الطويلتين، وشكله الأخرق في البذلة الرسمية وهو يلوح بذراعيه حوله بجنون ويردد بنبرة الصوت نفسها: "اخرج، اخرج، اخرج، اخرج من هنا". وبحلول الوقت الذي أنهى فيه الرجل حشو أغراضه في الحقيبة، فتح جدي الباب ووقف بانتظاره ليخرج.

بعـد ثلاثـة أشـهر، بدأت الحكومة تتشـدد مع الأطباء المتمرسـين. واكتشـفنا أن جـدي لـم يكـن الوحيـد الذي تربطه صلـة بالنظام القديم، وبتلك المناطق وعائلاتها. فقد تم منع الأطباء الذين يناهزون الخمسين عاماً من ممارسـة المهنة، وإخطارهم خطياً أن حلقات البحث الجامعية التي يجرونها ستصبح خاضعة لمراقبة مشددة.

وعلـى الرغـم من رغبته الملحـة في حمايتنا، فقد ظل جدي يعاني من الصفة السائدة لدى شعبنا، والتي غالباً ما يخطئ الآخرون باعتبارها غباء، ولكنها في الحقيقة ليست أكثر من نقمة وشعور بالتفوق الأخلاقي

على الآخرين. اتصل جدي بصانع أقفال عالجه في الماضي من المرارة، وطلب منه أن يضع للباب الأمامي أكثر قفل معقد رأيته في حياتي. فقد بدا السطح الداخلي للباب أشبه بسطح آلة. وصار متوجّباً علينا أن نستخدم ثلاثة مفاتيح لنتمكن من دخول البيت. وكان صوت دوران المسننات داخل القفل صاخباً ومزعجاً جداً. وعلى الرغم من أن تعليق ممارسة جدي للطب لم يمنعه كلياً من التدريس في الجامعة، فقد قدم استقالته، وبدأ يتصل بمرضاه القدامى؛ ومنهم مرضى يعانون من الربو والتهاب المفاصل ومصابون بالأرق، ومعلمون أقلعوا مؤخراً عن التدخين، وعمال بناء يمضون فترة النقاهة بعد علاجهم من آلام الظهر، ومصابون بالكساح والوسواس القهري، ومريض مصاب بالسل يعمل مربي جياد، وممثل مسرحي مشهور يعالَجُ من إدمان الكحول. ورتب جدي برنامجاً لمكالمات الهاتف التي بدت من وجهي نظري على الأقل مهمة مملة ولا نهاية لها.

اعتدت أن أجلس على الكنبة بجانب مكتبه وأصغي إليه وهو يجري مكالماته الهاتفية، وأنا أجول ببصري في الأنحاء بسأم. ولم أستطع أن أكتشف ما إذا كان قراره قد أتى نتيجة التزامه بمرضاه، أو إن كان ناجماً عمّا تبقى من عناد المراهقين الذي نمتاز به أنا وزورا وأصدقاؤنا في رصيف التحميل. أرعبتني إمكانية أن يكون هذا الاحتمال الأخير صحيحاً، ولكنني لم أتحلَّ بالشجاعة الكافية لكي أواجهه بمخاوفي وأسأله إن كان مستعداً للمخاطرة بكل شيء من أجل تصرف يعتبر بالنسبة إلينا نحن الشباب تحدياً مفرطاً، ولكنه يرقى بالنسبة إليه إلى مستوى الغباء غير المبرر. وبدلاً من ذلك، بدأت أتحدث إليه بكلام منطقي ربما يكون أكثر ما قلته له خلال أشهر. وواجهته بفرضيات متعددة لوقوع المأساة. فلم تزعجه أي واحدة منها على الإطلاق: ماذا إن باح أحد مرضاك بسرك؟ ماذا إن تتبّع أحدهم مكالمتك إلى عنوان البيت؟ ماذا إن بدأ الصيدلي

بطرح أسئلة عليك عن السبب الذي يدفعك إلى شراء كل هذه الوصفات الطبية من أجل أمراض من الواضح أنك لا تعاني منها كلها؟ ماذا إن توفي أحد مرضاك الذين ترعاهم أو أصيب بسكتة أو نَزَفَ أو عانى من مرض توسع الأوعية الدموية؟ ماذا إن وُجِّهت إليك إصبع الاتهام لموت أحد مرضاك لأنه لم يذهب إلى المستشفى؟ ماذا إن انتهى بك المطاف في السجن متهماً بجريمة قتل؟ ماذا سيحل بنا عندئذ؟

سألت زورا ونحن جالستان إلى طاولتنا المعتادة بانتظار برانكو ليبدأ غناءه الصاخب: "لماذا يجب عليّ وحدي أن أتصرف بنضج؟ لماذا يجب عليّ أنا أن أنبهه إلى التصرّفات الجنونية التي يقوم بها؟".

قالت زورا وهي تمط شفتيها وتنظر إلى مرآتها الصغيرة: "أتفهم موقفك".

لا بد أن جدي لاحظ أنه يراني أكثر مما فعل خلال العامين الماضيين. ولا بد أنه لاحظ أنني أصبحت أغلي له القهوة عند الفجر بدلاً من جدتي، وأنني لم أعد أقاطع محادثاتهم الصباحية ونحن نتناول طعام الفطور لأقول لهم آخر الأخبار وأنا ألوِّح بيدي بلا مبالاة وأردد عبارة: "ماذا تتوقعون؟ هناك حرب دائرة"، وأنني بدأت أتحمس أكثر للخروج معه للتسوق، وأنني كنت أعترض إن وجدت جدتي تحاول أن ترتب الأسرة أو تقطّع خضراوات قاسية جداً أو تشاهد التلفاز بدلاً من أن تأخذ قيلولة. ولا بد أنه لاحظ أنني أصبحت أؤدي واجبي المنزلي في المطبخ كل مساء عندما يغادر ليقوم بزيارات منزلية للمرضى، ثم يجدني مستيقظة وأنا أحل الكلمات المتقاطعة عندما يعود. لا بد أنه لاحظ كل هذا، ولكنه لم يذكر أي شيء عن عاداتي الجديدة، ولم يَدْعُني قط لأشاركه عاداته، فاعتبرت سلوكه هذا معاقبة لي. وظننت في ذلك الوقت من الماضي أنه أراد أن يعاقبني لأنني سمحت لنفسي بالانحدار إلى ذلك المستوى، أو لأنني سمحت للرجل ذي القبعة

بدخول شقتنا، ولكنني أدرك الآن أنها عقوبته لي لأنني استسلمت وتخليت عن النمور بسهولة.

في نهاية المطاف، لا بد أنني استعدت شيئاً من مكانتي القديمة لديه لأنه قص عليّ قصة الرجل المُحصّن.

في صيف أحد الأعوام، وعندما بلغت السادسة عشرة من عمري، كان هناك مريض لا أعرفه يصارع مرض ذات الرئة. ازدادت زيارات جدي إلى بيته من مرة واحدة في الأسبوع إلى ثلاث مرات. وذات ليلة، غفوت قليلاً وأنا أحاول أن أتسلى بحل الكلمات المتقاطعة لأبقى ساهرة بانتظاره. وبعد بضع ساعات، استيقظت ورأيت جدي واقفاً عند مدخل الباب، وهو يشعل مصباح الطاولة ويطفئه مرة تلو أخرى. وعندما رآني أجلس، توقف عن ذلك، فساد ظلام دامس لبضع لحظات.

سمعته يقول: "ناتاليا!". وراح يشير إليّ لأنهض عن الأريكة. وعندئذ، تمكنت من رؤيته. وحين وجدت أنه لا يزال معتمراً قبعته، ومرتدياً معطفه، تحول شعوري بالراحة لرؤيته إلى نفاد صبر بسبب إرهاقي.

فقلت له وأنا مترنحة من شدة النعاس: "ماذا؟".

أشار نحو الباب ثم قال: "بهدوء. هيا!". وناولني معطفي بإحدى يديه وحذائي الرياضي بيده الأخرى، فاستنتجت أنه لم يكن أمامي متسع من الوقت لأغير ملابسي. قلت له وأنا أحاول عبثاً أن أقحم قدمي داخل فردة الحذاء وشريطها مربوط: "ما الذي يجري؟ ما الأمر؟".

قال وهو يعطيني المعطف: "سترين بنفسك. هيا أسرعي".

خطر ببالي أن ما توقعته قد حدث أخيراً، وأنه تسبب بموت أحد المرضى لا محالة.

استغنينا عن استعمال المصعد لئلا يحدث ضجة كبيرة، ونزلنا على الدرج. كان المطر قد توقف عن الهطول في الخارج، ولكننا

سمعنا صوت جريان الماء في المجاري قادماً من السوق في آخر الشارع وحاملاً معه رائحة الملفوف والزهور الذابلة. وجدنا المقهى في الطرف المقابل من الشارع مغلقاً في وقت مبكر، ورأينا الكراسي المبللة مكدسة فوق الطاولات، والساحة محاطة بالسلاسل. كانت هناك قطة بيضاء كبيرة جالسة تحت ظلة الصيدلية، وحدقت إلينا بنفور ونحن نمر تحت مصباح الشارع في آخر المربع السكني. وبحلول ذلك الوقت، تخليت عن محاولة تثبيت أزرار معطفي.

قلت: "إلى أين نحن ذاهبان؟ ما الذي جرى؟".

لكن جدي لم يجبني، بل استمر بالمضي قُدُماً على طول الشارع وأنا أحاول الجري خلفه بأقصى سرعة. وخطر ببالي أنه سيسمح لي بالعودة إن أجهشت بالبكاء، ولكنني واصلت السير خلفه. مررنا بالمخبز والمصرف ومتجر الألعاب المتوقف عن العمل حيث اشتريت ملصقات رسوم متحركة لأضعها في ألبومي الذي لم يكتمل قطّ. ومررنا بكشك بيع الفطائر المقلية الذي ظلت رائحته الزكية تعبق في الهواء. ومررنا أيضاً بمتجر القرطاسية وكشك الصحف في الزاوية التالية. وبعد أن عبرنا ثلاثة شوارع، أدركت مدى الهدوء الذي يعم الأجواء. فقد مررنا بمقهيين مغلقين آخرين، وبمتجر لبيع اللحم المشوي يكون مزدحماً عادة، ولكننا لم نجد فيه سوى نادل واحد يعبث بالقطع النقدية على طاولة تتسع لثمانية أشخاص.

سألت جدي: "ما الذي يجري؟".

تساءلت عما ستفعله أمي إن استيقظت ولم تجدنا نحن الاثنين. اقتربنا من آخر الشارع الذي يؤدي إلى الجادة، فافترضت أن الصمت الذي خيم علينا سرعان ما سيشوش عليه صوت ضجيج الحافلات. ولكن، عندما وصلنا إلى هناك، لم أر سيارة واحدة تمر. وطوال الطريق الذي اجتزناه من أول الجادة إلى آخرها، بدت كل النوافذ مظلمة. ورأيت

القمر الأصفر الشاحب يلوح في الأفق، ويلقي بأشعته الشاحبة التي أضفت عليه سكوناً يحيط به كالشباك. لم أعد أسمع صوت صفارات سيارات الشرطة، أو صوت الجرذان في مجاري الصّرف الصحي على جانبي الشارع، ولا حتى صوت حذاء جدي حين يتوقف عن المشي ويتفحّص الشارع من أوله إلى آخره. وبعد ذلك، انعطف يساراً ليسلك الجادة الشرقية عبر ساحة كونجانيك.

قال جدي: "لم يعد بعيداً الآن". تمكنت من الوقوف إلى جانبه وقتاً كافياً سمح لي برؤية جانب وجهه، فوجدته مبتسماً.

قلت له بغضب وأنا متسارعة الأنفاس: "عمَّ تتحدث؟ إلى أين تأخذني؟". شددت جسمي باستياء، وتوقفت عن المشي. وقلت: "لن أمشي خطوة أخرى إلى أن تفسر لي ما يجري".

نظر إليّ باستياء وقال هامساً: "أخفضي صوتك أيتها الحمقاء كيلا تفضحي أمرنا. ألا تشعرين بذلك؟". وفجأة رفع ذراعيه فوق رأسه على هيئة قوس كبير، وقال: "أليس هذا جميلاً؟ ما من أحد مستيقظ سوانا". تابع السّير، فيما وقفت ساكنة للحظة، وأنا أتأمله يمضي في طريقه وهو أشبه بطيف نحيف وطويل وساكن. اتضحت لي الحقيقة فجأة، وعرفت أن جدي لم يكن يحتاج إلى مرافقتي بل يريدني أن أرافقه. وهكذا، تلقيت منه الدعوة لمرافقته مجدّداً من دون أن أعي ذلك.

مررنا بواجهات المحالّ الفارغة المتوقفة عن العمل، وبأبنية مظلمة تجثم عليها طيور الحمام على طول سلالم النجاة، وبمتسول نائم ملء جفونه لدرجة أنني كنت سأحسبه ميتاً لولا أنني أدركت أن اللحظة الحالية جمدت كل شيء حولنا وأضفت عليه السكون.

وعندما أدركت جدي أخيراً قلت له: "أصغِ إليّ. إنني لا أعرف ما الذي يجري، ولكنني أود أن أشارك فيه".

فجأة، توقف جدي عن المشي أمامي. ولم أتمكن من رؤيته في

الظـلام، فارتطـم ذقنـي بمرفـق يـده، وجعلتني شـدة الارتطـام أرتد إلى الـوراء، ولكنـه مـد يده إليّ وأمسـك كتفي وأنا أحاول أن أثبت نفسـي. وأخذ فكي يطقطق عندما وضعت يدي عليه.

وقف جدي على الرصيف مشيراً إلى الشارع الفارغ من بعيد وقال: "انظري إلى هناك". ورأيت يده ترتجف من فرط الانفعال.

فقلت له: "إنني لا أرى شيئاً".

قال: "بل ترين. نعم، إنك ترينه يا ناتاليا. انظري جيداً".

أمعنت النظر إلى الشارع حيث توجد خطوط السكة الحديدية التي تلمع كالسكاكين في الظلام. ورأيت شجرة على الرصيف الآخر، وعمود كهربـاء مصباحـه مطفـأ، وحاويـة قمامة مرمية علـى الأرض ومحتوياتها مبعثرة. أوشكت أن أفتح فمي لأقول: ماذا؟ ثم رأيت كل شيء.

على بعد نصف مربع سكني من مكان وقوفنا، رأيت ظلاً ضخماً يتحـرك علـى طـول جـادة الثـورة ببطء شـديد. في البدايـة، ظننته حافلة ركاب، ولكنّ شـكله بدا نابضاً بالحياة، ومتناسـقاً ومتكتلاً وهو يتحرك ببطء شـديد وصمت شـبه تام حيث إنه من المسـتحيل أن يكون حافلة. راح جســمه يتأرجح يمنة ويسـرة وهو يتحرك مبتعداً عنا بثقل وسـكون كمـا يتحـرك المـد. وكلما تقدم إلى الأمـام أكثر، صدر منه صوت ناعم شـبيه بصوت الجر على السـكك الحديدية. وبينما نحن نراقب بصمت، سحب ذلك الشيء نفساً ثم أطلق أنيناً عميقاً.

فقلت: "يا الله! إنه فيل".

التزم جدي الصمت، ولكنني نظرت إليه ووجدته مبتسـماً. وكانت نظارته قد غطّتها غشاوة في أثناء مشينا، ولكنه لم ينزعها ليمسحها.

قال: "هيا بنا". وأمسـك بيدي. مشـينا على طول الرصيف إلى أن أصبحنـا موازييـن للفيـل، ثـم تجاوزنـاه وتوقفنـا على بعد مئـة متر لكي نتمكن من مراقبته وهو يتقدم نحونا.

تأملنا الفيل وهو يقترب منا بجسمه الضخم الذي يهيمن على عرض الشارع، وصوته، ورائحته، وأذنيه الكبيرتين، وعينيه ذواتي الأجفان الكبيرة، وهيكله المستدير المقوس الذي ينحدر إلى وركيه، وطيات جلده الجاف الذي يهتز حول كتفيه وركبتيه وهو يجر وزنه الثقيل وجسمه المتكتل. على بُعد بضع أقدام منه، رأينا شاباً قصير القامة يحمل بيده كيساً - لا بد أن ما فيه مغرٍ جداً - ويمده نحو الفيل ويهمس له مشجعاً فيما كان يمشي بخطوات متقهقرة إلى الوراء.

قال جدي: "لقد رأيتهما عند محطة تريمكاينا وأنا قادم إلى المنزل. لا بد أنه يعيده إلى حديقة الحيوانات".

لاحظ الشاب وجودنا وهو يتراجع إلى الوراء على طول طريق الحافلات الكهربائية، فابتسم لنا وأومأ مُحيّياً. وكان يُخرج بين الحين والآخر شيئاً من كيسه ويقدمه للفيل، فيرفع الفيل خرطومه عن الأرض، ويأخذ ما قدمه له، ويضعه في فمه بين نابيه العاجيّين.

في وقت لاحق، قرأنا في الصحف أن بعض الجنود عثروا عليه على وشك الموت في موقع سيرك مهجور، وأن مدير حديقة الحيوانات طلب إدخاله الحديقة على الرغم من إغلاقها وإفلاسها وإلى ما هنالك ليتمكن الأطفال من رؤيته بعد أن تضع الحرب أوزارها. ظلت الصحف لأشهر تنشر صوراً له وهو واقف بجسمه الضخم في قفصه الجديد في حديقة الحيوانات. شكّل هذا الخبر بارقة أمل بمستقبل أفضل لحديقة الحيوانات، وبشّر بالنهاية الحتمية للحرب.

توقفت وجدي عند موقف الحافلات، بينما تقدم الفيل بخطوات بطيئة ومتأنية بسبب إغراء الطعام الذي يقدمه له الشاب. وانعكست أشعة القمر الشاحبة على الشعيرات الناعمة النابتة من خرطومه وتحت ذقنه، وعلى فمه المفتوح الذي يظهر فيه لسانه ممتدًّا وكأنه ذراع رطبة.

قلت: "لن يصدق أحد هذا أبداً".

قال جدي: "ماذا؟!".

"لن يصدق أي من أصدقائي هذا".

نظر إليّ جدي وكأنه لم يرني من قبل ولا يصدق أنني حفيدته. لم ينظر إليّ جدي بتلك الطريقة من قبل قطّ؛ حتى في الوقت الذي هيمن فيه الجفاء على علاقتنا، ولكنه لم يكرر ذلك مجدداً.

قال لي: "لا بد أنك تمزحين. انظري حولك وفكري للحظة واحدة. إننا في منتصف الليل، وما من أحد في الأنحاء في هذا الوقت. ولا يوجد حتى كلب يسير قرب المجاري. إن المكان خالٍ تماماً باستثناء الفيل. هل ستخبرين أصدقاءك الأغبياء عن هذا؟ لماذا؟ هل تظنين أنهم سيفهمون ما تنطوي عليه هذه اللحظة؟ هل تظنين أن هذا سيعني أي شيء بالنسبة إليهم؟".

تركني جدي وراءه، ومشى خلف الفيل. فتسمرت في مكاني واضعة يديّ في جيبيّ. وشعرت أن صوتي غاب وغرق في أعماقي، ولم أعد أستطيع أن أستعيده لأخبره أو أخبر نفسي أي شيء على الإطلاق. واصل الفيل تقدّمه إلى الأمام على طول الجادة، فيما تبعت جدي. وبعد مربع سكني واحد، وجدته واقفاً أمام مقعد مكسور بانتظار الفيل. أدركته، ووقفنا نحن الاثنان جنباً إلى جنب بصمت، وأنا أشعر بوجهي يتوهج خجلاً، وأسمع صوت أنفاسه الخافت. لم يعد الشاب ينظر إلينا.

في نهاية المطاف، قال جدي: "يجب أن تدركي أن هذه إحدى تلك اللحظات".

"أي لحظات؟".

قال: "إنها إحدى تلك اللحظات المميزة التي يحتفظ بها المرء لنفسه فقط".

فقلت: "ماذا تعني؟ لماذا؟".

قال: "نحن نعيش الآن في غمرة حرب محتدمة. إن قصة هذه

الحرب بكل تفاصيلها، كلحظة اندلاعها، والأسماء المرتبطة بها، والطرف الذي شنها، وسبب حدوثها؛ كلّها تنتمي إلى جميع الناس وليس فقط إلى المتورطين فيها؛ بل إلى أولئك الذين يكتبون عنها في الصحف، والسياسيين الذين يعيشون على بعد آلاف الأميال من هنا. إنهم أشخاص لم يزوروا هذا المكان قطّ أو يسمعوا عنه، ولكن هذه اللحظة ملك لنا. إنها تنتمي إليّ وإليك وحدنا ولا أحد سوانا". وضع يديه خلف ظهره ومشى متمهلاً وهو يرفع طرفي فردتي حذائه اللامع، ويبالغ بحركاته لكي يبطئ من سرعته. ولم تخطر بباله قط على ما يبدو أي فكرة عن العودة أو الذهاب إلى البيت. فقد بدا مصمماً على مواصلة السير على طول الجادة طالما أن الفيل وصاحبه يسمحان لنا بذلك. قال جدي: "يجب أن تفكري ملياً في المكان الذي تبوحين فيه بسر هذه اللحظة، وفي الشخص الذي تبوحين له بها. من يستحق أن يسمعها؟ جدتك؟ زورا؟ بالتأكيد ليس ذلك المهرج الأحمق الذي تتسكعين معه عند رصيف التحميل".

جرح كلامه شعوري. فقلت له بهدوء: "لقد اختفى".

قال جدي: "كنت أودّ أن أتمكن من القول إنني آسف لرحيله".

فقلت: "حسناً، ولكنني آسفة لرحيله. فقد تم تجنيده في الجيش". قلت هذا لأشعره بالذنب، ولكنني لم أكن واثقة من صحة كلامي فعلاً.

خيم الصمت علينا لبعض الوقت. ملأت أنفاس الفيل المكان حولنا بالضباب؛ وكأننا جالسون في غرفة محرك. وأخذ يطلق كل بضع دقائق صفيراً عالياً ومستمراً، مما يُشير إلى نفاد صبره الوشيك. فأصبح الشاب يقدّم له الطعام بسرعة أكبر.

سألت جدي: "هل لديك قصص من هذا النوع؟".

"لديّ الآن".

قلت: "كلا، أقصد قصصاً حدثت في الماضي".

لاحظت أنه كان يفكر في الأمر. ظل يفكر لوقت طويل بينما نحن نمشـي مـع الفيـل. ولو أن هذا قـد حدث في ظل ظروف مختلفة بعض الشـيء لقـص علـيّ ربمـا قصة زوجة النمر. ولكنّـه بدلاً من ذلك، قص عليّ قصة الرجل المحصّن.

* * *

قال جدي وهو يضع يديه خلف ظهره ويمشي وراء فيلنا:

تجري أحداث القصة في أواخر صيف عام 54 وليس 55 لأن هذه هي السنة التي قابلت فيها جدتك. كنت أعمل في ذلك الوقت مساعداً أول في تقييم الإصابات في الكتيبة إلى جانب متدرِّبي، أو طبيبي المقيم كما يمكن أن يُسـمى، واسـمه دومينيك لازلو، وهو شـاب هنغاري فتي متقـد الـذكاء دفـع مبالـغ طائلة من المال ليدرس فـي جامعتنا مع أنه لا يجيـد كلمـة واحـدة مـن لغتنا. وحده الله يعلم لماذا ليس في باريس أو لندن وهو ماهر إلى هذا الحد باستخدام المبضع. ورغم ذلك، فهو ليس ماهراً في الكثير من الأمور الأخرى. على أيّ حال، وردت مكالمة من إحدى القرى التي يبدو أن فيها وباء متفشياً أودى بحياة البعض، ودبّ الرعب في قلوب من بقوا على قيد الحياة. إذ كانوا يعانون من سـعال رهيب، ويرون دماء على وسائدهم في الصباح. بدت هذه حالة واضحة كالشـمس بالنسـبة إليّ كما لو أنّ أحدهم قال لي إن هناك وعاء حليب فارغاً إلى جانبه قط كبير سـمين على شـواربه آثار حليب بينما يتسـاءل الجميع أين ذهب الحليب.

هكذا، أركب متطفلاً بصحبة متدرِّبي في إحدى العربات متوجهَين إلـى تلـك القرية، فيسـتقبلنا هناك ماريك؛ الشـاب الـذي اتصل بنا طالباً حضورنا، وهو ابن زعيم القرية وطالب في الجامعة. وكان شـاباً قصير القامة وقوي البنية. يصطحبنا ماريك عبر القرية، ويدعونا إلى بيت والده، وتقدّم لنا أخته، وهي امرأة بدينة ومحببة كمعظم النساء القرويات، بعض

القهوة والخبز والجبن؛ وهذا ما نعتبره تغييراً لطيفاً عن العصيدة التي اعتدنا أن نأكلها كل يوم في الثكنة. يقول ماريك: "ثمة أمرٌ طارئ، أيها السيدان". أتوقع منه أن يقول إن الوباء قد ازداد سوءاً، وإن حصيلة الموتى قد ارتفعت فانتشر الذعر بين الناس، ولكنني أكتشف لاحقاً أنني محق في جزء من توقعاتي ولا سيما بخصوص الذعر.

على ما يبدو، هذه هي مجريات الحدث: يموت رجل ما فتقام له جنازة. وفي الجنازة، يجلس الرجل الميت، واسمه غافو، في تابوته ويطلب أن يشرب بعض الماء. فيصاب الناس بدهشة عارمة. وفي التفاصيل، عند الساعة الثالثة عصراً، يتبع الموكب التابوت إلى مكان الدفن. في البداية، يسمع الناس ضجة، ويتحرك الجثمان في التابوت، وبعد ذلك ينزلق الغطاء عن التابوت، فيشاهد الناس غافو شاحباً ومزرقًّا كما بدا في اليوم الذي عثروا عليه فيه غارقاً، وجثته منتفخة في بركة بعيدة عن البلدة. يجلس غافو في التابوت مرتدياً بذلته المكوية، وقبعته بيده، وهناك منديل أرجواني مطوي في جيبه. يا لها من دهشة عارمة! ينظر الرجل وهو محمول عالياً في نعشه - وكأنه رجل في قارب - حوله إلى الموكب بعينين محمرتين ويقول: "ماء". وهذا كل شيء. وبحلول الوقت الذي يدرك فيه الحمالون ما حدث، ويسقطون التابوت على الأرض، ويهربون كالمجانين، يكون غافو قد عاود السقوط في التابوت.

هذه هي الأحداث التي يرويها لنا ماريك حيال هذا الأمر الطارئ.

من مكان جلوسنا في منزل ماريك، أستطيع أن أرى الباب المفتوح والطريق الذي يعبر الحقل وباحة دار العبادة، وألاحظ أن البلدة خالية تماماً. وأرى رجلاً واقفاً عند باب دار العبادة الصغيرة وبيده مسدس. يخبرني ماريك أنه الحانوتي، واسمه آرن داريك، وأنه لم ينم منذ ستة أيام. وهكذا، يخطر ببالي أنه من المفيد أكثر أن أساعد هذا الرجل

المدعو آرن داريك.

في هذه الأثناء، يتابع ماريك سرد الأحداث. فيقول إن الرجل المدعو غافو لم ينهض من التابوت مرة أخرى، وذلك لأن شخصاً مجهولاً من موكب الجنازة أطلق رصاصتين من مسدس عسكري على مؤخر رأس غافو فيما كان جالساً في التابوت بعد أن وضعه الحمالون على الأرض مباشرة. ولكن المثير للدهشة في الأمر سبب وجود شخص على أهبة الاستعداد لإطلاق الرصاص في موكب جنازة. لا يبوح ماريك بهذا الجزء من القصة إلا بعد أن يحتسي بضع كؤوس من شراب الخوخ.

أقوم طوال هذا الوقت بتدوين الملاحظات متسائلاً عما يربط بين غافو والوباء الذي أتيت إلى هنا لأعالجه. وعندما يذكر ماريك قصة الرصاصتين، أضع قلمي على الطاولة وأقول: "إذاً، لم يكن الرجل ميتاً، أليس كذلك؟".

فيقول ماريك: "بلى أيها الطبيب. لقد كان غافو ميتاً بكل تأكيد".

أسأله قائلاً: "أتقصد قبل أن تطلق النار عليه؟". وأشعر أن المسألة برمتها تتخذ منحى مختلفاً، وأنهم الآن يختلقون الأعذار لتغطية الجريمة.

يهز ماريك كتفيه ويقول: "إنها مفاجأة، أعرف ذلك".

أواصل كتابة الملاحظات، ولكن ما أكتبه ليس منطقياً. فينظر ماريك باهتمام فوق الطاولة ويقرأ ما أكتبه بالمقلوب. ويحدق دومينيك - الذي أشك في أنه يفهم أياً مما يجري - وكأنه يطلب تفسيراً ما.

أقول: "يجب علينا أن نرى الجثة".

يضع ماريك يديه على الطاولة. ويمكنني أن ألاحظ أنه من نوع الناس الذين يقضمون أظفارهم عندما يشعرون بالتوتر. ولا بد أنه كان يقضمها كثيراً مؤخراً. يقول لي الرجل: "هل أنت واثق من أن هذا ضروري؟".

"سيتوجب علينا أن نراها".

"لست أدري فعلاً، يا دكتور".

أعد لائحة بأسماء كل الأشخاص الذين أريد أن أتحدث إليهم؛ وتشمل كل شخص مريض، وكل أفراد عائلة هذا الشخص العائد من الموت؛ وخاصة رجل الدين والحانوتي اللذين من المرجح أنهما يعرفان كيف بدا ذلك الرجل قبل أن يتم إطلاق النار عليه. أقول لماريك: "إن الكثير من الناس مرضى هنا يا ماريك. فإن كان ذلك الرجل مريضاً...".

"لم يكن مريضاً".

"عذراً! ماذا تقصد؟".

"لقد كان بصحة جيدة".

ينقل دومينيك نظره بارتباك شديد بيني وبين ماريك. ولا بد أنه يعرفني جيداً بما فيه الكفاية ليدرك أن التعبير الذي بدا على وجهي لا يدل على البهجة على الأرجح. فتتملكه حيرة شديدة مما يجري. ولا يبدو ماريك نفسه على ما يرام أيضاً. فأقول: "إذاً، حسناً جداً يا ماريك. سأعلمك بتقييمي للوضع. بالنسبة إلى أهالي القرية، بمن فيهم السيد غافو نفسه، فأنا واثق من أن اكتشافاتي على الأرجح ستتوصل إلى تشخيص مرض السل الرئوي. إذ إنه يتفق مع الأعراض التي وصفتها لي كالسعال الدموي وإلى ما هنالك. وإنني أود أيضاً أن يجتمع كل المرضى في مستشفى البلدة بأقصى سرعة ممكنة، وأن أضع هذه البلدة تحت الحجر الصحي إلى أن نُقيِّم مدى انتشار المرض".

في تلك اللحظة، يستغل ماريك صمتي ويقول لي بحدة: "ماذا تقصد بالسل الرئوي؟". ويبدو مضطرباً جداً. كان من المتوقع أن يضطرب لدى سماعه كلمتي السل الرئوي، ولكنني أتوقع أن يصدر منه نوع آخر من الرعب. إذ توحي الطريقة التي ينظر بها إليّ بأن تشخيصي لا يناسبه؛ وكأنه غير ملائم، أو قاسٍ بالنسبة إلى توقعاته.

فيقول ماريك: "ألا يمكن أن يكون شيئاً آخر؟".

فأقول له إن هذا غير ممكن، ولا سيما بوجود هذه الأعراض وحالات الوفاة المتكررة للمرضى واحداً تلو الآخر مخلفين وراءهم وسائد ملطخة بالدم، ولكنني أطمئنه بأن كل شيء سيكون على ما يرام، وأنني سأطلب إرسال الدواء والممرضات وطبيب آخر من المدينة ليساعدني.

ولكنه يقول: "نعم. ولكن، ماذا إن لم يساعدنا هذا؟".

"بل سيساعدكم".

فيقول: "نعم، إن كان المرض هو السل فعلاً، وإن كنت محقاً في تشخيصك".

"إنني لست واثقاً تماماً مما ترمي إليه".

يقول ماريك: "ماذا إن كنت مخطئاً؟ ماذا إن كان مرضاً آخر؟". وفجأة، بدأ الغضب العارم يتملكه فقال: "لا أظن أنك تدرك الحقيقة، يا سيدي. إنني أشك فعلاً في أنك تدركها".

أقول: "حسناً، إذاً أخبرني كل شيء".

يقول ماريك: "حسناً، هناك دماء على وسائدنا. وهناك دماء على طيات معطف غافو".

"لأنكم أطلقتم النار عليه".

كاد ماريك أن يسقط عن مقعده وهو يقول بانفعال: "لم أطلق النار عليه أيها الطبيب. فقد كان ميتاً أصلاً".

أعاود الكتابة على دفتر ملاحظاتي لأحافظ على الأقل على المظهر الرسمي، فيما يتصبب دومينيك عرقاً من فرط الإحباط، وأقول: "سيتوجب عليّ أن أتحدث إلى أفراد عائلته".

"ليست لديه عائلة. فهو ليس من هذه الأنحاء".

"إذاً، لماذا كان سيتم دفنه هنا؟".

"إنـه بائـع متجـول قـادم من خـارج القرية، لذا نحـن لا نعرف عنه شيئاً، ولكننا أردنا أن نسدي إليه معروفاً".

يبـدأ الوضـع بإثـارة إحباطي أكثر فأكثر. ولكن، يخطر ببالي أن هذا هو السبب في إصابتهم جميعاً بالسل فجأة. إذ ربما كان مصاباً به فنقل العدوى لأهل القرية رغم أنه بدا لهم صحيح الجسم. ولكنه أمضى وقتاً قصيراً جداً هنا، وهذا بالتأكيد ليس وقتاً كافياً لانتشـار الوباء في القرية بأكملها. ولكن، من الواضح أن المدة كانت كافية لكي تجعلهم يطلقون الرصاص على مؤخر رأسه. قلت: "من سيمنحني الإذن لنبش الجثة؟".

يبـدأ ماريـك بعصـر يديه بتوتر قائلاً: "لا حاجة إلى ذلك. فقد ثبتنا غطاء التابوت بالمسامير، ثم وضعناه في دار العبادة. إنه لا يزال هناك".

أنظـر عبـر البـاب المفتوح مجـدداً، وأجد آرن داريك بكل تأكيد لا يزال واقفاً أمام باب دار العبادة والمسـدس في يده من باب الاحتياط. فأقول: "فهمت".

يقول ماريك: "كلا". ويوشـك على البكاء وهو يعصر قبعته بيديه باهتيـاج، بينمـا يبـدو أن دومينيـك قـد فَقَـد الأمل تماماً. يقـول ماريك: "كلا، إنك لا تفهم شـيئاً. هناك شـخص ملابسـه ملطخة بالدماء يجلس فـي تابوتـه، وهنـاك دمـاء على وسـائدنا في الصبـاح. لا أظن أنك تفهم شيئاً على الإطلاق".

* * *

وهكـذا، أجـد ودومينيـك نفسـينا واقفيـن في دار العبـادة الحجرية الصغيرة في بيسترينا. ننظر إلى تابوت الرجل المدعو غافو الذي وضعه الأهالـي فـي زاوية مائلـة بجانب الباب، وكأنهم فعلوا ذلك على عجل، ونجـد أنـه تابـوت خشـبي مغبّر. يسـود الهدوء في دار العبـادة الحجرية ذات النوافذ الزرقاء، وتفوح منها رائحة خشب الصندل والشمع، وتزينها أيقونـة معلقـة فـوق الباب. إنهـا جميلة، ولكن، من الواضح أن أحداً لم

يدخلها منذ وقت طويل. إذ إن الشموع كلها مطفأة. ويبدو تابوت الرجل المدعو غافو مغطى ببراز طيور الحمام التي تعيش في البرج. يحزنني أن أرى هذا المشهد لأن غافو لم يرتكب، على حد علمي، جريمة تستحق أن يتلقى رصاصتين في رأسه في أثناء تشييع جنازته.

بعد أن ندخل، يغلق آرن داريك الباب خلفنا بسرعة. يخيم الهدوء لبعض الوقت في دار العبادة الصغيرة. ندخل حاملين حقيبتينا بالإضافة إلى مُخْل أحضرناه لنفتح به التابوت، ولكننا نكتشف أن المخل وحده لا يكفي وأنه ينبغي لنا ربما أن نستعين بقطيع من الثيران لفتح التابوت لأنه ليس مثبتاً بالمسامير فقط، وإنما تم إغلاقه بألواح خشبية، وهو محاط بسلاسل تبدو مثل سلاسل الدراجات. نلاحظ أن أحدهم فكر في ما بعد في رمي حزمة من الثوم على التابوت. إذ إننا نرى رؤوساً من الثوم مُلقاة عليه بقشورها.

يتمالك دومينيك نفسه بما فيه الكفاية ليقول: "يا للخزي والعار!".

ثم يتفل ويقول: "يا لهم من رعاع!".

في تلك اللحظة، نسمع شيئاً لا يصدقه العقل، ويستحيل أن يدركه الإنسان بحواسه أو يصدق حدوثه ما لم يسمعه بأذنيه في تلك الدار الهادئة. إنه صوت احتكاك خافت. وفجأة، يتبعه من داخل التابوت صوت صريح ومؤدب ومكبوت بعض الشيء يقول: "ماء".

تعترينا بالطبع دهشة عارمة تسمرنا في مكانينا. يقف دومينيك لازلو بجانبي ممسكاً بالمخل في قبضة يده المشدودة البيضاء. ويبدو تنفسه بطيئاً وسطحياً، فيما يتصبّب العرق من جبينه وهو يطلق بصوت خافت الشتيمة تلو الأخرى باللغة الهنغارية. أهمّ بأن أقول شيئاً عندما أسمع الصوت يقول بالنبرة السلبية المهذبة نفسها وكأنه يطلب إذناً: "عذراً، أريد ماء، لو سمحتم".

وعندئذ، نبدأ معاً بالتصرف بسرعة لإنقاذ الرجل الحي المحبوس

داخل التابوت. يقحم دومينيك لازلو طرف المخل تحت الغطاء، بينما أركع أنا على ركبتي لأنزع سلاسل الدراجات. ونشرع بضرب التابوت وكأننا نحاول أن نحطمه كله إلى قطع. يثبت دومينيك قدمه على طرفه، ويضغط بقوة على المخل وكأنه مجنون، بينما أحثه على الدفع أكثر فأكثر رغم عدم حاجته إلى مساعدتي في ذلك. وعندئذ، ينكسر الغطاء بقوة محدثاً فرقعة عالية، فنرى الرجل المدعو غافو مستلقياً على وسادة، وهناك منديل أرجواني مطوي في جيبه، ووجهه مغبر بعض الشيء، ولكنه خلافاً لذلك يبدو سليماً تماماً.

نمسك بذراعيه ونشده قليلاً لنجلسه، وهذا ما أظنه الآن بعد تأملي في الأحداث الماضية تصرّفاً غير حكيم بتاتاً؛ ولا سيما بالنسبة إلى شخص تعرض لطلق ناري في مؤخر رأسه، لأننا لا نعرف ما الذي أبقاه حياً، ولكنني أجد الوضع برمته استثنائياً. إذ كنت قد توقعت أن أرى رجلاً أكبر سناً بقليل، ولديه شعر أبيض وربما شارب.

لكن غافو يبدو شاباً في مقتبل العمر، ولا يتعدى الثلاثين من عمره، ويتمتع برأس حسن الشكل وشعر داكن. وتظهر ملامح وجهه تعبيراً يدل على البهجة. من الصعب أن يصدق المرء أن رجلاً أُخرج للتو من تابوت ظل محبوساً فيه بضعة أيام يمكن أن يبدو حيوياً هكذا؛ وهذا هو أكثر ما يدهش في الأمر. إذ إنه يبدو مسروراً جداً وهو جالس هناك ويداه على حضنه.

ولكنني لا أزال أجد وضعه مثيراً للقلق، ولهذا أفتح عينيه بأصابعي على اتساعهما وأتفحصهما، وأسأله قائلاً: "هل تعرف اسمك؟". فينظر إليّ باهتمام، ويقول: "آه، نعم. اسمي غافو". ويظل جالساً بهدوء وصبر بينما أتحسس جبينه وأجسّ نبضه، ثم يقول: "إنني آسف، ولكنني أود فعلاً أن أحصل على بعض الماء".

وفي الحال، ينطلق دومينيك جرياً عبر البلدة متوجهاً إلى البئر،

ويتجاوز ماريك الذي يصيح خلفه قائلاً: "لقد قلت لكما، أليس كذلك؟". وفي تلك الأثناء، أفتح حقيبتي الطبية وأخرج معداتي. أصغي إلى قلب غافو وأجده لا يزال ينبض بقوة تحت عظام صدره الرقيقة. يسألني غافو عن هويتي، فأخبره أنني أدعى الدكتور ليندرو من الكتيبة الفلانية، وأطلب منه أن يبقى مطمئناً. يعود دومينيك وبحوزته بعض الماء. وعندما يُميل غافو الدلو ليشرب منه، ألاحظ قطرات من الدم على وسادة التابوت. أنظر ودومينيك إلى مؤخر رأس غافو، ونجد الرصاصتين مغروزتين فيه وكأنهما عينان معدنيتان وسط شعره الكثيف. والآن، هناك سؤال يطرح نفسه: هل ينبغي لنا أن نخاطر وننقله أو أن نعمل على إزالتهما هنا؟ هل ينبغي لنا أن نزيلهما أصلاً؟ ماذا إن سحبنا الرصاصتين فسال دماغ الرجل من الثقبين وكأنه بيض نيء؟ في تلك الحالة، سنُقيم له جنازة ثانية، وسنضطرّ إلى مقاضاة القرية بأكملها بتهمة القتل وإلا اعتُبرنا متورطين في الجريمة. وهكذا، سينتهي الأمر برمته نهاية مأساوية تحل فوق رأس الجميع.

لهذا أسأله: "كيف تشعر يا غافو؟".

ينهي غافو شرب الماء، ويضع الدلو على ركبتيه، ويبدو عليه الانتعاش وهو يقول: "أفضل بكثير، شكراً لك". ثم ينظر إلى دومينيك ويشكره باللغة الهنغارية ويمتدح استخدامه البارع للمخل في فتح التابوت.

فأقول له متوخياً أكبر قدر من الحرص: "لقد أُصبت برصاصتين في مؤخر رأسك، لذا يجب أن ننقلك إلى المستشفى لكي نقرر أفضل طريقة لمعالجتك".

ولكن غافو يظل مبتسماً ببهجة ويقول: "كلا، شكراً لك، فقد تأخر الوقت الآن. وينبغي لي أن أتابع طريقي". ويقبض على طرفي التابوت بيديه ويرفع نفسه لينهض من التابوت هكذا بكل بساطة. فتثور

معه سـحابة صغيرة من الغبار وتسـقط على الأرض. يقف على قدميه، وينظـر إلـى النوافـذ الزجاجية الزرقاء التي تخترقها أشـعة الضوء وكأنها تخترق سطح البحر.

أنهض وأدفعه لأعيده إلى مكانه وأنا أقول له محذراً: "من فضلك، لا تفعل هذا مجدداً. إنك تعاني من وضع صحي خطير جداً".

يقـول وهـو يبتسـم: "إنـه ليـس خطيراً إلـى هذا الحـد". ويمد يده إلى الخلف، ويلمس الرصاصتين في مؤخر رأسه وهو يبتسم لي طوال الوقـت كالبقـرة الغبيـة. أتخيل أصابعه تدور حـول الرصاصتين وأنا أمد يـدي إلـى يديـه لأمنعـه من القيام بذلـك. ويُخيَّل إلـيّ أن عينيه تدوران داخـل رأسـه وخارجـه مـع دوران الرصاصتين داخـل دماغه. إن هذا لا يحـدث بالطبـع، ولكـن هـذا الوضـع الغريب يفسـح المجـال لتخيلات مضحكـة كهـذه. يقـول الرجـل: "إنني أدرك أنك تجد الأمـر مرعباً جداً أيها الطبيب، ولكن هذه ليست المرة الأولى التي يحدث لي فيها شيء من هذا القبيل".

فأقول له: "أرجو المعذرة!".

فيجيبنـي قائـلاً: "لقـد أصبـت بطلق ناري في عيني فـي بلوفوتجي خلال إحدى المعارك".

أقـول: "أتقصـد أحـداث السـنة الماضيـة؟". فقد وقعت مناوشـات سياسـية فـي تلـك المنطقـة فـي ذلـك الوقـت، ولقـي بضعة أشـخاص حتفهـم، ولكننـي أظنـه مخطئـاً بشـأن إصابته في عينه لأن أيـاً من عينيه ليست زجاجية.

يقول: "كلا، كلا، أقصد في الحرب".

ولكن المعركة الأخرى التي يتحدث عنها تعود إلى عشـرين سـنة مضـت. أتجاهـل كلامـه لأننـي أقرر بحلـول هذا الوقت أنـه ليس هناك شـيء في وسـعي فعله عدا ذلك. وأفكّر في سـرّي أن الرصاصتين قد

حولتا دماغه فعلاً إلى لحم مفروم. ثم أقول له إنني أدرك أنه يعاني من ألم رهيب، وإنه من المستحيل أن يتقبل أي إنسان عاقل هذه الترهات، ولكنه يصر على مواصلة الابتسام لدرجة أنني أتوقف عن الكلام وأحدق إليه باستغراب. إنه ربما مصاب بتلف في الدماغ أو بالصدمة أو بنزيف حاد، ولكنه ينظر إلينا بهدوء شديد لدرجة أن دومينيك يهمس له سؤالاً باللغة الهنغارية. فأدرك تماماً - رغم أنني لا أجيد الهنغارية - أنه يسأله إن كان مصاص دماء، ولكن السؤال لم يدفع غافو للضحك ساخراً من سذاجة دومينيك بل ظلّ مصراً على لطفه المعهود. فيما بدا دومينيك موشكاً على البكاء.

يقول غافو: "لا تسئ فهمي. إنها ليست مسألة خارقة للطبيعة، ولكنْ لا يمكنني أن أموت".

يصيبني كلامه بالصدمة، فأسأله: "ماذا تعني؟".

"ليس مسموحاً لي بذلك".

"أرجو المعذرة!".

يكرر كلامه ببساطة وكأنه يقول: لا يسمح لي الأطباء بالرقص أو بالزواج من امرأة بدينة، وذلك لدواعٍ صحية.

عندها، يدفعني الفضول لكي أسأله: "إذاً، كيف عثر عليك غريقاً؟".

"لم أغرق كما ترى بأم عينيك".

"إن أهالي القرية يقسمون إنك كنت ميتاً عندما انتشلوا جثتك من الماء ووضعوك في هذا التابوت".

"إنهم أناس لطفاء جداً. هل قابلت ماريك؟ إن أخته امرأة لطيفة جداً". ويؤدي بذراعيه حركة دائرية طريفة.

"كيف يمكن لعشرين شخصاً أن يحسبوك ميتاً رغم أنك لم تغرق فعلاً حسب ادعائك؟".

يقول غافو: "كنت أتحدث إلى أحد السادة، ولكن ما قلته لم يلق

استحسـاناً لديـه، ولهـذا دفـع بي تحت الماء، وربمـا فقدت وعيي فقط. إذ إن التعـب والإرهـاق ينـالان مني بسـرعة فـي بعض الأحيان. إن هذه الأمور تحدث للجميع".

أسـأله: "أتقـول إنّ رجـلاً قـد دفعـك تحـت المـاء؟!". يومئ غافو برأسه. فأسأله: "أي رجل؟".

"إنه أحد القرويين وهو يتمتع بمنزلة خاصة".

أشـعر أن القصـة تـزداد تعقيـداً أو توشـك أن تكشـف عن حقيقة بغاية البسـاطة، ولهذا أقول: "هل هو الشـخص نفسـه الذي أطلق النار عليك؟".

ولكـن غافـو يقـول: "إننـي لا أعـرف حقـاً. إذ مـن الواضـح أننـي تعرضـت لإطـلاق النـار مـن الخلـف". يلاحـظ النظـرة التـي أرمقه بها فيضيف: "يتملكني شعور بأننا لا نفهم بعضنا كما ينبغي. إنني لا أقول إنني لا أتقبل فكرة الموت أو إنني أتظاهر بأنه لم يحدث ولهذا السبب مـا زلـت حيـاً، بـل أؤكد لـك يقيناً، كيقيني من أننـي أراك أمامي، وأرى زميلك الهنغاري الذي يرفض التخلي عن أداته الحادة لأنه لا يزال يظن أنني مصاص دماء، أنني محصّن".

"لماذا؟".

"لأن عمي حصّنني".

"عمك! من هو عمك؟".

"لا أرغب في أن أقول لك ولا سـيما لأنني أشـعر أنك سـتضحك علـي. والآن..." يحـرّك جسـده مـرة أخـرى، ويتابـع قائـلاً: "إن الوقت متأخـر. ولا شـك فـي أن بعـض القروييـن يحومـون في الخـارج ليروا مدى التقدم الذي تحرزه، لذا دعاني رجاءً أنهض وأمضي في سبيلي".

"لا تنهض".

"من فضلك لا تجذب معطفي".

"إنني أمنعك لأن دماغك الآن محجوز في رأسك بفعل الرصاصتين المحشورتين فيه. وإن خرجت إحداهما، فسيتدفق كل شيء إلى الخارج ويسيل كالكريما المخفوقة. سأكون مجنوناً إن تركتك تنهض".

يقول لي بلهجة سخط: "سأكون مجنوناً إن بقيت هنا. في أي لحظة الآن، سيخرج زميلك الهنغاري ويستدعي الآخرين. وسيأتي من يلقي علي الثوم ويطعنني بالأوتاد، وإلى ما هنالك. ورغم أنني لا أموت، إلاّ أنني أؤكد لك أنني لا أحب أن يُدخل أحدهم وتد خيمة في أضلاعي. فقد تعرضت لهذا من قبل ولا أريد أن يتكرر هذا الأمر".

"إن وعدتك بأن أمنع القرويين من التدخل، وأن أؤمن لك أطباء حقيقيين، وسريراً نظيفاً في المستشفى من دون أن تتعرض للضرب بالأوتاد والصراخ، فهل ستلزم مكانك وتدعني أقوم بعملي؟".

يضحك الرجل من كلامي. فأخبره أنني أريد أن آخذه إلى مستشفى ميداني يقع على بعد عشرين كيلومتراً من هنا لأحرص على أن ينال العناية الملائمة، وأنني سأرسل دومينيك إلى هناك مشياً على الأقدام ليحضر بعض الأشخاص بالسيارة. وعندئذ، سننقله إلى المستشفى وهو ممدد داخل التابوت، وسنحرص على أن يحظى بالراحة خلال الرحلة. وأقول له - من باب الطمأنة فقط - إن هذه الوسيلة ستساعده على الأقل على الخروج من هنا بأمان، وستضمن له البقاء على قيد الحياة؛ وذلك لأنني أظن أنه خائف من الرجل الذي أطلق عليه النار. في هذه الأثناء، يواصل الرجل النظر إليّ بتعاطف كبير جداً وكأنه مسرور مما أقوله ومتأثر جداً من شدة حرصي على سلامة دماغه المثقوب. ويقول إنه موافق على البقاء إلى أن يصل الطاقم الطبي. لذا، أعطي دومينيك التعليمات، وآمره بأن يعود أدراجه إلى المستشفى الميداني سيراً على الأقدام، وأن يطلب إعطاءه سيارة ونقالة، وأن يطلب من أحد الجراحين الميدانيين الآخرين مرافقته. يبدو دومينيك قلقاً من فكرة تركي وحدي

مع مصاص الدماء. ويمكنني أن ألاحظ أنه ليس متحمساً على الإطلاق للمشي مسافة اثني عشر كيلومتراً في الظلام؛ ولا سيما بعد ما رآه، ولكنه يوافق على إنجاز المهمة. وقبل أن يمضي في سبيله، أطلب منه أن يُصدر أمراً إلى أقرب حارس بوقف المرور على الجسر لكي يمنع مرضى القرية من المغادرة، ويحول دون عبور أي شخص مسافر في هذا الاتجاه؛ إلى هذه القرية. يصافح غافو دومينيك مودعاً، فيبتسم له دومينيك ابتسامة ضعيفة وينطلق لتنفيذ مهمته.

وهكذا، أبقى وحدي مع غافو. أنير بعض المصابيح، وتبدأ طيور الحمام الجاثمة على العوارض الخشبية فوقنا بالهديل والرفرفة هنا وهناك في الظلام. أطوي معطفي وأضعه كالوسادة في التابوت، ثم أخرج ضماداتي وأبدأ بتضميد رأس غافو لكي لا تخرج منه الرصاصتان، بينما يلزم مكانه بثبات وصبر شديدين وهو يرمقني بتلك النظرة الثابتة كنظرة البقرة. ويجعلني أتساءل للمرة الأولى إن كان وجوده سيشعرني بالقدر الكافي من الأمان والراحة لأستغرق في النوم من دون أن أستيقظ فزعاً في منتصف الليل وأراه واقفاً فوقي وهو يزأر كالوحش، وعيناه بارزتان من وجهه كعيني الكلب المسعور. إنك تدركين أنني لا أثق بهذه الخرافات يا ناتاليا، ولكنني وجدت نفسي في تلك اللحظة أشعر بالأسى لحال دومينيك المسكين الذي يثق بها.

أسأل غافو عن حادثة الغرق التي تعرض لها فأقول: "من هو الرجل الذي حاول أن يغرقك؟".

فيجيبني غافو: "إن هذا غير مهم على الإطلاق".

فأقول له: "أعتقد أنه قد يكون الرجل نفسه الذي أطلق النار عليك".

فيقول غافو: "ما المهم في هذا الأمر؟ فهو لم يقتلني".

أقول: "ليس بعد".

ينظر إليّ بصبر وأنا أمرر الضمادة فوق إحدى عينيه. فيبدو الآن

أشبه بالمومياء التي تظهر في أفلام الرعب. يقول غافو: "كلا، لن يحدث هذا".

لا أشعر بالرغبة في العودة إلى الحديث نفسه عن حصانته، لذا أقول له: "لماذا حاول أن يغرقك؟".

يجيبني بسرعة كالبرق: "لأنني أخبرته أنه على وشك أن يموت".

يا للهول! أيعقل أن أعالج مجرماً وأضمد رأسه وأنا غافل عن حقيقته؛ هذا ما يخطر ببالي في تلك اللحظة. لا بد أنه أتى إلى هنا ليقتل شخصاً ما، وأنهم حاولوا أن يغرقوه ثم أطلقوا عليه النار في رأسه دفاعاً عن النفس. لم تمضِ سوى نصف ساعة على مغادرة دومينيك، لذا سيتوجب عليّ أن أمضي الليل بطوله وحيداً مع هذا الرجل. من يدري ما قد يحدث الآن؟ أفكر في سرّي أنه يجب عليّ أن أستعد - إن حاول الاقتراب مني - لكي أسدد له ضربة على مؤخر رأسه وأقلب تابوته وأهرب مسرعاً كالصاروخ.

أقول: "هل أتيت لتقتله؟".

يقول غافو: "بالطبع لا. فقد كان يُحتضر من جراء إصابته بالسل. لا بد أنك سمعت ما يقال في أنحاء القرية. إنني واثق من هذا. لقد أتيت إلى هنا لأخبره بالحقيقة وأمد له يد المساعدة ولأتواجد إلى جانبه عند احتضاره. لنكن صريحين أيها الطبيب. هناك دماء على الوسائد وسعال رهيب. بماذا شخصت هذين العارضين حتى قبل أن تصل إلى هنا؟".

يصيبني كلامه بالدهشة، فأسأله: "هل أنت طبيب؟".

"نعم، كنت طبيباً في ما مضى".

"والآن؟".

يقول: "كلفت نفسي بمهمة التواجد إلى جانب المحتضرين".

"مهمتك!".

يقول: "من أجل عمي. إنني أفعل هذا وفاء لدين عمي".

فأقول: "هل عمك رجل دين؟".

يضحك غافو، ويقول: "كلا، ولكنه يقوم بالكثير من العمل من أجل رجال الدين". أنهي تضميد رأسه وهو لا يزال مصراً على عدم البوح باسم عمه. فتبدأ الشكوك تساورني من أن يكون أحد الزعماء السياسيين المتطرفين، أو من أولئك الرجال الذين يثيرون المناوشات في الشمال. إن كان ذلك صحيحاً، فأنا أفضل ألاّ أعرف من هو عمه.

أقول له: "ربما تودّ أن تتعرف إلى الرجل الذي حاول أن يقتلك لأنه قد يحاول أن يؤذي الآخرين".

"إنني أشك في أن يحدث هذا، لأنه ليس هناك أحد آخر سيخبره أنه على وشك الموت".

"إذاً، أخبرني بهويته ليتسنى لي أن أمنحه العلاج اللازم".

فيقول غافو: "لقد تجاوز ذلك الرجل مرحلة العلاج، ولذلك فإنني أتفهم سبب غضبه ولا ألومه لأنه حاول أن يغرقني". يراقبني وأنا أعيد معداتي إلى حقيبتي الطبية وأغلقها، ثم يضيف قائلاً: "إن الناس يستاءون كثيراً عندما يشعرون بأنهم يوشكون على الموت. لا بد أنك تدرك هذا يا دكتور، لأنك ترى حالات كهذه طوال الوقت".

أجيبه قائلاً: "أظن ذلك".

يقول غافو: "إنهم يتصرفون بغرابة شديدة. إذ فجأة يملأهم حب الحياة، ويرغبون في المقاومة ويطرحون شتى الأسئلة. ولا يتوانون عن رش الماء الحار على وجهي، أو عن ضربي بمظلة إلى أن أفقد وعيي، أو عن تحطيم رأسي بصخرة. وفجأة، يتذكرون كل الأعمال التي لم ينجزوها بعد، وكل الأشخاص الذين نسوا أمرهم؛ كل هذا مجرد رفض للحقيقة ومقاومة لمصيرهم. يا له من ترف!".

أقيس حرارة غافو وأجدها طبيعية. ولكن، يبدو لي من كلامه أنه يزداد غضباً.

أقول له: "لِمَ لا تعاود الاستلقاء على ظهرك؟".

ولكنه يجيبني: "إنني أحتاج إلى المزيد من الماء، من فضلك". ويخرج من مكان ما داخل تابوته ربما، أو من جيب معطفه فنجاناً صغيراً أبيض اللون ذا إطار ذهبي ويمده نحوي.

أقول له إنني لا أوافق على التوجه إلى بئر القرية وتركه وحده هنا. فيشير إلى الممر، ويقول إن المياه الموجودة عند المذبح ستفي بالغرض. إنك تعرفينني حق المعرفة يا ناتاليا، وتعرفين أنني لا أثق بهذه الأشياء، ولكنني أرسم رمز النصارى أمام صدري عندما أدخل دار عبادة احتراماً للناس الذين يفعلون هذا. لا أجد غضاضة في منح شخص محتضر المياه، ولهذا أملأ الفنجان بالماء، وأقدّمه لغافو فيشربه، ثم أقدم له فنجاناً آخر، وأسأله كم مضى عليه من الوقت من دون أن يقضي حاجته. فيقول إنه ليس واثقاً من ذلك، ولكنه متأكد من أنه لا يشعر بحاجة إلى ذلك الآن. أقيس ضغط دمه وأجسّ نبضه وأقدم له المزيد من الماء. وفي نهاية المطاف، يوافق على أن يستلقي على ظهره. أجلس على أحد المقاعد الخشبية، وأفك رباط حذائي، وأفكر في دومينيك المسكين. لا أشعر برغبة في أخذ غفوة، ولكنني أستغرق في التفكير. أفكر في أهل تلك القرية، وفي الوباء الذي ينتشر بينهم، وفي الجسر الذي يعبر النهر المجاور، وفي مصابيح الحجر الصحي المضاءة. وأفكر في السبب الذي يجعلني أعزل القرية عن محيطها رغم أن احتمال وجود شخص يجتاز كل تلك المسافة في ظلمة الليل إلى هذه القرية الصغيرة النائية شبه مستحيل. تمضي ساعة أو ربما ساعة ونصف على هذا الحال؛ من دون أن يحدث غافو أي ضجة في تابوته، ولهذا أنحني فوقه قليلاً لأطمئن عليه. إن رؤية المرء شخصاً ينظر إليه من داخل تابوت أمر مزعج فعلاً. يتمتع غافو بعينين مستديرتين كبيرتين ومفتوحتين على وسعهما. وعندما يراني، يبتسم ويقول: "لا تقلق يا دكتور، أنا لا أزال

محصّناً". أعود للجلوس على مقعدي الخشبي، وأرى يديه ترتفعان من التابوت وهو يمطهما ثم تختفيان داخله مجدّداً.

أسأله قائلاً: "من هو عمك؟".

فيقول: "لا أظن أنك تريد أن تعرف ذلك حقاً".

"حسناً، ولكنني أسألك".

يقول غافو: "لا جدوى من إخبارك. لقد أفضيت إليك بسري لأنك زميل لي في مهنة الطب، ولكنني واثق أنك لم تصدقني. لذا، لن تصل هذه المحادثة إلى أي نتيجة إن لم تؤخذ كل أجزائها على محمل الجد".

أحاول أن أتوخى الصراحة معه، فأقول: "إنني مهتم بمعرفة هوية عمك لأنك تعتقد أنها تفسر لماذا أنت محصّن".

"إنها تفسر ذلك فعلاً".

"حسناً، من هو؟".

"إن لم تصدق أنني محصّن رغم أن رجلاً أغرقني تحت الماء لمدة عشر دقائق ثم أطلق رصاصتين على مؤخر رأسي، فإنني لا أظن أنك ستصدق من هو عمي. إن هذا غير ممكن فعلاً". أسمع صوت احتكاك جسمه بالخشب وهو يحرك كتفيه ويلمس أسفل التابوت بأخمص حذائه.

فأقول له: "من فضلك ابق ثابتاً".

يجيبني غافو: "إنني أود الحصول على بعض القهوة".

فأضحك في وجهه وأدعوه بالمجنون لأنه يطلب مني أن أسمح له بشرب القهوة وهو في مثل هذه الحالة.

يقول: "إن شربنا القهوة، فسوف أثبت لك أنني محصّن".

"كيف؟".

يقول: "سترى بنفسك إن أعددت القهوة". أراه يجلس في تابوته، وينحني نحو الخارج، ويبحث داخل حقيبة سفري ثم يخرج علبة القهوة

وموقد البارافين. فأتوسل إليه لكي يستلقي مجدّداً، ولكنه يقول: "هيا، أعد لنا بعض القهوة يا دكتور. وسأريك ما سيحدث".

لم يكن لديّ ما أفعله غير ذلك، ولذلك أعدُّ القهوة بالمياه الموجودة عند المذبح، فتفوح رائحة البارافين المحترق. يتأملني غافو وأنا أعد القهوة وهو جالس متصالب الساقين على الوسائد المخملية في تابوته، فأكتشف أنني تخليت عن حثه على الاستلقاء. أحرك القهوة بأداة تنحية اللسان. وتنتشر حبيبات البن داخل الماء؛ فيراقبها وهو لا يزال يبتسم.

عندما تجهز القهوة، يصر على أن نشرب كلانا من الفنجان الأبيض الصغير ذي الإطار الذهبي، ويقول إنه بهذه الطريقة سيثبت لي ما يعنيه بأنه محصّن. وبحلول هذا الوقت، تبدأ العملية بالاستحواذ على اهتمامي، لذا أسمح له بأن يمد يده من التابوت ويصب لي فنجاناً. يطلب مني أن أحمله بيدي من دون أن أنفخ عليه، بل أن أنتظر إلى أن يصبح فاتراً بما فيه الكفاية لكي أشربه دفعة واحدة. وبينما أنا ممسك بالفنجان بين يدي، تحدثني نفسي بأنني مجنون لأنني أجلس في دار العبادة، وأشرب القهوة مع رجل لديه رصاصتان عالقتان في مؤخر رأسه.

يقول لي: "الآن، اشرب القهوة". فأشربها وأجدها ساخنة جداً لدرجة أنها تحرق لساني. وعندما يفرغ الفنجان، يأخذه غافو من يدي، ويمعن النظر داخله، ثم يميله نحوي لأتمكن من النظر بدوري، فيبدو أسفل الفنجان مليئاً بحبيبات القهوة المتكتلة. وعندئذ، أفهم ما يجري.

وأقول: "هل تريد أن تقرأ لي الطالع؟". وتعتريني دهشة عارمة. إذ إن هذا هو ما يقوم به الغجر في السيرك.

يقول: "كلا، ولكن رواسب القهوة لها دور بكل تأكيد. إذ إنني أستطيع من خلال هذه الرواسب أن أتوقع مصيرك".

أقول: "لا بد أنك تمزح".

فيقول: "كلا، إنني أستطيع أن أراه فعلاً. إنه موجود هنا. إن حقيقة وجود رواسب قهوة في فنجانك مؤكدة".

أقول: "بكل تأكيد. إن هذه قهوة، وجميع من يشربونها تبقى رواسب في فناجينهم. وهكذا، فالرواسب حقيقة مؤكدة".

فيقول: "وكذلك الموت". ثم يمد يده ويصب لنفسه فنجاناً، ويمسكه بين يديه بانتظار أن يبرد. أشعر الآن بالغضب يتملكني لأنني سمحت لنفسي بالكلام، وسمحت له بأن يقنعني بأن أعد له القهوة ليسخر مني بهذه الترهات. وبعد بضع دقائق، يشرب غافو قهوته ويسيل خيط رفيع منها على عنقه. فأتخيل الرصاصتين ترتجفان في جمجمته وأنا أدعو ألا تخرجا من مكانيهما، أو أتمنى ربما أن تخرجا فعلاً.

يُميل غافو الفنجان ليريني إياه، فأجده فارغاً وأرى قعره الأبيض جافاً تماماً، وكأن أحداً قد جففه بمنشفة.

يقول: "هل أنت راضٍ الآن؟". وينظر إليّ بسرور وكأنه فعل شيئاً رائعاً.

فأقول: "عذراً!".

يقول: "ليست هناك رواسب في فنجاني".

فأقول له: "لا بد أن هذه دعابة".

يقول غافو: "بالتأكيد لا. انظر إلى هذا". ويمرر إصبعه على طول قعر الفنجان.

فأسأله قائلاً: "هل يثبت عدم وجود رواسب في فنجانك أنك رجل محصّن".

"هذا مؤكد". يقول هذا بكل ثقة وكأنه حل للتوّ معادلة رياضية صعبة، وكأنني أعترض على حقيقة ثابتة تُعتبر من البديهيات.

"إنها خدعة بهلوانية تافهة".

"كلا، إنها ليست خدعة. لا أنكر أن هذا الفنجان مميز، ولكنه ليس

فنجاناً يستخدم لممارسة الألاعيب. فقد منحني إياه عمي".

فأصيح في وجهه قائلاً: "تباً لعمك! استلقِ على ظهرك وأقفل فمك إلى أن يصل الطاقم الطبي".

يقول ببرودة: "لن أذهب إلى المستشفى يا دكتور. إن اسمي هو غافران غاليه، وأنا رجل محصّن".

أهز رأسي وأطفئ موقد البارافين وأعيد علبة القهوة إلى الحقيبة. أشعر بالرغبة في أخذ فنجانه منه، ولكنني لا أريد أن أستفزه. لا يكف الرجل عن الابتسام أبداً.

"كيف يسعني أن أثبت لك أنني أقول الحقيقة؟". أظن أنني أسمع نبرة الاستسلام في صوته، وأدرك أنه سئم مني.

"لا يسعك ذلك".

"ما الذي يرضيك؟".

"تعاونك معي، من فضلك".

"إنّ هذا الأمر يصبح سخيفاً". تصيبني الدهشة من جرأته حين يقول إنني لا أملك شيئاً أقوله له. يبدو شبيهاً بالحمل في براءته وهو جالس في تابوته بعينيه الكبيرتين البريئتين. يقول: "إن سمحت لي بالنهوض، فأنا أعدك بأنني سأثبت لك أنني محصّن".

"ليس هناك مخلوق مُحصّن. ستحل بنا كارثة حقيقية. وهكذا، سوف تموت أيها الوغد العنيد، بينما سيزج بي في السجن بسببك".

يقول: "افعل ما شئت. أطلق النار علي أو اطعنّي، إن أردت ذلك، أو أضرم النار في جسدي. إنني مستعد للمراهنة بالمال على ذلك. ويمكننا حتى أن نراهن بالطريقة القديمة. وسوف أحدد رهاني بعد أن أفوز".

فأقول له إنني لن أراهن على شيء.

يقول: "ألست ممن يحبون المغامرة؟".

"على العكس من ذلك، ولكنني لا أضيع وقتي بمراهنات أثق تماماً بأنني سأفوز بها".

يقول: "ألاحظ الآن أنك بدأت تستشيط غضباً أيها الطبيب. ألا تود أن تضرب رأسي بأحد تلك الألواح الخشبية؟".

فأقول: "استلق على ظهرك".

يقول غافران غاليه: "هذا عنيف جداً. حسناً، سنختار شيئاً آخر". كان لا يزال جالساً في تابوته وهو ينقل بصره في أنحاء الغرفة. فيقول أخيراً: "ماذا عن البحيرة؟ لم لا ترميني في البحيرة بعد أن تثبت أثقالاً بقدميّ؟".

إنك تدركين يا ناتاليا كم أنا سريع الغضب. وتعرفين حق المعرفة أنني لا أطيق الحمقى. في ذلك الوقت، شعرت أنني أكاد أنفجر غيظاً من الفنجان، ومن الخدعة الرخيصة التي نفذها بالقهوة، ولأنني سمحت لنفسي بأن أتعرض للخداع وأعد له القهوة من حصصي الميدانية لدرجة أنني لم أعد أعيره اهتماماً، وأصبحت مستعداً لأن أسمح له بفعل ما يريده؛ حتى إن أراد أن يشنق نفسه. لا أعرف إن كان السبب هو الظلام والوقت المتأخر من الليل، أو الساعات الطويلة التي أمضيتها على الطريق، أو بقائي وحدي مع هذا الرجل الذي يطلب مني أن أضربه بالألواح الخشبية أو أرميه في البحيرة. لا أوافق على كلامه، ولكنني في الوقت نفسه لا أرفض عرضه رغم أنني أدرك كم يتسم هذا التصرف بالجنون. يلاحظ أنني لا أطلب منه أن يستلقي. وفجأة، يخرج من التابوت ويقول لي: "هذا ممتاز! ستسرُّ من النتيجة لاحقاً". فأقول له إنني لا أشك في ذلك.

قبل أن نخرج للتوجه إلى البحيرة المجاورة، نبحث في الأنحاء عن شيء ثقيل لأثبته إلى قدميه. أعثر على حجرين كبيرين تحت المذبح، وآمره أن يحملهما وينزل بهما الدرج. كنت أتمنى في سري

أن يغمى عليه، ولكن هذا لم يحدث. يعيد ترتيب الضمادات حول رأسه بينما أفك سلاسل الدراجة التي تم لفّها حول التابوت. وعندئذ، يساعدني على جمع أغراضي وهو مستمر بالابتسام. أخرج من الباب أولاً، وأكتشف أن آرن داريك قد رحل منذ وقت طويل، ربما بناء على تعليمات دومينيك. يبدو الظلام حالكاً في القرية، ولكنني أثق تماماً أنهم يراقبوننا عبر النوافذ، ولكنني لا آبه لذلك. أطلب منه أن يخرج، ثم نمشي معاً على الطين والطحالب لنصل إلى الرصيف الصغير الممتد داخل البحيرة حيث يصطاد أطفال القرية السمك على الأرجح. يبدو غافو متحمساً جداً للعملية بأسرها. أطلب منه أن يضع قدميه في الحفرتين داخل الحجرين ثم ألف السلاسل حول كاحليه والحجرين بقوة وتعقيد حيث إنه لا يعود من الممكن رؤية قدميه داخلهما.

يبدأ الشعور بالذنب والخوف يستولي علي. إذ إنني لم أعد أتصرف كطبيب بل كمجرد عالم يريد أن يثبت أن المغفل يظل مغفلاً. ومع ذلك، أقول لنفسي إنني لا أريد أن تتلطخ يداي بدم هذا المغفل.

وبعد أن أربط قدميه، أقول له: "ها قد أنهينا". فيرفع قدميه قليلاً؛ كلّ واحدة على حدة، وكأنه طفل يجرب مزلجَيْه.

يقول: "أحسنت يا دكتور".

أقول: "والآن، يجب أن نتخذ بعض الإجراءات الوقائية". يبدو غافو منزعجاً، ولكنني أقول له: "سيكون تصرفاً عديم المسؤولية من جانبي أن أتركك تنزل إلى البحيرة من دون وقاية". أنظر حولي بحثاً عن وسيلة لربطه وتثبيته قريباً من الشاطئ، فأعثر على حبل مربوط بعمود على الرصيف الخشبي وأربطه حول خصر غافو. فيراقبني وأنا أفعل هذا باهتمام كبير.

أقول له: "أريد أن تعطيني كلمة شرف بأنك ستتشبث بالحبل عندما توشك على الغرق".

فيقـول غافـو: "لـن أغرق يا دكتور. ولكـن، لأنك لطيف جداً معي فسأعدك بذلك. وسأراهن على نجاحي". ويمضي بضع دقائق وهو يفكر في ما سيراهن به. ويشد الحبل حول خصره ليتأكد من أن العقدة ثابتة. وبعد ذلك، يقول: "سأسمح لك بالحصول على فنجان القهوة الخاص بـي إن فشـلت. ولكننـي لن أمـوت الليلة يا دكتور". ويخرجه من جيب سترته ويرفعه بين أصابعه وكأنه بيضة.

"لا أريد فنجانك اللعين".

"ومع ذلك، فأنا أتعهد بأن أمنحك إيّاه إن فشـلت. بماذا سـتتعهد لي، أيها الطبيب؟".

فأسـأله: "ولمـاذا ينبغـي علـي أن أتعهد؟ لسـت أنا من سـينزل إلى البحيرة".

"الأمر سـيان. إنني أود أن تتعهد بمنحي شـيئاً ما. يجب أن تتعهد بأن تقدّم لي شيئاً ما في حال خسرت الرهان؛ وهكذا لن يتوجب علينا أن نكرر هذه العملية عندما نلتقي مجدداً".

إن الأمر برمته سخيف، ولكنني أنظر حولي لأجد شيئاً أتعهد بمنحه إيّاه؛ وأنا أقنع نفسي بأنه سيشد ذلك الحبل بأسرع وقت ممكن. أسأله إن كان في وسعي أن أتعهد بمنحه موقد البارافين. فيضحك مني ويقول: "إنك تسخر مني بتعهدك هذا. هيا، أيها الطبيب. يجب أن تتعهد بمنحي شيئاً عزيزاً عليك".

أخـرج روايـة **الغابـة القديمة** التـي أحتفظ بها في جيبي وأريه إياها. وأقول: "أتعهد بمنحك هذا الكتاب". ينظر إليّ باهتمام شديد، ثم يميل بجسمه إلى الأمام فيما الحجران مثبتان إلى قدميه ويشم الكتاب.

"أفترض أن هذا شيء لا تود أن تخسره، أليس كذلك؟".

يخطـر ببالـي أنه مـن الأفضل أن أتوخى الصراحـة والوضوح لأننا نتعهد بمنح شيئين يعنيان لنا الكثير، لذا أقول: "أتعهد بمنحك إيّاه لأنك

ستوشك على الغرق وستطلب المساعدة ولن تحصل عليه".
"لن يصيبني مكروه؟".

فأقول له: "كلا، لأنك تعهدت بأن تشد الحبل قبل أن يحدث هذا. الآن أمامك فرصة لكي تغير رأيك. إن الطاقم الطبي على الأرجح في طريقه إلينا". إن هذه كذبة طبعاً لأنني متأكد من أن دومينيك لا يزال في منتصف الطريق إلى المستشفى الميداني بحلول هذا الوقت، ولكنني ألقي هذا الكلام جزافاً. فيبتسم غافران غاليه ويواصل الابتسام بلا توقف.

يمد لي يده مصافحاً. وعندما أضع يدي في راحة يده، يترك شيئاً معدنياً بارداً في راحة يدي. فأدرك أنهما الرصاصتان. إذ بينما كنت أرتب لهذه الرحلة إلى البحيرة، أخرجهما من رأسه. أنظر إليهما وأراهما تلمعان، وأرى الدم والشعر عليهما. وفجأة، يتراجع غافو إلى حافة الرصيف، ويقول: "حسناً، أيها الطبيب، أراك قريباً". ثم ينحني إلى الوراء ويسقط في البحيرة. لا أتذكر أنني سمعت صوتاً في أثناء سقوطه في الماء على الإطلاق.

أتخيل صوت دومينيك يرن في أذني وهو يقول: "يا الله! لقد سمحت لرجل مصاب برصاصتين في مؤخر رأسه بالغوص في البحيرة، وهناك حجران مثبتان إلى قدميه". لا أحرك ساكناً عندما أرى فقاعات الماء، ولا عندما تختفي تلك الفقاعات. ينشد الحبل قليلاً ولكنه بعد ذلك يتوقف عن الحركة.

في بادئ الأمر، ألوم نفسي لأنني لم أربط يدي غافو بكاحليه. إذ ربما تساعده يداه الحرتان على فك الحبل أو على كسر قصبة مجوفة أو الحصول على ورقة نبات ليبتكر وسيلة مخفية للتنفس وكأنه في أحد أفلام روبن هود. وبعد ذلك، يخطر ببالي أنني لم أدرس الأمر من جميع جوانبه لأنه إن غرق في البحيرة ومات، فلن يطفو على السطح بسهولة

بسبب الحجرين المثبتين إلى قدميه، ولكنني أتذكر أنهم أوشكوا على دفنه من قبل لأنه غرق. لا بد أنه يحبس أنفاسه، ويخدع الناس البسطاء لكي يشعرهم بالذنب لموته، وعندئذ يمكنه أن يرحل بعد أن يكون قد حقق شعوره المريض بالنصر وجعلهم يبدون حمقى.

أقول لنفسي: "لن أذهب إلى أي مكان إلى أن يخرج بنفسه أو يغرق ويطفو". أجلس على ضفة البحيرة وأمسك بالحبل ثم أخرج غليوني وأبدأ بتدخينه. أتخيل القرويين جالسين قرب نوافذهم المظلمة، وهم يحدقون إليّ برعب لأنني تركت شخصاً نجا بأعجوبة من قبل يموت غرقاً. وفي نهاية المطاف، تمر خمس دقائق، ثم سبع، ثم عشر، ثم اثنتا عشرة. وعندما تمر الدقيقة الخامسة عشرة، ينطفئ الغليون. ويبدو الحبل في يدي مشدوداً كالوتر. لا يخرج غافو، ولا أرى أي فقاعات على سطح الماء. يدور بخلدي أنني ربما أسأت تقدير عمق البحيرة، أو أن الحبل انشد حول خصره وكسر كل أضلاعه. أبدأ بشد الحبل ولكن بلطف شديد كل بضع دقائق لكي لا أؤذيه في حال ظل على قيد الحياة، ولكي يتذكر أيضاً أن يشد الحبل، ولكنه لا يفعل هذا. وتتملكني قناعة تامة في تلك اللحظة بأنه قد مات، وأنني تعرضت للخداع وارتكبت خطأ رهيباً. وأتخيل جسده يطفو الآن بتراخٍ فوق قدميه وكأنه منطاد. الإنسان ليس كالدلفين، ولا يمكنه أن ينقذ نفسه من الغرق بأن يبطئ سرعة دقات قلبه عندما يشعر بالخطر.

بعد مرور ساعة ذرفت فيها الدموع حزناً على نفسي أكثر من أي شيء آخر، ينفد التبغ مني، فأكف عن شد الحبل. وأبدأ بتخيل فرقة الإعدام ماثلة أمام عيني، وأفكر في الأماكن التي يمكنني الهرب إليها، والاسم المستعار الذي أريد أن أطلقه على نفسي بعد أن أصبح طريد العدالة. وهكذا أمضي ليلتي إلى أن تبدأ الطيور بالاستيقاظ في الساعة التي تسبق بزوغ الفجر.

وفي تلك اللحظة، يحدث أغرب شـيء رأيته في حياتي. إذ أسـمع صوتاً صادراً من الماء، فأرفع بصري وأرى الحبل يتحرك عبر البحيرة. يبـدأ الفجـر بالبـزوغ ببـطء فـي الشـرق. أنظـر إلـى الضفـة الأخرى من البحيرة وأرى غافران غاليه، الرجل المُحصّن، يتسـلق ببطء خارجاً من الماء وملابسـه مبللة كلياً ومغطاة بالأعشـاب والطحالب. كان الحجران لا يـزالان مثبتيـن إلـى قدميـه، فيما الحبل لا يـزال مربوطاً حول خصره بعد مضي ساعات على مكوثه تحت الماء. أنهض على قدمي، ولكنني ألتـزم الهـدوء الشـديد. يقطـر المـاء من قبعة غافـران غاليه فـوق أذنيه، فيخلعهـا وينفـض المـاء عنها، ثم ينحني على الأرض، ويفك السلاسـل عـن قدميـه بكل بسـاطة وكأنه يخلع حـذاءه، ثم يفك عقدة الحبل الذي يحيط بخصره ويدعه يسقط في الماء.

يلتفت نحوي. يا للعجب! إنه الرجل نفسـه ذو الابتسـامة المهذبة المعهـودة. يقـول لـي: "تذكـر ما تعهـدت بمنحي إيّاه، يـا دكتور، للمرة القادمة". ويلوح لي مودعاً ثم يسـتدير ويتوارى عن ناظريّ بين أشـجار الغابة.

# الفصل الثالث

## الحفّارون

في الليلة الأولى التي أمضيناها في منزل إيفان ونادا، نمت ثلاث ساعات فقط، وبعدها امتلأت أحلامي بمهرجان ألحان الجداجد، ثم استيقظت مخنوقة من شدة الحر. كان سريري مقابل النافذة المطلة على الكروم خلف المنزل، فرأيت من خلالها القمر وهو ينحدر على طول سفح التل. ورأيت زورا نائمة منبطحة على وجهها بعد أن ركلت الملاءة بقدميها، بينما أخذت تصدر صوت صفير مكبوت بسبب ذراعيها وشعرها ووسائدها. سمعت صوت الفتاة الصغيرة في الطابق السفلي وهي لا تزال تسعل سعالاً شديداً ملحاً يقض مضجعها ويؤرق ليلتها. وفي غمرة سعال الطفلة وصفير أنفاس زورا، وصل إلى مسمعيّ صوت أمواج البحر وهي تغمر صخور الشاطئ في الجانب المقابل من المنزل.

بعد مرور بضعة شهور انقضت فيها فترة الأربعين يوماً، وحتى بعد أن بدأت أركِّب أجزاء القصة، وأتوصل إلى حقائق كانت خافية عني، ظللت كل ليلة أضع رأسي على الوسادة وأنا آمل أن يظهر طيفه في أحلامي ليبوح لي بسر لم أكتشفه بعد، ولكنه خيب رجائي. إذ على الرغم من أنني حلمت به فعلاً، فقد صورته لي أحلامي جالساً على أريكة لا نملكها، في غرفة لا أميز شكلها، وهو يقول لي أشياء مثل: "أحضري لي الصحيفة. فأنا جائع". كنت أدرك حتى وأنا أحلم أن هذا الكلام لا يعني شيئاً البتة، ولكنني في تلك الليلة التي جافاني

فيها النوم في بيت إيفان وزوجته، لم أكن قد استوعبت بعد خبر وفاة جدي أو اعتدت فكرة غيابه عن بيتنا وحياتنا مهما حاولت أن أفكر فيه وأتخيله؛ وكأن ذهني وقف عاجزاً عن تصديق رحيله المفاجئ هكذا بلا وداع.

فكرت في خزانة أدوات المائدة في مطبخ بيتنا، تلك الخزانة الضخمة المثبتة إلى جدار المطبخ من الأرض إلى السقف. وتخيلت مقابض أبوابها اللامعة التي اعتدنا أن نعلق عليها أكياس الخبز. وتذكرت علبة الطحين البيضاء والزرقاء المزينة بصورة طاه مبتسم يعتمر قبعة خباز، والرف السفلي الذي اعتادت جدتي أن تحتفظ فيه بأكياس النايلون والحبوب وعلبة الملح وأوعية المزج وعلب القهوة البنية والبرتقالية من المتجر في آخر الشارع. كما تذكرت الرف الأوسط، حيث كانت أربعة أوعية زجاجية تحوي اللوز وبذور عباد الشمس والجوز ومكعبات الشوكولاتة المرة مصفوفة بأناقة، وهذه وجبات الحمية الخاصة بجدي. فقد اعتادت جدتي أن تحضرها له سلفاً حتى خمسة وثلاثين يوماً.

عاد الحفارون مرة أخرى إلى الكرم. فلم أتبين أشكالهم بوضوح في الظلام، ولكنني لاحظت ظلالهم الطويلة وهي تتحرك على الأرض تحت ضوء مصباحهم الخافت الذي سرعان ما وضعه أحدهم أرضاً ليتابع الحفر. ظل شعاع الضوء يلوح من بعيد داخل الكروم إلى أن احتشد الحفارون حوله وحجبوه عني. سمعت أحد الحفارين يسعل بين الحين والآخر وأنا أراقب الكرم، وكذلك ظلت الفتاة الصغيرة تسعل بلا انقطاع.

قرابة الساعة الرابعة، ارتديت ملابسي ونزلت إلى الطابق السفلي. ولم يكن هناك أثر للكلب المدلل بيس، ولكن صورة وجهه المرسومة بيد غير بارعة أطلت عليّ من اللوحة المعلقة فوق علبة المظلات

بجانب الباب الخلفي. وجدت على طاولة غرفة المعيشة هاتفاً أثرياً ذا سماعة ثقيلة مصنوعة من النحاس والعظم، وقرص اختفت أرقامه من كثرة الاستعمال. أخرجت من جيبي الوصل المجعد الذي دونت عليه رقم عيادة جريفكوف وطلبت الرقم. في المرة الأولى وجدت الخط مشغولاً، فعزز هذا آمالي. وارتسمت في مخيلتي صورة إحدى موظفات الاستقبال المناوبات بظل عينيها الأزرق وشعرها الأشقر المبعثر، وهي تحاول أن تتسلى وتبعد النوم عن عينيها بإجراء مكالمة عاطفية خارجية مع صديق لها. ولكن، عندما عاودتُ الاتصال مرة أخرى، ظل الهاتف يرن بلا انقطاع إلى أن وضعت السماعة. وأكدتْ لي محاولتان أخريان أنني على الأرجح أخطأت في طلب الرقم في محاولتي الأولى. فجلست على الأريكة تحت شعاع الضوء الخافت المتسلل من بين مصراعي النافذة.

وعندما بدأت الفتاة تسعل مجدّداً، بدا صوت سعالها قويًّا ومزعجاً. فخطر ببالي أن تكون الفتاة الصغيرة قد خرجت من غرفتها، ولكنني لم أجدها في المطبخ أو في غرفة الغسيل أو في أي من غرف الطابق الأرضي التي تفوح منها رائحة الطلاء الجديد، ويملأها الأثاث المغطى بالقماش. تمسكت "بالدرابزين" لئلا أتعثر في الظلام وأنا أتحسس طريقي على الدرج. وعندما وصلت إلى الطابق السفلي، وجدت الهواء فيه بارداً. ورأيت في الممر الضيق بابين يؤدي كل منهما إلى غرفة خالية إلا من الأسرّة، وأكوام البطانيات الملقاة على الأرض، والقدور الحديدية المكدسة فوق بعضها في الزاوية، وكومة من أعقاب السجائر في المنفضة، بالإضافة إلى زجاجات شراب، وزجاجات أخرى طويلة العنق ومليئة بسائل نقي ومحشوة بحزمة من العشب الذابل. لم أجد أحداً من الرجال أو الصبية الذين تحدثت عنهم نادا. ولا بد أنهم خرجوا جميعاً، ولكنني رأيت الشابة والفتاة الصغيرة جالستين على أريكة بجانب

النافذة في الغرفة الثانية. كانت المرأة نائمة، ورأسـها مسـنود إلى الوراء على الوسادة، وفي يدها كيس من أزهار الخزامى، فيما الطفلة الصغيرة جالسة على حضن أمها، ورأسها مسنود إلى صدرها وهي ملفوفة بملاءة رقيقة عالقة حول كتفيها وركبتيها كالورق المبلل. رأيت الطفلة مستيقظة وتحدق إليّ.

نظرت الفتاة إليّ بلا خوف أو توقير، فوجدت نفسي أدخل الغرفة مـن دون تفكيـر وأخطـو بضـع خطوات علـى أطـراف أصابعي. فاحت نحـوي مـن بعيـد رائحـة كحول حادة ولاذعة، فعرفـت أنهم بللوا ملاءة الطفلة بالشراب بهدف تبريد جسمها لتخفيض حرارتها بسرعة. إن هذه بالطبع طريقة متخلفة تنطوي على مجازفة خطيرة. فقد رأيت أمثلة كثيرة على هذا في غرفة العناية المركزة. إن أولئك الأمهات يصررن على عدم الانحـراف قيـد أنملـة عن وصفات أمهاتهن القديمة، لذا من المسـتحيل إقناعهـن بـأن تحضيـر تلـك الوصفات مـن مكونات طبيعيـة ومنزلية لا يجعلها بديلاً أفضل عن الأسبرين أو أكثر فعالية منه.

اقتربت من المرأة ووضعت راحة يدي على جبين الطفلة الصغيرة، فوجدتها دافئة ورطبة بسبب الانخفاض المفاجئ للحمى، ولكن لم تكن ثمة وسيلة تساعد على توقع وقت عودتها، أو إن كانت ستعاود الارتفاع خلال السـاعة التالية وكم سـتبلغ درجتها، ولكن نظرة الألم التي كانت فـي عينـي الطفلـة اختفت قليلاً. فلم ترفع رأسـها عن عنق أمها النائمة، وظلت تنظر إليّ من دون تركيز أو اهتمام وأنا أتراجع إلى الوراء خارجة من الغرفة.

انتظـرت عـودة الحفارين. ولكن، مرت سـاعة ولم يعد أحد منهم، ولـم أعـد أسـمع أي صـوت أو أشـعر بأي حركة تـدل على وجود أحد في المنزل. فقد اسـتغرقت الطفلة في النوم، والتزم الببغاء الصمت بعد أن كان قبل قليل يتحرك في قفصه ويثير الجلبة. خلال ذلك السـكون،

لـم أتلـق مـن هاتف عيادة جريفكوف سـوى الرنيـن المتواصل من دون رد، فسـئمت من الاتصال بها، وأخذت معطفي الأبيض عن المشـجب، وخرجت متلمسة طريقي إلى الكرم.

لم يكن هناك سبيل لصعود المنحدر خلف بيت إيفان ونادا، ولهذا توجهت شمالاً نحو الساحة الرئيسة حيث يرتفع برج المعتزل الصامت عاليـاً وسـط سـطوح المنـازل الأخـرى. في ذلك الوقـت المبكر، كانت المطاعم والمحالّ ومطاعم اللحم المشـوي لا تزال مغلقة. مما أفسـح مجالاً لظهور رائحة البحر القوية الفوّاحة. اجتزت مسـافة ثلث ميل لم أر فيها سوى أكواخ مبنية من الحجر الكلسي لها أسيجة حديدية، ونوافذ مفتوحـة، ولافتـات مضيئـة تعلن بعدة لغات عن وجـود غرف للإيجار. عبـرت الممر المقنطر الذي تشـع فيـه آلاف الأضواء الصفراء والحمراء والزرقاء تحت ظلة مزينة بكيزان الصنوبر. ووصلت إلى ساحة التخييم التي تتألف من مساحة مكسوة بالعشب الجاف، تحيط بها أسلاك كالتي تُسيَّج بها خِمَمَة الدجاج.

وجـدت قنـاة مائيـة مرصوفـة بحجـارة مخضرَّة علـى طول أرض التخييـم فسـلكت ذلـك الطريـق. ورأيت بيوتاً لهـا نوافذ ذات مصاريع خضراء وقربها أصص زهور، ومرأباً فيه سـيارة مكسـوة بقماش مشـمع يجثـم علـى غطائهـا بعض الدجـاج، وعرباتٍ صغيـرة محملة بحجارة القرميـد أو الإسـمنت أو السـماد. كانـت بعض البيـوت مزودة بقنوات مائية خاصة لتنظيف أحشـاء السـمك، وبحبال غسـيل معلقة من بيت إلـى آخـر، ومثقلة بالملاءات والقمصان والجوارب. وكان هناك حمار أسـود صغير يتنفس بنعومة وهو موثق إلى شـجرة في الباحة الأمامية لأحد المنازل.

فـي نهايـة القنـاة، عثـرتُ أخيـراً علـى البوابة المؤدية إلـى الكرم. ووجدتهـا خاليـة مـن أي علامة، وصدئة بسـبب رطوبـة البحر، ومطلة

على منحدر تكثر فيه أشجار السرو والحجارة الكلسية. بدأت الشمس تبزغ في الأفق مضيئة السماء فوق الجبل بلون الشفق الأحمر. تبيّنتُ أشكال الحفارين المنتشرين في الأنحاء بين الكروم، ورأيتهم يشدون أجسامهم هنا وهناك ويتمطون ويتثاءبون ويشعلون السجائر. ووجدت سبعة أو ثمانية رجال معهم رفوش يحفرون في نمط عشوائي وفوضوي بين أشجار السرو، وفي أقصى الكرم حيث تكثر الشجيرات، ويقلبون التراب المبلل بالندى. لم تعد أصوات الرفوش التي سمعتها حين كنت في البيت في الليلة الماضية رغم بعد المسافة تبدو عالية إلى هذا الحد.

مشيتُ بخطوات متزعزعة على التراب في المنحدر الذي تملأه أكوام من التراب وحفر سطحية في كل مكان. بدأت عيناي تعتادان الضوءَ الخافت وأنا أمشي بين الصفوف متوجّهة إلى رجل ممتلئ الجسم يعتمر قبعة. رأيته جالساً على الأرض ومتكئاً على رفشه، ووجهه متجه إلى الجانب الآخر وهو ينزع سدادة شيء أشبه بالإبريق. وعندما هممت بأن ألقي عليه التحية، زلت قدمي فجأة، وسقطت داخل إحدى الحفر.

عندما لمحني وأنا أحاول أن أخرج من الحفرة، توقف عن التنفس، وتراجع إلى الخلف وعيناه مفتوحتان على وسعهما، وازرقت شفتاه، وأخذ ذقنه يختلج، وصاح قائلاً: "يا للهول!". وراح يرسم رمز النصارى الديني على صدره. ظننته سيسدد إليّ ضربة برفشه، فرفعت يدي وصحت قائلة إنني طبيبة، وتوسلت إليه كي لا يؤذيني.

استغرق الرجل دقيقة ليستوعب ما يجري وهو لا يزال يتنفس بمشقة، ثم قال: "تباً لك". وظل يرسم رمز النصارى الديني على صدره. دفع الضجيج الآخرين إلى الركض نحونا بأقصى سرعتهم. رأيتهم يظهرون من بين الكروم وأدواتهم بأيديهم، ووجوههم متشابهة

ولا يمكن التمييز بينها. تقدم أحدهم إلى الأمام وبيده مصباح. وجَّه ضوءه المبهر نحو عيني.

سأل الرجل السمين الذي وقع ضحية وقوعي المفاجئ أحد الرجال الآخرين: "هل تراها؟ هل تراها، يا ديوريه؟".

ظهر رجل قصير من بين صفوف الأشجار البعيدة في أسفل المنحدر، وقال للرجل السمين: "ظننت أنك عثرت على شيء ما". بدا ديوريه رجلاً نحيلاً كالعصا يتمتع بأذنين غريبتين وبارزتين من وجهه بشكل يشبه مِقبضي الجرة. وكان العرق يتصبب من وجهه فوق طبقة رقيقة من الغبار المتجمع داخل الأخاديد المحيطة بعينيه وفمه.

"ولكن، هل تراها يا ديوريه؟".

قال ديوريه: "لا بأس". وربت على كتف الرجل السمين، وكرر قائلاً: "لا بأس". ثم قال موجهاً كلامه لي: "ما الذي تفعلينه هنا؟". لم أجد لسؤاله جواباً. أضاف قائلاً: "كيف جعلتك حماقتك تتسللين إلى هنا في منتصف الليل؟ ما مشكلتك؟".

فقلت وأنا أشعر بالغباء: "إنني طبيبة".

أمعن الرجل النظر إلى ردائي الأبيض الذي بات ملطخاً بالغبار والطين، ثم هز رأسه وقال: "يا الله!".

قلت للرجل السمين: "إنني آسفة". فوجه لي كلمة باللغة المحلية لم أفهمها، ولكنني كنت متأكدة من أنها لا تدل على قبوله اعتذاري. وبعد ذلك، أخذ إبريقه وشق طريقه بين الحشد وهو يتمتم لنفسه بكلام غير مفهوم، ويسعل سعالاً شبيهاً بالسعال الذي سمعته في المنزل. بدأ الرجال، الذين تجمهروا حولنا قبل قليل، يتفرقون عائدين إلى أماكنهم بين الكروم. مسح ديوريه يديه بردائه الرمادي ثم أشعل سيجارة. ولم يبد عليه الاكتراث لسبب مجيئي إلى هنا أو عدم مغادرتي. وفي نهاية المطاف، استدار ومضى عائداً إلى مكانه في أسفل المنحدر. تبعته

بين صفوف الأشـجار إلى أن عثر على رفشـه ووقفت خلفه وهو يرفعه ويضرب به التراب القاسي.

كنت قد سقطت في الحفرة على يدي، الأمر الذي حدّ من تعرّضي للضرر. ولكنني وجدتهما الآن مخدوشتين ودبقتين بسبب الدم والتراب.

قلت لديوريه: "هل لديك بعض الماء؟".

لكن، لم يكن لديه ماء. فأعطاني بعض الشراب، وراقبني وأنا أصب القليل منه على راحتي يدي لأغسلهما، ثم قال لي: "إنه معد منزلياً".

فقلت: "إنني طبيبة".

قال ديوريه: "إنك تكررين هذا الكلام كثيراً". وأخذ إبريقه، وقال: "إنني أعمل ميكانيكياً، أما ديوبي الواقف هناك فهو لحّام معادن. ويعمل عمـي بجـرف السـماد لكسـب رزقـه". ثـمّ فتـح الغطاء وأرجـع زجاجة الشراب إلى الوراء ليشرب.

قلـت: "إننـي مقيمـة هنـا لدى إيفـان. أريد أن أتحدث إليك بشـأن الفتاة الصغيرة".

"ما بها؟".

"هل هي ابنتك؟".

"هذا ما تقوله زوجتي". سحب نفساً أخيراً من السيجارة التي كانت تحترق ببطء بين شفتيه ورماها على كومة التراب بجانب حذائه.

"ما اسمها؟".

"ومـا علاقتـك بهـذا؟". دسَّ الرجـل زجاجة الشـراب داخل جيب ردائه الرمادي، وأنزل الرفش عن كتفه إلى الأرض.

فقلت: "إن الفتاة الصغيرة مريضة جداً".

قال ديوريه: "حقاً! هل تظنين أنك أول من يخبرني بهذا؟ إذاً، لماذا تظنين أنني هنا؟ لأمارس التمارين؟".

وضعت يدي في جيبي وراقبت أشـعة الشـمس وهي تشـعّ على

قمم التلال في الأفق. لقد كانت نادا محقة بشأن الأولاد الآخرين. فقد رأيت صبيين آخرين لا يتجاوزان التاسعة يحفران مع بقية الرجال، ولاحظت شحوب وجهيهما وجفونهما الداكنة المتورمة. ورأيتهما يمرران سيجارة بينهما. فخطر ببالي أن جدي كان سيقتلع آذانهما من أماكنها لو رآهما، ولكنني أدركت أنني لن أتمكن من إخباره بذلك. فالتزمت الصمت للحظة وأنا أراقب التراب المتطاير من حولي، وأصغي إلى صوت الجداجد التي تنشد لحنها الحزين الموحش على منحدر أشجار السرو.

سألت ديوريه: "كم يبلغ الولدان الواقفان هناك من العمر؟".

فقال لي من دون أن يفكر للحظة: "إنهما ولداي".

قلت: "إنهما يدخنان". ولاحظت المخاط الذي كان يسيل من أنف أحدهما، فيما راح يستنشقه بين الحين والآخر وهو يحفر. سألت الأب قائلة: "هل هما مريضان أيضاً؟".

غرز ديوريه رفشه بالأرض وعدل وقفته لينظر إليّ، ثم قال: "إن هذا ليس من شأنك".

"هذا ليس مجرد زكام عادي، فهو يبدو خطيراً. من الممكن أن تكون الفتاة الصغيرة مصابة بالسعال الديكي أو بالتهاب شُعبي. وقد تصاب بذات الرئة إن لم تتلق العناية الملائمة".

"لن يحدث هذا".

"هل عاينها طبيب؟".

"ليست بحاجة إلى طبيب؟".

"وماذا عن الصبيين؟ أليسا بحاجة إلى طبيب أيضاً؟".

قال ديوريه: "سيكونان بخير".

"لقد سمعت أنك تخرجهما إلى هنا في فترات العصر الحارة. ألا تدرك خطورة هذا التصرف بالنسبة إلى مريض يعاني من الحمى؟".

قـال: "لقـد سـمعتِ مـا قلتـه، أليـس كذلـك؟". وراح يهز رأسـه، وضحـك ضحكـة مكبوتـة، ثم قال: "إننا نقوم بكل ما يلزم أيتها الطبيبة. لا تشغلي بالك بنا".

قلت له محاولة أن أوضح كلامي قدر المستطاع: "إنني واثقة أنك بحاجة إلى كل الأيدي العاملة المتاحة من أجل موسـم العمل. ولكن، يجب عليك أن تتخلى عن الصبيين".

قال ديوريه: "ليس للعمل أي علاقة بذلك".

فقلت بإلحاح متجاهلة كلامه: "أرسـل أولادك إلينا لنفحصهم. إننا قادمتـان مـن الجامعـة. وقد أحضرنا أدوية مـن أجل دار الأيتام الجديدة في سيفيتي باشال. وسنقيم هناك عيادة مجانية".

قال لي بازدراء: "إن أولادي ليسوا أيتاماً".

فقلت: "أدرك ذلك، ولكن لا بأس. فالدواء مجاني".

كرر كلامي بسـخرية، ثم قال: "ما مشـكلتك؟ أتظنين أنني أريد أن يختلط أولادي بالأيتام؟".

فقلت له بصوت مرتفع: "إذاً، هل ستُجبر ولديك على العمل وهما مريضان". فأطلق أحد الرجال من الكرم صفرة خافتة تلتها عاصفة من الضحك.

لم يتأثر ديوريه بذلك. وطوال حديثنا، لم يكف عن الحفر للحظة واحـدة. ولاحظـت كتفيـه الهزيلتيـن وهما تصعـدان وتهبطان من خلال بذلته الرمادية. وخطر ببالي أن محادثة من هذا النوع بين ديوريه وجدي كانت ستؤدي بحلول هذا الوقت إلى تبادل اللكمات.

قلت: "سأعتني بهم جيداً".

فأجاب ديوريه: "إن هذا شـأن أُسَـري خاص. ونحن نقدم لهم كل الرعاية اللازمة".

وفجـأة، شـعرت بمراجـل غضبي تفـور وتغلي. وكبـتّ في داخلي

الرغبة في أن أسـأل ديوريه عن رأيه بزيارة من صديقي رقيب الشـرطة الذي يزن مئة وخمسين كيلوغراماً، وقضى لتوه ستة أسابيع في الإشراف على هدم مستشفى من الدرجة الثالثة لأنه لا يحوي مياهاً جارية. بحلول ذلـك الوقـت، خشـيت أن يـؤدي هذا إلـى نتيجة عكسـية، ولهذا وقفتُ بصمت وأنا أراقب ديوريه وهو يشـعل سـيجارة أخرى ويواصل الحفر. بين الحين والآخر، كان ينحني ليتفحص التراب بعناية ويمرر أصابعه من خلاله. وكان جهد الوقوف بعد الانحناء - ليس السيجارة ولا الشراب - هو ما أخرج السعال الرطب من صدره أخيراً.

قلـت: "مـا النتيجـة التـي تظـن أنك سـتصل إليها عـن طريق لفهم بالقمـاش المبلـل بالشـراب، وخنقهم بالبطانيات، ووضع قشـور البطاطا في جواربهم، وإلى ما هنالك من أفكار علاجية جنونية أخرى تحاولون القيام بها؟". توقف عن الإصغاء إليّ، ولكنني تابعت قائلة: "إنهم بحاجة إلـى الـدواء، وكذلـك زوجتك. ولن أتفاجأ إن اكتشـفت أنك أنت أيضاً بحاجة إلى العلاج".

سـمعنا صـوت صيـاح من الجانب الآخر مـن الكرم. فقد عثر أحد الرجـال على شـيء ما. وسـادت الفوضى عندما هـرع الجميع للوصول إلـى هنـاك بأقصـى سـرعة ممكنة. انطلق ديوريه مسـرعاً وهو يظن على الأرجح أنه عندما يخلفني وراءه فهذا سيضمن رحيلي الفوري. ولكنني لـم أرحـل، بـل تبعته على طول صف الأشـجار، ثم انعطفت وراءه إلى أن وجدنـا شـاباً نحيـلاً راكعـاً فـوق حفرة عميقة فـي الأرض يحيط بها حشـد من الرجال. وقفت على بعد بضع خطوات خلفهم على رؤوس أصابعي لأراقب ما يجري.

انحنـى ديوريـه وراح ينقـب فـي التـراب بيده الحـرة. بدأت خيوط الشـمس الأولـى تمـلأ الجو بضوء شـاحب، وبدا التـراب أبيض ورطباً. اعتدل ديوريه في وقفته ممسـكاً بشـيء أشـبه بشظية حادة وصفراء اللون

لا يتجاوز طولها طول إصبع اليد؛ فأدركت أنها عظمة. أخذ الرجل يقلبها على راحة يده، ثم نظر مرة أخرى إلى التراب.

التفت ديوريه إليّ وقال: "ما رأيك أيتها الطبيبة؟". ومد إليّ القطعة لأراها، ولكنني لم أفهم عمّا يتحدث. فحدقت إليها بغباء.

قال: "لا أظن ذلك". ورمى القطعة في التراب، ثم قال للحفار الذي عثر عليها: "لا بد أنها عظمة حيوان ما".

رأيت أحد الصبيين واقفاً بجانبي وقد اتّكأ على مقبض رفشه. كان نحيل الجسم وأشقر الشعر وذا وجه عريض. وسمعت صوتاً غريباً فيما كان يحك بلسانه سقف حلقه الجاف. وجعل ذلك الصوت عينيّ تكادان تدمعان. وعندما استدار ليذهب، وضعت يدي على جبينه، وقلت لديوريه الذي همّ بالعودة إلى مكانه في أسفل الكرم: "إنه يعاني من الحمى".

وكانت الشمس قد أشرقت الآن، وعبرتْ أشعتها الذهبية قمة جبل بريجيفينا، وبدأت تسطع علينا في الجانب الآخر من الجبل وعلى المنزل، وتتسرب من نافذة غرفتنا في الطابق العلوي خلف شجرة الدفلى، وعلى امتداد البحر الشاسع، فشعرت أنني مستيقظة منذ أيام. لم أستطع أن أتماشى مع خطوات ديوريه على تلك الأرض الوعرة، ولهذا ناديته من الخلف قائلة: "إنه مريض وقاصر، لذا أنت تخرق القانون".

"إنني أعيش في بلدي".

وكانت تلك كذبة مفضوحة. إذ إن لهجته ذات الأحرف الممطوطة دلّت على أصوله العائدة إلى شرق المدينة. لذا، قلت له: "لست كذلك".

"ولا أنت، أيتها الطبيبة".

"ومع ذلك، فهناك منظمات لن تتردد في...".

لكن صبر ديوريه نفد على ما يبدو، إذ عاد أدراجه نحوي بسرعة كبيرة لدرجة أننا كدنا أن نصطدم ببعضنا. ورأيت عنقه المليء بالعروق

المشـدودة البـارزة، وعينيـه الحمراويـن كالـدم. كنت واقفـة على أرض مرتفعـة، ولكنـه كان مسـلحاً بالرفـش. قـال بهدوء شـديد: "أتظنين أنك أول من يقول لي هذا؟". اسـتطعت أن أشـم رائحة طعامه الفاسـد في أنفاسه. تابع قائلاً: "أتظنين أنني لم أسمع هذا من أشخاص يريدون أن يتدخلوا في شؤوني ويأخذوا أولادي مني؟ هيا افعلي هذا، وسترين كم سيستغرق من الوقت".

"لقد أمضى الليل بطوله هنا. دعه يعود إلى البيت".

كان الطفـل الـذي نتحـدث عنه واقفاً علـى الأرض الصخرية فوقنا وهـو يصغـي إلينـا وكتفاه النحيلتـان منحنيتان إلى الأمـام. وضع ديوريه رفشـه علـى فخـذه، وأخرج من جيبه زوجاً مـن قفازات العمل، وأدخلَ فيهما أصابعه الثخينة ذات الأظفار السوداء. وقال بصوت مرتفع من دون أن ينظـر إلـى الصبـي: "ماركـو! إن الطبيبة تنصحـك بالعودة إلى البيت، ولكن القرار عائد إليك".

تردد الطفل للحظة وهو يتأمل الكرم من أوله إلى آخره، ثم استأنف الحفر من دون أن ينبس بحرف.

راقبـه ديوريـه بابتسـامة لـم أسـتطع تخمين معناهـا. وبعد ذلك، التفت إليّ وقال: "ليس لديّ متسـع من الوقت لأضيعه معك. توجد جثـة مدفونـة هنـا فـي مكان ما تحـت هذا التراب ويجـب أن نجدها لكي يتحسـن أولادي". واسـتدار وهو يجر الرفش وراءه وقال: "إن هذا يبدو مقبولاً أيتها الطبيبة أليس كذلك؟ فأنت تريدين أن يتحسن أولادي؟".

راقبت خصل شعره الرفيعة التي تغطي بعض الأجزاء الصلعاء من رأسه وهو يمشي محاولاً أن يعثر على موطئ قدم بين الحصى. فقلت: "لا أفهم ما تعنيه".

قـال: "إن أحـد أبنـاء عمنا مدفـون هنا في هذا الكرم أيتها الطبيبة".

ومـدّ الرجـل ذراعيـه مشـيراً إلى الكـروم من أولها إلى آخرهـا، ثمّ تابع قائلاً: "لقد دُفن في وقت الحرب قبل اثنتي عشرة سنة". بدا جاداً جداً فـي كلامـه وهـو يقـول: "إنـه لا يحـب المـكان هنا، لذا فهو يسـبب لنا المرض. إن عثرنا على هيكله العظمي، فسنمضي في طريقنا".

شعرت أن التعب بدأ يستنزف قواي، وكدت أنفجر ضاحكة. إذ لا بد أن ديوريه لم يجد حجة منطقية فلجأ إلى هذا الكلام ليتخلص مني، ولكـن الحفـر بـدا سـطحياً وفوضوياً. وأدركت أنني لـم أرهم يزرعون شيئاً أو ينزعون الأعشاب أو يكسرون جماجم فئران الحقل. فقلت له محاولـة أن أضفـي بعـض الطرافة على كلامي: "هل تفقدتم أساسـات الجسر؟".

فتأملني ديوريه بإمعان للحظة وهو يبدو جاداً جداً، ثم قال: "نعم، بالتأكيد. إنه أول مكان بحثنا فيه".

## الفَصْلُ الرّابع

# النمر

بعـد أن دقّقـتُ فـي كل المعلومـات التـي جمعتُها عـن قصة زوجة النمـر، يمكنني الآن أن أؤكـد أن مـا سـأقوله تالياً حقيقـة لا لبس فيها. ففـي أواخـر فصـل الربيع مـن عام 1941، بدأت القنابـل الألمانية تنهالُ على المدينة من دون سـابق إنذار أو إعلان للحرب. ولم تتوقف لمدة ثلاثة أيام.

لـم يكـن النمـر يـدرك أنهـا قنابل، ولـم يكن يعرف أي شـيء غير صوت أزيز الطائرات المقاتلة التي أخذت تشـق عنان السـماء، وصوت القذائـف المنهمـرة على المدينة، وقهقـاع(*) الدببة المرعوبة في الجانب الآخر من القلعة، وصمت الطيور. امتلأ الجو بدخان الحرائق وحرارتها الخانقة الرهيبة، فاستبد الاهتياج بالنمر. وأخذ يذرع قفصه جيئة وذهاباً علـى طـول امتـداد القضبان الصدئـة وهو يخور كالثور. واسـتولى عليه الشعور بالوحدة والعطش والجوع. وولّد لديه ذلك الجوع المتزامن مع صوت القصف الهادر إحساساً بقرب حتفه، وحدساً داخلياً لم يقوَ على تجاهله أو الاستسلام له، ولكنه لم يعرف كيف يستجيب له. فقد جف مـاؤه، وراح يـدور حـول العظام المتبقية في حوض طعامه الحجري في زاوية القفص وهو يئن أنيناً طويلاً موجعاً.

وبعد أن أمضى يومين بطولهما وهو يذرع المكان باهتياج، سـيطر عليـه الشـعور بالإنهـاك، فتخاذلـت قوائمـه، وتراخـت أعضـاؤه، وتمدد

(*) القهقاع: صوت الدببة.

باستسلام بين فضلاته، وفَقَد القدرة على تحريك أي عضو من جسمه، وإحـداث أي صـوت، وإبـداء أي رد فعل. في ذلك اليوم، أصابت قنبلة عشوائية السور الجنوبي للقلعة وملأت الجو بسحابة خانقة من الدخان والرماد وشظايا الجدار المحطم المتناثرة التي تساقطت على رأس النمر وخاصرته. ظلت الشظايا تنهش لحمه لأسابيع إلى أن أصبح معتاداً على الألم الذي تسببه له وهو يتدحرج على جنبه، أو يحك جسـده بجذوع الأشـجار. لقـد كادت تلـك الحادثـة أن تسـكت نبض قلبـه، ولكنه ظل صامداً. وكاد الجو الخانق وشعوره بفرائه الملتصق بجسده، والساعات الطويلـة التـي أمضاهـا وهـو جاثم فـي الجزء الخلفي مـن قفصه متأملاً الجدار المثقوب في سور القلعة أن تؤدي إلى موته؛ ولكن شعوراً غريزياً قوياً رفرف في قلبه كالطائر، ودفعه إلى النهوض على قوائمه والخروج مـن الثقـب فـي الجـدار. (لم يكن النمر وحده مـن هرب من قفصه في ذلـك اليـوم، فقـد نشـرت الصحف فـي وقت لاحق أن الناس شـاهدوا ذئاباً تجوب الشـوارع، ودباً قطبياً واقفاً في مجرى النهر. ونُشـرت أيضاً مقـالات عـن أسـراب من الببغاوات ظلت تطير لأسـابيع فـوق المدينة، وعن مهندس بارز عاش وعائلته شهراً كاملاً على جيفة حمار وحشي).

قـاد الطريـقُ النمرَ عبـر المدينـة شـمالاً نحو الجبهـة المائية خلف القلعة؛ حيث تقبع أنقاض الميناء التجاري والحي اللذين سُوِّيا بالأرض وتحولا إلى أكوام مسطحة من الآجر تمتد حتى مياه نهر الدانوب. وجد النمر النهر مضاءً بفضل النيران، ورأى جثث الناس الذين حاولوا الهرب عبـر مياهـه وقـد جرفها الموج وأعادها إلى الضفة. فكر ملياً في إمكانية السـباحة إلـى الضفـة الأخـرى، ولكـن الرائحة التي فاحـت من الجثث أجبرته على الابتعاد والالتفاف حول القلعة عائداً إلى المدينة المدمرة.

لا بد أن الناس رأوه هناك، ولكنه في غمرة ذلك القصف والدمار لم يشكل بالنسبة إليهم أيّ تهديد، فهو ليس إلاّ نمراً؛ مجرّد جنون وهذيان

لا يعنيان شيئاً. مشى بصمت على غير هدى بجسده الضخم إلى آخر أزقة المدينة القديمة مروراً بالمقاهي المدمَّرة، والمخابز، والسيارات التي أقحمها القصف داخل واجهات المحالّ. وصلَ إلى طريق الحافلات، وقفز فوق الشاحنات المقلوبة، ومر تحت كابلات الكهرباء التي كانت معلقة فوق شوارع المدينة في ما مضى، وتبدو الآن مقطّعة وسوداء كالنباتات المتسلقة في الغابة.

وبحلول الوقت الذي وصل فيه إلى كنيز بيتروفا، وجد الناهبين يملأون الجادة. مر إلى جانبه رجال يحملون معاطف من الفرو، وأكياساً من الطحين والسكر، وقطعاً من السقوف، وصنابير، وطاولات، وقوائم الكراسي، وتنجيد الجدران من البيوت التركية الأثرية التي سقطت في الغارة، ولكن النمر تجاهلهم جميعاً.

قبل شروق الشمس ببضع ساعات، وجد النمر نفسه في سوق مهجورة في كالينينا على بعد مربعين سكنيين من المكان الذي اشترى فيه جدي وجدتي شقتهما الأولى بعد ذلك بخمسة عشر عاماً. بدت رائحة الموت التي حملها الهواء إلى هناك من الشمال مختلفة عن الرائحة القوية التي فاحت من الماء الجاري بين الحصى في ساحة السوق. مشى النمر منكساً رأسه وهو يحاول التمييز بين الروائح المختلفة؛ كرائحة الطماطم المسحوقة، والسبانخ العالقة على الأخاديد في الطريق، والبيض المكسور، وبقايا السمك، والدهن المتجمد على جوانب أكشاك الجزارين، والرائحة الثقيلة العالقة بكشك بيع الجبن. لم يعد يقوى على احتمال العطش، فراح يلعق الماء المتسرب من النافورة حيث اعتادت بائعات الزهور أن يملأن دلاءهن، ثم لامس بأنفه وجه طفل نائم وملفوف بالبطانيات تحت كشك بيع الكعك حيث خلفه أهله وراءهم وهربوا.

أخيراً، بدأ النمر يصعد الممر المؤدي إلى غابة الملك بعد أن

عبر أحيـاء المدينـة التي يسـود فيها القلق، وصاحَبَه صـوتُ هدير النهر الثانـي فـي خطواتـه. إنني أحب أن أتخيله ماشـياً على طول ممر عرباتنا القديم، وأن أتخيّل آثار قوائمه على الحصى، ومشـيته المرهقة، وكتفيه المنحنيتيـن وهـو يعبـر ممرات طفولتي قبل سـنوات من ولادتي، ولكن السير على النباتات والطحالب بدا أكثر سـهولة وراحة لقوائمه المصابة مقارنة مع السير على ركام المدينة المدمرة. أنعشته البرودة التي منحته إياها ظلال الأشجار المنحنية وهو يتسلق التل إلى أن وصل إلى القمة أخيراً. وهكذا، أصبحت أطلال المدينة المحترقة وراء ظهره.

أمضى النمر بقية ليلته في المقبرة ثم غادر عند بزوغ الفجر، ولكنه لـم يمـض مـن دون أن يلاحظـه أحـد. فقد رآه حفار القبـور، ولكنه لم يصـدق بصـره الضعيـف عندما خُيّل إليه أنه رأى نمراً واقفاً على قائمتيه الخلفيتيـن يبحـث فـي حاوية القمامة، ويمضغ الزهور والأشـواك تحت أشـعة شـمس الصباح الباكر. ولمحته فتاة صغيرة وهي جالسـة في عربة عائلتها فيما كان يمشي بين الأشجار، فظنته مجرد وهم. ولاحظه أيضاً قائد دبابة عسكرية قبل ثلاثة أيام من انتحاره، وذكره في رسالة وجّهها إلـى خطيبتـه قائـلاً: لـم أر في حياتـي منظراً أغرب مـن نمر يتجول في حقول القمح، مع أنني انتشلت اليوم جثة امرأة متفحمة في معتزل سفيتا ماريـا. أمـا آخـر شـخص شـاهد النمر، فقد كان مزارعـاً يعمل في قطعة أرض صغيـرة علـى بعـد ميليـن جنوب المدينـة. إذ لاحظ ذلك المزارع النمـر بينمـا كان يدفـن ابنه في الحديقة، ثم بدأ يرشـقه بالحجارة عندما رآه يقترب منه.

لـم يكـن الدافـع وراء مضيّ النمر في رحلته أنّه يقصد وجهةً معينة يريـد الوصـول إليهـا، بل كان دافعه رغبة ملحة لإشـباع جوعه والحفاظ علـى حياتـه، وشـعوراً غامضاً باطنياً يجذبـه إلى ما يبحث عنه؛ وهذا ما حثه على المضي قدماً. أمضى أياماً وأسـابيع وهو يجتاز حقولاً واسـعة

ظمـأى ومسـتنقعات ممتـدة تغص بجثث الموتـى. ورأى الجثث مكومة على جانب الطريق، أو متدلية من أغصان الأشجار. انتظر النمر سقوطها أرضاً، ثم أعمل أنيابه فيها إلى أن أصيب بالجرب وفقد سنين من أسنانه، ثم واصل سيره. تَبع مجرى النهر فوق سفوح التلال التي تفيض بالماء بفضل أمطار شهر نيسان الغزيرة. وأصبح ينام في القوارب الفارغة إلى أن تبدأ أشـعة الشـمس الشـاحبة بالغياب، ثم يطوف حول مساكن البشر والمزارع الصغيرة التي جذبته إليها أصوات الماشية، وأخرجته من مخبئه بين الأجمات، ولكنه خشي أن يفضح ذلك المكان المكشوف وجوده، وأن يفاجئه صوت البشر، لذا لم يبق هناك طويلاً.

عنـد أحـد منعطفـات النهـر، عثر علـى دار عبادة مهجـورة لها برج شـبه منهار يغطيه نبات اللبلاب المعترش، وترفرف عليه أسـراب طيور الحمام الصامتة. منحته دار العبادة ملاذاً من المطر لبضعة أسابيع، ولكنه لم يعثر على أي طعام هناك لأن الجثث التي ملأت باحتها تحللت منذ وقت طويل. لذا، لم يجد ما يسـد به رمقه سـوى بيض الطيور المائية، وسمك السلّور الذي راح يصطاده بين الحين والآخر على الشاطئ. وفي نهاية المطاف غادر المكان. وبحلول مطلع الخريف، كانت أربعة أشهر قـد مضـت عليـه وهـو هائم على وجهه في المسـتنقعات؛ يلتهم الجثث المتحللـة التـي جرفهـا النهر، ويصطاد الضفادع والسـمندل(*) على طول مجـرى الجـدول حتـى أصبح بيئـة خصبة للعلقـات والطفيليات. فظلت عشرات منها عالقة كالعيون على فراء قوائمه وخاصرتيه.

في صباح أحد الأيام، وفي أثناء موجة صقيع مبكرة جمّدت أطرافه، عثر على خنزير بري سـمين بني اللون منهمك في البحث عن البلوط. وللمـرة الأولـى فـي حياته، خـاض النمر مطاردة حقيقيـة، ولكنها كانت مغامـرة صاخبـة ومتهـورة خرج منها منهكاً ومقطوع النفس، بينما توارى

(*) حيواني برمائيٌّ شبيه بالعظاءة ولكنه غير محرشف الجلد.

الخنزير البري بين شجيرات الخريف من دون أن يلتفت وراءه».

لـم ينجـح النمـر فـي اصطيـاد فريسـته، ولكـن ذلك لـم يمنعه من المحاولة على الأقل. فقد وُلد في صندوق قش في سيرك الغجر، وكبر وهو يتغذى على العظام البيضاء الدسمة التي توضع في قفصه بالقلعة. وللمرة الأولى في حياته، أحسّ برغبة غريزية جعلته يثني مخالبه، وأثمر ذلك عن الإحباط وخيبة الأمل. وحثته الضرورة شيئاً فشيئاً على التخلي عن خموله وكسله، وقوّت من عزيمته، وعززتها، وشحذت ردود أفعاله السـنورية المتوحشـة، وشـدَّته طبيعته السـيبيرية - التي أضاعها منذ زمن بعيد - نحو الشمال بثلوجه وصقيعه.

* * *

إن قريـة غالينـا التـي وُلـد فيهـا جدي لا تظهر علـى خريطة بلادنا. ولم يصطحبني جدي لزيارتها قط، ونادراً ما كان يذكرها في حديثه، أو يعبر عن شوقه إليها، أو عن فضوله لمعرفة ما يجري فيها، أو رغبته في العودة إليها. ولم يكن في وسع أمي أو جدتي أن تخبراني أي شيء عنها لأنهما لم تذهبا إليها مطلقاً. وعندما قررت أخيراً أن أعثر عليها بعد أن أنجزت عملية التلقيح في بريجيفينا، وبعد انتهاء مراسم دفن جدي بوقت طويل، ذهبت بمفردي ومن دون أن أخبر أحداً عن وجهتي.

فـي سـبيل الوصـول إلى غالينا، توجب علـيّ أن أغادر المنزل عند بـزوغ الفجر، وأسـافر إلى الشـمال الغربي على طـول الطريق الخارجي الذي يربط بين الضواحي حيث يبني المقاولون بيوتهم الصيفية المرتفعة عديمة الباحات ولكنهم لا ينهونها أبداً. رأيت خلف بوابات تلك البيوت أبوابـاً ونوافـذ مفتوحـة علـى غرف فارغة، وقططة هزيلة تمط أجسـادها على عربات الجر المليئة بأكوام التراب. كما وجدت كل بضع خطوات دليـلاً علـى جهـود البـلاد لإعادة إعمار ما هدمته الحـرب؛ كالملصقات والنشـرات التـي تعلـن عن متاجر بيع الطلاء أو الخـردوات، واللافتات

التي تشير إلى محالّ بيع أطقم الحمامات والسيراميك، وورشات النجارة، ومستودعات الأثاث، ومكاتب فنيي الكهرباء. وصادفت مقلع حجارة مطلاً على الجرف، فيه جرافات صفراء تنتظر عودة العمال في مطلع اليوم، ولوحة إعلانية كبيرة تعلن عن أفضل مطعم للّحم المشوي، وتظهر عليها صورة حمل مشوي يدور على المشواة.

ليست هناك أي أوجه شبه بين هذا الطريق وذلك الذي سلكته بصحبة زورا في رحلتنا إلى بريجيفينا على الرغم من وجود بساتين وكروم تلمع أوراقها الخضراء وثمارها تحت ضوء الشمس. قطع رجال كبار في السن الطريق أمامي بتمهل سيراً على الأقدام خلف قطعان الخرفان ذات الصوف المجزوز. وكانوا يلوّحون بأيديهم لتوجيه حملانهم السمينة، أو يخلعون أحذيتهم بحثاً عن قطع الحصى الموجودة فيها والتي تزعجهم منذ ساعات. إن حقيقة كون المرء على عجلة من أمره لا تعني لهم شيئاً البتة. فالاستعجال من وجهة نظر هؤلاء الناس يُفقد الرحلة الكثير من متعتها.

يصبح الطريق الخارجي أضيق فأضيق إلى أن يتحول إلى طريق من مسار واحد، ويزداد انحداراً. أمر بمروج تحفُّها الغابات، وأصادف مساحات خضراء شاسعة لا أتوقع وجودها خلف المنعطفات. تبدو السيارات المتوجهة إلى الجبل صغيرة ومكتظة بركابها وهي تزحف ببطء في عكس اتجاهي. ويبدأ المذياع بالالتقاط أخبار من ما وراء الحدود؛ ولكن الإشارة الضعيفة تجعل الأصوات تختفي لبضع دقائق في بعض الأحيان.

تتوارى الشمس عن ناظريّ في بعض الأوقات. وفجأة، أجد أنني أشق طريقي عبر غيمة منخفضة تنشر ضبابها الكثيف حولي، وتبدو معلقة على أشجار الصنوبر والصخور. وتتكشف أمامي مروج تتناثر فيها البيوت المتداعية، والأنزال عديمة الأبواب، والجداول البعيدة المجهولة،

فأدرك أنني قطعت أميالاً لم أرَ فيها سيارة واحدة، وأحاول الاستعانة بالخريطة، ولكنني أجدها عديمة الفائدة. وتبدو لي دار العبادة التي أمر بها كئيبة وموحشة، فيما كان موقف سياراتها خالياً تماماً. وعندما أصل إلى محطة الوقود، لا أجد من يرشدني إلى الاتجاه الصحيح، وأكتشف أن شحنات الوقود لم تصلهم منذ أسابيع.

على امتداد الطريق السريع الفارغ، أجد لافتة يتيمة تؤكد لي أنني في الاتجاه الصحيح. في الواقع، كاد أن يفوتني الانتباه إليها لأنها ليست إلا مجرد لوح خشبي صغير خُطَّت عليه بالطبشور الأبيض عبارة سفيتي دا\نيلو، وإلى جانبها سهم معقوف يشير باتجاه الطريق المرصوف بالحصى، وينعطف باتجاه الوادي في الأسفل، ولكن اللافتة لا تحذر المسافر من أن سيارته لن تصمد أكثر من خمسة عشر ميلاً على طول ذلك الطريق، وأنه سيتوجب عليه أن يكمل رحلته سيراً على الأقدام. ولا تذكر اللافتة أيضاً أن دخول المسافر ذلك المسار بواسطة سيارته يعني أنه أصبح مُلزماً بأن يمضي ليلته في العراء؛ لأن سيارته على الأرجح لن تنجح في التراجع إلى الوراء من محاولة واحدة، وأنه سيتوجب عليه أن يمضي ثماني ساعات وهو جالس مثني الركبتين وظهره مسنود إلى باب السيارة، وأنَّ محاولة إحضار الضوء الكشاف غير المستعمل وعديم الفائدة من الصندوق تتطلب منه النزول من السيارة، وهذا ما لن يجرؤ أحد على فعله أبداً.

أواصل طريقي عبر منحدر شديد الارتفاع يقطع حقول قمح مسيَّجة، وحقولاً أخرى مزروعة بالتوت الأسود، ومراعي نثرت الأشجار على أعشابها شلالاً من الزهور البيضاء. وبين الحين والآخر، أمرُّ بحيوان طليق يكاد يبلغ حجمه حجم سيارة صغيرة يقلب التراب في الخندق بأنفه. فينظر إليّ من دون أن يفاجئه وجودي كثيراً على الرغم من ندرة وجود السيارات في تلك الأنحاء.

وبعد مرور عشرين دقيقة، أصل إلى منعطف حاد في الطريق، ثم أنظر إلى الوهج الذي يسطع في الطرف المقابل للوادي؛ خلف غابة الصنوبر الكثيفة الشامخة. وتظهر أشعة الشمس لتلقي نظرة على آخر نافذة متبقية من معتزل سفيتي دانيلو. إن هذه النافذة هي الدليل الوحيد الذي يشير إلى أن المعتزل ما زال موجوداً، وهي أعجوبة بحد ذاتها لأنه من الممكن رؤيتها من المكان نفسه في أي وقت من اليوم طالما أن الشمس لا تزال مشرقة.

بعد وقت قصير، يظهر أمامي أول بيوت القرية. أرى في البداية بيت مزرعة ذا سقف من الصفيح ونوافذ مطلة على الطريق. لا يعيش أحد في ذلك المنزل، وتنمو في حديقته شجرة عنب أسود مهيمنةً على الجزء العلوي من البستان. أما البيت التالي، فتعتريني الدهشة حينما أراه ما إن أنعطف بسيارتي حول الزاوية. إذ أجد رجلاً أشيب الشعر جالساً على شرفته. وفي اللحظة التي يراني فيها ذلك الرجل، ينهض ويدخل البيت بسرعة مذهلة. ولكنني أدرك لاحقاً أنه سمع صوت عجلات السيارة على الحصى منذ خمس دقائق، وتعمَّد أن يجعلني أراه وهو يخبط الباب في وجهي. إن اسمه ماركو باروفيك. ولا أوفر جهداً في إزعاجه لاحقاً.

وبعد أن أمرَّ بسلسلة من الشلالات الصغيرة، أصل إلى مركز القرية. أرى بضعة منازل رمادية وحمراء متلاصقة تحيط بالتمثال البرونزي ذي اليد الواحدة الخاص بمعتزل سفيتي دانيلو وبئر القرية. وأجد جميع سكان القرية جالسين على مقاعد شرفة المقهى، فيرونني جميعاً، ولكن، لا أحد منهم ينظر إليّ.

* * *

نشأ جدي في بيت حجري ينمو عليه نبات اللبلاب المعترش والزهور الأرجوانية الفاقعة. لم يعد ذلك المنزل قائماً. إذ بعد أن ظل خالياً لعشرين عاماً، استولى عليه القرويون حجراً تلو الآخر ليصلحوا

أسوار حظائرهم، ويرقعوا ثقوباً في علّياتهم، ويدعموا أبوابهم.

لقد توفيت والدة جدي في أثناء المخاض. أما والده فقد مات حتى قبل أن تنطبع صورته في ذهنه، فانتقل جدي للعيش مع جدته التي تعمل قابلة في البلدة. كانت الجدة قد ربت قبل جدي ستة أولاد، نصفُهم أطفال أصدقاء أو جيران من القرية. لذا، اعتاد جميع سكان البلدة أن يطلقوا عليها بحنان لقب الأم فيرا. هناك صورة واحدة باقية للأم فيرا تبدو فيها امرأة خشنة الملبس، واقفة أمام زاوية منزل حجري، ويلوح من خلفها بستان مليء بالأشجار. يدل مظهر يديها اللتين تضعهما على حضنها على أنها امرأة كادحة. ويجعل تعبيرُ وجهها المتجهم من ينظر إليها يظنُّ أن المصور يدين لها بالمال.

في تلك الأيام، اقتصر منزل الأم فيرا على ثلاث غرف فقط. وقد اعتاد جدي أن ينام على فرشة من القش فوق سرير خشبي صغير بجانب الموقد. كان المنزل يضم مطبخاً نظيفاً، فيه أوانٍ ومقالٍ من الصفيح، وحزم من الثوم معلقة على الدعامات، ورفٌ أنيق محمل بجِرار المخلل والبصل ومربى الورد وقوارير شراب الجوز المنزلي. في الشتاء، اعتادت الأم فيرا أن تشعل الموقد ليلاً ونهاراً. أما في الصيف، فقد كانت طيور اللقلق تعشش في قمة المدخنة الحجرية، وترفرف بأجنحتها لساعات وساعات. تميزت حديقة المنزل بإطلالة رائعة على الجبال الخضراء فوق البلدة، وعلى الوادي الذي يشقه نهر عريض متلألئ يزداد عرضاً، ثم ينعطف عند دار العبادة ذات البرج الأحمر. كان طريق ترابي يمر بجانب المنزل، ويصل بين بستاني الزيزفون والخوخ اللذين كانا إلى جانب الماء. اعتادت الأم فيرا أن تزرع حديقتها بالبطاطا والخس والجزر إلى جانب شجيرة ورد صغيرة منحتها أقصى رعايتها واهتمامها.

يقال إن البلدة نشأت في العصور الوسطى حول معتزل سفيتي دانيلو الذي أقيم بناءً على مشروع مهندس معماري أثبتت مهاراته في

رسم الخرائط والتصميم الفني عدم كفاءتها لأنه فشل في الأخذ بعين الاعتبار المقاطعة المستمرة التي ستتعرض لها عزلة المعتزلين بسبب تحرك الجيوش نحو الجبال الشرقية والوادي قرب النهر. لذا، أدّى وجود المعتزل في ذلك الموقع إلى تعرض أراضيه إلى الانتهاك المستمر من قبل المزارعين الذين لا يكُفّون عن التوسع، والرعاة، وسكان الجبل الذين اكتشفوا - رغم قدرتهم على الصمود في المعارك مع الدببة والثلج والأسلاف - أن العزلة في المنحدرات الشرقية ليست مفضلة على القدرة على الاحتماء بجدران المعتزل عند أول ظهور لطلائع جيوش الأتراك. وشكّل هؤلاء السكان في نهاية المطاف مجتمعاً متوازناً مؤلّفاً من قرابة عشرين عائلة مقيمة تمتهن مهناً متنوعة توارثتها عبر الأجيال. وأحاط ذلك المجتمع نفسه بعزلة ظلت تحميه - حتى بعد أن سقط المعتزل في الحرب العالمية الأولى - من كل الدخلاء؛ باستثناء بعض الباعة المتجولين الذين يحضرون من صيف إلى آخر، أو ابنة قادمة من ما وراء الجبل كعروس جديدة لأحد شبان القرية.

لقد نشأت الأم فيرا في عائلة تمتهن الرعي لكسب رزقها. فاستثمرت الكثير من حياتها الخاصة في هذه المهنة التي بدت في نظرها السبيل الطبيعي الوحيد الذي يجب أن ترشد جدي إليه. لذا، نشأ مع الخرفان وثغائها وأنينها ورائحتها القوية وعيونها الدامعة وصوفها المجزوز، واعتاد فكرة موتها وذبحها في الربيع. تميزت طريقة تعامل الأم فيرا مع سكين الذبح بالاستقامة والدقة ككل شيء تفعله؛ بدءاً من طهيها، إلى طريقة حياكتها كنزات جدي. وشكّلت الطقوس المتكررة في هذه الحياة المبنية على طبيعة الأم فيرا شيئاً ثميناً عملت جاهدة على لصقه بطبيعة جدي لتجعله معتاداً عليه كما يعتاد المرء الانتقال المنطقي والمباشر من فصل إلى فصل، ومن الولادة إلى الموت من دون أي عاطفة زائدة عن الحاجة.

بـدت الأم فيـرا - كغيرهـا مـن الأمهات الرئيسـات اللاتي يفرضن النظـام حولهـن - واثقـة مـن رضـوخ جـدي فـي نهاية المطـاف للنظام والانضبـاط. وبنـاءً على ذلك، أصبحـت متأكدة، ربما زيادة عن اللزوم، من حسـن قدراته ومهاراته. فعندما بلغ السادسـة من عمره، أعطته عصا رعي صغيرة مناسبة لحجمه، وأرسلته إلى الحقول وبحوزته بضعة خراف مسنة لا يُخشى من أن تسبب له الكثير من الإرباك، وذلك لتمرّنه على مهنة الرعي. سرَّ جدي سـروراً عظيماً بمسـؤوليته الجديدة، ولكنه كان صغيراً جداً في ذلك الوقت لدرجة أنه لم يعرف تفاصيل ما حدث إلا في وقت لاحق. ولم يتذكر شـيئاً سـوى حفيف الأعشـاب بفعل نسيم الصبـاح، وصـوف الخـراف القطني الناعم، وسـقوطه السـريع المفاجئ فـي الحفـرة العميقـة التي أمضى فيها ليلته وحيداً، وهو يمعن النظر إلى الخراف الشاردة في الأعلى، ثم وجه الأم فيرا القلق عندما ظهرت بعد ساعات في ضوء الفجر، وراحت تحوم حول فتحة الحفرة باحثة عنه.

إن هـذه إحـدى القصـص القليلـة التـي قصَّهـا علـي جـدي عـن طفولتـه. أمـا القصـة الأخرى، فقد تميزت بأنها أشـبه بنـادرة من النوادر الطبيـة الطريفـة. فقـد تحدث جدي في تلك القصة عن صديقة له تدعى ميريكا كانت تعيش على بعد بضعة منازل من منزله. وعندما كبر جدي وصديقته بما فيه الكفاية للانصراف عن الشـجار وشـد الشـعر والتنابز بالألقـاب، انتقـلا إلى لعبة أكثـر تحضراً، وهي لعبة البيت. فاعتاد جدي أن يلعب دور الزوج الحطاب. وذات يوم، نزل إلى الشارع وهو يتحدث إلى نفسه حاملاً بيده لعبة على شكل فأس، فيما انهمكت ميريكا - التي باتـت تتقـن جيـداً واجبات الزوجة وأصبحت سـيدة منـزل مطيعة - في تحضير وجبة لزوجها مكونة من حساء تم إعداده من مياه البئر وأوراق نبـات الدِفلـى، ثـم قدمتهـا له على جذع شـجرة مقطوع بـدلاً من مائدة الطعام، ولكن المشـكلة لا تكمن في جوهر اللعبة بل في التطبيق. فقد

أدى جدي دوره في اللعبة حرفياً، وتناول حساء أوراق الدفلى، وسرعان ما بدأ يتقيّأ بشدة.

حضر صيدلي البلدة بعد ساعة ليحرض على المزيد من التقيّؤ بهدف تنظيف معدة جدي. إن هذا بالطبع إجراء مقيت جداً. ولكن، لا بد أنه كان في ذلك الوقت من الماضي أشد مقتاً وإزعاجاً. إن بعض من قابلتهم ممن عرفوا ذلك الصيدلي وصفوه بأنه رجل ذو يدين ضخمتين، وعينين مهيبتين يشع من فوقهما مصباح الرأس. ويُخيَّل إليّ أن جدي قد شعر منذ تلك السن المبكرة بدافع يغريه بتوقير مهنة الطب.

على مدى سنوات طفولة جدي، ازدادت زيارات الصيدلي له أكثر من ذي قبل، وذلك بهدف تحضير الأدوية المُقيِّئة وتجبير الكسور وغير ذلك. وذات مرة، قام بقلع أحد أضراس جدي لأنه تهشم عندما اشترى حلوى قاسية سراً من بائع غجري متجول على الرغم من أنه كان قد مُنِع من التعامل معه. وعندما انهمك الأولاد في لعبة تمثل الحرب بيننا وبين العثمانيين، هزّ جدي فأسه المستعارة بحماسة زائدة، وقذف علبة القصدير المعدنية الحادة المثبتة عليها نحو جبين أحد أولاد الجيران. عندها، حضر الصيدلي ليقطب الجرح العميق الذي أصيب به الصبي تحت خط شعره تماماً. وعلى الرغم من كل ما قصّه علي جدي من قصص، فهو لم يذكر شيئاً عن ذلك الشتاء الذي أصيب فيه بوباء الحمى الخطير الذي تفشى في أنحاء القرية كافة على الرغم مما بذله الصيدلي من جهود جبارة. وكان جدي الولد الوحيد تحت سن الثانية عشرة الذي نجا من الموت. ودفنت القرية ستة أولاد تحت الثلج، وهم جيل جدي بأكمله، ومن بينهم ميريكا التي أطعمته حساء أوراق الدِفلى.

أظن أن ثمة ما يجعل ذكريات الطفولة المبكرة تلك شيئاً لا يُمحى من الذاكرة أبداً. إذ ظل جدي طوال حياته يتذكر الإحساس الذي تملكه وهو واقف في محل الصيدلي الدافئ محدّقاً إلى قفص طائر "أبو منجل"

الأحمـر الكبيـر الوقـور. فقـد شـكل ذلك المحـل في نظره مثـالاً رائعاً للنظـام والتناسـق الممتـع اللذين لا يمكـن للمرء أبداً أن يحصل عليهما من مجرد العودة إلى البيت وبحوزته العدد الصحيح من الخراف. لذا، اعتـاد جـدي أن يقـف خلف الطاولـة، وأحد جوربيه أطـول من الآخر، ويتأمل الرفوف العديدة وما عليها من مرطبانات وقوارير مليئة بالأدوية التي يمنح مظهرها الهادئ أملاً بالشفاء والتعافي من الأمراض. وأصبح ينظر إلى ذلك الميزان الذهبي الصغير والمسـاحيق والأعشـاب والتوابل ورائحة المتجر المرحِّبة نفسها على أنها مظاهر تدل على حقيقة أخرى خفيـة لا يعلمهـا أحـد. فقـد اعتبر جـدي ذلك الصيدلـي - الذي يقتلع الأسنان، ويفسر الأحلام، ويحضِّر العلاجات، ويرعى طائر "أبو منجل" الرائع أحمر اللون - رائعاً وموثوقاً، وهذا هو السبب الذي جعل القصة تبدأ عند ذلك الصيدلي وتنتهي عنده.

على أي حال، إن رعي الأغنام عمل يسـاعد على الدراسـة، وهذا ما ساهم على الأرجح في تقدم دراسات جدي. فقد ساعده الرعي على الاختـلاء بنفسـه لأوقـات طويلـة بعيـداً عن كل مصدر للإزعـاج. تمتاز الحقول فوق غالينا بالخضرة والهدوء، وتشـكل مسـكناً مثالياً للجنادب والفراشـات، ومرعـى للغزلان الحمراء. وهكـذا، اصطحب جدي قطيع خرفانه إلى الحقول ذات الأشـجار وارفة الظلال، واسـتطاع خلال أول صيف أمضاه هناك أن يعلم نفسه القراءة.

قرأ جدي أولاً كتاب الأبجدية، وهو الأساس الذي يبنى عليه تعليم الطفل، وأول فلسفة يصادفها في حياته. وتعرف على بساطة اللغة، ونطق الحروف التي تكتب تماماً كما تلفظ. وبعد ذلك، قرأ كتاب الغابة الذي منحـه إيـاه الصيدلـي هديـة. فأمضـى أسـابيع وهو جالس على العشـب الطويل ومستغرقاً في قراءة المجلد البني ذي الصفحات الناعمة. وتعرف على شخصية الفهد باغيرا والدب بالو والذئب المسن آكيلا. ورأى على

الغلاف صورة طفل نحيل، ومنتصب القامة، يغرز عصا مشتعلة في وجه هر ضخم مربع الرأس.

* * *

يقال إن الأهالي شاهدوا النمر لأول مرة في سلسلة جبال غالينا فوق البلدة خلال عاصفة ثلجية في نهاية شهر كانون الأول. ولكن، لا أحد يدري كم أمضى من الوقت هناك وهو مختبئ في تجاويف الأشجار الساقطة. في ذلك اليوم بالذات، أضاع الراعي فلاديشا عجلاً في العاصفة الثلجية، فصعد إلى قمة الجبل ليستعيده، وحينها عثر على النمر داخل أجمة من الشجيرات، ورأى عينيه الصفراوين المتوهجتين، والعجل الميت معلقاً بين فكيه. ولكن، ما الذي قد تعنيه كلمة نمر بالنسبة إلى فلاديشا؟ بالنسبة إليّ، لقد عرفت النمر منذ طفولتي لأن جدي اعتاد أن يصطحبني إلى القلعة كل أسبوع ويشير إليه قائلاً: "هذا نمر!"، ولأن اللافتات المعلقة داخل متحف الحيوانات المحنطة حيث تنزّهنا في فترات العصر الهادئة كتبت عليها كلمة نمر، ولأنني رأيت رسماً صينياً مصغراً للنمر على غطاء دواء الرُكَب الخاص بجدتي. ولكن، ما الذي يتوقع المرء أن تعنيه رؤية نمر بالنسبة إلى أحد أهالي قرية جدي في ذلك الوقت من الماضي؟ قد لا تشكل رؤية دب أو ذئب ظاهرة مدهشة. ولكن، أن يرى نمراً! يا للرعب الذي أصاب ذلك المسكين!

لم يصدق الناس فلاديشا المسكين حتى عندما رأوه يجري عائداً من سفح الجبل، ووجهه شاحب كالأشباح، ويداه خاليتان من عجله الضائع. ولم يصدقوه عندما انهار في ساحة القرية مقطوع الأنفاس بسبب الإجهاد والرعب، ثم استطاع أن يتمتم متلعثماً ويقول إنّ أمرهم قد انتهى، وطلب منهم أن يستدعوا رجل الدين على جناح السرعة. لم يصدق أهل القرية فلاديشا لأنهم لم يعرفوا فعلاً ما يجب عليهم

تصديقه. ترى، ما عساه يكون ذلك المخلوق البرتقالي ذو الظهر المخطط بلون النار؟ ربما كان القرويون سيبدون أكثر استعداداً لإبداء رد فعل لو قال لهم إنه رأى المشعوذة بابا روجا التي تتحدث عنها الأساطير، وإن كوخها المبني من العظام قد انهار فوقه في سفح التل.

كان جدي والأم فيرا من بين السكان الذين تجمهروا في الساحة بعد أن سمعوا صراخ فلاديشا. لا بد أن زوجة النمر قد حضرت أيضاً، ولكنهم لم يدركوا وجودها في ذلك الوقت. اندفع جدي خارجاً من المنزل من دون أن يرتدي معطفه، فلحقت به الأم فيرا حاملة معطفه بيديها، وصفعته على وجهه وهي تجبره على إدخال يديه في الكمين. وبعد ذلك، وقفا في الساحة وهما ينظران إلى الحداد والصياد وبائع الأزرار وهم يساعدون فلاديشا على النهوض عن الثلج المتراكم على الأرض ويعطونه بعض الماء.

ردد فلاديشا قائلاً: "أؤكد لكم أن أمرنا قد انتهى!".

ولكن ما قاله كان في نظر طفل في مثل سن جدي يحتمل أكثر من معنى.

كان جدي طفلاً نحيلاً ذا شعر أشقر وعينين كبيرتين. وقد رأيت صوراً له بالأبيض والأسود يظهر فيها وهو ينظر بوقار إلى الكاميرا، وجارباه مشدودان إلى أعلى ساقيه، ويداه موضوعتان في جيبيه. لا بد أن مظهره بدا غريباً بالنسبة إلى أهل القرية بسبب تحليه بالهدوء والثقة بالنفس. فأخذ الصياد والحداد وبضعة أشخاص آخرين احتشدوا من جميع أنحاء القرية يتأملونه بحيرة وارتباك.

ومع ذلك، كان الصيدلي هناك أيضاً. وقال: "إنك محقّ ربما. أين ذلك الكتاب الذي أعطيتك إياه؟". وأسرع جدي إلى داخل البيت ليحضره. وعندما عاد وأعطاه إيّاه، بدأ الصيدلي يقلب في الصفحات باهتياج وهو يمشي، لكي يتمكن بحلول الوقت الذي يصل فيه إلى

فلاديشا المرعوب من الوصول إلى الصفحة التي تحوي صورة جدي المفضلة؛ وهي صورة تجمع بين ماوغلي وشريخان. قرَّب الصورة من وجه راعي الأبقار المرعوب. فألقى فلاديشا نظرة واحدة عليها، ثم أغمي عليه. وهكذا، اكتشف أهل القرية أمر النمر.

* * *

لو أن النمر كان نوعاً مختلفاً من النمور، أي صياداً منذ البداية، فلربما نزل إلى القرية في وقت أبكر من ذلك. فقد أوصلته الرحلة الطويلة التي قام بها من المدينة إلى قمة الجبل، ولكنه لم يعرف السبب الذي دفعه لكي يُفضّل البقاء هناك. إنني على يقين من أن الرياح والثلج العميق لم يشكلا عقبة في طريقه، وأنه ربما كان سيواصل السير طوال الشتاء، وسيصل إلى قرية أخرى لها دار عبادة، أو إلى مكان آخر يقطنه سكان لا يعتقدون بالخرافات. وهناك، كان أي مزارع عادي سيطلق الرصاص عليه ويعلّق جلده المسلوخ فوق الموقد في بيته. ومع ذلك، فقد أوقعته قمة الجبل - بشجيراتها المنحنية، والشرك المهلك تحت قدميه، وسفح الجبل المنحدر المليء بالكهوف، والحيوانات البرية التي دفعها الجوع الشديد طوال الشتاء إلى التهور والتخلي عن الحذر - في حيرة بين رغباته التي تزداد قوة، وبين رائحة مألوفة جذبته إلى القرية في سفح الجبل.

ظل النمر يمضي أيامه وهو يذرع قمة الجبل جيئة وذهاباً، ويتنشق روائح القرية التي ولّدت في نفسه شعوراً مألوفاً ومحيراً. فهو لم ينسَ الوقت الذي أمضاه في القلعة، ولكن ذاكرته اكتست بغشاوة سميكة خلال أيامه الأخيرة هناك، وخلال الأيام التي تلتها، وخلال رحلته الشاقة المليئة بالأشواك والشظايا والزجاج التي انغرست في قوائمه، وبطعم الجثث المنتفخة التي تغذى منها. بحلول هذا الوقت، لم يتبق في ذاكرته سوى إحساس دفين بأن أحداً ما اعتاد في الماضي أن يرمي

له اللحم الطازج مرتين في اليوم، وأن يرشه بالماء عندما تصبح الحرارة لا تطاق. وأدرك أن الروائح التي صعدت إليه من القرية بدأت تذكره بذلك الإحساس، فبعثت في نفسه القلق والانفعال وهو يجوب الغابات ويطارد كل سنجاب أو أرنب يصادفه في طريقه. بدت الروائح محببة ومميزة ومنفصلة كلياً عن بعضها؛ كرائحة الخراف والماعز ذات الصوف السميك، ورائحة النار والقطران والشمع، ورائحة المراحيض الخارجية والورق والحديد، وروائح البشر المختلفة، ورائحة اليخنة اللذيذة وخبز الفطائر. وبفعل تلك الروائح، ازداد النمر إدراكاً لجوعه وقله نجاحه كصياد، وللمدة الطويلة التي مضت منذ آخر وجبة تناولها. وتذكر العجل الذي صادفه عصر ذلك اليوم البارد عندما رآه الرجل وولى مدبراً بأقصى سرعة. فقد بدا له طعم العجل مألوفاً وكذلك شكل الرجل.

في تلك الليلة، نزل نصف المسافة إلى سفح الجبل، ثم توقف عند الجرف حيث تحيط الأشجار بالشلال المتجمد، وأخذ يتأمل النوافذ المتوهجة، وأسقف البيوت المكسوة بالثلج تحته في الوادي.

وبعد بضع ليالٍ، بدأ يميز رائحة جديدة صادفته في عدة أماكن مرّ بها في الماضي. إنها تلك الرائحة الخاطفة التي تجمع بين رائحة الملح ودخان الخشب المشبع بالدم. أحدثت تلك الرائحة تأثيرها في معدته الفارغة، وجعلته يتوق إلى التهام عجل، ولكن بلا جدوى. لذا، صار يتقلب على ظهره، ويضغط برأسه على الثلج، ويناديه إلى أن ارتعشت الطيور رعباً في أعشاشها. أصبحت تلك الرائحة المغرية تداعب أنفه كل ليلة في الظلام، وتجعله يقف على الثلج المتساقط حديثاً تحت الأشجار المنحنية فوقه ويستنشقها بشوق. وذات ليلة، شاهد أيلاً شارداً على بعد نصف ميل من الفسحة التي اعتاد أن يقف فيها. لقد انتظر موته الوشيك بفارغ الصبر، وشعر به قبل حدوثه بأيام. فقد وجده متلوّياً تحت وطأة الجوع وكبر السن والبرد القارس. ورآه وهو ينحني وينطوي على نفسه،

ورأى قرنه الوحيد ينكسر. ومع ذلك، لم تطغَ رائحة دم الأيل - التي فاحت من أحشائه بعد أن مزقها النمر بأنيابه - على تلك الرائحة القادمة من القرية.

وفي ليلة من الليالي، نزل النمر إلى الوادي، ووقف عند سياج المرعى، ونظر إلى الجانب المقابل من الحقل متأملاً البيوت الساكنة والحظيرة الفارغة والبيت ذا الشرفة المغطاة بركام من الثلج. كان هناك معمل قريب لحفظ اللحوم تفوح منه رائحة قوية، ولكن النمر اكتفى بالوقوف هناك وهو يحك ذقنه على أعمدة السياج، ثم عاد أدراجه إلى الجبل. وعندما نزل إلى السفح مرة أخرى، عثر على قطعة لحم بانتظاره. لا بد أن أحداً ما قد حضر إلى هناك في غيابه. إذ وجد أحد ألواح السياج مكسوراً، ووجد تحته قطعة لحم جافة وقاسية ولكنها فواحة بتلك الرائحة التي أثارت جنونه، فأخرجها بمخالبه، وعاد بها إلى الغابة حيث ظل يتلذذ بأكلها لوقت طويل.

بعد ليلتين، توجب عليه أن يغامر بالاقتراب أكثر ليعثر على قطعة اللحم التالية. فوجدها بانتظاره تحت برميل مكسور تركه أحدهم في الحقل على بعد بضع ياردات من معمل حفظ اللحوم. وبعد بضع ليالٍ، عاد مرة أخرى بحذر إلى المكان نفسه، فعثر على قطعة أكبر حجماً، وفي المرة التي تلتها عثر على قطعتين، ثم على ثلاث قطع. وفي نهاية المطاف، وجد كتفاً كاملة بانتظاره على عتبة معمل حفظ اللحوم.

وفي الليلة التالية، صعد النمر درج معمل حفظ اللحوم، وأدخل رأسه عبر الباب الذي وجده مفتوحاً على مصراعيه للمرة الأولى. وتمكّن من سماع صوت الخراف وهي تثغو في الحظيرة بعد أن شعرت بالرعب من وجوده، وصوت الكلاب التي أحاطت بها وراحت تنبح باهتياج. تنشق النمر الهواء من حوله، فميز فيه رائحة اللحم، ولكنه ميز أيضاً رائحة قوية غامرة تفوح من فتاة جالسة في الداخل. فقد شمها من قبل

على اللحم الذي وجده في الليالي السابقة. إنها رائحة الفتاة التي رآها جالسة في آخر معمل حفظ اللحوم وفي يدها قطعة من اللحم.

* * *

في تلك الأثناء، كان أهالي غالينا منشغلين بشؤونهم في تلك الأيام العصيبة. فقد تميزت نهاية ذلك العام بالعواصف الثلجية الشديدة التي هبت على القرية وخلفت ثلوجاً متراكمة تصل إلى الركب، وتنجرف كالرمال المتحركة إلى داخل البيوت وخارجها. خيم الهدوء والصمت المطبق على الأجواء، وانتشر الخوف بين الناس. فقد دفن الثلج الطرق الجبلية، وحجب عن القرية أي أخبار عن الحرب. وقضَّ مضاجعَ الناس وجودُ ذلك المخلوق الضخم المجهول الذي راح يذرع ببطء غابات الصنوبر الكثيفة في قمة جبل غالينا مهدداً أمنهم وسلامهم. فقد عثروا ذات مرة على دليل يثبت لهم وجوده. إذ خرج الحطاب مرغماً ليحتطب في سفح الجبل، وعثر صدفة على رأس حيوان أيل مكسو بالفراء، عيناه مبيضتان وعموده الفقري المسنن ممدّدٌ على الأرض كضفيرة رمادية من العظام. وشكلت هذه الحادثة - بالإضافة إلى ما تعرض له فلاديشا - سبباً كافياً لإقناع أهل القرية بعدم مغادرتها أبداً.

كان القرويون قد ذبحوا مواشيهم مسبقاً في شتاء ذلك العام، أو حبسوها في الحظائر بانتظار حلول الربيع. ومنحهم الشتاء عذراً للبقاء بأمان داخل البيوت، وكلُّهم أمل بأن النمر لن يتمكن من الصمود خلال فصل الشتاء. ومن ناحية أخرى، لم تغب عن بالهم إمكانية إدراك النمر أنه لن يصمد طويلاً، وأن يدفعه هذا إلى النزول إلى القرية واصطيادهم واحداً تلو الآخر. وتساءلوا عن كيفية وصول النمر إلى قريتهم إن كان ينتمي إلى الأدغال البعيدة والسهول الاستوائية. وهكذا، أشعلوا النيران في بيوتهم على أمل أن يثنيه ذلك عن مغادرة قمة الجبل. كانت الأرض متجمدة وصلبة، ولهذا أجلوا كل الجنائز إلى أن يذوب الثلج. لم يمت

سوى ثلاثة أشخاص في شتاء ذلك العام، لذا كان الحظ حليفهم. كدسوا ألـواح الثلـج فـي قبـو الحانوتي، وعملوا على سـدّ الفراغات حول أطر النوافذ من الداخل بالقماش ليمنعوا تسـرب رائحة الجثث من المكان، وذلك من قبيل الحيطة والحذر.

مرت فترة من الزمن من دون أي أثر لوجود النمر. وكاد القرويون يقنعون أنفسهم بأن القصة كلها مجرد دعابة، وأن فلاديشا رأى شبحاً، أو ربما تعرض لنوبة ما وهو هناك في الجبال، وأن دباً أو ذئباً هو ما افترس حيـوان الأيـل. ولكـن كلاب القرية، وهي من نوع كلاب الرعي والصيد ذات الفـراء السـميكة والعيـون الصفـراء، أدركـت بغريزتهـا أنـه موجود بلا شـك هناك في قمة الجبل. إذ اسـتطاعت أن تشـم رائحته الشـبيهة برائحة القططة. وأثارت تلك الرائحة جنونها، فأخذت تنبح بتوتر وتشد أطواقها، وملأت هدوءَ الليل بأصوات عوائها. وصار القرويون المرتدون ملابسهم الليلية وجواربهم الصوفية يرتجفون في أسرتهم، وينامون نوماً متقطعاً مليئاً بالكوابيس.

ولكن جدي ظل يتوجه إلى بئر القرية في صباح كل يوم، وينصب الشـراك لطيـور السُـمَانى كل ليلـة. فقد كان مسـؤولاً عـن تأمين الطعام للأم فيرا. وبالإضافة إلى ذلك، فقد عاش فصل الربيع بطوله على أمل أن يلمـح النمـر، واعتـاد أن يحمل كتابه البني الذي يحوي بين صفحاته صورة شريخان إلى كل مكان يذهب إليه رغم أنه يجب عليّ أن أعترف أنه لم يقطع مسـافة طويلة في شـتاء ذلك العام بالذات. وكان الانفعال الذي تملكه - وهو صبي في التاسعة من عمره - ملموساً بلا شك لأنه لفت إليه انتباه الفتاة الصماء والبكماء.

فقـد كانـت هنـاك فتاة تبلغ السادسـة عشـرة من عمرهـا تعيش في أطراف البلدة في منزل الجزار وتساعده في متجره. وكان جدي - وهو علـى الأرجـح ليـس من أكثر الأولاد انتباهـاً - يراها بين الحين والآخر

في أيام التسوق والمهرجانات، ولكنه لم يعرها أي اهتمام زائد إلى أن اعترضت طريقه بخجل في شتاء ذلك العام قبل احتفال الميلاد بأيام وهو متوجه إلى المخبز في ساعات الصباح الباكر، وأخذت كتابه من جيب سترته الأمامي حيث بات يحتفظ به منذ قدوم النمر إلى الجبل.

ظلت صورة تلك الفتاة مطبوعة في ذاكرة جدي طوال حياته. ولم ينس قطّ شعرها الداكن، وعينيها الواسعتين المعبرتين المؤثرتين، وأثر الجرح الذي ظهر واضحاً على ذقنها وهي تبتسم عندما فتحت الكتاب على الصفحة المثنية ورأت صورة شريخان. كان جدي يعتمر قبعته الصوفية الرمادية التي تغطي أذنيه. واستطاع أن يسمع صوته الذي كتمته القبعة وهو يقول لها: "هكذا يبدو شكل النمر". وأشار إلى الجبل فوق مداخن القرية التي يتصاعد منها الدخان.

لم تقل الفتاة شيئاً، ولكنها أخذت تتأمل الصفحة بعناية. كانت ترتدي في إحدى يديها قفازاً، فيما كانت يدها الأخرى عارية، مما جعل أصابعها أرجوانية اللون بسبب البرد الشديد. وكاد المخاط يسيل من أنفها، ممّا جعل جدي يمسح أنفه بكم معطفه سرًّا قدر المستطاع. ومع ذلك، لم تقل له الفتاة شيئاً، فدار بخلده أنها شعرت بالإحراج لأنها لا تجيد القراءة، ولهذا استهل شرحاً مفصلاً لقصة شريخان وعلاقته المعقدة بماوغلي وعبّر لها عن مدى استغرابه عندما قرأ أن ماوغلي عمل على سلخ جلد النمر وتعليقه على الصخرة ثم اكتشف أن شريخان عاد سليماً مجدّداً. تحدث جدي بسرعة كبيرة وهو يلهث بسبب الهواء البارد. نظرت إليه الفتاة بصبر، ولم تتفوه بحرف واحد. وبعد بضع دقائق، أعادت إليه الكتاب ومضت في طريقها.

تذكر جدي بشكل خاص شعوره بالإحراج عندما تحدث إليها عن النمور، وطرح عليها شتى الأسئلة من دون أن تجيب عنها، وأنه عاد إلى البيت مرتبكاً وسأل الأم فيرا عنها. وتذكر أيضاً الألم الذي شعر به

عندمـا لكمتـه الأم فيـرا وقالت: "لا تزعج تلك الفتاة، فهي زوجة لوكا. إنها صماء وبكماء ومسلمة، لذا ابق بعيداً عنها".

كان لـوكا يعمـل جزاراً، ويملـك المرعى ومعمل حفظ اللحوم في أطـراف البلـدة. وكان رجـلاً طويـل القامـة ذا شـعر بني مجعـد، ويدين حمراوين، ويرتدي مئزراً ملطّخاً بالدم. لم يكن أهل القرية يسـتريحون لدى رؤيتهم ذلك المئزر لسبب أو لآخر. فهم لم يفهموا السبب الذي منعه - حتى لو توجب عليه أن يكسب رزقه من تقطيع اللحم وبيعه - من تغيير ملابسه؛ على الأقل لكي ينظم تعاملاته التجارية، أو من التخلص من رائحة أحشاء الخراف والأبقار العالقة به. خلال سنوات عمر جدي التسـع فـي ذلـك الوقت، لم يقابل لوكا سـوى مـرة واحدة، ولكن ذلك اللقاء ظل محفوراً في ذاكرته. حدث اللقاء قبل هذه الأحداث بسنتين؛ خلال عاصفة باردة وجيزة. فقد أرسلت الأم فيرا جدي إلى محل الجزار ليشـتري لهـا فخـذ حمل لأن البـرد القارس أصاب يديها بتشـنج مؤلم. كانـت رائحـة اللحم تفـوح من الغرفة الأمامية، فوقف جدي وراح ينظر حوله متأملاً اللحوم المقددة، والنقانق المعلقة على العوارض، والعظام التي تسـتعمل في إعداد الحسـاء، وشرائح اللحم المربعة المحفوظة في خزانة زجاجية، والحمل الأحمر المسـلوخ والممدد على اللوح. وبينما عمـل لـوكا علـى فصـل العظـم عـن فخذ الحمـل ونظارتـه متدلية على أنفه، لفت نظر جدي وجود مرطبانات خلف الطاولة مليئة بشيء أبيض ومتكتل ومشـبع بالماء، فاقترب قليلاً لينظر إليها. لـم يسـتطع جدي أن يتذكر إن كان قد رأى الفتاة حينها عندما ذهب إلى محل الجزار. وربما لم تكن في ذلك الوقت قد تزوجت لوكا بعد. ولـم يصادفها مجدداً حتّى تلك الليلة التي سـبقت الميلاد عندما اشـتد الألم الذي شـعرت به الأم فيـرا فـي يديهـا كثيراً لدرجـة أنها أصبحت تئن في نومها. وسـيطر عليه الشعور بالعجز عن مساعدتها، فذهب ليحضر لها الماء لكي تستحم.

ارتـدى جـدي معطفه الصوفي، واعتمـر قبعته، وحمل الدلو الفارغ إلـى البئـر. لقـد بنيت تلك البئر، كغيرها من مباني القرية، خلال الحكم العثماني، وظلت صامدة في مركز البلدة. اعتاد السـكان أن يغطوها في الشتاء بحجر كبير يمنع الماء داخلها من التجمد. لا تزال البئر موجودة حتـى يومنـا هـذا، ولكنهـا ظلـت جافة لعقـود عدة. في تلـك الليلة، بدا سـقفها المدبب مغطى بركام الثلج، وأخذت هبات من الرياح المحملة بالثلج تحوم حولها، بينما شق جدي طريقه عبر ساحة القرية وهو مدرك تماماً شـدة البرد والوحشـة والنيران الخافتة التي كانت تبدو من النوافذ التي مر بها، وصوت وقع قدميه الكئيب على طول الطريق الموحش.

وعندمـا وضـع دلـوه علـى الأرض، وأمسـك بالحبل ليشـده ويبعد الحجر عن فتحة البئر، رفع نظره إلى الأعلى ورأى شعاع ضوء في طرف المرعـى. عندهـا، تسـمر جـدي في مكانه وهو لا يزال ممسـكاً بالحبل، وحاول أن يمعن النظر وسط الظلام. واستطاع أن يميز بيت الجزار الذي بدأت النار في موقده تخمد، وهذا يعني أن لوكا قد اسـتغرق في النوم على الأرجح. ولكن الضوء لم يكن صادراً من البيت، ولا من الحظيرة حيث اعتاد الجزار أن يحتفظ بمواشيه، بل من معمل حفظ اللحوم الذي وجد جدي بابه مفتوحاً، ورأى ضوءاً يشع من داخله.

لـم يدخـل جـدي المعمـل بحثاً عـن المتاعب. فقد خطـر بباله أن أحـد عابـري السـبيل أو الغجـر قد عثر هناك على مـكان يأويه في تلك الليلـة، وأن لـوكا قـد يغضب من ذلـك، أو أنه قد يصادف النمر. ولكن الفكـرة الأخيـرة هـي التـي أغرته لكـي يحمل دلوه ويتوجـه نحو معمل حفـظ اللحـوم؛ لأنـه أراد أن يحـذر ذلك الشـخص المتطفـل من النمر، وكذلك لأنه شـعر بغيرة لم يسـتطع تفسـيرها من إمكانية أن يرى أحد عابري السبيل نمره قبل أن يراه هو. لذا، عبر الحظيرة الفارغة بحرص، وبدأ يشق طريقه عبر المرعى.

أدرك أن النـار خامـدة لأن المدخنـة لا تنفث دخانها، وشـمّ رائحة اللحـم المقـدد عابقـة فـي الجو، فخطـر بباله أن يحاول إقنـاع لوكا بأن يحضر له لحماً مقدداً من طائر السمانى الذي كان يأمل أن يعثر عليه في الفخ من أجل وليمة الميلاد. وعندئذ، تسلل نحو الدرج، واتكأ عليه، ثم صعده حاملاً الدلو، ووقف عند المدخل وهو يمعن النظر إلى الداخل.

وجـد جـدي الضـوء أخف ممـا كان يظنّ في بـادئ الأمر. وبالكاد اسـتطاع أن يتبيـن مـا وُجد في الداخل مـن الحيوانات واللحوم المعلقة في صفوف في الغرفة الصغيرة التي اعتاد الجزار أن يحفظ فيها رؤوس الماشية. جعلته الرائحة الشهية يشعر بالجوع فجأة، ولكنه شم في تلك اللحظة رائحة مختلفة لم يلاحظها من قبل، وتشبه رائحة المسك الثقيلة. وعندئذ، انطفأ الضوء. وسـمع في ذلك الظلام المفاجئ صوتاً منخفضاً كصوت التنفس يملأ كل المكان من حوله، وخرخرة عميقة جمدت الدم في عروقه وجعلت أوصاله ترتجف. وشعر بذلك الصوت ينتشر ويحيط برأسه. لذا، دخل غرفة الذبح، وزحف تحت قماش مشمع في الزاوية، وتكوم هناك وهو يرتجف والدلو لا يزال بين يديه.

شعر جدي بالصوت يهيمن على المكان ويؤكد على وجوده بنمط متواصل كتواصل نبضات قلبه المتسارعة التي غطى ضجيجها على كل صـوت باسـتثناء ذلـك الصـوت. وأحاطت بـه رائحة عابقة تشبه رائحة الحيوانات البرية كالثعلب والغرير ولكنها تنتمي إلى حيوانٍ أكبر حجماً بكثير، وأشبه بمخلوق يعجز عن تحديد هويته ولكنه يستطيع أن يشبهه بأشـياء أخرى كثيرة. فكر في الصورة التي رآها في كتابه، وفي سـريره وبيته اللذين بدوَا له الآن في آخر الدنيا وليسـا على بعد مسـافة صغيرة يسـتطيع أن يجتازهـا خـلال عشـرين ثانيـة راكضـاً؛ مـروراً ببيوت أناس يعرفهم.

تحـرك شـيء في الظـلام، فبدأت صفوف الخطافـات المعلقة على

طول الدعامات تصطك ببعضها. أدرك جدي أن ذلك النمر موجود في المعمل بلا شك. فقد سمعه وهو يمشي. لم يميز وقع كل قائمة من قوائمه المخملية الضخمة وهي تهبط على الأرض واحدة أمام الأخرى، ولكنه سمع صوت حركتها الناعمة المكبوتة. حاول جدي أن يخمد صوت أنفاسه المتلاحقة، ولكنه عجز عن ذلك. فقد أخذ يلهث تحت القماش المشمع، بينما راح القماش يتحرك حوله ويصدر صوت حفيف جنونيًّا يكاد يكشف أمره. واستطاع أن يشعر بالنمر واقفاً بجانبه تماماً على الألواح الخشبية، وأن يتصور قلبه الأحمر وهو ينقبض وينبسط تحت ضلوعه، كما شعر بالأرض ترتعش تحته. أخذ صدر جدي يعلو ويهبط باهتياج وهو يتخيل النمر ينقض عليه، ولكنه تذكر كتاب الغابة وذلك الجزء الذي استطاع فيه ماوغلي أن يوبخ شريخان عند الصخرة وهو يمسك بالمصباح في يده، وأن يقبض على النمر الأعرج من تحت ذقنه ليجبره على الخضوع. فمد يده من تحت القماش المشمع، ولمس فرو الحيوان وهو يمر بجانبه.

وفي تلك اللحظة، اختفى النمر فجأة. فقد شعر جدي بالقلب الكبير ذي النبضات المتسارعة يمر به بسرعة ثم يختفي. وراح يتصبب عرقاً وهو جالس هناك والدلو بين ركبتيه. وبعد قليل، سمع صوت وقع خطوات، ثم وجد الفتاة الصماء والبكماء راكعة على الأرض بجانبه في الغرفة الصغيرة التي تحوي طاولة الجزار وهي تحاول أن تخرجه من تحت القماش المشمع وتبعد الشعر عن جبينه والقلق يملأ عينيها. أخذت تمسح وجهه بيديها اللتين علقت بهما رائحة النمر القوية ورائحة الثلج وأشجار الصنوبر والدم.

وبعد لحظات، سمعا صوت الأم فيرا وهي تصيح من بعيد: "طفلي! لقد أُخذ طفلي!".

عرف جدي في نهاية المطاف أن الأم فيرا قلقت من طول غيابه عن

البيت، فخرجت ووقفت على درج بيتهما الصغير، وحينها رأت النمر يغادر معمل حفظ اللحوم وينطلق عبر الحقول، فأخذت تصرخ بأعلى صوتها، بينما انفتحت أبواب المنازل المجاورة واحداً تلو الآخر، وخرج الرجال منها إلى الشارع، وانطلقوا مسرعين نحو المرعى. سمع جدي أصواتاً عالية، ثم رأى نوراً يتدفق إلى المعمل، وامتلأ المدخل بالرجال؛ ومن بينهم لوكا الجزار الذي بدا الشرر يتطاير من عينيه، وهو مرتد رداءه المنزلي ومنتعلاً خفه وممسكاً بساطور في إحدى يديه. ساعدت الفتاة الصماء والبكماء جدي على الوقوف على قدميه وأرشدته إلى الباب. وحين وقف جدّي على درج معمل حفظ اللحوم نظر إلى الحقل الخالي والمظلم الذي يعج بظلال القرويين وإلى ندف الثلج والسياج، ولكنه لم يجد أثراً للنمر. فقد رحل قبل وصولهم جميعاً.

سمع جدي أحدهم يقول: "ها هو ذا! ها هو ذا!". وفجأة أحاطته الأم فيرا بيديها الباردتين وهي مقطوعة الأنفاس.

لاحظ جدي وجود آثار قوائم كبيرة ومستديرة وخفيفة ومنتظمة على الثلج، وكأنها آثار ناتجة عن قفز هر ضخم. وراقب البقالَ جوفو الذي قتل في الماضي حيوان غرير بيديه، وهو يركع على الثلج ويضغط بيده على أحد تلك الآثار. دلت تلك الآثار الهائلة على مشية مستمرة وطبيعية بلا أي توقف على طول الغابة وعبر الحقول باتجاه معمل حفظ اللحوم وبالعكس.

قال جدي للجميع: "لقد سمعت صوتاً في معمل حفظ اللحوم، فظننت أن أحد الحيوانات قد هرب، ولكنني وجدت النمر".

وقف لوكا بالقرب من باب معمل حفظ اللحوم، وراح يمعن النظر إلى الداخل ويشد بيده على ذراع الفتاة الصماء والبكماء حتى ابيض لون جلدها تحت قبضة يده، وهي تنظر إلى جدي وتبتسم.

قال جدي للفتاة: "لقد أتيت إلى هنا أيضاً لأنك سمعته، أليس

كذلك؟".

فقال له لوكا: "إن هذه الحقيرة صماء. ولم تسمع أي شيء". ثم قادها عبر الحقل إلى المنزل وأغلق الباب.

* * *

كانت ثمة بندقية واحدة فقط في القرية توارثتها عائلة الحداد لسنوات عديدة. وهي بندقية عثمانية من نوع مسكيت تمتاز بفوهة طويلة وحادة كالرمح، وماسورة مطلية بالفضة عليها نقش لفارس تركي يعتلي صهوة جواده، وتزينها شرابة صوفية باهتة معلقة بحبل من أخمصها المصنوع من الخشب الماهوغاني المطلي باللون الزيتي، والذي يبدو أحد جوانبه خشناً حيث عمل أحدهم بعناية على حفر اسم الفارس التركي الذي حملها لأول مرة عليه.

دخلت البندقية القرية أول الأمر بعد سلسلة من المبادلات تختلف تفاصيلها حسب الروايات المتعددة للقصة التي تعود بدايتها إلى قرنين من الزمن. يقال إن البندقية استعملت في معركة لاستيكا قبل أن تختفي في صرة جندي انكشاري منشق عن حرس السلطان الشخصي. وتحول ذلك الجندي في ما بعد إلى بائع متجول، وظل يحمل البندقية معه لعقود، وهو يجوب الجبال ويبيع الحرير وأواني الطهي والزيوت الغريبة. وفي نهاية المطاف، سرقها منه قاطع طريق مجري. وفي وقت لاحق، سحبت فرقة من الفرسان البندقية من تحت جثة الرجل المجري بعد أن أطلقت النار عليه خارج منزل حبيبته. فتوسلت إليهم المرأة وهي تبكي وملابسها ملطّخة بالدماء لكي يتركوا لها بندقية حبيبها بما أنهم أخذوا جثته. وبعد أن رحلوا، وضعت حبيبة قاطع الطريق البندقية على الطاولة في المقهى الخاص بها. وفي الصباح، ارتدت ملابسها وبدأت تنظف البندقية وكأنها ستستعملها، وأصبحت هذه عادة لديها. وعندما أصبحت امرأة عجوزاً تناهز الستين، أعطت الفتى الذي اعتاد أن يوصل

إليها الحليب إيّاها لكي يحمي بها نفسه في أثناء مهاجمته قلعة الحاكم العثماني في ثورة مشؤومة سرعان ما سحقها العثمانيون. وانتهى المطاف بالفتى مقتولاً، وعُلِّق رأسه على رمح على جدار القلعة، واستولى الحاكم على البندقية، وعلقها في غرفة صغيرة للمكافآت في قصره الشتوي بين رأسي فهدين لديهما عيون شريرة. بقيت البندقيّة قرابة ستين عاماً، حكم فيها ثلاثة حكام عثمانيين، معلقة مقابل حيوان وَشَق محنط، ثم أمام طقم ارتداه السلطان في آخر معركة له، ثم أمام عربة ملكة روسية، أو طقم شاي فضي مهدى لتكريم أحد الحلفاء، أو سيارة حكومية تابعة لثري تركي صودرت أملاكه لصالح القلعة قبل إعدامه بوقت قصير.

وعندما سقطت القلعة في مطلع القرن الجديد، استولى أحد الناهبين من كروشيفاك على البندقية، وحملها معه وهو يتنقل من بلدة إلى أخرى ليبيع القهوة. وفي نهاية المطاف، وقعت عملية تبادل في أثناء مناوشة بين الفلاحين والميليشيا التركية. وعادت البندقية في العام 1911 إلى موطنها مع أحد الناجين، وهو الجد الأكبر لعائلة الحداد. ومنذ ذلك الحين، ظلت البندقية معلقة على الجدار فوق موقد منزل الحداد. وأُطلِق منها الرصاص مرة واحدة في وجه أحد سارقي الخراف، ولكن ليس بيد الحداد نفسه. وأدرك جدي أنهم سيستخدمون تلك البندقية القديمة لقتل النمر.

كان الحداد، حسب زعمه، بارعاً جداً باستخدام البندقية، ولكنه لم يكشف لأحد أنه في الواقع لا يجيد استخدامها أبداً، وأنه لا يتمتع سوى بمعرفة سطحية حول ما يجب عليه فعله بالبارود والرصاصات والحشوة الورقية المدهنة وقضيب التنظيف. ومع ذلك، شعر الحداد بالتزام أخلاقي تجاه أهل القرية وبالرغبة في تخليد ذكرى جده الأكبر الذي لم يقابله في حياته قط، ولكنه يعرف أنه ركَّب في الماضي حدوة لحصان السلطان. جلس الحداد في عشية المطاردة بجانب الموقد،

وراقب زوجته وهي تنزل البندقية من حيث عُلِّقت ببطء ومحبة كبيرين، وتمسح الماسورة بقطعة قماش نظيفة، ثم تلمع الغطاء وتنفض الغبار عن الشرابة، وتمسح داخل البندقية بقماش مبلل بالزيت.

وفي اليوم التالي، راقبهم جدي وهم يتهيأون للمطاردة في الساعات حالكة الظلمة التي سبقت طلوع الفجر. وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يكوّن رأياً حول اللقاء الذي حدث في معمل حفظ اللحوم، فقد انقبض قلبه عندما رأى الحداد يخرج من بيته والبندقية الأثرية تحت ذراعه. خرج بصحبة الحداد رجلان آخران، هما لوكا وجوفو وبرفقتهما كلبان. أحدهما كلب قصير وسمين ذو أذنين عريضتين، والآخر كلب صيد أحمر مسن فقد إحدى عينيه تحت عجلة إحدى العربات.

وفي ليلة الميلاد، خرج جميع أهالي القرية ليودعوا الصيادين قبل مغادرتهم. وقفوا في صف طويل على جانب الطريق، ومدوا أيديهم ليلمسوا البندقية طلباً للحظ عندما مررها الحداد عليهم. كان جدي واقفاً بجانب الأم فيرا وهو يشعر بالذنب، وكمّا كنزته يغطيان كفّيه. وعندما حان دوره، لمس ماسورة البندقية بإصبعه المغطاة بكم الكنزة للحظة واحدة فقط.

عصر ذلك اليوم، ظلَّ جدي ينتظر عودة الصيادين وهو يرسم على غبار الموقد بإصبعه، وشعر بالبغض يملأ قلبه تجاه أولئك الرجال على الجبل. فقد كان يكره لوكا من قبل بسبب ما قاله عن أقدام الأطفال، وبسبب الألقاب السيئة التي اعتاد أن يدعو بها زوجته. ولكنه الآن بات يكره الرجال الآخرين أيضاً، والكلبين؛ لأنه أيقن أن النمر كان سيبقي على حياته حتى لو دخل بعد مجيئه أو قبله بلحظات، وحتى لو رأى عيني النمر المتوهجتين تنظران إليه وجهاً لوجه في الجانب الآخر من الحظيرة. وراح يتخيل الرجال عائدين والنمرُ معلق رأساً على عقب على عمود بينهم، أو يتخيّل رأسه المقطوع والموضوع داخل أحد أكياسهم.

واشتد بغضه لهم أكثر من ذي قبل.

ولكن جدي لم يكن على الأرجح ليبغضهم لو أدرك الحقيقة التي خفيت عنه، وهي الرعب الذي استولى على قلب الحداد وهو يشق طريقه إلى جبل غالينا بين ركام الثلج الذي يصل حتى ركبتيه، فيما البندقية - على الرغم من كل ماضيها المشرف - تثقل على صدره. فقد تملكه اعتقاد راسخ بأنه متوجه نحو نهايته الوشيكة. كان الحداد كغيره من أهل القرية يثق تماماً بالطقوس الخرافية. وقد اعتاد أن يعطي المتسولين النقود قبل أن يسافر، وأن يضع القروش في المزارات عند مفترقات الطرق، وأن يبصق على أطفاله عندما يولدون. ولكنه كان معروفاً في القرية على عكس جميع رفاقه القرويين بأنه يعاني من نقص ما. فقد ولد في سنة قاحلة لم يملك فيها أهله قرشاً واحداً. ومما زاد الأمور سوءاً، أنّ عمة غريبة، على حد زعمه، قامت برفعه من مهده وشكرت الله لأنه منحهم هذا الطفل الجميل السمين المتورد الرائع. وبهذا حكمت عليه إلى الأبد بأن يعاني من الفقر والعجز، وأن يموت في حادثة مروعة وغير متوقعة.

لم يصل الحداد بكل تأكيد إلى هذه النهاية بعد، ولكنه عجز عن تخيل شيء أكثر ترويعاً من النمر. فوجد نفسه الآن، وهو رجل في التاسعة والثلاثين من عمره، ومتزوج وسعيد في زواجه، ولديه خمسة أطفال، ذاهباً على قدميه إلى الموت. ورغم كل جهوده واحتياطاته وصلواته، والعدد الذي لا حصر له من القطع النقدية التي رماها للغجر وعمال السيرك والجنود الكسيحين، وكل الأوقات التي رسم فيها رمز النصارى الديني على صدره وهو يسافر وحده على الطرق الموحشة ليلاً، لم يغير شيئاً من الحقيقة المجردة؛ وهي أن البندقية - تماماً كسوء طالعه - كانت من حقه بالوراثة، وأنه كان - بغض النظر عن انعدام مؤهلاته - الشخص الوحيد المعني بتوجيهها ضد النمر.

وجد الحداد نفسه، كرفيقيه الآخرين، لا يدري ما الذي يتوقعه. وأمل في سره ألا يعثروا على النمر أبداً، وأن يجد نفسه عائداً إلى بيته تلك الليلة ليتناول يخنة لحم الماعز ويستعد لمغازلة زوجته.

كان الجو غائماً تتخلله فترات صحو بين الحين والآخر. واصل الرفاق الثلاثة سيرهم على طول قمم الجبال التي تنحدر منها وديان مليئة بأشجار الصنوبر. وسمعوا صدى صوت ذكور الأيائل وهي تتعارك. كانت الأمطار قد هطلت خلال الليل وتجمّدت على الأغصان، فبدت الأشجار محنية تحت ثقل أغصانها المحملة بالصقيع، مما أضفى على الغابة مظهراً كريستالياً غريباً. راح الكلبان يمشيان بتثاقل على طول الطريق، أو يجريان إلى الأمام والخلف، وهما يشمّان الأشجار، ويبدوان غافلين عن الغرض من وجودهما في الرحلة. تسلق لوكا الطريق الجبلي الشاهق بمشقة مستخدماً مذراته كعكاز، وهو يتحدث بصخب أثار حفيظة الحداد عن خططه لرفع سعر اللحم عندما يأتي الألمان خلال الربيع. أما جوفو، فقد كان يأكل الجبن ويرمي شرائح منه للكلبين، وهو ينعت لوكا بأنه متآمر قذر.

وفي وسط الطريق على قمة الجبل، بدأ الانفعال يستولي على الكلبين؛ فراحا يشمّان الثلج باهتياج وهما ينبحان. ورأى الرجال بقعاً صفراء ممتزجة بالثلج وكومة من الروث. والأهم من ذلك كله أنهم وجدوا بعض الفرو الأصفر المائل إلى البني عالقاً على نبات العليق بجانب الجدول المتجمد. أخبر جوفو الحداد بكل ثقة أن النمر قد مر من هنا، فمشوا فوق طبقة الجليد، وتسلقوا أحد المنحدرات، وتبعوا أشجار الصنوبر الكثيفة عبر طريق وعر أذابت الشمس ثلوجه، ثم عبروا صدعاً صغيراً اضطروا فيه إلى مساعدة بعضهم لعبوره، بالإضافة إلى الكلبين اللذين ظلا ينبحان من دون توقف. فكر الحداد في أن يقترح عليهما أن يعودوا أدراجهم. ولم يستطع أن يفهم سبب هدوء جوفو،

وإصرار لوكا على المضي قدماً.

وفي فترة العصر المتأخر، صادفوا النمر في أرض مكشوفة في الغابة، بجانب البحيرة المتجمدة البراقة تحت ضوء الشمس. رآه الكلبان وشعرا بوجوده قبل الرجال؛ ربما لأنه كان محجوباً قليلاً عن الأنظار في ظل إحدى الأشجار. وشعر الحداد، عندما رأى النمر ينهض ليلاقي الكلبين ويكشر عن أنيابه، أنه ربما كان سيمرّ به مرور الكرام من دون أن ينتبه إلى وجوده لولا نباح الكلبين. وشعر بأنه يتسمّر في مكانه عندما وصل الكلب الأول شبه الأعمى بشجاعة متهورة إلى النمر، فانقض عليه المخلوق الضخم وثبته تحت جسمه الثقيل.

أمسك جوفو الكلب الثاني بين ذراعيه، بينما راقب الجميع النمر في الجانب الآخر من البحيرة، وهو يسحق الكلب الأحمر المتخبط. ولكنهم لاحظوا قبل ذلك بقعاً من الدم على الثلج بسبب شيء آخر كان النمر يأكله. وأخذ لوكا يتأمله بتمعن وهو يشد قبضته على عصاه بغضب.

تمنى لوكا وجوفو أن يعودا في وقت لاحق من ذلك اليوم إلى القرية، وأن يثنيا على الحداد لقوته وعزمه، وأن يرويا للقرويين كيف رفع بندقيته على كتفه بمنتهى البسالة، ويشرحا لهم مرة تلو أخرى كيف أطلق النار على النمر فأصابت الرصاصة هذا الأخير بين عينيه محدثة صوت انفجار ضخم، وكيف بدا الصوت الذي أطلقه النمر أشبه بصوت جذع شجرة ينكسر، ولكنهما اكتشفا أن النمر مخلوق لا يقهر. فقد شاهدوه وهو ينهض على قوائمهُ، ويجتاز البحيرة بوثبة واحدة، ويقبض على الحداد بمخالبه، ويقضي عليه بسرعة ودموية مرعبة وضجيج كقصف الرعد. وبعد ذلك، لم يبق شيء سوى بندقية الحداد المرمية على الثلج، وجثة الكلب الميت قرب البحيرة المتجمدة.

في الواقع، لقد تسمر الحداد في مكانه في تلك اللحظة كالتمثال

الحجـري، محدقـاً إلـى ذلـك المخلوق الأصفر بين الشـجيرات. وبادله ذلك المخلوق التحديق بعينيه الصفراوين. وعندما رآه جاثماً على حافة البحيـرة وجثـة الكلـب الأحمر الميت تحته، شـعر الحداد فجأة بأن كل المسـاحة أصبحـت واضحـة جـداً، وأن وضوحهـا بدأ ينتشـر ببطء عبر البحيرة ممتداً نحوه. صاح لوكا وطلب من الحداد أن يسرع في إطلاق الرصاص على النمر ونعته بالغبي. أما جوفو فقد فتح فمه على وسعه، وخلع قبعته، وصفع وجهه بها بينما راح الكلب الباقي على قيد الحياة يرتعش كالأعشاب في مهب الرياح العاتية وقوائمه متخاذلة تحته.

وبعد أن تمتم بدعاء سـريع، رفع الحداد بندقيته على كتفه بالفعل وسحب الزناد، فانطلقت الرصاصة محدثة صوت انفجار مدوّياً اهتزت له الساحة، وارتجفت منه ركبتا الحداد. ومع ذلك، حين رفع نظره بعد أن انقشـع الدخـان وخمـد صـوت الانفجـار الـذي قفز قلبه من شـدته، وجد النمر لا يزال واقفاً على قوائمه، ثم رآه ينطلق كالسهم نحو مركز البحيـرة المتجمـدة مـن دون أن يعيقـه وجود الجليـد والرجال وصوت الطلـق النـاري. ولمـح بطرفي عينيه لوكا وهـو يلقي عصاه ويفر ليبحث عـن مخبـأ لنفسـه. عندها، خرّ الحـداد على ركبتيه ويده تبحث في جيبه باهتيـاج عـن الرصاصة المتبقيـة. وعندما عثر عليها فعلاً، وضعها داخل فوهـة البندقيـة بيديـن مرتجفتين تتحركان في شـتى الاتجاهات من فرط الرعـب، ثـم بحـث بارتبـاك عن قضيب التنظيف. وبحلـول هذا الوقت، وصل النمر إلى الطرف المقابل من البحيرة وهو يقفز على قوائم تشبه النوابـض. سـمع الحـداد جوفو يتمتم بيـأس قائلاً: "تباً لي!"، ثم صوت وقع خطواته وهو يولي مدبراً. أمسـك بقضيب التنظيف، وحشـره داخل الفوهة، وراح يدفعه باهتياج ويده الأخرى على الزناد استعداداً لإطلاق النـار. وفجـأة، خيـم عليـه هـدوء غريب عندمـا وجد النمر واقفـاً أمامه وشارباه يكادان يلامسان وجهه وهما يبدوان براقين وجامدين. وأخيراً،

قُضِي الأمر. فقد رمى الحداد القضيب، وحدق إلى داخل فوهة البندقية ليتأكد من أنها جاهزة للاستعمال وأطلق النار على رأسه بصوت هادر كالرعد.

لم يكن أحد ليظن مطلقاً أن البندقية أخطأت هدفها. ولم يعرف أحد قط أن لوكا وجوفو، وهما فوق أغصان الشجرتين اللتين تسلقا عليهما، قد راقبا النمر وهو يتراجع إلى الخلف مندهشاً، وهو ينظر حوله بارتباك. ولم يعرف أحد - حتى بعد أن تم العثور على عظام الحداد المكسوة بثيابه المبعثرة بعد عدة سنوات - أن الرجلين قد انتظرا فوق الشجرتين إلى أن سحب النمر الرجل من ساقيه نحو مخبئه، ثم انتظرا حلول الليل ليهبطا ويحضرا البندقية من المكان الذي تركها فيه الحداد. ولم يخمن أحد أنهما لم يدفنا جثة الحداد المنحوس، وأن الغربان نهشت ما تبقى من جثته بعد أن عاد النمر إليها مرة تلو أخرى إلى أن تعلم شيئاً عن طعم لحم الإنسان، وعن لحم البشر الطازج الذي بدا له الآن مختلفاً في البرد عما كان عليه في حرارة الصيف.

## الفَصْل الخَامِسُ

# دار الأيتام

حين عدت إلى البيت، وجدت الكلب بيس نائماً على درج الفناء وهو يشخر بأنفاس مصفِّرة وكأنه مريض بالربو. استيقظ لدى سماعه صوت وقع قدميّ، وراح يخور كحيوان الموظ إلى أن وصلت إليه ثم دفعته بركبتي لأتمكن من المرور. تبعني إلى الأعلى حيث جلست على قمة الدرج المؤدي إلى الطريق الرئيس. ظل واقفاً لبعض الوقت، وهو يلامس بوجهه ذراعي مبتهجاً بوجود شخص يرافقه في ساعات الصباح الباكر. ولكنه وجدني فاترة وعديمة الحيوية فنزل الدرج مسرعاً، وخرج إلى الطريق، وتجاوز أشجار النخيل نحو الشاطئ. وبعد لحظات، سمعت صوته وهو يتخبط في المياه. لم يكن ضوء الشمس قد سطع بعد، فانتشر لون زهري فاتح وشفاف كالسمكة في الأرجاء. وكانت أضواء زفوكانا لا تزال ساطعة على الماء في الجانب الآخر من الخليج.

بدأت الظلال تتراجع مبتعدة عن الماء، ومتجمعة عند بداية الطريق عندما نزل إيفان الدرج ببطء. ألقى عليّ نظرة واحدة، ولاحظ ساقي بنطالي المرفوعتين، ومعطفي الملطخ بالتراب، وراحتي يدي الداميتين، فقال: "أرى أنك ذهبت إلى الكرم".

لا بد أن قيامي بهذا الجهد من تلقاء نفسي هو ما أجبره على الوثوق بي، فسألني إن كنت أود أن أرافقه لصيد السمك، ولكنني رفضت الذهاب. ومع ذلك، نهضت وتبعته إلى قاربه، وهو عبارة عن مركب صغير أزرق اللون، طلاؤه متقشر عن الجانبين، وهناك طحالب

خضراء وصفراء عالقة أسفله وكأنها شيء مكتسب. مشى إيفان منتعلاً جزمته المطاطية، وهو يحمل بيديه قفصين كبيرين ودلواً فارغاً. وقال لي، وهو يشير بيديه موضحاً، إن لديه أقفاصاً لصيد السرطان قرب الشاطئ، وشبكة صغيرة لصيد سمك كلب البحر(*) في مكان أبعد قليلاً، وشبكة كبيرة في وسط الخليج تماماً ساعده على الاصطياد بواسطتها أنطون عندما لم يكن يشرف على دار الأيتام.

قص عليّ قصة الحفّارين، وقال إنهم وقفوا عند عتبة باب بيته في الأسبوع الماضي وهم محشورون جميعاً في سيارتين، وبحوزتهم كل أوانيهم وقدورهم وتحفهم التافهة على حد تعبيره. ظنّ في بادئ الأمر أنهم غجر، ولم يلاحظ شدة مرضهم. إذ إن ديوريه وحده هو من دخل المطبخ وأخبره عن الجثة المدفونة في الكرم، وقال إنها تعود لابن عمٍّ له حمله من الجبل خلال الحرب، ثم توجب عليه أن يتركه وراءه. وهكذا، وارى ديوريه ابن عمه الثرى في مكان ما في تلك الكروم خلال الأشهر التي كان المنزل فيها مهجوراً. والآن، تفشى المرض بين أفراد العائلة جميعاً، ولم يتمكن أحد من مساعدتهم إلى أن أخبرتهم إحدى عرافات القرية أن الجثة هي السبب في مرضهم، وأنّ الميت يطالبهم بإجراء الطقوس الأخيرة لها ودفن هيكله العظمي في مكان لائق. لذا، صمموا على العثور عليه بأي ثمن. إذ إنهم في وقت مبكر من هذه السنة فقدوا إحدى عماتهم بسبب هذا المرض. وأضاف إيفان أنهم يدفعون له المال لقاء حفرهم في هذا المكان.

قال لي وهو يفك عقدة القارب: "إن نادا لا تكترث البتة لهذا الأمر. ولكن ما يهمنا في الواقع هو أن لديهم أطفالاً صغاراً، وما إذا كنا نريد بقاء الهيكل العظمي في كرمنا أم لا".

ظل يراقبهم طوال الأسبوع الماضي وهو يزداد قلقاً. وقال: "لا بد

(*) نوع صغير من سمك القرش.

أنك رأيت أكياسهم". وأشار إلى عنقه قائلاً: "لست أدري ما أهميتها، ولكنهم يضعون داخلها أعشاباً وأشياء ميتة لتحميهم من المرض".

أحضر الحفارون معهم قوارير كثيرة شك إيفان في أنهم يتاجرون بها بملئها ببعض البضائع مثل أنواع الشراب النادرة، أو الخلطات العائلية. ولكن الشابة قالت له إن القوارير مليئة بمياه من النبع وأعشاب وحشائش من أجل الصحة.

قلت: "ولكنهم لم يعثروا عليه بعد، أليس كذلك؟".

قال لي إيفان بابتسامة عريضة: "آه، لقد مات الرجل منذ وقت طويل. قلت لهم هذا مراراً وتكراراً. إن هذه أرض قاسية وضحلة، لذا فهو ليس في المكان الذي يظنون أنه فيه. فلا بد أن السيول قد جرفته، أو أن الكلاب قد نبشت جثته. من يدري؟".

وضع رجل الدين القفصين في القارب، فساعدته على دفعه رغم أنه لوح لي بألا أفعل ذلك. وسبقه بيس إلى القارب وراح يهز ذيله بقوة لدرجة أن وركيه أخذتا تتأرجحان بجنون من اليسار إلى اليمين. وبعد ذلك، صعد إيفان إلى القارب، وبدأ يجذف بنفسه - وهو ابن الثمانين عاماً - نحو القارب ذي المحرك الذي يحتفظ به مربوطاً قرب المرسى. وعندما وصل إلى هناك، انتقل إلى القارب الآخر، وحمل بيس ووضعه فيه، فوقف الكلب كالشراع على مقدّمة القارب المبلل. ثمّ راح القارب يمخر عباب الماء محركاً مياه الصباح الراكدة. وبعد أن اجتاز مسافة مئة ياردة أو نحو ذلك، قفز بيس من القارب، وظهر ما يشبه ابتسامة جنونية مضحكة على وجهه قبل أن يغوص تحت الأمواج. أوقف إيفان عمل المحرك، وتوقف ليتمكن الكلب من اللحاق به أو ليستدير عائداً إليه.

* * *

بدأت زورا صباحها بالاتصال بمساعدة المدعي العام، ونجحت في توجيه الشتائم إليها بعد مرور دقيقتين على بداية المكالمة. وحاولت

ونحن في طريقنا إلى المعتزل أن أبهجها بالتحدث عن قصة الحفارين، والمرض الذي أصابهم، وابن عمهم الميت الذي ما زال هيكله العظمي مدفوناً في مكان ما من الكرم. وقلت لها إنني علمت أنهم سيعيدون دفن الهيكل العظمي في مكان ملائم حالما يعثرون عليه.

رمقتني زورا بنظرة حادة من خلف نظارتها الشمسية من دون أن تقول شيئاً. وواصلت جر إحدى العربتين اللتين زودتنا بهما نادا لتسهل علينا جهودنا في توصيل اللقاحات إلى دار الأيتام في المعتزل. قبل أن تعطينا نادا العربتين، طلبت منا أن ننتظرها عند مدخل مخزن في الحديقة، وأخذت تزيح الصناديق والأقفاص جانباً لتعثر عليهما، وهما عبارة عن عربتين صدئتين لهما عجلات مخلخلة. فوجدتهما مسنودتين إلى الجدار الخلفي خلف غسالة قديمة وبعض اللوحات القماشية المغلفة بالورق، والتي اعتقدنا أنها بلا شك رسومات أخرى للكلب.

مشيت وزورا ببطء في شوارع البلدة ونحن نجر العربتين خلفنا. ومررنا بمحالّ لبيع التحف التذكارية كانت تفتح أبوابها للتو، وبكشك في مزرعة يقف فيه رجل نحيل مسمرّ من الشمس وهو يثبت لوحات الأسعار المكتوبة باليد على أقفاص البطيخ والطماطم والفلفل الأخضر والليمون. ورأينا رجالاً بلا قمصان يهدمون جداراً حجرياً في أسفل حقل منحدر مليء بالعشب الأصفر الميت والشجيرات الداكنة التي تلقي بظلال قاتمة على التل والطريق. وعندما وصلنا إلى الجسر، صادفنا مجموعة صغيرة من الأطفال، يدل مظهرهم على أنهم من دار الأيتام. رأيناهم متشبثين بحبل أحمر متدلٍّ بين خصري مشرفتين واقفتين وهما تتحدثان معاً، وفي الوقت نفسه تأمران الأطفال بالابتعاد عن الطريق والتوقف عن لعق بعضهم.

وعندما وصلنا إلى المعتزل، دفعنا عربتينا ذواتَي العجلات المخلخلة على الدرج، ودخلنا عبر البوابة، ثم مررنا تحت تعريشة

معلقة كالعناكب على شبكة في الأعلى. أخبرتنا الشابة التي تعمل عند نضد الاستقبال في باحة المعتزل أن أنطون موجود في الحديقة. وهكذا، تركنا العربتين عندها، وذهبنا لمقابلته. مررنا بنفق حجري منخفض يؤدي إلى حديقة مطلة على البحر ومحاطة بسور تنمو بجانبه زهور الخزامى وأشجار السرو. كانت بركة سمك تتوسط الحديقة، وحولها نباتات بردي ذات أوراق كبيرة تنحني فوق الماء، وتلقي بظلالها على صخرة مكسوة بالطحالب وضع أحدهم على قمتها منفضة سجائر على شكل سلحفاة. بدا المكان مليئاً بدلائل تشير إلى وجود الأطفال، ومن بينها دلاء مرمية وشاحنات رمل زرقاء وخضراء، وقطارات بلاستيكية متزاحمة تلتقي بعضها في وسط الطريق، ودمية عديمة الرأس منتعلة فردة حذاء واحدة، وشبكة لصيد الفراشات. في الجزء الخلفي من الحديقة، رأينا مساحة فارغة تنمو فيها الأعشاب، ونباتات الطماطم، ورؤوس الخس في صفوف مكتظة؛ وهذا هو المكان الذي عثرنا فيه على أنطون. فقد وجدناه يشذب الأعشاب بالمقص وهو مرتدٍ رداءه. وعندما اعتدل في وقفته، لاحظنا أنه يضع نظارة، وقد صفّف شعره على شكل ذيل حصان. ابتسم لنا بلطف وسألنا إن كنا قد قابلنا السلحفاة تاسمين، ثم ضحك ببهجة، فضحكنا معه. وعندما التفت إلى الجهة الأخرى ليجمع أشياءه تظاهرت زوراً بأنها تَصفُر.

ساعدنا رجل الدين على جر عربتينا إلى الباحة الداخلية للمعتزل مروراً بأبواب دار العبادة المغلقة، والدرج المؤدي إلى البرج الذي يحوي جرساً نحاسياً كبيراً يتأرجح بقوة مرسلاً رنيناً مرتفعاً جداً يصل إلى الجبل. تم وضع الأطفال بعيداً عن المعتزل، في مكان يسميه أنطون المتحف؛ وهو عبارة عن ممر طويل أبيض تنتشر في أعلاه نوافذ مربعة صغيرة موازية لحرم دار العبادة الداخلي. رأينا حقائب فارغة مصفوفة على الأرض بأناقة على طول جانبي القاعة. وشرح لنا أنطون أن هذا

المكان سيتم تحويله إلى معرض للتحف التاريخية والكتب القديمة والقطع الأثرية التي صممها فنانون محليون، وذلك حالما يتم بناء دار الأيتام الجديدة ونقل الأطفال إليها.

قال لي بابتسامة فخر: "إن هذا فن محلي". وأرانا جداراً عليه صف من اللوحات التي يظهر فيها الكلب الأبيض ذو الأذنين السوداوين. وهي رسومات بأقلام الشمع يظهر الكلب في بعضها منتصباً على قائمتيه الخلفيتين، أو ذا ثلاث عيون أو قدمين كالإنسان، أو شبيهاً بالعلجوم ومشوهاً بشتى الأشكال. وفي آخر الممر، رأينا قذيفة مدفع محشورة في الجدار ومحاطة بالجص والطلاء.

قالت زورا بلا اكتراث: "تلك قذيفة مدفع".

فقال أنطون: "نعم، إنها من سفينة فينيسية". وأشار إلى جهة البحر.

وجدنا الأطفال يعملون في غرفة عديمة النوافذ تبدو أشبه بمطبخ أثري، وتحوي موقداً أسود ضخماً فارغاً، وآلة غزل داخل علبة خشبية في الزاوية، ورفاً عليه مكاوٍ حديدية من مطلع القرن يوحي منظرها بأنها أدوات للتعذيب أو الضرب حتى الموت. ورأينا أوعية حجرية مصفوفة في أكوام صغيرة على طول رف الموقد، وشبكة صيد أسماك قديمة معلقة على الباب تتدلى منها سمكة زرقاء وضيعة الشكل. بدا أطفال أنطون منهمكين بالرسم وهم جالسون في وسط الغرفة على مقاعد خشبية عليها كؤوس مليئة بأقلام الرصاص وأقلام التلوين. وكانت الألوان الصارخة تضيء الصفحات التي راح الأطفال يكتبون عليها، ويجلسون عليها، ويعطسون عليها، ويطوونها على شكل طائرات ورقية أو عصافير. ولكن الشيء الغريب الذي أدهشنا حيال هذا المشهد كله هو الصمت المطبق. فحين وقفنا في المدخل، استطعنا أن نسمع صوت الجرس خارج الباحة، ولكننا في المطبخ لم نسمع سوى صوت الكتابة وطي الأوراق، أو صوت حك أحدهم رأسه بين الحين والآخر. بدا

الأطفال شاحبي الوجوه وصغيري الحجم وأقوياء البنية على الرغم من نحولهم. وكان رجل دين إيطالي يدعى بارسو يشرف عليهم، وهو رجل ملتح وحليق الرأس، لم يبتسم لنا عندما رآنا.

وكنت قد اتفقت وزورا من قبل على أن نُبقيَ الحلوى إلى ما بعد تلقيح الأطفال لكي نكسب تعاونهم وصبرهم، ونخفف عن الباكين، ونلاطف من سيحبسون أنفاسهم، وننعش من سيغمى عليهم، ونرشو من سترتخي أجسامهم ويتملصون من قبضتنا ويسقطون على الأرض. ولكن الصمت المطبق والمخيم على الغرفة، والرؤوس المنحنية فوق الأوراق تركت تأثيراً غير متوقع في زورا، فأخرجت علبة الحلوى من فوق الكومة، وفتحتها وهي تعلن قائلة: "لدينا حلوى". فاحتشد الأطفال حولها وهم لا يزالون صامتين وأخذوا يمعنون النظر إلى داخل علبة التبريد، ثم يذهبون وبحوزتهم أكياس من الحلوى التي لم يروا مثلها على الأرجح منذ اندلاع الحرب، وربما لم يرَ بعضهم مثلها في حياته مطلقاً. جلست زورا على الدرج المؤدي إلى الغرفة ذات الطاولات وقدمت الحلوى للأطفال، بينما وقفت بعيداً وأنا أشاهدها. أتى صبي صغير هادئ ذو شعر بني كثيف وأمسك بيدي وقادني إلى الداخل ليريني رسمه. وجدته شاحباً قليلاً، ولكنه كان على ما يبدو ينال عناية جيدة. فقد شممت رائحة النظافة تفوح من رأسه الذي قربه مني عندما أشار إلى الصورة. ولم أتفاجأ عندما اكتشفت أنه هو أيضاً رسم الكلب بيس؛ إلا أنه منح الكلب ضرعين خضراوين.

قلت له: "يا له من كلب جميل!". اتكأ الطفل على ركبتي بينما كنت أحاول الانحناء لأرى الصورة. ولمحت زورا بطرفي عينيّ وهي تتأمل ما تبقى من الحلوى في علبة التبريد، ثم تقدر عدد الأطفال الذين يمشون في الأنحاء وأفواههم مليئة أو يحملون أكياساً بأيديهم محاولة أن تكتشف ما إذا كان في وسعها أن تعيدهم إليها للحظات.

قال الصبي الصغير من دون أن ينظر إليّ: "إنه كلب آرلو".

فقلت: "من هو آرلو؟".

هز الصبي كتفيه ثم ابتعد عني ليبحث عن المزيد من الحلوى.

ظلت أفكاري تتوق إلى جدي طوال اليوم من دون أن أسمح لنفسي بالتفكير في الأمر. وبينما أنا جالسة في تلك الغرفة الحارة والرطبة ومن حولي كلاب من شتى الأشكال والألوان، تذكرت كيف اعتاد خلال سنوات الحرب أن يجمع أشيائي القديمة كالدمى والثياب والكتب، ثم يستقل الحافلة الكهربائية متوجهاً إلى دار الأيتام في البلدة، وبعد ذلك يعود مشياً على الأقدام. وكنت أتجنب إزعاجه بأي شيء لدى عودته من هناك. إذ إن جديّ فقدا في الماضي صبياً وفتاة خديجين خلال عام واحد، ولكنهما لم يتحدّثا عن هذا الأمر أمامي قط. عرفت الحقيقة من دون أن أدرك كيفية سماعي إيّاها لأنها أصبحت سراً مدفوناً منذ زمن بعيد، ومحاطاً بصمت مطبق لدرجة أنني أمضي سنوات عدة من دون أن أتذكرها. وإن تذكرتها فعلاً، أدهشتني حقيقة تخطيهما تلك المحنة التي أرهقت كاهليهما بمعزل عن أي شخص آخر، والتي لم تمنعهما من التمسك ببعضهما، ومن تربية أمي والذهاب في رحلات، ومن الضحك وتربيتي أنا في ما بعد.

بدأت بتحضير الحقن. وحين فقدت زورا رغبتها في توزيع الحلوى، انضمت إليّ لتساعدني. ومع انتهاء الدرس الصباحي، تجمهر الأطفال في المدخل، وشاهدونا ونحن نجهز معداتنا في غرفة فارغة في آخر القاعة. أحضر أنطون وبضعة رجال دين آخرين طاولات بلاستيكية من القبو، ففرشنا عليها قماشاً، وصففنا صناديق الحقن في زاوية لا تصل إليها الشمس، ونصبنا الموازين، وأخرجنا مناشف وأحواضاً وعلباً من الهلام من أجل فحص القمل. وبعد ذلك، تشاجرت زورا مع بارسو حول وسائل الحماية التي أحضرناها لنسلمها إلى الفتيات الكبيرات.

وعندما أنهينا عملنا، أعطينا رجال الدين الأغراض التي أحضرناها تحسباً للطـوارئ؛ مثـل أجهـزة قياس الحرارة، والقوارير التي تحافظ على الماء ساخناً، وعلبة مضادات حيوية، واليود وشراب للسعال وأسبرين. وبينما كان الأطفـال ينتظـرون للحصـول على المزيـد من الحلوى، بدأت زورا تزداد سخطاً؛ إذ اكتشفت أن رجال الدين لم يحضروا سجلات الأطفال الطبية، ولهذا فقد توجب علينا أن نعد تلك التقارير بنفسينا خلال العمل.

وقف الصبي المدعو آيفو - وهو الصبي الذي أراني لوحته - على الميـزان مـن دون أن يتفـوه بكلمـة واحـدة، وفتح فمـه بإذعان لأفحص حنجرته، وحنى رأسـه لكي أفحص حرارته، وسـحب نفساً عميقاً عندما طلبنـا منـه ذلـك. ولـم يبدِ اهتمامـاً بمعرفة كيفية عمل سـماعة الطبيب. وفشـلت زورا التـي لطالمـا برعـت بالتعامل مع الأطفـال - على الرغم من إصرارها على عدم إنجاب أي أطفال - في إثارة إعجابه بتشـبيهها القمـل بالمحاربيـن المتحصنيـن والمجهَّزيـن للحصـار، وهي تفتش في شعره بيديها المكسوتين بقفازين من دون أن تعثر على أي قمل. راقبني آيفـو مـن دون اكتراث وأنا أزيل أسـلة الأنبـوب، وأملأ المحقنة بالدواء الموجود فيه، وأفرك ذراعه بالكحول. وعندما غرزت الإبرة في ذراعه، راقبهـا وهـي تدخـل فيها عميقاً مـن دون أن يجفل. وعندما كررت هذه العمليـة بالـذراع الأخـرى لـم ينظر إليها على الإطـلاق، بل جلس على الكرسي الأخضر البلاستيكي وهو يضع يديه على حضنه ويحدق إليّ. كنا قد أحضرنا ضمادات لاصقة مخصصة للأطفال عليها صور دلافين وصـورة الرجـل العنكبـوت بملابـس صفـراء. وعندما سـألته أي واحدة منها يريد، هز كتفيه بلا مبالاة. فأعطيته ضمادتين لكل ذراع وأنا أتمنى أن أعطيه المزيد. وعندئذ، انتابني شـعور مريع من إمكانية أن أجد كل الأطفال على شاكلته؛ أي غافلين عن الشعور بالألم، وغير متأثرين بأي شـيء يبـدي الأطفـال فـي المنازل رد فعـل حياله عـادة. وعندما ركلني

الطفل التالي على قصبة ساقي، تنفست الصعداء.

كان نحيب الأطفال المتألمين معدياً بشكل مذهل. إذ حالما ينفجر طفل ما بالبكاء، يرد عليه ستة آخرون بالصراخ. ترددت أصداء البكاء بين جدران المعتزل، وتضاعفت هذه الظاهرة إلى أن أصبح المكان برمته يضجّ بصرخات الرعب والسخط قبل أن نضع أيدينا على الطفل التالي. لقد توقعنا مسبقاً ما سيبديه الأطفال من صراع مستميت أو رغبة في العض. وبعد مضي وقت قليل، هبّ رجال الدين لمساعدتنا، بعد أن اكتفوا في النصف الأوّل من الساعة الأولى بالوقوف مرتعبين، وعملوا على تثبيت الأرجل والأذرع، والتهديد بالعقاب تارة، والوعد بتقديم الحلوى تارة أخرى. انخدع بعض الأطفال بوعد الحصول على المزيد من الحلوى، فأتوا وذهبوا من دون أي مقاومة، ولكن توزيع معظم الحلوى قبل العمل أثبت أنه خطأ تقني فادح. إذ إن قدرتنا على السيطرة على الأولاد كانت من خلال توزيع الحلوى عليهم. لذا، شاهدناها وهي تنقص قطعة تلو الأخرى ولوح شوكولاتة تلو الآخر بإحباط متزايد. وأدركنا أنها سرعان ما ستنفد في غضون بضع دقائق.

عند الساعة الثانية، حضرت شابة من سكان المنزل. وحين رفعت نظري، رأيتها تحوم في المدخل من دون أن أعرف كم مضى عليها من الوقت وهي واقفة هناك. كانت تغطي كتفيها ورأسها بشال لتدخل دار العبادة وهي تحمل طفلة صغيرة نائمة تسندها إلى وركها، وتضع رأسها على كتفها. وعندما أشرت إليها لتدخل، استدارت وعادت إلى باحة دار العبادة. وبحلول الوقت الذي أنهيت فيه الاعتناء بالطفل الذي كان بين يديّ وتبعتها إلى الخارج، وجدت أن أنطون قد صرفها. فلم أستطع أن أرى وجهها، ولكنني سمعتها تقول إنهم عثروا على الجثة.

رأيتها وهي تعطي أنطون مغلّفاً مصفراً وتقربه منه، فيما هو يرفع يديه عالياً رافضاً أن يلمسه ويقول: "في ما بعد. في ما بعد". انتظرت

إلى أن لاحظ وجودي عند المدخل، ثم أشرت إلى الطفلة التي تحملها المرأة بين ذراعيها، فابتسم وطلب منها أن تنظر إليّ، وأمسك بمرفقها، وأشار إليها لترافقني إلى الداخل، ولكنها أخذت تهز رأسها وتتراجع إلى الوراء. وشاهدناها وهي تغادر من تحت النبات المعترش الذي ألقى بظلال مخططة على كتفيها، ثم خرجت إلى الشارع.

أتت زورا ووقفت إلى جانبي وبحوزتها العلبة الفارغة. وقالت وهي تريني إياها: "لا يمكننا المتابعة من دون حلوى".

حان وقت الغداء، ولهذا استغللنا الفرصة لإعادة تشكيل المجموعة، واستنباط استراتيجية جديدة تساعدنا في الحفاظ على النظام. كانت زورا قد أوقفت جهاز البيجر الخاص بها عن العمل، وحين أعادت تشغيله اكتشفت أن المدعي العام قد اتصل بها ست مرات منذ صباح ذلك اليوم، لذا دخلت المكتب في المعتزل لتتحدث إليه، بينما بقيت في مكاني لأعمل على تنظيم الأوراق. أخذ الأطفال النُّعَّس يتجولون بأيديهم المضمدة في أنحاء الباحة في حرارة فترة العصر، فحاولت أن أبعدهم عن الشمس. وبحلول الوقت الذي عدت فيه إلى غرفة الفحص، وجدت أنطون هناك يرتب أوراق الأطفال حسب الترتيب الأبجدي.

رأيته يتأمل جهاز قياس ضغط الدم، فضحكت وقلت له إنني واثقة بأن ضغطه مرتفع من جراء عمله مع ستين طفلاً. ولكنه رفع كُمّ ردائه وربت على باطن ذراعه. هززت كتفي، وأشرت إليه ليجلس على الكرسي، ثم لففت القطعة القماشية الخاصّة بجهاز القياس حول ذراعه. كان يتمتع بوجه نحيل وشاب. وفي وقت لاحق، عرفت من نادا أنه اعتاد وهو صبي صغير أن يحبس النحل الطنّان في مرطبانات ثم يربطها بحرص بشريط "كاسيت" ثم يمشي في الطريق وهناك عشرات النحلات تطير في المرطبانات التي يجرّها وراءه كالبالونات بينما يلمع الشريط تحت ضوء الشمس.

قال: "سمعت أنك أثرت جلبة في الكرم صباح اليوم".

هممت بأن أعترف له أنني تصرفت بأسلوب هجومي بعض الشيء في أثناء حديثي إلى ديوريه. وأردت أن أبرر موقفي بشعوري بالشفقة على الفتاة الصغيرة التي سمعتها تسعل طوال الليل، ولكن أنطون تحدث بدلاً من ذلك عن الطريقة التي دخلت بها عليهم، فقال: "لقد أرعبتهم كثيراً". شددت القطعة القماشية حول ذراعه، فابتسم وقال: "تخيلي نفسك تمضين الليل بطوله وأنتِ تحفرين في الأرض بحثاً عن هيكل عظمي. وفي الساعات التي تسبق الفجر، وبينما أنت على وشك العثور على ما تبحثين عنه، تباغتك امرأة ترتدي شيئاً يشبه كفن الموتى".

فقلت وأنا أضع السماعتين في أذني وأدس السماعة الطبية تحت القطعة القماشية: "لقد سقطت في حفرة".

قال: "هذا ما يقال هنا. ولكن، ما الذي كنت ستفعلينه لو كنت مكانهم؟".

"كنت سأتساءل: لماذا أجبر ولديّ على الحفر بحثاً عن هيكل عظمي لجثة دفنتها هنا بنفسي؟".

نظر إليّ وكأنه يحاول أن يتأكد إن كان في وسعه أن يثق بي ليقول ما يريد قوله. بدأت أنفخ كم الجهاز وأنا واقفة قربه، بينما جلس هو ساكناً، ورداؤه بين ركبتيه. فتحت صمام الهواء، وراقبت الإبرة، وأصغيت إلى صوت نبض قلبه.

"لدينا واحدة هنا، كما تعلمين".

ولكنني لم أفهم ما يتحدث عنه.

فقال: "أقصد روحاً. إنهم يسمونها المورا؛ أي الروح".

قلت: "يجب أن نعيد قياس ضغطك مجدّداً". وبدأت أعيد القياس.

"إن الجميع مصدومون بشأن مسألة الجثة هذه، ولكنهم نسوا أن المورا تجوب هذه الأنحاء منذ مئة سنة. إننا نضع القطع النقدية والهدايا

على قبور موتانا لأن المورا تأخذها. تقول الإشاعة المنتشرة في البلدة إن عجوز الحفارين تعرف بأمر المورا، ولهذا السبب تطلب منهم البحث عن الهيكل العظمي".

"ومن أين لها أن تعرف؟".

قال أنطون: "هذا ما يُقال حرفيًا، ولكنني لا أتظاهر بأنني أجد هذا الكلام منطقياً".

لم أجده منطقياً أنا أيضاً. إذ إن ديوريه وأفراد عائلته قادمون من الشمال قرب المدينة حيث لا ينقصهم الاعتقاد بالأشباح والكائنات الخفية التي يقول الناس عنها إنها تطالب بوضع القرابين على جوانب القبور، والتي ينتهي بها المطاف حتماً في جيوب موظفي باحة دار العبادة أو الغجر العابرين.

"إذاً، ما الذي سيحدث الليلة؟".

قال: "لست واثقاً تماماً. يقول ديوريه إن عرافة القرية طلبت منه أن يغسل العظام ويترك القلب في مكانه". لقد انتشرت هذه التعليمات في شتى أنحاء البلدة، على الرغم من أن ديوريه أفضى بها سراً إلى إيفان، لدرجة أنها أصبحت خلال أسبوع واحد الأنشودة الشريرة التي يكررها الصبية المتسكعون في الممرات، وتهمس بها النسوة في محالّ البقالة، ويرددها الرجال الذين يمرون بالكرم في طريقهم إلى بيوتهم.

قلت له بعد أن تذكرت ما سمعته في الليلة الماضية: "ببغاؤكم أيضاً يعرف هذه التعليمات. إنك تدرك بالطبع أن جثة تمّ دفنها قبل اثنتي عشرة سنة يستحيل أن يكون قلبها لا يزال موجوداً".

فأجاب أنطون بابتسامة شخص مستسلم: "هذا ليس من شأني".

قلت: "إنني متفاجئة من استعدادك للتغاضي عن هذا. فإن هذه التصرّفات لا تبدو لي متوافقة مع التعاليم الكاثوليكية".

فابتسم وقال: "إنها ليست كذلك فعلاً، كما أنها ليست متوافقة

مع التعاليم الأرثوذكسية أيضاً. ولا بد أنك تعرفين ذلك. ولكن، يجب عليهم أن يعتمدوا عليّ في حال وقوع أي خطأ. إذ إن رجال الدين الآخرين لن يوافقوا على هذا أبداً".

"وماذا عن أمك؟ هل تعلم أنك ستشارك في تلك المهمة؟".

فاكتسبت ابتسامته مسحة من تأنيب الضمير، وقال: "نعم، ولكن من أهم فوائد العمل كرجل دين أنه لا يتوجب عليّ أن أحصل على إذن من أمي لأؤدي العمل".

"سمعت أنها ليست مسرورة ممّا يحصل في الكرم".

"كلا، إن الأمر صعب عليها. أولاً، هناك هيكل عظمي في مكان ما في الكرم. وبالإضافة إلى ذلك، الحفارون شماليون. اعذريني لقولي هذا، ولكنهم شماليون، كما أنهم يحفرون الكرم بأكمله". رفع رجل الدين نظارته عن أنفه ونظر إليّ قائلاً: "إنها تفضل ألا أقترب من الكرم في أثناء حفرهم، وذلك ليس بسبب الجثة المدفونة هناك أو تخريب الكرم، وإنّما لأنّ الكثير من الحوادث تقع هناك في الحقل الآن". تخليت عن المهمة التي كنت أقوم بها وأصغيت إليه. فقال: "إنني أتحدث عن الألغام. إذ لا تزال هناك ألغام أرضية حتى في هذه الأنحاء، وفي قمة الجبل حيث توجد القرية المهجورة. لقد تم نزع معظمها، ولكن الباقي يتم العثور عليه فقط عندما يطأه أحد الرعاة أو المزارعين أو طفل ما يعبر إحدى المناطق غير المعبدة. وبعد ذلك، يتكتم الناس بسرعة على الأمر". راقبني وأنا ألف القطعة القماشية الخاصّة بآلة الضغط والسلك، ثم قال: "في الأسبوع الماضي فقط، تعرّض صبيّان في جريفكوف لحادث".

لم أسمعه جيداً في البداية، أو لم أميز الاسم جيداً لأنه لفظه بطريقة مختلفة عن لفظ جدتي له. فلم أربط بين الأمرين لأنه كان آخر شيء توقعت أن يقوله، وآخر مكان توقعت أن يذكر اسمه. ولم يبد لي الجمع

بيـن مـوت جدي والحادث الذي تعـرّض له الصّبيّان أمراً مهماً ومنطقياً إلى أن قمت بالربط بينهما.

في تلك الأثناء، ظل أنطون مستمراً بالحديث. فذكر شيئاً عن لغم أرضي غير منفجر في مزرعة أحد الجيران. فقلت: "أين؟".

قال: "في المنزل المجاور". وأشار من خلال النافذة.

فقلت: "كلا، أقصد ذلك المكان. لقد قلت شيئاً عن صبيّين، أليس كذلك؟".

أجـاب رجـل الديـن قائـلاً: "جريفكـوف". ونزع نظارته ومسـحها بكـم ردائـه، ثـم قال لي: "لقد سـمعت عن هذا الحادث، أليس كذلك؟ إننـي بالـكاد أعـرف أي معلومـات عنه". وراح يحـدق إليّ بتمعّن وكأنه لا يرانـي بوضـوح، ثـم قـال: "إنهم يبقون هذا النوع مـن الحوادث طي الكتمان منذ سـنوات. لقد وقع هذا الحادث في الأسـبوع الماضي؛ إذ بينمـا كان المراهقـان عائديـن مـن بلدة راجكوفاك إلـى بيتهما في وقت متأخـر، انفجـر بهما اللغم وهما يمشـيان عبر حقـل الخس الذي تملكه عائلتهما". ظن رجل الدين أن صمتي دليل على التفاجؤ أو الخوف أو التـردد فـي السـؤال عن صحة الصبيّين. لذا، تابـع قائلاً: "تصوري هذا! لقـد مـرت اثنتا عشـرة سـنة منذ الحـرب، وظل اللغم مدفونـاً في حقل الخـس طـوال ذلـك الوقـت". نهض رجـل الدين ونفـض رداءه، وقال: "لهذا السبب يعتبر الحفر أمراً سيئاً".

قلت: "كم تبعد عن هنا؟".

"أتقصدين جريفكوف؟ إنها في شبه الجزيرة". وعندما لاحظ أنني لم أفهم ما يتحدث عنه قال: "أقصد شبه جزيرة زفوكانا. إنها تقع على بعد ساعة من هنا بواسطة السيارة".

* * *

قلـت لـزورا إننـي ذاهبة لأحضـر المزيد من الحلوى وسـأعود في

غضون ساعة أو أقل. صدقتني وطلبت أن تذهب معي، ولكنني أقنعتها بأننا سنبدو غير جديرتين بالثقة إن غادرنا معاً. وأصررت على الذهاب وحدي بحجة أن هذا أكثر سرعة. وتجاهلتها عندما سألتني عن سبب حاجتي إلى السيارة وعدم ذهابي إلى متجر البقالة القريب في البلدة.

وجدت الطريق الجديد المؤدي إلى شمال بريجيفينا معبّداً جيداً ومقفراً؛ لأن الشجيرات لم تعاود النمو على طرفيه، ولأن صخوره بدت مرتفعة وبارزة ومليئة بالأشواك. امتدت فوق البحر غيوم ملبدة كثيفة ومسطحة بفعل الرياح، ويوحي مظهرها بعاصفة وشيكة. وعندما مررت بقريتي كولاك وغلوغ، رأيت المنحدر المتجه نحو البحر متوَّجاً بفنادق جديدة زهرية اللون ذات أعمدة، ونوافذ مفتوحة على مصاريعها، وشرفات لا يزال الغسيل معلقاً على طول حبالها. وبعد ذلك، بدأت تظهر في الطريق لافتات تدل على مفترق طرق يؤدي إلى شبه الجزيرة على بعد اثني عشر كيلومتراً، ثم سبعة كيلومترات، إلى أن وصلت إلى شبه الجزيرة نفسها التي تشق مياه الخليج كمقدم السفينة بين الشاطئ والجزر الخارجية والصخور التي تضربها الأمواج وغابة الصنوبر. لقد توقع أنطون ألا تستغرق الرحلة إلى القرية أكثر من ساعة، ولكن قرب المسافة أذهلني فعلاً.

بدأت أدرك أن جدي كان على ما يبدو قادماً لرؤيتي فعلاً، ولكنني وزورا اجتزنا مسافة طويلة، وسلكنا طريقاً جانبياً عندما توجب علينا أن نسجل اسمينا في مقر العيادات المتحدة، أما هو فقد أتى إلى هنا مباشرة مستقلاً الحافلة. وفي مكان ما قرب جريفكوف، حدث شيء ما منعه من إتمام رحلته.

طوال هذا الوقت، شعرت أنني منعزلة عن حقيقة موته بسبب بُعد المسافة، وبسبب عدم قدرتي على تصديق الخبر. فلم أسمح لنفسي بأن أتخيل العيادة التي مات فيها، أو الشخص الحي الذي حصل على

أغراضه، ولكن صورة كل ذلك بدأت الآن تتشكل في ذهني وتشدني إلى هناك.

كانت الكيلومترات الستة الأخيرة من الطريق إلى جريفكوف طريقاً ترابياً خالياً من أي علامة أو لافتة، وينعطف يساراً عبر أشجار الخروب المتناثرة، ثم يصعد نحو أشجار السرو فوق المنحدرات التي تميل مباشرة باتجاه الماء. في الهَوْر، حيث تلتقي شبه الجزيرة باليابسة، أضفت الشمس لوناً أخضر على المياه. كان مكيف الهواء في السيارة معطلاً. وجعلني النور الذي يظهر تارة من بين الأشجار ثم يختفي تارة أخرى أشعر بالدوار. وبعد أن اجتزت قمة التل التالي، خرجت من الغابة، ووصلت إلى طريق ممتد على جانبيه بساتين لوز مهجورة تنمو فيها الجَنَبات ذات الأزهار الصفراء. أصبح في وسعي رؤية أضواء القرية تلوح من بعيد. وبعد قليل، بدأت أتبين أسقف بيوتها المسطحة.

أدركت حتى من هذه المسافة البعيدة السبب الذي جعل جريفكوف بلدة مبهمة إلى هذا الحد. فهي بلدة تهيمن عليها الأكواخ الخشبية والمعدنية المبنية في تجمعات حول شارع واحد، والتي يبدو بعضها عديم النوافذ أو مزوداً بأفران قرميدية مؤقتة. رأيت أكياساً من القمامة المنزلية مرمية من الأبواب على العشب المصفر، وأسرة حديدية، وفرشاً ملطخة، وأحواضاً صدئة، وآلة بيع مقلوبة على جنبها. ووجدت كشك فاكهة لا يحرسه أحد عليه كومة من البطيخ. وبعد بضعة أكواخ، رأيت رجلاً كهلاً نائماً على كرسي خارج بيت ذي سقف قماشي. وكان الرجل يسند قدميه إلى كومة من القرميد. وعندما مررت بسيارتي أمامه، اكتشفت أن ساقه اليسرى مبتورة بعد أن رأيت جَدَعَة(*) أرجوانية بشعة تحت ركبته تماماً.

كانت العيادة عبارة عن مبنى رمادي مؤلف من طابقين، وقائم في

(*) ما بقي من العضو بعد البتر.

طرف البلدة، ويسهل العثور عليه لأنه المبنى الوحيد الذي يعلوه القرميد هناك. أوحى لي مظهر المبنى أنه على الأرجح كان قبل سنوات مبنى أنيقاً ذا جدران نظيفة وباحة مرصوفة محاطة بأصص زهور ضخمة تبدو الآن فارغة. ومنذ ذلك الحين، تسبب هطول المطر في تلطيخ الجدران باللون البني.

وجدت موقف السيارات فارغاً وستائر العيادة مسدلة، فترجلت من السيارة، وصعدت الدرج الحجري المغطى بأوراق الأشجار وأعقاب السجائر المتناثرة، ووصلت إلى باب رُسم عليه رمز النصارى الديني باللون الأخضر، وعُلقت تحت الرمز لوحة كُتب عليها: "مركز المحاربين القدامى". نقرت على الباب بأصابعي ثم بقبضة يدي، غير أن أحداً لم يفتح. وضعت أذني على الباب، ولكنني لم أسمع أي حركة في الداخل. جربت أن أدير مقبض الباب ولكنه لم يتحرك، فمشيت على طول الممر الضيق، وألقيت نظرة على الطرف الآخر من العيادة، ووجدت النافذة المطلة على الوادي مغلقة.

كان الشارع في الأسفل ينتهي برقعة مسطحة من العشب الشاحب على شكل ملعب كرة قدم، يَحدُّها من كلّ من جانبيها إطار خالٍ من الشباك. رأيت إلى جانب الملعب حقلاً مزروعاً بالقمح يسطع عليه وهج شمس العصر المرتعش، ويحوي مزلقة وأراجيح مصنوعة من إطارات السيارات. وخلف ذلك الحقل، لاحت من بعيد مقبرةٌ. خفَّت سرعة الرياح، وبدا الطريق مهجوراً؛ باستثناء عنزة مرقشة مربوطة إلى سياج يحيط بغرفة أشبه بصندوق معدني ضخم مقابل العيادة. وإن صدقت اللافتة التي رأيتها مثبتة إلى برميل وقود تحت مظلة وعليها كلمة "مشروبات"، فإن ذلك المكان هو المقهى.

عبرت الشارع، وأمعنت النظر إلى داخل المقهى، فوجدت سقفه منخفضاً جداً ولا يضيئه شيء سوى الضوء الطبيعي الذي يدخل عبر

الباب المفتوح. لاحظت وجود آلة ضخمة لتشغيل الموسيقى، طغى على صوتها صوت الثلاجة الصفراء التي يوحي مظهرها بأنه تم انتشالها من مكب للنفايات النووية. ورأيت أربعة رجال جالسين على مقاعد عالية حول برميل مرتفع في الزاوية، وهم يحتسون الشراب. لم يكن هناك أحد سوى أولئك الرجال الأربعة، ولكنهم جعلوا الغرفة تبدو مزدحمة بسبب حجمها الصّغير جدًّا. عندما دخلت، وقف أحد الرجال فبدا طويل القامة، وذا وجه شاحب ومجعد، وشعر أشيب خفيف. لم يسألني إن كنت بحاجة إلى المساعدة، أو يدعوني للدخول والجلوس، ولكنني لم أرحل، ولهذا لم يعاود الجلوس.

قلت أخيراً: "هل العيادة مغلقة؟". فأجبره هذا على الالتفاف حول البرميل والتقدم نحوي. رأيت ذراعاً اصطناعية ثقيلة مثبتة إلى مرفقه بمفصل معدني.

قال: "هل أنت مراسلة صحفية؟".

أجبته: "إنني طبيبة".

"إن كنت قادمة من أجل ذينك الصبيين، فقد ماتا".

قلت: "إنني آسفة".

نظر الساقي إلى الآخرين بدهشة وقال: "إن هذا لا يشكل أي أهمية في نظري. فالأشخاص يموتون دائماً عندما يأتون إلى هنا".

"إنني لست مهتمة بهذا أيضاً". وانتظرت منه المزيد من الاعترافات، ولكنه لم يتفوه بأي منها فقلت: "هل يوجد أحد مناوب في العيادة؟".

جعله كلامي يدرك أنني لست من تلك الأنحاء، وهذا ما أكده بنظرة ألقاها نحو الآخرين، ومن بينهم رجل ضخم الجثة، شعره يخالطه بعض الشيب، ويضع رقعة قماشية على إحدى عينيه، ووجهه محروق بفعل أشعة الشمس. كان الرجلان الآخران سليمين، ولكن أحدهما - وهو رجل أشقر الشعر - بدا أحول العينين بعض الشيء. دفعتني الطريقة

التـي راحـوا يحدقـون بهـا إليّ أتسـاءل عن مدى السـرعة التي أسـتطيع بهـا الوصـول إلى السـيارة، ومـدى قوة المحرّك التـي يمكنني أن أتوقع الحصول عليها إن شك أحدهم فعلاً في عزمي على المغادرة من دون التسبب بأي متاعب.

قال الساقي: "لم يأت أحد منهم منذ يومين". ووضع يده السليمة في جيبه.

"هل يستطيع أحد أن يدخلني إلى هناك؟".

رفع الرجل زجاجة الشراب، وشرب ما تبقى فيها، ثم وضعها على قمة البرميل وقال: "ما الذي تريدينه؟".

"أريد شخصاً من العيادة". صمتت الآلة الموسيقية فجأة لتغيّر اتجاه الشـريط، وظلت الثلاجة تصدر صوتاً حاداً. فقلت: "لقد قدت سـيارتي كل الطريـق مـن بريجيفينـا". ثـم أضفت لكي أبرز هويتي بأفضل شـكل ممكن: "من دار الأيتام".

أخـرج السـاقي هاتفـاً خليويـاً من جيبه وطلب رقمـاً، فتعجبت من امتـلاك هـذا الرجـل هاتفاً خليوياً وهو هنا في هذه المنطقة النائية، بينما لا أملـك أنـا سـوى جهـاز بيجـر، وربما بضـع أوراق نقدية مـن العملة المناسبة. وقفت بجانبه وأصغيت إليه وهو يترك رسالة قال فيها حرفيًّا: "لدينا شخص هنا من أجلكم". ثم أنهى المكالمة، وقال لي: "سيعاودون الاتصال بنا. تفضلي بالجلوس".

جلست على أحد الكراسي في الطرف المقابل من المقهى، وطلبت زجاجة من الكولا. وما إن فتحها الساقي حتى طغى صوت فورانها على الأصـوات الأخـرى فـي المقهى. دفعت له المـال، وتركت بضع أوراق نقديـة إضافيـة مرئيـة على الطاولـة، بينما أحضر أربع زجاجات شـراب أخرى للرجال، وعاد إلى البرميل حيث كانوا جالسـين بانتظاره. شـربت الكـولا وأنـا مرتديـة معطفـي الأبيض، ومحاولة أن أخفـي انزعاجي من

وضع فوهة الزجاجة على فمي، كما حاولت عدم التفكير في المكالمة الهاتفية التي من الممكن أن يكون قد أجراها مع إحدى الممرضات أو مع أي شخص آخر. إن عبارة "لدينا شخص هنا من أجلكم" قد تدل على أي معنى. إذ ربما اتصل ليطلب تعزيزات من الشرطة أو ما شابه. ولم يكن أحد يعرف أين أنا. فقد أشار أنطون إلى المكان على الخريطة، ولكنني لم أخبره بعزمي على التوجه إلى هنا؛ ولا سيما بهذه الطريقة، وفي وضح النهار؛ في الوقت الذي يفترض بي فيه أن ألقّح الأطفال.

قال لي الرجل الذي يضع رقعة على عينه: "هل أنت من الشمال؟".

فقلت له بتهور وأنا أضع يدي على ركبتي: "إنني مجرد طبيبة".

"لم أقل إنك لست طبيبة، أليس كذلك؟ ماذا يمكن أن تكوني غير ذلك؟".

فقال له الساقي: "أقفل فمك".

قال الرجل ذو الرقعة: "لم أقل إنها ليست طبيبة". ثم دفع كرسيه إلى الوراء، ونهض وهو يشد قميصه إلى الأسفل بيد واحدة، واتجه نحو آلة الموسيقى، وصوت وقع حذائه على الأرض يتردد في المكان من حولي. وبينما كان يضغط على الأزرار على طول وحدة التحكم، أخذت الألبومات الموسيقية تتغير، فسمعت صوت تحطم يدل على وجود شيء مكسور في الآلة على ما يبدو.

قال لي: "هل تحبين المغنية إكسترا بيكا؟ هل سمعت بها؟".

نبأني حدسي بألاّ أتفوه بكلمة، ولكنني لم أتمكن من تجاهل وجوده، ولا سيما بوجود الرجال الثلاثة الآخرين الجالسين حول البرميل. فقلت: "كلا، لم أسمع بها".

فانتقل من الوقوف على إحدى قدميه إلى الوقوف على الأخرى، وقال وهو يتنحنح: "هل تحبين المغني بوب ديلان؟".

فقلت: "إنني أحب المغني بروس سبرينغستين أكثر منه". وتعجبت

من مدى حماقتي.

قال وهو يضغط على المزيد من الأزرار: "ليست لدينا أغان له".

صدحت من الآلة أغنية لبوب ديلان لم أميزها، فابتعد الرجل ذو الرقعة عنها ببطء متجهاً إلى وسط المقهى وهو يتمايل قليلاً من جانب إلى آخر مع إيقاع الموسيقى. وبينما هو يدور حول نفسه على أخمصي قدميه، لاحظت أن هناك ندبات حروق تملأ فروة رأسه، تاركة أماكن فارغة من الشعر خلف أذنه اليمنى. أخذ الرجال الآخرون ينظرون إليه. واتكأ الساقي على البرميل، واضعاً إحدى ساقيه على حلقة كرسيه والأخرى على الأرض بينما كان الرجل الأشقر يبتسم.

استدار الرجل ذو الرقعة حول نفسه ببطء محركاً ساقيه وذراعيه ثم توقف ومد يديه نحوي.

فقلت له وأنا أبتسم وأهز رأسي مشيرة إلى زجاجة الكولا في يدي: "كلا، شكراً لك".

قال: "هيا، يا دكتورة". فارتشفت القليل من شرابي، وهززت رأسي مجدّداً، فيما ابتسم وأشار إليّ لأنهض وهو يحرّك يديه للحصول على الهواء وقال: "هيا، هيا، لا تدعيني أرقص وحدي". وضم يديه إلى بعضهما ثم مدهما إليّ مجدّداً، ولكنني لم أتحرك. عندها، أشار إلى الرقعة التي يغطي بها عينه قائلاً: "إنها حقيقية، أؤكد لك هذا، وليست لمجرد العرض". وأمسك بإحدى زواياها ورفعها. فرأيت الجلد تحتها مبللاً بالعرق من الحرارة، ومجعداً ولونه أبيض وأحمر حيث التأم الجرح.

قال الساقي: "اجلس، أيها الأحمق".

"إنني أريها إياها فقط".

فكرر الساقي: "اجلس". ونهض ليمسك بمرفق الرجل ذي الرقعة ويجره بعيداً عني.

"لديّ عين واحدة فقط".

فقال الساقي: "إنني واثق بأنها شاهدت ما هو أسوأ من هذا". ودفعه للجلوس على كرسيه بجانب البرميل، ثم أحضر لي زجاجة أخرى من الكولا.

لم تكن خدمة البيجر تعمل هنا. فخطر ببالي أن زورا على الأرجح بدأت تتصل بي، وأنها تتساءل بلا شك عن المكان الذي ذهبت إليه، وعن سبب عدم عودتي حتى الآن. وتخيلت ردهة المعتزل والأطفال المجتمعين فيها بثيابهم الملطخة بالحساء وعيونهم التي يداعب النوم جفونها. وتخيلت زورا تستشيط غضباً وهي تعد لائحة ذهنية ببعض الشتائم المنتقاة التي تريد أن توجهها لي سراً. كنت سأختلق لها أعذاراً مثل ازدحام حركة المرور، أو وقوع حادث ما، أو إنني ضللت الطريق، أو وجدت المتجر مغلقاً واضطررت إلى انتظار عودة الموظفين لمناوبة فترة العصر.

رن هاتف الساقي، فرفعه إلى أذنه ليجيب، وسمعته يطلق على المتصل اسم أنجل، ثم أشار إليّ وسلمني الهاتف لأرد على المكالمة.

تحدّثت إليّ شابة تعمل موظفة استقبال في العيادة، وقالت لي على الفور: "إن الطبيب لن يأتي حتى الأسبوع المقبل. هل هناك حالة طارئة؟".

قلت لها: "لست هنا لمقابلة الطبيب". وأخبرتها أنني مهتمة بسجلات مريضها الذي توفي قبل بضعة أيام وتمت إعادة جثمانه إلى المدينة. في تلك الأثناء، التزم الرجال الأربعة حول البرميل الصمت.

قالت لي بفتور: "آه، نعم". ولم تقل أي شيء مما يفترض بها قوله في مثل هذه الحالة؛ كأن تصف جدي بالرجل اللطيف أو أن تعبر عن أسفها لمصابي.

"لقد أتيت إلى هنا من أجل أخذ ملابسه وأغراضه الشخصية".

فقالت بلا اكتراث: "إنها ترسل عادة مع الجثمان".

قلت: "ولكنها لم تصل". سمعت صوت همهمة بعيداً من خلف الممرضة، وكأنه عزف موسيقى وصوت آلة لعبة الكرات. وبدا من صوتها أنها مصابة بالبرد، فقد راحت كل بضع ثوان تتنشق الهواء بصوت مسموع. وجعلتني الطريقة التي فعلت بها ذلك أتخيلها من نوع الفتيات اللواتي لا يجدن حرجاً في الجلوس والاسترخاء في أحد المقاهي الشبيه بهذا المقهى.

قالت: "في الحقيقة، لا أعرف أي شيء عن هذا. إذ لم أكن مناوبة في ذلك الوقت. قد ترغبين في التحدث إلى ديجانا". سمعتها تشعل سيجارة وتسحب نفساً منها. وبدا الصوت الصادر من فمها موحياً بالجفاف. ثم قالت: "ولكن ديجانا في تركيا الآن".

"تركيا!".

"نعم، ذهبت في إجازة".

كذبت عليها قائلة: "ولكن العائلة بحاجة إلى هذه الأشياء من أجل الدفن".

"لن أقصد العيادة حتى يوم الأحد".

"ستُقام الجنازة يوم السبت، لذا جئت من المدينة إلى هنا بواسطة السيارة".

بدت غير متأثرة بكلامي، وقالت: "ليس لديّ من يوصلني إلى العيادة حتى يوم الأحد. ولا يمكنني أن أعطيك ملاحظات المحقق حول سبب الوفاة من دون وجود الطبيب".

قلت لها إنني لست بحاجة إلى الملاحظات لأنني أعرف ما كتب فيها، ولكنني بحاجة إلى ساعته وخاتم زفافه والنظارة التي وضعها طوال حياته. رأيت الرجال الجالسين حول البرميل ينظرون إليّ، ولكنني لم أعد أكترث الآن، وقلت: "لست أدري إن كنت على دراية بالوضع

أم لا، ولكن ذلك الرجل شعر بأنه يحتضر قبل وقت طويل، وترك عائلته ليموت في مكان بعيد عن البيت. لقد دمرهم نبأ وفاته، لذا فهم مصممون على استعادة أغراضه".

"إن الاحتضار يجعل الناس يتصرفون بشكل غريب. إنني واثقة بأنك شرحت هذا للعائلة. لا بد أنك تعرفين كيف ينأى المرضى بأنفسهم عندما يشعرون بدنوّ أجلهم؛ تماماً كالحيوانات".

قلت: "إنني بحاجة إلى هذه الأغراض".

كانت تشرب شيئاً ما. فقد سمعت صوت ارتطام الثلج الموجود في الكأس بأسنانها. قالت: "أعطيني بوجان". وحين تحدث إليها الساقي مجدّداً دعاها أنجل مرة أخرى ثم توجه إلى الثلاجة وهي لا تزال تتحدث إليه، وفتحها وراح يبحث فيها، ثم خرج من المقهى. تلكأت بجانب المدخل وراقبته وهو يعبر الشارع ويصعد درج العيادة.

قال لي من حيث يقف على قمة الدرج وهو لا يزال يضع الهاتف على أذنه: "حسناً". وبحلول الوقت الذي عبرت فيه الشارع، كان قد فتح الباب، ولكنه لم ينر المصابيح. شعرت بالهواء في الداخل ثقيلاً، ورأيت الأرض مكسوة بطبقة من الغبار الذي استقر على كراسي غرفة الانتظار وطاولة الاستقبال. ولاحظت وجود آثار أقدام على الغبار تختفي تحت ستارة خضراء تصل إلى الأرض.

قال الساقي: "تفضلي". وأبعد الستارة جانباً وهو يمشي ببطء من أول الغرفة إلى آخرها. خلّفتْ خطواته آثاراً على طبقة الغبار على الأرض، وظهرت من خلف الستارة غرفة مستشفى؛ جدرانها بيضاء، وفيها أسرّة حديدية مطلية ومصفوفة على طول الجدار، وملاءاتها نظيفة وملساء ومشدودة على الفرش. لم يكن بناء الغرفة منتهياً؛ إذ إن الجدار الخلفي كان غير موجود، فعلق أحدهم مكانه قماشاً مشمعاً أكسبته أشعة شمس العصر لوناً أصفر شاحباً. راح النسيم في الخارج يتلاعب بحاشية

القماش ويرفعه عن الأرض محدثاً صوتاً كصوت رئة مسدودة.

قال الساقي: "انتظري هنا". وفتح في الجانب الآخر من الغرفة باباً ثانياً. أصغيت إليه وهو ينزل الدرج إلى أن اختفى صوته تماماً.

كانت مروحة السقف متوقفة عن العمل، فرأيت ذبابة ميتة على حافة إحدى الشفرات. عبرت الغرفة لأفتح الستارة، وكان حذائي يصدر صوتاً مرتفعاً رغم أنني حاولت أن ألتزم الهدوء بجر قدمي على الأرض. استغرقت عودة الساقي وقتاً طويلاً. وفي تلك الأثناء، حاولت تذكر ما كنت أقوم به في اليوم الذي توفي فيه جدي، وما فعلته قبل ذلك، وكيف انتهى بي المطاف هنا في هذه الغرفة التي توفي فيها جدي والتي لا تبدو الآن شبيهة بأي شيء حاولت أن أتخيله، ولا تشبه تلك الغرفة المصفرة في جناح الأورام في مستشفى الديار. عجزت عن تذكر شيء عن ذلك الوقت، وشعرت أن الأحداث التي مررت بها قد وضعت حاجزاً بيني وبينه. حاولت أن أتذكر كيف بدا صوته عندما كلمته آخر مرة وهو يحمل حقيبتي بيديه، ولكن تلك الذكرى على الأرجح ليست ذكرى وداعنا الأخير، وإنما ذكرى لقاء حدث قبل ذلك، واستبدلها ذهني المشوش بالذكرى الحقيقية.

لفتتني وجود سمة مألوفة في هذه الغرفة والقرية جعلت شعوراً غريباً بالحزن يتسلل إلى قلبي، ولكن ليس للمرة الأولى. فقد بدت شبيهة بنوتة موسيقية أستطيع تمييزها ولكنني لا أتذكر اسمها. لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا واقفة هناك قبل أن أفكر في الرجل المُحصّن. وعندما تذكرت قصّته فعلاً، عرفت على الفور أنه حضر إلى هنا، وأنه هو من أتى جدي ليقابله وليس أنا. وتساءلت عن المدّة الزمنية التي مضت على معرفته بمرضه، وعن السرية التي أتاحها له إخفاؤه مرضه ليذهب للبحث عن صديقه القديم. غمرني الشعور بالحر الشديد فجلست على أحد الأسرة.

عاود الساقي الظهور وبحوزته كيس أزرق فاتح يتأبطه تحت ذراعه اليمنى. راقبته وهو يقفل الباب ويتقدم نحوي، ورأيت جلد ذراعه الشاحب مقشعراً من البرد.

سألني: "أهذه أغراضه؟". وكان الكيس مطوياً ومغلقاً بإحكام.

فنهضت وقلت: "لست أدري".

قلب الرجل الكيس ونظر إلى الملصق وقال: "ستيفانوفيك؟".

مددت يدي لآخذ الكيس، ولكنه كان بارداً جداً لدرجة أنه وقع من يدي، فانحنى الساقي ورفعه عن الأرض وذراعه الاصطناعية متدلية باسترخاء. وعندما أعطاني إياه، فتحت له حقيبة ظهري ليضعه داخلها.

نظر إليّ وأنا أغلق الحقيبة، وقال أخيراً: "كل ما أعرفه هو أنه انهار".

"أين؟".

"خارج المقهى. حدث ذلك بعد أن أحضروا ذينك الصّبيّين ببضع ليالٍ، أي قبل أن يموتا".

"هل كانت الممرضات هنا؟ هل استغرقن وقتاً طويلاً لمساعدته؟".

هز الساقي رأسه وقال: "ليس طويلاً أبداً. لقد ظن الجميع في البداية أنه ثمل، ولكنني قلت لهم إنه ليس كذلك لأنه لم يطلب سوى كأس من الماء".

"هل طلب الماء؟ هل كان وحده؟".

مسح الساقي قطرات العرق التي تجمعت على صدغيه، وقال: "لست متأكداً، ولكنني أظن ذلك".

قلت: "لقد كان رجلاً طويل القامة يضع نظارة ويرتدي معطفاً ويعتمر قبعة. ألا تتذكر أنك رأيته جالساً مع أحد على الإطلاق؟".

"كلا".

"مع شاب ربما؟".

فهز الرجل رأسه.

فقلت: "ربما كانا يتجادلان".

"إن هذا حي المحاربين القدماء. ما الذي تظنين أن الناس يفعلونه طوال اليوم؟".

رفعت حقيبتي إلى كتفي، وعندها قال لي الساقي: "أصغي إليّ. لقد كان المكان يعج بأناس لا أعرفهم، منهم ممرضات وموظفون وطبيبان وأناس أحضروا ذينك الصبيّين من الحقول. لم أر المكان يغص بالناس هكذا منذ أن انتهت الحرب. لا بد أن القرية بأكملها قد اجتمعت في المقهى عصر ذلك اليوم. إن ما أعرفه فقط هو أن الرجل العجوز انهار على الأرض. إنني بالكاد أتذكر شكله ناهيك عمن كان معه". وتابع قائلاً: "إنني لا أنصحك بأن تسألي عنه في الأنحاء أيتها الطبيبة لتعرفي إن كان أحدهم قد تعرف إليه؛ ولا سيما وأنت تتحدثين بهذه اللكنة الأجنبية".

وضعت حقيبتي على كتفي، فأضاف قائلاً: "من الأفضل أن توقعي على استلام الكيس". وراح ينظر حوله باحثاً عن ورقة، فلم يجد أي استمارات، ولهذا قلب وصلاً لاستلام محلول ملحي وأعطاني قلماً وراقبني وأنا أوقع باسمي: ناتاليا ستيفانوفيك، وهذا ما فعلته بتمهل على أمل أن يربط بيني وبين جدي، ولكن نظرة عينيه أظهرت لي أنه سبق له أن قام بالربط بيننا من قبل.

# الفصل السادس

# الحريق

عصر كل يوم أحد، حتى عندما كانت الحرب على أشدّها، اعتاد أعظم أطباء المدينة أن يجتمعوا في فناء مطعم بانيفيك في المدينة القديمة ليدخنوا، ويحتسوا الشراب، ويتذكروا الماضي، ويتبادلوا القصص عن المرضى المدهشين والحالات المستعصية، وليثنوا على تشخيصهم للأمراض وسعة حيلتهم؛ وكل ذلك في أثناء تناول الغداء في موعد ظلوا مخلصين له طيلة ستين عاماً.

كان أولئك الأطباء أساتذة في الجامعة، ومختصين بأمراض الكلى والقلب، وأعضاء بمجالس الجامعة، ومختصين بجراحة الأورام والجراحات التجبيرية. لقد ظلت إنجازات هؤلاء الأطباء المتقاعدين - على الرغم من أن عمر بعضها يتجاوز عدة عقود - ذات أهميّة كبيرة في المجتمع الطبي. كان كل منهم يحفظ قصص الآخرين عن ظهر قلب، ولكنهم اعتادوا في أثناء جلساتهم معاً لاحتساء شراب الجوز وتناول الخبز الحار والفلفل الأحمر مع الثوم واللحم المشوي، أن يذكروا بعضهم بالأوقات العصيبة التي بات تذكرها الآن يبهج قلوبهم بعد أن أصبح إرثهم المهني آمناً بمضي مدة زمنية طويلة تضفي المزيد من الدهشة والروعة على قصصهم كلما زاد حديثهم عنها.

لطالما احتل جدي مكاناً مميزاً بين هؤلاء الأطباء الذين كافح إلى جانبهم في صفوف كلية الطب في شبابه. ورغم أنه تحلى طوال حياته بالتواضع حيال عمله، إلاّ أنني أظن أنه هو أيضاً احتاج إلى أن يذكر

نفسه بإرثه المنسي. فهو لم يؤسس عيادة لعلاج السرطان أو يفوز بجائزة وطنية للبحث العلمي، ولكنه كان طبيباً عظيماً بحد ذاته. فقد عُرِف عنه تخريجه أخصائيين بتشخيص الأمراض، وجراحين ممتازين خلال فترة تدريسه في الجامعة، وتأييده الحقوق الطبية للقرى الفقيرة. والأهم من ذلك كله أنه اشتهر بإنقاذه حياة الماريشال، وهذا ما شكل شرفاً شاطره به - سواء أكان هذا جيداً أم سيئاً - جراحون معينون فقط في زيورخ.

كان جدي يشعر بالراحة أكثر بكثير عند تعظيم إنجازاتي الطبية بدلاً من إنجازاته؛ لذا ظلت معرفتي بالحادث غامضة إلى أن دخلت كلية الطب. ومع ذلك، كنت على علم بوجود رسالة شكر مكتوبة بخطّ الماريشال احتفظ بها جدي في الدرج العلوي لمكتبه، كما احتفظ بزجاجة الشراب الفاخر المعد من الفاكهة المحصودة من بستان الماريشال في خزانة المشروبات الخاصة به لوقت طويل لا أتذكره.

أخيراً، زودني بتفاصيل القصة أحدُ معجبي جدي، وهو موظفٌ مساعد في الفصل الأول بمادة علم الأمراض. وروى لي ما حصل نقلاً عن ستة أو سبعة أو ربما ثمانية أشخاص. وقال إن جديّ استضافا قبل أكثر من ثلاثين سنة حفل زفاف رئيس قسم علم الأورام في الكلية العسكرية للطب في منزل البحيرة الخاص بعائلتنا في بوروفو.

فصححت كلامه قائلة: "إن الاسم هو فيريموفو".

قال المساعد: "صحيح".

فقد أقيم حفل الزفاف في منزل جدّيّ في فيريموفو. وفي مساء ذلك اليوم، وبينما كانت الحفلة تسير على أكمل وجه، أتى مدير نُزُل من القرية المجاورة وهو يجري بانفعال على طول طريق السيارات. حاولت أن أتصور ذلك المشهد الغريب، وأتخيل الأطباء المدعوين وهم يراقصون زوجاتهم على صوت موسيقى الأبواق التي يعزفها العازفون المتأثرون بالشراب، بينما أخذ الأطباء المقيمون وموظفو المخابر

يتجولـون فـي الغابـة خلف المنزل، ووقف أطباء الجلد يتسـامرون عند حاجـز الشـرفة. فـي ذلـك الحين، بـدا منـزل البحيرة والحديقـة يعجان بجميـع أفـراد الطاقـم الطبي. وفي غمرة كل ذلك الصخب، تولى جدي مهمـة الحـارس الغاضب المتجهم، وسـاعد رئيس قسـم طب الأمراض المفصليـة عندمـا سـقط بين شـجيرات الزهور. وفي تلـك اللحظة، جاء صاحـب النـزل راكضـاً علـى طول الطريق وهو يلـوح بيديه قائلاً: "نريد طبيباً. أين الطبيب؟ حباً بالله! أعطونا طبيباً. سيموت الرجل!". وشاءت الصدفـة أن يكـون جـدي الطبيبَ الوحيد الصاحـي في المكان. فارتدى معطفـه علـى عجـل، وتوجـه نحـو القرية لكـي يبطل تشـخيص الطبيب المحلـي الـذي كتـب عبـارة تسـمم بالطعام علـى تقرير مريضـه قبل أن يغادر المستشفى بهدف اللحاق بحفل الزفاف.

كان المريض بالطبع هو الماريشال نفسه الذي أصيب بوعكة مفاجئة وهـو فـي طريقـه إلـى مؤتمر في فرجوفانك بعد أن أفرط في تناول أحد أطباق الحساء. ونظراً إلى غياب طبيبه الشخصي، فقد تم نقله بسرعة إلى أقرب مستشفى - وهو عبارة عن كوخ من غرفتين - برفقة حاشية مؤلفة من ثلاثين رجلاً مدججين بالأسلحة. أصاب الرعب صاحب النزل، فقد تم تحضير الحساء في مطعمه الخاص. وبحلول الوقت الذي وصل فيه جدي إلى العيادة، بدا المريض موشكاً على الهلاك، فعرف جدي على الفور أن السبب ليس تسمّماً بالطعام أو ما شابه ذلك على الإطلاق.

ألقـى جـدي نظـرة واحدة علـى المريض، ولاحـظ وجهه المخضر الذي أصبح من المتعذر تمييزه. وشـتم الطبيب الغائب كثيراً. وقال من دون أن يوجـه كلامـه إلـى شـخص محدد: "أيها السـافل الغبي". ورغم ذلك، فقد قيل لي إن كل الأشخاص الحاضرين بلّلوا ثيابهم رعباً. قال جدي: "لِمَ لم تقم بمجرد إطلاق الرصاص عليه لتخلي السرير بصورة أسرع". وبعد خمس عشرة دقيقة، استلقى المريض وهو شبه صاح على

طاولة العمليات، والقسم الأوسط من جسمه مكشوف، بينما راح جدي يخرج حلقات كبيرة حمراء من أمعائه الملتهبة ويضعها على كتفه. وكان المتفرجون جميعاً - ومن بينهم صاحب النزل، وأفراد الأمن المصنفون، وربما بعض الممرضات - يؤدون عملهم ببراعة ناجمة عن رعبهم الشديد من غضب جدي. فقد وقفوا جميعاً صفاً واحداً بمعاطفهم الملطخة وهم يربتون على أمعاء الرجل محاولين تنظيف تقيح الزائدة الدودية.

أتذكر شكل الموظف وهو ينظر إليّ بترقب بعد أن أنهى القصة، بانتظار أن أردّ له الخدمة وأخبره شيئاً عن جدي يفوق ما قاله لي لتوه إذهالاً. وعندما لم أتفوّه بكلمة قال لي: "إنك تحبين القهوة، أليس كذلك؟ أتشربين القهوة؟ هلا انضممت إليّ لشرب فنجان من القهوة".

* * *

بعد أن تم تعليق لوائح القبول في الجامعة، وبعد أن تأكدت وزورا أكثر من مرة أننا تمكنا كلتانا من الحصول على حسم على الرسوم، سألني جدي عن السبب الذي دفعني إلى اختيار مهنة الطب. وكان قد تحدث عن نجاحي متفاخراً في وليمة غداء الأطباء، وأخبر عدداً من المرضى عن ذلك، ولكنني لم أعرف ما الذي أراد مني أن أقوله، لذا قلت له: "لأن هذا هو الصواب".

كان هذا هو السبب الحقيقي بالنسبة إليّ بالفعل. فقد ألهمني إياه الشعور بالذنب الذي تجلى واضحاً بين أفراد جيلي في رغبتنا في مساعدة الناس الذين اعتدنا أن نسمع عنهم في الأخبار، وأن نستغل معاناتهم لنفسر مصاعب حياتنا، ونضع إطاراً لنقاشاتنا، ونبرر ثوراتنا الصغيرة.

طوال سبع سنوات، حاولنا جاهدين أن نظهر عدم مبالاتنا بالحرب. وبعد أن انتهت فجأة من دون أن تمسنا بسوء، بدأ سخطنا يظهر جلياً.

وأصبح كل شيء بالنسبة إلينا قضية وكفاحاً نبيلاً. فقد حاربنا من خلال علـم الأحيـاء والكيمياء الحيوية وعلـم الأمراض العيادي، وناضلنا لكي نتبنى طقوس الجامعة؛ بدءاً من حفلات التحضير للامتحانات، ووصولاً إلى تلك المرأة الغجرية التي استغلت سذاجة بعض الطلاب الذين يثقون بالخرافات، وهددتهم بسوء الحظ إن لم يعطوها بعض المال. وبالإضافة إلى كل ذلك، حاولنا جاهدين أن نثبت أننا نستحق التواجد هناك، وأن نفنّد كل أنواع القذف الذي نشرته الصحف باستمرار عن أن جيل ما بعد الحرب في المدينة مصيره الفشـل. كنا شـباباً في السـابعة عشـرة، وبات الغضب أهم صفاتنا لأننا لم نجد رد فعل آخر غير الغضب نبديه حيال حقيقة انتهاء الحرب. فقد أمضينا سنوات في غمرة القتال، وحياة كاملة قبـل ذلـك ونحـن على شـفير انـدلاع الحـرب. إنها صراعـات لم نكن بالضرورة نفهمها، ولكنها جعلتنا نستشيط غضباً، ونتجادل، ونلقي عليها اللـوم لأننـا لـم نعد نسـتطيع الذهاب إلى أي مكان أو القيام بأي شـيء أو تغيير أنفسـنا. فقد شـكلت محور كل شـيء في حياتنا، وأجبرتنا على اتخاذ قرارات مبنية على الظروف التي عشنا فيها ولكنها لم تعد في ما بعد تشكل جزءاً من حياتنا اليومية. فلم نتخل عنها، بل اعتبرناها دائماً حقًّا لنا اكتسبناه منذ الولادة، وكنا أكثر من متلهفين لدفع ثمنه.

ظللـت لبعـض الوقـت أظـن أننـي أريد أن أسـاعد النسـاء اللواتي كـنّ ضحايـا الاغتصـاب، والنسـاء اللواتي يلدن في الأقبية بينما يمشـي رجالهن عبر حقول الألغام، والنسـاء اللواتي تعرضن للضرب والتشـويه وبتـر الأعضـاء فـي الحـرب؛ على أيدي رجالٍ مـن أقربائهنّ عادة. ومع ذلك، وجدت أنه من المُحال أن أتقبل فكرة استغناء أولئك النساء عن مساعدتي في الوقت الذي أصبحتُ فيه مؤهلة لمنحهن إياها. إن أموراً كهذه تجعل المرء يشعر وهو في السابعة عشرة أنه أفضل من الآخرين؛ فهـو لا يعـرف بعدُ شـيئاً عن صدمـات ما بعد الحرب. عندما كنا أصغر

قليلاً، لم نستطع الحد من حماستنا للعيش تحت وطأة الحرب. والآن، لـم نعـد نسـتطيع أن نتقبّل عجزنا عن فراقهـا. إذ إن قراراتنا الكبرى في الحياة أتت نابعة من افتراضنا أن تأثيراتها المباشـرة سـتحدث في أثناء اندلاع الحرب. لذا، بدا سعينا إلى التخصص بالجراحة التجبيرية إنجازاً ضئيـلاً لأننـا أردنـا بدلاً من ذلـك أن نصبح جراحين تجبيريين مختصين بعـلاج الأعضـاء المبتـورة. ولم تعد الجراحة التجميلية فكرة واردة على الإطلاق ما لم نود التعامل مع إعادة بناء كامل الوجه.

في وقت متأخر من عصر أحد الأيام، وقبل أسـبوع من امتحانات الفصـل الأول فـي الجامعـة، سـألني جـدي إن كنـت قـد فكـرت فـي الاختصـاص الـذي أريـد أن أختـاره؛ وكأن تحديـد الاختصـاص بـات قاب قوسـين أو أدنى. فأتى جوابي جاهزاً، ألا وهو: "الجراحة الخاصة بالأطفال".

كنـت جالسـة إلـى طاولـة الطعام وكتـاب علم الخلايا المسـتعمل مفتـوح أمامـي علـى منديل المائدة لكي أحافظ على نظافة غطاء طاولتنا المخرم الأبيض. فيما كان جدي جالساً إلى الطاولة وهو يأكل بذور عباد الشمس من صينية صغيرة من القصدير اعتاد أن يضعها عليها ويحمصها. أمـا عمليـة تناولـه هذه البذور، فقد كانت معقـدة ككل أعماله الأخرى. إذ اعتـاد جـدي أن يخـرج الصينية مـن الفرن، ويضعها على قطعتين من الفليـن، ويضـع منديـلاً أمامه ليضع عليه القشـور ثم يبحـث بين البذور قبـل أن يأكلهـا. ولـم يكـن أحـد، ولا حتـى جدتي، يعرف سـبب قيامه بهذا البحث. وبينما هو يختار البذور، اعتاد أن يجعد أنفه ليرفع نظارته الضخمـة مربعـة العدسـتين ليتمكـن من التركيز بطريقـة مريحة. فأضفى عليه هذا الأمر مظهر خبير بالمجوهرات، وسمة توحي ببعض الارتياب.

قـال جـدي تعقيباً على إجابتي بشـأن الاختصـاص: "إذاً، يجب أن تكفّي عن انتظار حدوث أمور خارقة".

فقلت: "ما الذي تعنيه بهذا؟". ولم أستطع أن أتذكر متى ذكر جدي عبارة أمر خارق للمرة الأخيرة.

ولكنه استأنف عملية انتقاء بذور عباد الشمس. لطالما تعوّد أن يختار إحدى البذور بين الحين والآخر ويكسرها بأسنانه الأمامية ثم يأكلها كلها في نهاية المطاف عندما يكتشف أن عملية الانتقاء عديمة الفائدة. بعد صمت طويل، سألني جدي: "هل تعاملت مع الأطفال كثيراً؟".

لم ينظر إليّ، ولهذا لم يرني وأنا أهز كتفي. وبعد قليل، هززت كتفي مجدداً ونقرت على كتابي بقلم الرصاص. وفي نهاية المطاف، سألته: "لماذا؟".

نهض عن الكرسي، وأبعده عن الطاولة، وفرك ركبتيه ثم قال: "عندما يموت الرجال، فهم يموتون شاعرين بالخوف. وهم يستمدون كل ما يحتاجون إليه منك، بصفتك طبيبتهم؛ لذا من واجبك أن تمنحيهم ذلك، وأن تخففي عنهم، وتربتي على أيديهم. أما الأطفال، فيعيشون على الأمل ويموتون وهم على تلك الحالة. فهم لا يعرفون ما الذي يحدث لهم، ولهذا فهم لا يتوقعون شيئاً، ولا يطلبون منك أن تربتي على أيديهم وتواسيهم. ولكن، عندئذ سينتهي بك المطاف وأنت بحاجة إلى أن يربتوا هم على يدك. وهكذا، مع الأطفال ستكونين وحيدة تماماً. هل تفهمين ما أعنيه؟".

* * *

من بين كل الأشياء التي تشاجرنا حولها في تلك السنة، خضنا شجاراً حامياً حول السمعة السيئة، والكلام المتداول الذي يحتاج إليه المرء لينال الاحترام والتميز؛ وفوق كل شيء الحظوة لدى موظف تقني سمين يدعى ميكا الجزار. وهو ذلك الرجل الذي يحضر الجثث للتشريح والدراسة، والشخص الذي يُتوقع منا أن نأخذه بعين الاعتبار

عند تخطيطنا أي مشروع؛ حتى قبل أن نلقاه للمرة الأولى.

كان تحقيق ذلك يتطلب منّا سعياً دؤوباً وهاماً. فقد توجب علينا الاستحواذ على انتباه ميكا ببراعة وأسلوب جيد. وشكَّل إعجابُ ذلك الرجل الفظ الجائزةَ التي يكافئنا بها إن نجحنا؛ في إضافة نادرة تستحق الإعجاب إلى سمعتنا الشخصية. وكنّا قد اعتبرنا أن الحصول على اهتمامه قبل البدء بدراسة التشريح في السنة الثانية أمرٌ حاسم. وحددنا هدفنا بإشعال شرارة الوعي لديه عندما يقرأ أسماءنا للمرة الأولى في قبو المخبر؛ لكي يرفع حاجبه عندما يقرأ اسم أحدنا، ويقول: "يا فلان، ألست أنت من كنت تدخن في غرفتك خلال انسحاب كوشوتنيجاك، ثم وضعت منشفة على رأسك عندما دخل رجال الإطفاء وقلت إن الدخان في حمامك هو ما أطلق صفارة الإنذار؟". فإن أومأ الشخص المقصود وابتسم ميكا، بفضل الله وحده، فعندئذٍ ضمن ذلك الشخص الحصول على جثة ليعمل على فحصها وتشريحها كل الأسبوع؛ وحتى في الأسابيع التي يحصل فيها نقص بعدد الجثث؛ ولا سيما الآن بعد انتهاء الحرب.

فمن دون توفر جثة كل أسبوع للتدرب عليها، من المتوقع لأي طالب أن يفشل طوال حياته في كلية الطب. وكان الطلاب يعتبرون التدرب في إحدى تلك الغرف النظيفة بوجود جثث مجهزة تشبه لحم العجل المطهو والرطب امتيازاً يحسدون بعضهم عليه. وبات كل طالب يتمنى أن يتفوق على زملائه بالتوصل إلى تلك الحالة الذهنية التي يصبح الطالب فيها معتاداً على الجثث، وبإمكانه النظر إليها من دون اشمئزاز أو تقيّؤ أو إغماء. وفي سبيل تحقيق النجاح في ذلك، يجب على الطالب أن يتنازل عن فكرة احترام الجثث، وأن يقاوم إحساسه بالإغماء إن دعا الموظف الجثة باسمها. وهكذا، يجب على الطالب أن يصبح من ذلك النوع الذي يجيد التأقلم والتكيف مع كل الأوضاع. ومن أجل التوصل

إلى هذا، توجب علينا الحصول على جثة كل أسبوع، وهذا يتطلّب منا أولاً نيـل انتبـاه ميـكا الجـزار؛ وكل ذلك لكي نخطو الخطوة الأولى في طريق الشعور بعدم المبالاة في وجه الموت.

كشف لنا بعض الطلاب الأكبر سناً في محاولة منهم لنيل الحظوة لدينا أنه سيتوجب علينا أن نكرس سنتنا الأولى في الجامعة لهذا الهدف. فقالت لي زورا: "لماذا يتوجب عليك أن تقلقي بهذا الشأن؟ ألم ترثي من جدك تلك الحكاية المتعلقة بأمعاء الماريشال؟".

تعلمنـا بسـرعة كبيـرة أن "المحسـوبية" مـن بيـن الطرائـق الكثيـرة التـي لا يـود المـرء أن يعرفـه بها ميكا الجـزار. وأدركنا كذلك أنه ليس مـن مصلحـة أحدنـا أن يرتكب كارثة طبية ما، أو مشـهداً يوحي بانهزام الذات، أو زلة لسان تحوِّله إلى أحمق بدلاً من أن تجعله شخصاً محترماً يستحق الحصول على الجثث بشكل متواصل ليتمكن من القيام بأمور خارقة في المستقبل. وبالإضافة إلى ما ذُكِر، لم يكن من صالح أحد أن يُشـاع عنه التصرف بوقاحة تجاه رؤسـائه؛ وهذا هو الخطأ الذي ارتكبته زورا خـلال الفصـل الأول. فقـد أطاحت زورا، في حركة شـهمة تهدف مـن خلالهـا إلـى تأميـن علاقات جيدة للمسـتقبل، بثمانمئة متقدم لتفوز بالامتيـاز الـذي يصبـو إليـه الجميـع للتدرب في قسـم علـم الوراثة. إن القـول إن المهمـات التـي تطلـب التدريب إنجازها مهمـات وضيعة فيه بخـس لحقهـا. فقـد تضمنـت مهماتها التنظيف ومسـح الأرض وإلى ما هنالك. وفي صباح اليوم الخامس لعملها، وبينما هي تنقل صندوقاً من الملفات من غرفة التخزين، اصطدمت برجل عجوز ضعيف يجر قدميه بمشقة على طول القاعة. فقد توقف ليقترح عليها أن ترتدي تنورة بدلاً مـن البنطـال لأن البنطـال جعلها تبدو شـديدة الجرأة. فقالت زورا وهي تُميـل الصنـدوق نحـو الرجل ربما بهدف إسـقاطه على رأسـه: "لا تكن قروياً جلفاً". فاتضح لها في ما بعد أن الرجل العجوز رئيس قسم علم

الوراثة. لذا، أمضت زورا بقية الفصل وهي تقوم بأعمال روتينية في القبو، بينما انتشرت أخبار وقاحتها كالوباء في الجامعة بتحريض من موظف في السنة الخامسة بدأ بإنتاج قمصان تحمل عبارة "لا تكن قروياً جلفاً". وجنى من جرّاء بيع هذه القمصان مبلغاً محترماً في حفل لجمع التبرعات.

لم تكن سمعتي أيضاً مرضية بالنسبة إلى ميكا الجزار. فقد حاولت أن أكسب بعض المال عن طريق المساعدة في مخبر علم الأحياء مرتين في الأسبوع. وبعد مرور ثلاثة أسابيع على عملي، طلبوا مني مساعدة أحد الموظفين على تحضير عينات من الأدمغة من أجل الدراسة. ولسوء الحظ، اكتشفت أن الأدمغة تنتمي إلى مجموعة من صغار الفئران. ولكنني أقنعت نفسي بأن تعاطفي مع الحيوانات لا يصل إلى صغار الثدييات ولا سيما بعد أن أخذت بعين الاعتبار عيني الموظف الأخّاذتين. لذا، سألته عن الأسلوب الذي يتبعه لقتل الفئران، فشرح لي الموظف أن هناك طريقتين للقيام بذلك. فإما أن يقوم بحبسها في صندوق وينتظر موتها اختناقاً، أو أن يقطع أعناقها بأداة تقليم الأظفار، ولكنه نفذ الطريقة الثانية مباشرة من دون أن يشرحها. لم تشاهد زورا الحادثة بنفسها، ولكنها سمعت عنها عدة روايات مختلفة، وتمكنت من أن تسليني بها في أثناء انتظارنا في عيادة طبيب الأسنان ليقوم بتلبيس السنّ التي كسرتها عندما أغمي عليّ.

أنهينا الفصل في شهر كانون الأول ونحن نشعر بالخزي من كارثة كلّ منّا الشخصية، ونتوقع أن تؤثرا في لقائنا المحتوم مع ميكا في فصل الخريف. ولكننا انهمكنا بعد ذلك في التحضيرات لدراسة التشريح في الربيع، وفي البحث الذي طال انتظاره عن استنساخ الجماجم. قد يظن المرء أنه أصبح من الممكن بعد الحرب الحصول على جماجم حقيقية للتدرب عليها، ولكن جماجم ضحايا الحرب كانت إما مهشمة بفعل

الرصاص، أو تم دفنها تحت التراب ثم نبشها وغسلها وإعادة دفنها على يد الأقارب والأحباء.

لقد بات الحصول على الجماجم شبه مستحيل. إذ لم يتم رفع الحظر عن التجارة. وأصبحت القنوات التي اعتادت الجامعة أن تتزود من خلالها بالمؤن الطبية - وهي مشكوكٌ في أمرها منذ البداية - أكثر صعوبة للوصول إليها الآن. وبدأ طلاب السنوات السابقة يبيعون جماجم مستعملة بأسعار جنونية ويعلنون عن توفرها عن طريق نشر الأخبار بين الطلاب. وهكذا، شعرنا أن وضعنا ميؤوس منه. وفي النهاية، أخبَرَنا صديقٌ لأحد الأصدقاء عن رجل يدعى أفغوستين متخصص بإنتاج نسخ بلاستيكية عن الأعضاء البشرية، وأنه يبيعها لأطباء الأسنان والمجبرين وجراحي التجميل، وذلك في السوق السوداء بكل تأكيد.

كذبت كلّ منّا على أهلها، وقدنا السيارة لمدة أربع ساعات على طريق خارجي مكسو بالثلج، ومررنا بعدد من الشاحنات العسكرية التي رأيناها تجر عرباتها الضخمة في المسار المقابل. وأجبرنا نفسينا على الابتسام لستة موظفين متشددين في مكتبين للجمارك، وكل ذلك لنتمكن من مقابلة أفغوستين في مكتبه الكائن في إحدى البلدات الحدودية في رومانيا. دخلنا المكتب الذي تطل نوافذه على رصيف التحميل ومياه نهر غرانا ذي الضفتين المتجمدتين. وقابلنا أفغوستين الذي بدا رجلاً قصير القامة وأصلع الرأس، له خدان بارزان. عرض علينا تناول الغداء، ولكننا رفضنا، ووقفنا قرب بعضنا، بينما راح يعرض علينا الجمجمتين المتوفرتين لديه، وهما نسختان عن جمجمة لاعب خفة من أربعينيات القرن العشرين، واسمه فيدريتسي العظيم. وقال لنا إنه حصل على هذا النموذج بشق الأنفس. إن هذا بالطبع جزء من الحقيقة. غير أنه لم يذكر شيئاً عن المساومة الإجبارية التي حدثت بينه وبين حارس المقبرة الذي قدم له رشوة على الأرجح لكي ينبش قبر فيدريتسي العظيم بعد مرور

وقت كافٍ على دفنه، حيث إنه لم يتبقَّ منه سوى العظام. لقد أدى ذلك اللاعب خلال حياته على ما يبدو عروضاً مدهشة على أحد المسارح في البندقية إلى أن لقي حتفه بشكل مفاجئ إلى حد ما في عام 1942 على يد رجل ألماني من الجمهور اكتشف أن زوجته على علاقة مع فيدريتسي العظيم.

قال أفغوستين: "ما رأيكما بجمجمة دون جوان؟". وغمز زورا. ولم نعرف سبب قوله هذا إلى أن أخرج أخيراً بحرص النموذجين الملفوفين بالورق. بدتا مختلفتين تماماً عن بعضهما. واتضح لنا على الفور أن الألماني الذي قتل اللاعب فضل أن يقتله بالطريقة القديمة مستخدماً زجاجة ربما أو عصا شرطي أو مصباحاً أو أخمص بندقية.

قالت زورا: "لماذا لم تضع لصوقاً على مكان التحطم على الأقل؟". وأشارت إلى الجانب الأيسر من الجمجمة المعطوب قليلاً وإلى الأخاديد المحفورة فيها.

بغض النظر عن الكسور، بدت الجمجمتان بيضاوين وعاديتين وسريريتين ينفتح فكّا كل منهما وينغلقان من دون صرير، وفي النهاية هذا ما كنّا نبحث عنه. تمكنا من إقناع أفغوستين بتخفيض السعر بنسبة عشرة بالمئة. وبينما نحن نهمّ بالمغادرة، حذرنا بشدة من إخراج الجمجمتين من علبتيهما اللتين كتبت على كل منهما كلمة \أحذية، ولكننا غيرنا رأينا حيال هذا في مركز الحدود الداخلية حين وجدنا أنهم يفتشون صناديق السيارات. وكانت بحوزتنا علبتا حذاء مثيرتان للشك تحويان جمجمتين من السوق السوداء. لذا، وضعت جمجمة لاعب الخفة في حقيبة ظهري، وخبأت زورا الجمجمة الخاصة بها في علبة الإسعافات الأولية تحت المقعد الخلفي. لم تجرِ الأمور على ما يرام، ولكن ذلك على الأقل حدث في الحدود الداخلية لبلدنا وليس في الحدود الرومانية. فقد فتش المسؤولون سيارتنا، وأوقفونا تحت تهديد

السلاح، وصادروا حقيبة ظهري، وأخذوا جمجمة فيدريتسي العظيم.

وفي وقت لاحق، أصبحنا نقول مازحتين إن فيدريتسي العظيم أصبح على الأرجح أكثر سعادة الآن في وادي نهر غرانا وهو يتعامل مع موظفي الجمارك. ولكن، عندما اتصلت بالبيت من مخفر الحدود وأنا أحسب ألف حساب لما سأقوله لجدي، وأتمنى أن أقنعه بأن يستقل القطار ويأتي لإنقاذنا، لم يعد الأمر طريفاً على الإطلاق.

عندما رفعت جدتي السماعة قلت لها: "أعطي جدي السماعة يا جدتي من فضلك".

فقالت لي بحدة: "ما الأمر؟".

"لا شيء. ولكن، أعطيه السماعة فقط".

"إنه ليس هنا. ما الذي حدث معك؟".

"متى سيعود إلى البيت؟".

قالت: "لست أدري. إنه في حديقة الحيوانات".

انتظرت بصحبة زورا في غرفة الاستجواب في مخفر الحدود ست ساعات، إلى أن أتى جدي لينقذنا من الورطة التي أوقعنا نفسينا فيها. وطوال ذلك الوقت، عجزت لسبب ما عن محو صورة جدي من ذهني وهو جالس وحده في حديقة الحيوانات. فقد تخيلته رجلاً أصلع يضع نظارة ضخمة، ويجلس على الكرسي الأخضر أمام قفص النمور، وكتابُ الغابة على ركبته، وظهره منحن قليلاً، وقدماه على الرصيف، وأصابعه متشابكة. رأيته يبتسم لآباء الأطفال الذين يمرون به وهو يضع في جيبه الكيس الفارغ، بعد أن أطعم المهر وفرس النهر ما كان موجوداً فيه. شعرت بالخزي حين فكرت فيه بتلك الطريقة. إذ لم يخطر ببالي أنهم أعادوا افتتاح حديقة الحيوانات، أو أن جدي قد استأنف الذهاب إليها رغم عدم توفر متسع من الوقت لديّ لأرافقه إلى هناك. لذا، قررت أن أسأله عن ذلك، ولكنني في النهاية لم أعثر قط على الوقت المناسب،

أو شعرت بالإحراج من أن أقوم بأي شيء قد يعتبر تدخلاً في الطقوس الروتينية المريحة التي يروّح بها ذلك الرجل العجوز عن نفسه.

ومع ذلك، أظهر جدي بالطبع شخصية مختلفة كل الاختلاف عندما اقتحم مخفر الحدود والشارةُ الجامعية الفخرية متدلية من شريط حول عنقه، وهو مرتد معطفه الأبيض وممسك قبعته بيده، وطالبهم باستعادة حفيدته وصديقتها التي تدخن.

قال جدي للموظف الذي يحتفظ بنا سجينتين: "إن تلك الجمجمة ضرورة طبية، ولكن هذا لن يتكرر مجدّداً".

فقال موظف الجمارك: "إن التشديد على الاستيراد يطبق على الجانب الآخر من الحدود. أما أنا فلا أكترث حتى لو أحضرتا ست جثث كاملة وخزانة مليئة بالمشروبات، ولكن حفل ميلاد ابني سيحل قريباً".

دفع له جدي بعض المال، ونصحه بأن يستثمره في تعليم ابنه القيم الأخلاقية، ثم أشار إلينا لنركب على المقعد الخلفي في سيارة زورا، وأوصلنا إلى البيت بصمت. كان الهدف من ذلك الصمت - وهو الشيء الوحيد الذي اعتبرته أسوأ من غضبه وخيبة أمله وقلقه - أن يمنحني متسعاً من الوقت لأقوّي نفسي في وجه ما يعتزم أن يقوله لي بعد أن نعود إلى البيت. لقد كبرت على العقوبة بالطبع، ولكن ما انتظرني كان خطاباً طويلاً، الهدفُ منه أن يشعرني بأكبر قدر من الخزي لقلة كفاءتي وغبائي وعدم احترامي الأشياء التي تفوق معرفتي. ورغم كل ذلك، عجزت عن نسيان أمر حديقة الحيوانات. فقد ذهب إلى هناك بمفرده، وجعلني شيء ما حيال هذه الفكرة أشعر أنني محطّمة.

بعد مرور ساعة على استقلالنا السيارة، انحنت زورا وأخرجت الجمجمة الأخرى المخبأة في علبة الإسعافات الأولية، ووضعتها على المقعد بيننا، وابتسمت لكي تخفف عني. فنظر إلينا جدي من مرآة

الرؤية الخلفية، وقال: "من هذا؟".

أجابته زورا من دون مبالاة: "إنها جمجمة فيدريتسي العظيم". وفي وقت لاحق، تشاركنا الجمجمة والقصة؛ وفي نهاية المطاف الابتسامة من ميكا.

* * *

طوال سبع سنوات، وعدتنا الحرب باستعادة ما خسرناه من أشياء، ولكن ذلك بات في الواقع ضرباً من المستحيل لأن إعادة التوحيد لم تعد واردة على الإطلاق. وبعد أن تفرقت الأجزاء التي شكلت وطننا القديم في الماضي، فإنها لم تعد تحمل الصفات نفسها التي مثلت في الماضي الأجزاء التي ميزتها عن بقية الوطن ككل. وهكذا، توجب علينا أن نفصل الأشياء التي تشاركناها في ما مضى؛ كالمعالم والكتّاب والعلماء والتاريخ، وننسبها إلى مالكيها الجدد. ولم يعد ذلك الشخص الحائز على جائزة نوبل تابعاً لنا بل لهم. وأطلقنا اسم مخترعنا المجنون على مطارنا، ولكنه لم يعد شخصية مشتركة بعد الآن. ومع ذلك، ظللنا طوال الوقت نقنع أنفسنا بأن كل شيء سيعود في نهاية المطاف إلى طبيعته المعهودة.

في حياة جدي، بدت الطقوس التي تبعت الحرب أشبه بطقوس إعادة التفاوض. فقد شكل طوال حياته جزءاً من الكل، وليس مجرد جزء، بل كان جزءاً أساسيًّا. فقد ولد هناك وتعلم هناك. وكان اسمُه يوحي باسم مكان، ولكنتُه توحي باسم مكان آخر. لم يكن أي من هذه الأمور ذا أهمية قبل الحرب. ولكن، مع مرور الوقت، لم تدعه الأكاديمية العسكرية بشكل رسمي للعودة إلى مزاولة مهنة الطب. وأصبح من الواضح أن العودة إلى وضع طبيعي في المهنة لم تعد أمراً ممكناً. لذا، قرّر جدّي الاستمرار برعاية مرضاه سراً؛ حتى اليوم الذي اختار فيه التقاعد. وبدأت تخالجه رغبة عارمة في العودة لزيارة

أماكن أضاعها، ولاستئناف طقوس انقطع عنها؛ ومن بينها زيارة حديقة الحيوانات.

كان الذهاب إلى منزل البحيرة في فيريموفو - التي أصبحت في الجانب الآخر من الحدود الآن - طقساً آخر. فقد أمضينا هناك كل فصول الصيف إلى أن بلغت السابعة من عمري. وكان بيتنا حجرياً قديماً وجميلاً يقع على ضفة بحيرة كبيرة من بحيرات الوادي، ويبعد قليلاً فقط عن الطريق الخارجي الرئيس الذي يصل بين ساروبور وكورميلو. فإن مشى المرء بضع خطوات فقط على طول الطريق المرصوف بالحجارة، وجد نفسه على ضفة بحيرة فيريمونو الصافية الزرقاء التي تغذيها مياه نهر أموفاركا. لم يذهب أي منا إلى ذلك البيت خلال السنوات السبع الماضية تقريباً، وتوصّل أفراد العائلة إلى استنتاج أن المنزل لم يعد موجوداً على الأرجح، أو أنه تعرض للنهب والسلب، أو أننا في اللحظة التي سندخل فيها عبر الباب سينفجر بنا لغم تركه جندي مهمل؛ ربما كان من جنود جيشنا. ومع ذلك، اتفقنا جميعاً على أنه يجب علينا أن نتفقد المنزل، ونقيّم مستوى الخراب الذي لحق به ونتخذ قراراً بشأنه. وأراد جدي وأمي أن يعرفا إن كان جارنا سلافكو قد انقلب علينا وتخلى عن المنزل، ونكث بالوعد الذي قطعه لنا بأن يحافظ عليه بأمان إلى ما بعد الحرب. ومع ذلك، نجمت ضرورة تفقد المنزل لدى جدي من الحاجة إلى إحياء متعة ماضية وإعادتها إلى حياته اليومية وكأن شيئاً لم يتغير.

في الشهر الرابع عشر من وقف إطلاق النار، وبعد مرور ثلاثة أيام على إعادة افتتاح السكة الحديدية التي تتجه نحو الجنوب، قال جدي: "أليس من الرائع أن تكون تعريشة الكرمة لا تزال موجودة على شرفة المرأب؟". وبدأ بحزم أمتعته من أجل الانتقال إلى فيريموفو على متن القطار. لذا، فتح حقيبته الزرقاء الصغيرة ذات القفل المزدوج، ووضعها

على السرير، ثم وضع فيها بضعة سراويل قصيرة رمادية من القطن، وقمصاناً داخلية بيضاء. جلست على حافة السرير وأنا أتمنى أن أطلب منه التخلي عن هذا السخف والقيام ببيع المنزل، ولكنني رأيته يبتسم بالطريقة التي اعتاد أن يبتسم بها عند ذهابه لزيارة النمور. وفجأة، شعرت أن انعدام تفاؤلي يقهرني. فمن أنا لأملي على جدي التصرف الملائم وذاك غير الملائم؟ ومن أنا لأمنعه من الذهاب في الوقت الذي يريد فيه من كل قلبه أن تسير الأمور كما يهوى؟ ولهذا، عرضت عليه بدلاً من ذلك أن أرافقه في رحلته، فوافق؛ الأمر الذي فاجأني. وعندما أتذكر هذه القصة الآن، أدرك مدى إصراره العجيب. فقد كان باصطحابي معه يضمن أن تمضي الرحلة بأمان بما فيه الكفاية.

وضعنا خطة لرحلتنا كما اعتدنا أن نفعل في كل شيء آخر نقوم به معاً. واعتزمنا تقييم الأضرار التي حلت بالمنزل. فإن وجدناه لا يزال قائماً، فسنفتح أبوابه ونوافذه، ونهوي الغرف، ونتفقد الأثاث المسروق أو المكسور، ونعيد ترتيب حجرة الطعام، ثم سنزيل الأعشاش التي بنتها الطيور طوال عدة فصول صيف متعاقبة على جدران الشرفة، ونشذب أوراق الأشجار المتألقة التي تشعبت على التعريشة فوق المرأب، ونقطف أي ثمار تين أو برتقال ناضجة؛ وكلُّ هذا استعداداً لحضور جدتي التي وافقت على الانضمام إلينا في الأسبوع التالي. وقررنا كذلك، اعتماداً على ما سنجده، أن نجعل كلبنا الجديد يعتاد الحياة على شاطئ البحيرة.

كان كلبنا أبيض صغيراً وسميناً جداً. وقد تعرضت جدتي للغش عندما اشترته من سوق الأحد في المدينة. إذ وقعت ضحية خدعة قام بها أحد المزارعين ليبيع آخر كلب بقي لديه. كان المزارع جالساً القرفصاء تحت شمس الصيف الحارة منذ الفجر وأمامه صندوق يضع فيه بضعة جراء نحيلة ذات رائحة كريهة تتقيأ وتتبول على بعضها. وفي

اللحظة التي مرت فيها جدتي قرب الرجل، رفع الكلب بيده بيأس وقال: "أتوقع أنه سيتوجب علي أن آكلك". فدفعت جدتي للرجل مبلغاً مالياً يفوق السعر الذي يستحقه، وعادت إلى البيت والجرو في قبعتها. وذهب المزارع على الأرجح ليشتري لنفسه حيواناً سميناً ونسي أمر الكلب برمته.

ظل الكلب بلا اسم لوقت طويل. وكان يحب أن يحمله الناس. وفي ذلك اليوم، جلس على ركبتي ملفوفاً بمنشفة زهرية، بينما شقّ بنا القطار أراضي الريف العطشى على طول النهر، ومر بحقول القمح والبلدات ذات الأكواخ المبنية من الألواح الخشبية التي تصطف على ضفتي النهر. وعندما اقتربنا من البحيرات أكثر، عبر بنا القطار جبالاً تناطح السماء، وتنمو عليها الشجيرات المتشابكة وزهور الخزامى. حجزنا مقصورة مخصصة لستة أشخاص لنا وحدنا، لأن جدي أراد أن يتجنب رؤية المسافرين الآخرين جوازي سفرنا عند الحدود. أبقينا النوافذ مفتوحة، فدخلت منها رائحة أشجار الصنوبر القوية والفواحة.

جلس جدي بجانبي وهو يغفو تارة ويستيقظ تارة أخرى. وبين الحين والآخر، راح يستيقظ فزعاً، ثم يبعد يده اليسرى عن بطنه، ويربت على الكلب الذي عجز عن النوم، وظل يحدق بقلق من خلال النافذة. اعتاد جدي أن يدلل الكلب بصوت أشبه بصوت دمية متحركة في أحد برامج الأطفال. فأخذ يقول له: "أنت كلب! أنت كلب! أين أنت؟ أنت كلب!". فتدلى لسان الكلب من فمه، وبدأ يتحمس.

بعد مرور بضع ساعات لم يتوقف فيها جدي عن ترداد هذا الكلام، قلت له: "حباً بالله، يا جدي. لقد فهمت أنه كلب". ولم أعرف أنني كنت بعد بضع سنوات سأذكّر كل كلب أراه في الشارع أنه كلب وأسأله أين هو.

كان المنزل يبعد مسيرة خمس دقائق من محطة القطار. لذا، تمشينا

بصمت، وكلّ منّا يشعر بأن أطرافه متيبسة. كان الجو جافاً عصر ذلك اليوم، فشعرت بقميصي يلتصق بجلدي قبل أن نصل إلى الطريق المخصّص لمرور السيارات. وعندئذ، رأينا الطريق والمنزل والمرأب محتجبة عن الأنظار خلف أوراق النباتات المعترشة الخضراء. بدا السياج الحديدي صدئاً، فتذكرت كم كانت الأشياء تصدأ بسهولة في منزل البحيرة، وكيف اعتاد جدي أن يعيد طلاء السياج كل سنة بصبر وتأن ومتعة وهو واقف برشاقة ومنتعل قبقابه ومرتدٍ زوجاً من الجوارب، وركبتاه النحيلتان شديدتا البياض بفضل مرهم الحماية من أشعة الشمس.

وجدنا جارنا سلافكو جالساً على الشرفة. وعندما رآنا، وقف على قدميه وبدأ يفرك يديه بسرواله. لم تسعفني ذاكرتي لأتذكر رؤيتي إياه في طفولتي التي أمضيتها في منزل البحيرة، ولكن أمي حدثتني عنه كثيراً. فقد نشآ وترعرعا معاً. وفي وقت ما خلال تلك الفترة، بدأت أمي ترتدي سراويل الجينز، وتستمع إلى موسيقى المغني جوني كاش، فميزها هذا من وجهة نظر سلافكو وغيره على أنها من أولئك الشابات الجامحات، وجعلها هدفاً للتجسس عبر النوافذ من قبل المراهقين. رأيت صورة ذلك الصبي منعكسة في نظرة الشعور بالذنب التي بدت على وجهه. كانت لديه لحية وشاربان وشعر رمادي مربوط على شكل ذيل حصان. وبدا طويل القامة ويتمتع بكتفين عريضتين وصدر مقعر وبطن بارز يجعله أشبه بطائر بطريق.

كان سلافكو قد أحضر بضع فطائر من أجل العشاء. وما برح يفرك يديه على سرواله بتوتر وانفعال. ظننت للحظة أن جدي سيفرط في عاطفته ويعانقه، ولكنهما اكتفيا بمصافحة بعضهما، ثم ناداني سلافكو قائلاً: "أنت ناديا الصغيرة"، وربت على كتفي بحنان، فابتسمت له ابتسامة مصطنعة. دعانا الرجل إلى دخول البيت. فعرفنا في ما بعد أن

الجنود اقتحموا البيت مباشرة بعد اندلاع الحرب، ونهبوا بعض الأغراض القيمة مثل أواني جدتي الصينية الخزفية، وصورة زيتية لإحدى العمات، وإبريق شاي تركي، وفناجين، وغسالة ثياب. لم ينل المنزل بالمجمل خلال تلك الفترة أي عناية على الإطلاق. فقد وجدنا بعض الأبواب مخلوعة، والطاولات مغطاة بالغبار والجص الذي تساقط من السقف. ورأينا أرائك جدتي الممزقة، ثم اكتشفنا لاحقاً أنها أصبحت موقعاً لتعشيش بعض حشرات العث المزعجة. وعندما دخلنا الحمام، لم نجد أي أثر للمرحاض، ولاحظنا أن ألواح "السيراميك" الزرقاء الصغيرة التي تكسو الأرض قد تحولت إلى أشلاء صغيرة محطمة.

قال سلافكو: "من أجل الماعز".

قال جدي: "لا أفهم ما تعنيه".

فقال سلافكو: "لقد توجب عليهم كسرها لكي لا تنزلق ماعزهم على «السيراميك»".

وبينما كنا نرافق سلافكو لتفحّص المنزل، تشبثت بالكلب، وأخذت أتأمل وجه جدي باحثة عن تعابير توحي بخيبة الأمل والرجاء، أو أي دليل صغير على الاستسلام، ولكنه لم يكف عن الابتسام. ورغم إحباطي الشديد، بدأ ذلك الشعور المؤلم بالذنب يتملكني مجدداً، واستولى علي إدراك مزعج بأنني عاجزة عن مشاركته ثباته وجلده. قال جدي لسلافكو إنه يأمل ألاّ يكون حفاظه على أمان البيت قد شكّل عبئاً عليه. فضحك سلافكو بتوتر، وقال له إنه لم يشكل أي عبء على الإطلاق؛ ولا سيما من أجل جدي الطبيب العظيم الذي يذكره جميع من في البلدة بكل خير.

وعندما غادر سلافكو، عاد جدي إليّ وقال: "إنه يبدو أفضل بكثير مما توقعت". وضّبنا أمتعتنا، ثم خرجنا لنتمشى في البستان. وجدنا الورود التي زرعتها جدتي ميتة، ولكن أشجار البرتقال والتين كانت

مثمرة، وكانت ثمارها ناضجة. أخذ جدي يمشي في الأنحاء وهو يركل التربة بقدميه وكأنه يبحث عن شيء ما. وكان يعثر بين الحين والآخر على الرصاص والمسامير وقطع المعدن المكسورة التي من الممكن أن يكون مصدرها المناخل أو الإطارات. وعثرنا على المرحاض في آخر الملكية. ولا بد أن أحدهم قد تخلى عنه هناك عندما عجز عن حمله في ذلك المنحدر الشاهق. وعثرنا أيضاً على عظام حيوان ميت تبدو صغيرة ومكسورة وحادة كالزجاج. أمسك جدي بالجمجمة وأمعن النظر إليها، فرأيت قرنين كقرون الماعز، ولكن جدي قربها مني ببطء شديد وقال: "ليست جمجمة فيدريتسي العظيم".

حمل المرحاض ليعيده إلى البيت، بينما صعدت الدرج المؤدي إلى المرأب حاملة مكنسة بيدي، وقمت بكنس أوراق الشجر المتساقطة عن الحجارة المتشققة. وجدت قوارير شراب وأعقاب سجائر وأوساخاً أخرى تبدو على الأرجح أحدث بكثير من وقت الحرب، فرميتها من فوق الجدار على باحة منزل الجيران. وفي وقت متأخر من العصر، تناولت وجدي عشاءنا على الصناديق على شرفة المرأب، فتركت الفطائر الباردة آثار زيت على أيدينا. بدت البحيرة مقابلنا ساكنة وشاحبة، تملأها طيور النورس التي أتت إليها من الساحل. وبين الحين والآخر، كنا نسمع صوت قارب سريع. وفي نهاية المطاف، مرت بنا ببطء بضعة قوارب ذات مجاذيف.

أخذ جدي يحدثني عن الإصلاحات التي يجب القيام بها، والأشياء التي يجب أن نشتريها من البلدة؛ مثل مكيف هواء من أجل جدتي، وتلفاز صغير، وستائر جديدة بالطبع، وربما حتى نوافذ جديدة، وباب أكثر متانة، ودواء قاتل للبراغيث من أجل الكلب، وبذور زراعية لإحياء حديقة الورود. وبينما كنّا مشغولين بالحديث، اندلع حريق في التل، وهو ليس أول حريق يقع في فيريموفو. فقد علمنا لاحقاً أنه اندلع –

كغيره من الحرائق السابقة - بسبب عقب سيجارة مشتعلة ألقاه رجل ثمل. رأينا الدخان الأسود يتصاعد على شكل أعمدة فوق القمة حيث توجد الألغام القديمة. وبعد ساعة أو نحو ذلك، رأينا ألسنة النيران تهبط من التل كالأفعى المتلوية، وتلتهم الأعشاب الجافة وكيزان الصنوبر، فيما الرياح تعصف بها على طول الجبال. وأتى سلافكو إلى المرأب ليشاهد ما يجري من عندنا.

حذرنا قائلاً: "إن هبت الرياح شرقاً، فسوف نلتقط قطع الخزف الصينية من خرائب بيوتنا غداً صباحاً، لذا يجب أن نتوخى الحذر".

كان جدي واثقاً في البداية بأن الرياح التي تهب من جهة البحيرة ستبعد الحريق عنا وتحصره في المنحدر العلوي فوق منطقة الشجيرات الخطرة التي توقعنا أن تشتعل. وظل مصراً إصراراً شديداً على هذا اليقين الذي اعتبرته أنا في ذلك الوقت دلالة على السذاجة. في تلك الليلة، أرسلني إلى السرير وظل ساهراً وحده وهو يكنس الدرج وحجرة الطعام ويخرج بين الحين والآخر ليلقي نظرة على الحريق.

قرابة منتصف الليل، وعندما وصلت النار إلى سلسلة التلال التي تقع خلف صف الأشجار، أمرني جدي بأن أنهض من السرير الذي جلست عليه بجانب الكلب ونحن ندفع بعضنا لنتابع تقدم النار من وراء النافذة. وقفت في الردهة، بينما انتعل جدي حذاءه وطلب مني أن أحضر جوازي سفرنا، وأخرج من المنزل. وقال لي إنه سيساعد رجال البلدة على إخماد الحريق؛ على الرغم من أن ذلك سيجبره على المشي عبر الحقول حيث شبت النار، وعلى إخماد ألسنة اللهب المنخفضة بالمعاطف والرفوش لئلا تندلع النيران في الحدائق والمروج وصفوف ثمار الخوخ والليمون التي جمعها الناس لبيعها في السوق. ومع ذلك، أتذكر أنني رأيته يلمع حذاءه رغم معرفته أنه سيمضي الليل كله وهو يخوض في الوحل والرماد. وأتذكر يديه، والطريقة التي أمسك بها خرقة

التلميع وكيف راح يمررها من اليمين إلى اليسار على طرف حذائه وكأنه يعزف على الكمان. أخذ الكلب يذرع المكان جيئة وذهاباً، فلمس جدي أنفه بخرقة تلميع الأحذية. وبعد ذلك، أخذنا إلى الجزء الخلفي من البيت حيث يلتقي الجدار الخلفي للشرفة البستانَ الذي يحوي حديقة الورود وأشجار البرتقال والتين التي بدأت تحمر أصلاً من جرّاء وهج النيران المنبعث من جهة التل.

قال لي وهو يضع خرطوم المياه الخاص بالحديقة في يدي ويفتح الصنبور: "أمسكي هذا، وواصلي بلّ المكان. أبقي المنزل والجدران والنوافذ كلها مبللة. ومهما حدث، لا تتركي الباب مفتوحاً. وإن ساء الوضع يا ناتاليا، وتخطت النيران الجدار وأحرقت المنزل، اجري نحو البحيرة". أحضر جدي قدر الطهي الضائعة منذ زمن طويل. إنها تلك القدر الحمراء التي اشتراها من إيطاليا، والتي ظهرت مساء ذلك اليوم للمرة الأولى منذ عشر سنوات بينما كان يتفحص الحجرة المخصصة لتناول الطعام. فكّر جدي في أن القدر ستمنحني نوعاً خاصاً من الحماية، لذا وضعها على رأسي ورحل. أتذكر صوت وقع حذائه على الحصى وصوت فتح البوابة؛ وكانت تلك هي المرة الأولى التي يترك فيها جدي البوابة مفتوحة.

تقول أمي دائماً إن الخوف والألم شعوران مباشران حالما ينتهيان لا يتبقى لدينا منهما سوى المفهوم وليس الذكرى الحقيقية. وإلاّ، لِمَ تلد المرأة أكثر من مرة واحدة؟ على حد قول أمي. ومع ذلك، أظن أنني أدرك ما تعنيه بقولها هذا عندما أعود بذاكرتي إلى ليلة الحريق. إذ إنني في مستوى لاشعوري أدرك أنني شعرت بألم عظيم، وأن حرارة اللهب الذي أخذ يلفح القرية القديمة على التل ومزرعة سلافكو وبستان البرتقال، ويخترق أشجار التين واللوز، ثم يجعل كيزان الصنوبر تغلي كالجمر لوقت طويل قبل أن تنفجر، كانت غير محتملة. ولكن القول

إنني كدت أعجز عن التنفس، وإن الشعر على ذراعيّ العاريتين بدأ يشيط قبل أن تهب النيران من بين أشـجار الصنوبر وتشـعل الجدار القرميدي يبـدو أشـبه بتسـخيف لحقيقـة الوضـع. إذ إننـي أدرك الآن أننـي وقفت هناك وظهري باتجاه النار وأن الماء راح يتدفق على الجدران والأبواب والنوافـذ المغلقـة، وأننـي تعجبت من مدى سـرعة تبخر المياه رغم أنها بالكاد تلامس البيت، ولكنّ ما أتذكره فعلاً - نوعاً ما - صورةٌ ضوئية تظهرنـي واقفـة هنـاك منتعلـة جزمتي الحمراء السـخيفة التي كتب عليها ولـدت لتجـري، وقـدر جدتـي المفضلـة على رأسـي، والكلب الأبيض السـمين المتوتر تحت ذراعي وقلبه ينبض بعنف كالمطرقة على معصم يـدي، وشـلالات المـاء التي تجـري من الخرطوم على جـدران المنزل لتمنع النار من التسلل إليه.

ومـع ذلـك، أتذكـر بـكل وضـوح المـرأة التـي تقطـن فـي المنزل المجـاور. ففـي وقـت معين من الليل، التفتُ ورأيتها تراقبني من مدخل بيتها وأنا أُجابه النار بالماء. وأتذكر أنني رأيتها في ضوء النيران مرتدية فسـتاناً منزلياً عليه رسـومات زهور، فيما كان شـعرها الأبيض منسـدلاً حـول وجههـا المبلـل بالعـرق. لم تكن لديّ فكرة كـم مضى عليها من الوقت وهي واقفة هناك، ولكنني ميزت شكلها وظننت أنها أتت لتقدم لـي يـد العـون. ولا بـد أنني ابتسـمت لهـا لأنها قالت فجـأة: "ما الذي يضحكك، أيتها الحمقاء؟".

فاستأنفت رش المياه.

وفـي نهايـة المطـاف، بـدأ النـاس كعادتهـم يعثرون علـى طرائـق لاسـتخراج الفكاهـة حتـى مـن تلك الأمسـية المأسـاوية. فقـد أصبحوا يسخرون منها بلا حرج، ويؤلفون النكات عن المشواة في بيت سلافكو، والدجاج والماعز التي تفحمت في حظائرها طوال الليل. ولم يذكر أحد أن وصول النار إلى الحظائر استغرق خمس سـاعات أو سـت ساعات،

وأنه كان في وسعهم أن يخرجوا الحيوانات منها ليتخلّصوا من صوت الثغاء والقوقأة الذي كان سيطغى في نهاية المطاف على صوت حسيس النيران الذي يصم الآذان. ولم يذكر أحد أيضاً أنهم أدركوا حتى في ذلك الوقت أن المزيد من الحروب ستندلع لدرجة أنهم اعتبروا أن ترك حيواناتهم هناك لتحترق في مكان وقوفها أكثر سهولة من إنقاذها ليسلبهم الجنود إيّاها.

بحلول الصباح، خمد الحريق، أو ربما تحول إلى مكان آخر. ولكن، بعد شروق الشمس لم يعد هناك أي مكان لنهرب إليه من الحر. أما في داخل البيت، فقد أصبح الأثاث متّسخاً. شغّلت المراوح، وأغلقت النوافذ لأمنع هواء الصباح المشبع برائحة الدخان الذي يكتنف الجو من دخول البيت.

دخل جدي البيت بعد بزوغ الفجر بوقت قصير وهو يتنفس بجهد، ثم أغلق البوابة خلفه. ولم يعانقني، بل قام بمجرد وضع يده على قمة رأسي وأبقاها عليه لوقت طويل. وكان الرماد قد ملأ الأخاديد على وجهه، فأصبحت التجاعيد على جانبي عينيه وحول فمه واضحة. غسل جدي وجهه، ثم جلس إلى الطاولة الصغيرة في المطبخ لينظف السخام من تحت أظفاره وهو يلاعب الكلب، ثم فتح كتاب الغابة على منديل أمامه، بينما أعددت أنا البيض والخبز المحمص وقطعت شرائح البطيخ من أجل وجبة الفطور.

وعندئذ حدثني جدي مجدداً عن الرجل المحصن.

* * *

قال جدي وهو يمسح زوايا كتاب الغابة بمنديله:

في العام 1971، وقع أمر خارق في إحدى القرى التي تبعد مسافة قصيرة عن هذا المكان وتطل على البحر، وذلك بينما كان بعض الأطفال يلعبون قرب أحد الشلالات، وهو شلال أبيض صغير

يروي حفرة عميقة في أسفل الجروف. وذات يوم، بينما كان الأطفال يلعبون بجوار الشلال، رأوا ظهوراً، فجرى الأطفال إلى بيوتهم، وأخبروا أهاليهم. وعندئذ، أصبح جميع الأهالي على قناعة تامة بأن تلك المياه تشفي. وصار الأطفال يذهبون كل يوم إلى الشلال. وبعد ذلك، تم تغيير اسم دار العبادة المحلية وأُطلق عليها اسم دار عبادة الشفاء. وبدأ الناس يتوافدون إليها من كل حدب وصوب، وكل ذلك ليروا حفرة المياه الصغيرة تلك، ويزوروا دار العبادة وينظروا إلى الأطفال الذين يجلسون هناك طوال الوقت محدقين إلى الماء ويقولون: "نعم، إننا نراه". وبعد وقت قصير، جاء أحد رجال الدين عالي المقام إلى ذلك المكان ليباركه، ثم بدأت الحافلات تنطلق من أماكن بعيدة مُقلّة ركاباً قادمين من المستشفيات والمصحات بهدف النظر إلى الشلال والسباحة في المياه والاستشفاء بها. إنني أتحدث عن مرضى حقيقيين، منهم مصابون بالشلل الدماغي والقصور في القلب والسرطان والسل، وبعضهم عاجزون حتى عن المشي، فيما بعضهم الآخر يحتضرون في نزاعهم الأخير، وهم محمولون على نقالات، بالإضافة إلى أناس مرضى منذ سنين طويلة وعجز الأطباء عن تشخيص مرض كل منهم. وكانت دار العبادة تقدم بطانيات ليجلس عليها أولئك المرضى في الحدائق والباحات والطريق كله؛ حتى رصيف المشاة. وهكذا، كان المرضى يجلسون في الحر والذباب يحوم حولهم، وأقدامهم مغمورة في المياه، ووجوههم مغسولة بها كذلك، أو يعبئون المياه في قوارير ليأخذوها معهم. إنك تعرفينني يا ناتاليا، وتدركين أن لا شيء يؤثر فيَّ أكثر من رجل بلا ساقين يجر نفسه على منحدر صخري لينال التوبة والغفران أو ليجلس في المياه وهو على قناعة تامّة بأن هذا سيجعل صحته تتحسن.

لهذا السبب، طلبت مني الجامعة أن أجمع فريقاً صغيراً، وأن نتوجه إلى هناك على الفور. إذ كانوا يظنون أن هناك خطراً يهدد كل أولئك

المرضى المحتضرين من جراء تعرضهم لهذا الضغط المتواصل. وطلبوا مني أن أؤسس مركزاً صحياً، وأعالج المرضى مجّاناً. لذا، انطلقت إلى هناك وبصحبتي اثنتا عشرة ممرضة. وسرعان ما اكتشفنا أن ذلك الشلال يبعد ألف ميل عن أي مكان مأهول، وأن البناء الوحيد القائم في سفح الجبل هو دار العبادة، وأن كل شيء يحدث هناك يحدث إما داخل دار العبادة أو حولها. فلا يوجد هناك مستشفى ولا فنادق، وليس من المحتمل أن يبني أحد أي شيء من هذا القبيل خلال عشرين سنة. وقع الأمر الخارق منذ فترة قصيرة، ولهذا لم يتسن الوقت للناس لجني الربح من ذلك. وهكذا، كانت دار العبادة تؤمّن الملجأ للمحتضرين، ولكن المكان الوحيد المتوفر لذلك الغرض هو السرداب. إذ يوجد تحت المذبح باب يؤدي إلى درج طويل جداً يؤدي بدوره إلى السرداب. وهناك، يمكن رؤية الموتى ممددين على الأرض، والمحتضرين مستلقين على الأرض وملفوفين بالبطانيات. وفاحت في المكان رائحة كفيلة بأن تجعل من يدخله يتمنى قتل نفسه لأن أولئك المحتضرين يعيشون فقط على ما تزودهم به دار العبادة؛ أي الخبز والتفاح والزيتون الذي يحضره المزارعون المحليون من الجانب الآخر من الجزيرة، مما جعل الرائحة النتنة تفوح في المكان كله وتعلق بالملابس والشعر، ومن المحال تفاديها أو تجنبها.

ومما يزيد الطين بلة، أن أناساً آخرين غير المحتضرين يذهبون إلى هناك للتبارك فقط. وهؤلاء يركبون العبارة من البر الرئيس ليحتفلوا. وعندما يحل الليل، يعثر رجال الدين عادة على ستة أشخاص أو سبعة فاقدين رشدهم على الأراضي التابعة لدار العبادة، فيضعونهم في غرفة ملحقة بالسرداب لكي يستعيدوا رشدهم خلال الليل، لأنه ليس هناك مكان آخر ليضعوهم فيه. وكانوا يقفلون عليهم كي لا يهيموا على وجوههم. ولكن، يمكنك أن تتخيلي ما يحدث عندما يستيقظ

أولئك الناس في منتصف الليل ويجدون أنفسـهم محبوسـين في زنزانة حجرية معتمة. وهكذا، يقضي أولئك الأشـخاص ليلتهم وهم يصيحون وينتحبـون طـوال الوقت. فيسـمع المحتضرون - الذين يسـتلقون حول الأعمـدة محاوليـن النـوم - أصواتهم، ويظنون أن ذلك صوت الأموات الذين ينادونهم من القبور.

يوماً ما، سـترين ما يبدو عليه هذا الوضع عندما تكونين في غرفة تعج بالمحتضرين. إنهم ينتظرون دائماً، ولكنهم ينتظرون في نومهم أكثر مـن أي وقـت آخر. وعندما تجلسـين قربهـم، فإنك تنتظرين أيضاً وأنت تصغين طوال الوقت إلى صوت أنفاسهم وأنينهم.

فـي الليلـة التـي أحدثك عنها، كان الهدوء يسـود أكثـر من المعتاد في الزنزانة الصغيرة المجاورة التي وضع فيها الأشـخاص الذين فقدوا رشـدهم بتأثير الشـراب. لذا، أعطيت الممرضات إجازة في تلك الليلة لكـي يتناولـن عشـاء نهايـة الأسـبوع فـي البـر الرئيس، ولم أكـن أتوقع عودتهـن حتـى الصبـاح. كان النـوم مسـتحيلاً، ولكنني لـم أجد الوضع سـيئاً جداً وأنا بمفردي هناك من دون وجود من يناوب معي ويذكرني بالمحتضريـن. لـذا، أنـرت مصباحـاً صغيراً. وبين الحيـن والآخر، كنت أتجول بين صفوف النائمين، وأنحني فوقهم، وأمعن النظر إلى وجوههم. وفي بعض الأحيان، كان أحدهم يُصاب بالحمى أو يبدأ بالتقيؤ، فأعطيه الـدواء وأسـهر إلـى جانبـه والمصباح في يدي. فلا بـد أن الضوء يبعث الراحة في نفوسـهم أكثر من الدواء. وفي تلك الليلة، كان يوجد بينهم مريض يسـعل بشـدة. ولـم أكن أشـعر بالتفاؤل حيال حالته أو المساعدة التي سأتمكن من تقديمها له. ولكن، كلما اقترب النور منه، خفت حدة سعاله قليلاً.

وبينما كنت أتمشـى على هذا الحال ذهاباً وإياباً، سـمعت أحدهم يقول: "ماء".

ولكن الظلام الحالك جدًّا لم يمكنني من تمييز الجهة التي يصدر منها الصوت، لذا قلت بهدوء: "من يتكلم؟ من يريد ماء؟".

مضى وقت طويل لم أسمع فيه رداً، ثم سمعت أحدهم يقول بهدوء شديد: "أريد ماء، من فضلك".

رفعت مصباحي قليلاً، فلم أرَ حولي سوى ظهور المرضى النائمين الذين تمت تغطيتهم بالبطانيات أو وجوههم. ولم أجد أحداً منهم يرفع يده ليستدعيني، أو يرنو إليّ بعينيه ليطلب الماء.

قلت: "من يناديني؟".

فقال الصوت: "نعم، هنا. عذراً، ولكنني أريد ماء".

بدا الصوت واهناً جداً، حيث إنني كدت أجزم أنه فوق رأسي تماماً، لذا لم يسمعه أحد آخر. رفعت مصباحي، وتلفّت حولي باحثاً عن صاحب الصوت. فقال لي بصبر كبير: "هنا، أيها الطبيب. أريد ماء، من فضلك". وأخيراً، أدركت أن الصوت قادم من الزنزانة الصغيرة التي يحبسون فيها الأشخاص الذين فقدوا رشدهم. فكرت في سرّي أن أحدهم قد استيقظ من النوم بلا شك، وأنه يحاول الخروج بطريقة ما وخشيت أن يسبب لي المتاعب، ولكن الباب كان مغلقاً بإحكام. جرّبت أن أشده، ولكنه لم ينفتح. فقال الصوت: "هنا، أيها الطبيب. إنني في الأسفل هنا". تحسّست الجدار بيدي، حتّى عثرت على فراغ بين الحجارة قرب الأرض. قرّبت مصباحي من تلك الفتحة الصغيرة، ولكنني لم أر في الجانب الآخر سوى الظلام. قرّبت وجهي من الفتحة، وقلت: "هل أنت هنا؟".

أجاب الصوت: "نعم، يا دكتور". ورأيت صاحب الصوت جالساً بجانب الحفرة وهو يتحدث إليّ طالباً جرعة من الماء. لم أعرف كيف يمكنني أن أعطيه الماء من خلال هذه الفتحة الصغيرة، ولكنني قرّرت أن أجرب ذلك. بادر صاحب الصوت بالكلام قائلاً: "يا لها من مفاجأة

مدهشة يا دكتورا!".

قلت: "أرجو المعذرة!".

فقال الصوت بلطف: "إنه أمر لطيف أن ألتقيك مجدداً". وسكت بانتظار ردي. استولت علي دهشة عارمة، وأنا أحاول أن أميز صوته. وتساءلت في سرّي: "من عساه يكون هذا الرجل الذي يعرفني، ويبدي استعداداً لاجتياز كل هذه المسافة إلى هذه الجزيرة في هذا المكان النائي لينتهي به المطاف هنا في الزنزانة؟". خطر ببالي فوراً أن يكون أحد أصدقاء أمك الحمقى، وقرّرت أنه لو كان كذلك فسأتركه من دون أي ماء. ولكن، كان هناك ما يثير فضولي حيال طريقة طلبه الماء وأسلوبه بالحديث، ويجعلني أظن أن الصوت ينتمي إلى شخص أعرفه منذ زمن بعيد. تحلّى صاحب الصوت بالصبر حيال صمتي لبعض الوقت، ثم قال: "لا بد أنك تتذكرني". ولكنني لم أتذكره فعلاً. فقال: "لقد التقينا قبل خمسة عشر عاماً يا دكتور. ولكن، لا بد أنك لا تزال تتذكر القهوة، وأثقال الكاحلين والبحيرة؟". وعندئذ أدركت أنه هو بعينه. نعم، إنه الرجل المحصّن. ولكنني ظللت ملتزماً الصمت لأنني لم أعرف ما أقوله. لا بد أنه ظن أنني صمتُّ لأنني لا أتذكره، ولهذا تابع تذكيري بنفسه قائلاً: "لا بد أنك تتذكرني يا دكتور. فأنا من كنت داخل التابوت".

قلت: "بالطبع". وذلك لأن الدهشة عقدت لساني، ولأنني لم أشأ أن يذكر الأثقال والبحيرة. إذ إن تلك الحادثة شكلت كابوساً بالنسبة إليّ، ومخاطرة قام بها في ذلك الوقت طبيب آخر يختلف عما أنا عليه الآن كل الاختلاف، لذا كنت أشعر بالخجل من تذكر ذلك اليوم أو التفكير فيه. وتابعت قائلاً: "أنت غافران غاليه".

قال: "آه، إنني مسرور جداً لأنك تتذكرني أيها الطبيب".

فقلت: "حسناً، إن هذا جدير بالملاحظة". إن أغرب شيء حدث

معي هو لقائي هذا الرجل المدعوّ غافران غاليه وجهاً لوجه في الظلام، ومن دون أن أتمكن من أن أرى إن كان حقيقياً فعلاً أم لا. لا بد أنك تدركين، يا ناتاليا، أنه أمر عجيب أن يقابل المرء رجلاً نجا من الموت بعد أن أمضى معظم الليل غارقاً في إحدى البحيرات. إن أحداً لن يحاول تفسير هذا الحدث؛ فكما تدركين لن يصادف المرء شيئاً من هذا القبيل مجدداً، ولن يقابل شخصاً آخر يتنفس في أعماق الماء كالأسماك. ولذلك لم أشرح لنفسي ما حدث، ولم أشرحه للآخرين بكل تأكيد. فقد أصبح هذا الأمر من بين الحقائق التي يعجز ذهن الإنسان عن استيعابها إلى أن يفقد الأمل، ثم يوشك أن يمحوها من ذاكرته.

إذاً، كان الرجل المحصنّ يريد أن يشرب بعض الماء، ولكن القوارير والعلب التي لديّ لم يكن بالإمكان تمريرها عبر الفتحة، لذا جلسنا صامتين. ورغم أنه كان يشعر بعطش شديد إلا أنه لم يغضب أو يتذمر على الإطلاق، بل سألني عما أفعله هناك، وأخبرته أنني أتيت لمساعدة المحتضرين، فقال إنه حضر من أجل الهدف نفسه. فيا لها من مصادفة!

قررت أن أدع هذا الكلام يمضي من دون أن أهتم به، ولكن غافران غاليه سألني: "هل توفي الرجل؟".

فقلت: "من تقصد؟".

"إنني أقصد الرجل المصاب بالسعال، ذلك الذي سيموت عما قريب".

"لم يمت أحد الليلة، شكراً لك. إنني واثق أن أحداً لن يموت".

فقال لي بحماسة: "إنك مخطئ أيها الطبيب. إذ إن ثلاثة منهم سيموتون الليلة. وهم الرجل المصاب بالسعال، والرجل المريض بسرطان الكبد، والرجل الذي يبدو أنه يعاني من عسر الهضم".

قلت: "لا تكن سخيفاً". ولكن الوضع برمته كان يشعرني بالسأم.

لـذا، نهضـت، وتمشـيت فـي كل الأنحـاء ومصباحـي بيـدي، وأنا أنظر إلـى النائميـن، فلـم ألاحظ أي شـيء غريب. لذا، عـدت وقلت للرجل المحصن: "هذا كاف! ليس لديّ ما أقوله لك الليلة. إنني لسـت راغباً في أخذ النصائح الطبية من رجل ثمل".

فقـال لـي بلهجـة صادقة: "آه، كلا يا دكتور. إنني لسـت ثملاً. ولـم أثمل طيلة أربعين عاماً. لقد حبسوني هنا لأنني تصرفت بفظاظة صباح اليوم ورفضت المغادرة". لـم أسأله عن سبب تصرفه هذا أو عما فعله، ولكننـي تلـكأت قربـه ولـم أبتعـد. فتابـع قائـلاً: "لقد كنت أبيـع القهوة للناس، وقلت للرجل الذي يعاني من السعال إنه سيموت".

فجـأة، تذكـرت أننـي لاحظت وجوده فعلاً من دون أن أدرك ذلك. إذ إنني رأيت عند الشلال طوال الأيام الثلاثة أو الأربعة الماضية رجلاً مرتدياً ملابس تركية تقليدية يبيع القهوة للجماهير المحتشدة حول الماء، ولكنني لم أنظر إليه عن كثب في ذلك الوقت. والآن، أدرك أنني ربما ميـزت وجهـه علـى أنـه وجه الرجل المحصّن. ولكن، لا بد أن ملامحه قد تغيرت بمرور الوقت، ولهذا لم أعرفه فعلاً. كدت أعجز عن تصديق ما سمعته. فأنا لم أتصور أن أحداً قد يتنكر بهيئة بائع قهوة لكي يمارس هذه الألاعيب المزعجة.

قلت له: "يجب ألاّ تكرر هذا الأمر مرة أخرى. فالناس الذين يأتون إلى هنا مرضى بشـدة. يجب ألا تخيفهم بهذا الكلام. فقد أتوا إلى هنا لكي يلتمسوا الشفاء".

"ومع ذلك، ها أنت هنا. لذا، لا بد أنك لا تصدق أنهم يحصلون فعلاً على ما يصبون إليه".

فأجبتـه بغضـب شـديد: "ولكننـي أدعهـم وشـأنهم. لا تفعـل هـذا مجدّداً. إنهم بحالة مرضية شديدة، ويحتاجون إلى الراحة والسلام".

فقال الرجل المُحصّن: "ولكن هذا هو ما أفعله هنا، وهذه مهمتي؛

أي أن أمنح هؤلاء المرضى الراحة".

قلت: "من أنت فعلاً؟ وما الذي تفعله هنا؟".

"لقد أتيت إلى هنا من أجل نيل الغفران".

"هل أتيت من أجل الظهور؟".

"كلا، بل أتيت بالنيابة عن عمي".

"يا لعمك! إنك دائماً تذكر شيئاً يتعلق بعمك. ألم تفعل ما يكفي لتكفر عن ذنبك؟".

"إنني مدين له منذ أربعين عاماً".

عندها، خطر ببالي أنه سيكرر قصته المملة مجدداً، لذا قلت: "لا بد أن هذا الدين الذي تدفعه مدهش جداً".

التزم الرجل المحصّن الصمت لبعض الوقت، ثم قال: "إن هذا يذكرني بأنك مدين لي أيها الطبيب".

جعلتني الطريقة التي تفوّه بها بهذا الكلام ألتزم الصمت المطبق. فقد أوصلته بنفسي مباشرة إلى ذكرى رهاننا قبل كل تلك السنوات. ولكنني كنت أشعر أيضاً أنه خدعني، وأنه ربما هو من استدرجني لأصل إليها. كنت واثقاً بأنه يعرف أنني لم أنس ذلك، ولكنه يقدم لي خدمة ويذكرني بتعهدي من باب الاحتياط. لذا، قلت: "الكتاب، أيها الطبيب. لقد تعهدت بمنحي الكتاب".

أجبته: "أعرف ما تعهدت بمنحك إياه".

فقال: "بكل تأكيد". وعرفت من نبرة صوته أنه لا يشك في كلامي. لذا، قلت وأنا غاضب من كلامه وغاضب من نفسي أكثر: "ولكنني لا أعترف بأنك ربحت". فتحت معطفي وتحسست كتابي، فوجدته لا يزال في مكانه.

"لقد فزتُ به حتماً، أيها الطبيب".

قلت: "لقد تراهنا على أن تثبت لي وجهة نظرك يا غافران، ولكنك

لم تثبت شيئاً. قد يكون كل شيء قمت به مجرد خدعة".

فأجابني: "إنك تعرف حق المعرفة أن هذا ليس صحيحاً، أيها الطبيب. فقد قلت لي إنك رجل تحب المراهنة. وكان الرهان عادلاً".

قلت: "لقد حدث هذا في وقت متأخر من الليل. إنني بالكاد أتذكره. كما أن هناك ألف وسيلة تساعدك على البقاء تحت الماء طوال تلك المدة".

فقال لي وهو يبدو مرتبكاً للمرة الأولى: "حسناً، إن ذلك ليس صحيحاً أيضاً. يمكنك أن تطلق الرصاص عليّ إن أردت ذلك، ولكنني محجوز بعيداً عنك بسبب هذا الجدار".

قلت في سرّي: "ستبقى محجوزاً في مكانك، أيها المجنون". وخطر ببالي أن أستدعي شخصاً ما من مصح الأمراض العقلية قبل أن ندعه يخرج من الزنزانة في الصباح. نعم، يجب أن نحضر شخصاً ما إلى هنا لنمنعه من أن يهيم على وجهه في الأنحاء وهو بهذه الحالة ويخيف الناس. ومع ذلك، كنت راغباً في أن ألومه وأطلب منه أن يضع مؤخر رأسه على الفتحة في الجدار لأتحسس مكان الرصاصتين اللتين أطلقتا عليه في المرة الماضية التي التقينا فيها، ولكنني لم أفعل ذلك. إذ شعرت في قرارة نفسي بالخزي أيضاً لأنني لم أنس الرهان. وجعلتني الثقة التي يعرض بها عليّ أن أطلق عليه الرصاص - وهو ليس العرض الأول من نوعه - أشك في نفسي. وبالإضافة إلى ذلك، كان الوقت متأخراً، ولم تكن بيدي حيلة سوى التحدث إليه.

قلت: "حسناً".

فقال الرجل المحصّن: "حسناً، ماذا؟".

"لنفترض أنك تقول الحقيقة".

"حقاً، لنفعل ذلك".

"اشرح لي كيف يكون ذلك ممكناً. إنك لا تستطيع إثباته بالحجة

والمنطـق، لـذا اشـرحه لـي على الأقـل. لنفترض أنـك محصّن، فكيف حـدث لـك هـذا؟ هل ولدت متمتعاً بهـذه الحصانة؟ هل أبصرت النور ذات يوم، فقال رجل الدين: حسناً، لدينا هنا رجل مُحصّن؟ كيف حدث هذا؟".

"إنها ليست هبة مُنحت إيّاها عند ولادتي بل عقوبة".

"ولكنني أشك في أن يعتبرها معظم الناس كذلك".

"ستفاجئك الحقيقة".

"لن يقول أي من الناس في هذه الغرفة إنها عقوبة".

"سـيقولون هـذا فـي حالتهـم هـذه الآن. فالتحصيـن لا يعنـي عدم المرض".

"إذاً، كيف حدث هذا؟".

قال ببطء: "حسناً، لنبدأ بعمي".

"ها قد عدنا إلى عمك! حسناً، أخبرني عن عمك".

"يملك عمي قدرات خارقة لها علاقة بالموت".

"حسناً".

"حسناً، لنفترض أن صلة القرابة التي تربطني بذلك العم تخوّلني الحصـول علـى بعـض الحقوق الخارقة للطبيعـة. ولنقل أيضاً إنني حين بلغت السادسة عشرة من عمري قال لي عمي: الآن أصبحت رجلاً، لذا سأقدم لك هدية عظيمة".

"ولكن ما فهمته منك هو أنها عقوبة".

"إنها كذلك فعلاً، ولكن الهدية التي أتحدث عنها الآن ليسـت التحصين. أما العقوبة، فسـتأتي لاحقاً. قال لي عمي: اطلب أي شـيء تريده. فكرت ملياً لثلاثة أيام بلياليها. وبعد ذلك، ذهبت إلى عمي وقلت له: أظن أنني أريد أن أصبح طبيباً عظيماً".

لـم يبـدُ لـي منطقيًّا علـى الإطلاق أن يطلُب من شـخص له علاقة

مفترضة بالموت أن يجعله طبيباً.

قال لي الرجل المُحصّن: "إن هذا لا يشكل أهمية بالنسبة إلى عمي لأنه في نهاية المطاف، وحتى إن عالجت كل رجل يعترض طريقي، عندما تحين ساعة المرء سيسير على الطريق المرسوم له. لذا، قال لي عمي: حسناً جداً. سأمنحك هذه الهبة. سأجعلك طبيباً عظيماً بأن أعطيك القدرة على التمييز بين من سيموت ومن سيعيش".

علّقت بسخرية قائلاً: "إن هذا يجعلك تحتل المرتبة الأولى من دون شك؛ لأنك ستصبح أول طبيب يستطيع أن يتوقع ما إذا كان سيخسر مريضاً أم لا. ولن يأتي بعدك بكل تأكيد آخرون يتمتعون بالموهبة ذاتها".

عندها، قال الرجل المُحصّن: "لن نتمكن من بلوغ نهاية القصة إن ظللت تقاطعني لتدلي بملاحظاتك الذكية. أنت من طلبت مني أن أحدّثك عن نفسي، ولكنك الآن تسخر مني".

استغربت عندما سمعته يتحدث بقلة صبر هكذا، فقلت: "إنني آسف. من فضلك تابع القصة".

سمعت حركته حين غيَّر وضعية جلوسه. فلا بد أنه كان يحاول التوصل إلى وضعية مريحة ليتمكن من إكمال قصته. قال: "عندها، منحني عمي فنجاناً، وقال لي: قدّم القهوة لمن تريد معرفة وضعه بهذا الفنجان. وحالما يشربها، ستتضح لك رحلات حياته وستعرف ما إذا كان قادماً أم ذاهباً. فإن كان مريضاً ولكنه لا يحتضر، فستبدو لك الطرق في قهوته ثابتة ومستمرة. وعندئذ سيتوجب عليك أن تطلب منه أن يكسر الفنجان وتتركه يمضي في طريقه. وإن كان سيموت، فستبدو كل الطرق متجهة بعيداً عنه. وفي هذا الحال، يجب أن يبقى الفنجان سليماً إلى أن يموت".

قلت له: "ولكن البشر جميعاً يموتون طوال الوقت".

فضحك وقال لي: "ولكن، لا يظهر في فنجاني أي شيء".

"ولكن، ألا تظهر الطرق المؤدية إلى الموت في فنجان كل إنسان على قيد الحياة؟ أليس من المقدر لكل إنسان حي أن يموت يوماً ما؟".

"إنـك مصمـم علـى أن تجعلنـي أبـدو عديم الفائدة، يـا دكتور. إن الطرق تظهر في فنجان الأشخاص الذين اقترب أجلهم. إن الوضع أشبه بدخول المرء غرفة لا يستطيع أن يرى فيها الباب الذي دخل منه، ولذلك فهو لا يستطيع أن يغادرها. فمرضه محتوم وطريقه ثابت لا رجعة فيه".

"إذاً، كيف ما زلت تحتفظ بالفنجان إن كان من المفترض بك أن تكسره عندما يكون المريض سليماً؟".

"آه، إنني مسـرور جداً لأنك طرحت علي هذا السـؤال. فالجواب هـو: كلمـا كسـر المريـض فنجانـاً، حـل محلـه فنجان جديـد في جيب معطفي".

فقلت بشـيء من السـخرية: "إنه أمرٌ جيّد بالنسـبة إليك أن تخبرني بذلك من خلف جدار لكي لا تتمكن من عرض فناجينك التي لا تنتهي عليّ".

أجـاب غافـران: "إن عـرض هـذا لـن يثبت لك شـيئاً أيها الطبيب، لأنك ستقول عني إنني مجرد لاعب خفة محترف. إنني أتخيل الوضع الآن: أنت تقذف بالفناجين على الأرض وأنا أسلمك الفناجين الجديدة من جيب معطفي إلى أن تعجز عن إيجاد شـتيمة مناسـبة لتدعوني بها، بينما تحيط بنا أشلاء الفناجين المكسورة في كل مكان. وبالإضافة إلى كل ذلـك...". وأكمـل غافـران جملتـه بطبيعته الطيبة المعهودة قائلاً: "ما الـذي يجعلـك واثقـاً جداً أن الحظ سـيحالفك، وأنك ستكسـر فنجانك الليلة؟".

ورغم أنني لم أصدقه يا ناتاليا، إلا أنني شعرت بموجة برد تسري فـي جسـدي. وعندئـذ، سـاد صمت مطبق في المـكان. وبعد قليل، قال

غافران: "حباً بالله، إنني أود فعلاً أن أشرب بعض الماء". فقلت له إنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً. فأجابني: "لا عليك. لا بأس بذلك. حسناً. وهكذا، استمرت حياتي والفنجانُ بحوزتي، وأصبحت طبيباً عظيماً أستطيع أن أفرّق بين الإنسان الذي سيشفى والإنسان المحتضر، وهذا ما أؤكد لك أن الناس اعتبروه عملاً بطولياً في ذلك الحين. ففي بادئ الأمر، قصدني قرويون يعانون من أمراض سخيفة ومخاوف كبيرة لأن الناس أعداء ما جهلوا، كما يقال. فمات البعض وعاش البعض الآخر، ولكنَّ ما فاجأهم هو أن الأطباء الآخرين أكدوا لهم أنهم سيموتون، بينما أكّدت لهم أنا، على عكس كل التوقعات، أنهم سيعيشون. أثار هذا الأمر الخوف في نفوسهم. كيف سيعيشون وهم يشعرون بأنهم في أسوأ حالاتهم على الإطلاق، ولكن حالاتهم كانت تتحسن في نهاية المطاف، فيأتون ليقدّموا لي الشكر. إنني بالطبع لا أخطئ أبداً في معرفة هذا الأمر. ولا يشك الذين سيتحسنون في كلامي، وهذا بحد ذاته يشكل علاجاً لهم".

قلت: "بالتأكيد".

فقال غافران غاليه: "نعم، بكل تأكيد. وبمرور الوقت، أصبح الجميع، وحتى أولئك الذين تحددت مصائرهم، يدعونني صانع الأمور الخارقة، وينسبون إليّ إنقاذ أفراد من عائلاتهم، حتى لو عجزت عن إنقاذهم هم شخصيًّا، لأنهم واثقون أنه من المقدر لهم الرحيل. ورغم أنني شاب صغير في السن، إلا أنني أصبحت ذائع الصيت. فبدأ الفنانون والرسامون والكتّاب والحرفيون والعازفون والتجار والقضاة في البلدة يتوافدون لرؤيتي، ووصلت شهرتي إلى الباشاوات والوزراء الأتراك، ثم إلى السلطان نفسه ذات مرة. وقال لي الملك يوماً: إن لم تستطع أن تساعدني، فأنا واثق أنني سأرحل. وبعد ستة أيام، أقيمت جنازته، وذهب إلى مثواه الأخير بعد أن تقبل موته بكل رضا وسعادة. وعندها،

توصلت إلى إدراك - مع أنني لم أعرف ذلك من قبل - أن مخاوف الناس المتعلقة بالموت كلها متشابهة ومريعة جداً".

بدأ أحد النائمين بالسعال، ثم هدأ مجدداً وتنفّس ببطء من فمه.

تابع غافران غاليه كلامه: "ولكن أعظم خوف لدى الناس هو الشك. فهم بالطبع يشكون في ما سيحدث لهم، ولكنهم بالإضافة إلى ذلك كله يشكون في سبب تقصيرهم في العمل. فتَراهم يتساءلون: هل بذلوا ما يكفي من جهد؟ هل اكتشفوا المرض في وقت مبكر؟ هل استشاروا أبرع الأطباء وأخذوا أنجع الأدوية؟".

"لهذا السبب تراهم يأتون إلى هذا المكان".

ولكن الرجل المُحصّن لم يُعر كلامي انتباهاً، بل تابع قائلاً: "طوال ذلك الوقت، احترمني الناس احتراماً نابعاً من خوفهم. وذاع صيتي في كل العالم على أنني رجل ذو قدرة شفائية، وطبيب محترم لا يأخذ مالاً إن وجد الوضع ميؤوساً منه".

"ولكنني لم أسمع بك قط".

فقال بكل ثقة: "لقد حدث هذا قبل سنوات كثيرة جداً". ولكنه كلام لا يصدق.

"ولكن، ما الخطأ الذي يمكن أن يطرأ في هذه المهنة المثالية؟".

"لقد ارتكبت خطأ بالطبع".

"هل هو خطأ يتعلّق بامرأة ما؟".

"هذا صحيح. كيف عرفت؟".

"أعتقد أنني سمعت هذه القصة من قبل".

فقال لي بابتهاج: "كلا، ليس هكذا. لم تسمع بها. هذه المرة، أنا سأروي القصة. نعم، كانت امرأة شابة. فقد تمّ استدعائي إلى ساروبور، وقيل لي إن ابنة تاجر حرير ثري سقطت طريحة الفراش، وإن طبيبها أكد أنها على وشك الموت. قيل لي إن المرض باغتها فجأة، وإنه ليس

ثمة أمل بشفائها. وكانت الفتاة تعاني من حمى شديدة وألم مبرح في عنقها ورأسها".

قلت: "ما كان مرضها؟".

فأجاب غافران غاليه: "في ذلك الوقت من الماضي، لم تكن هناك أسماء كثيرة للأمراض. وعندما لا يجد الناس اسماً للمرض في بعض الأحيان، يُقال إن المرء مريض بمرض مميت. كانت تلك الشابة محبوبة جداً، ومخطوبة، وعلى وشك أن تحتفل بزفافها. واستدعاني والدها إلى هناك لكي يذعن للأمر الواقع، ويقنع نفسه بأنه بذل كل ما في وسعه. بدت الشابة منهكة بسبب المرض والخوف، ولكنها لم تستسلم لمصيرها. ورغم أن جميع من حولها كانوا يريدون مني أن أقول لهم إنه لا بأس بأن يستسلموا، فهي لم تكن تريد ذلك. لم تكن تريد مني شيئاً سوى أن أفهم أنها ليست مستعدة للرحيل بعد".

راودني شعور غريب بعدم الراحة حيال ما يقوله، لذا التزمت الصمت.

تابع الرجل المُحصّن قائلاً: "أعطيتها فنجان القهوة ثم نظرت إلى داخله؛ وهناك رأيت الحقيقة: إنها بداية رحلة يشير إليها طريق صغير ظاهر على رواسب القهوة. ورغم شدة مرضها وضعفها، فهي لم تستسلم مطلقاً حتى بعد أن أطلعتها على الحقيقة، وأكدت لها أنني لا أخطئ أبداً. غير أنها لم تضربني أو تطردني من منزلها، بل ظلت متشبثة برفضها، بينما كنت أبذل كل ما في وسعي لأحافظ على راحتها". صمت الرجل لبعض الوقت، ثم تابع: "لم أستغرق ثلاثة أيام لأقع في غرامها بل يوماً واحداً فقط، ولكنني بقيت إلى جانبها حتى اليوم الثالث، فيما أبقاها غضبها حية، وملأني بالمزيد من اليأس والحب. كانت شديدة الوهن لدرجة أنه توجب عليّ عندما طلبت منها أن تكسر الفنجان أن أمسك رسغ يدها. وتوجب عليها أن تلقي الفنجان من حيث تستلقي

على سريرها ثلاث مرات إلى أن تحطّم بشكل أخرق".

التزم غافران غاليه الصمت لبعض الوقت وهو جالس خلف الجدار ثم تحرك بهدوء، فقلت: "لا بد أن عمك قد استشاط غضباً بسبب هذا".

فأجاب الرجل المحصّن: "نعم، لقد استشاط غضباً فعلاً، ولكن ليس بالقدر الذي غضب به في ما بعد. فقد حذرني قائلاً: إن ما فعلته عمل حقير. فقد خنتني. ولكن، لأنك شاب فتي ومغرم، فسوف أغض الطرف عنك هذه المرة فقط".

"يبدو هذا تصرفاً سمحاً جداً".

"إنه أكثر من مجرد تصرف سمح. ولكن، اتضح لي بالطبع في نهاية المطاف أن حبيبتي لم تسقط طريحة الفراش فجأة، بل إنها مريضة فعلاً. فبعد أن هربنا معاً، وبدأنا ببناء حياتنا المشتركة، ساءت حالتها مجدداً كما حدث من قبل، وسقطت طريحة الفراش. قدّمت لها القهوة، ورأيت مصيرها بوضوح، ولكنني رغم ذلك ساعدتها على كسر الفنجان مرة أخرى. فما الذي أملكه في حياتي من دونها؟ وعندئذ جاء عمي، وقال لي: أيها الأحمق! أنت لست ابن أخي. لقد سامحتك مرة، ولكنني لن أفعل ذلك مجدداً. منذ اليوم فصاعداً، لم تعد لي حاجة إليك، ولهذا لن يأتي موعدك معي أبداً، وستبحث عني طوال أيام حياتك من دون أن تجدني". وهنا ضحك الرجل المحصّن ثم ساد صمت مرعب في المكان قبل أن يتابع قائلاً: "في تلك اللحظة، ماتت المرأة التي أحببتها. وهكذا، مضيت في حياتي وأنا أعتقد أن هذا ما قصده، أي أنني لن أجدها مجدّداً أو أعثر على شبيهة لها. ولكنني لم ألاحظ إلا بعد مرور ست أو سبع سنوات أن ملامحي وشعري لم تتغير. وعندئذ، خامرني الشك حيال ما حدث لي فعلاً إلى أن تمكنت من إثباته بشكل قاطع".

فقلت له: "كيف؟ كيف أثبته؟".

أجاب ببرودة شديدة: "رميت نفسي إلى جرف في نابولي؛ إلى قعر

الوادي، ولم أمت".

سألته: "كم يبلغ الارتفاع؟". ولكنه لم يجب عن هذا السؤال.

"لا يزال الفنجان معي بالطبع رغم كل شيء. وما زلت مستمراً بعملي وأنا على قناعة بأن عمي سيسامحني بمرور الوقت. وهكذا، توالت السنوات، واكتشفت فجأة أنني لم أعد أعطي الناس الذين آمل أن يعيشوا فنجاني بل أقدمه لأولئك الذين أعتقد أن موتهم مؤكد ووشيك".

فقلت: "لماذا تفعل ذلك؟".

"إنني أجد نفسي الآن ألتمس صحبة المحتضرين لأنني أشعر أنني سأجد عمي بينهم، ولكنه لا يدعني أراه. ومع ذلك، صرت أرى الموتى الجدد لعدة أيام. واستغرقت وقتاً طويلاً حتى أدركت حقيقة أنني لم أكن أستطيع سابقاً أن أرى الموتى. وأعتقد أن عمي يفعل هذا عمداً. وهكذا، فأنا أراهم واقفين في الحقول، وقرب المقابر، وعند مفارق الطرق بانتظار مرور أيامهم الأربعين".

قلت: "لماذا تراهم عند مفارق الطرق؟".

بدا متفاجئاً قليلاً من جهلي وأجاب: "إن مفارق الطرق هي الأماكن التي تلتقي فيها طرق الحياة وتتغير. وفي حالة هؤلاء الناس، تتغير حياتهم إلى الموت. إن المفارق هي الأماكن التي يلتقي فيها عمي الموتى حالما تنقضي الأربعون يوماً".

"وماذا عن المقابر؟".

"يصيب الارتباك الموتى في بعض الأحيان، فيشعرون أنهم غير واثقين بالاتجاه الذي ينبغي لهم أن يسلكوه، لذا يهيمون على وجوههم بلا هدف أو ينجرفون نحو أجسادهم المدفونة في المقابر. فأبدأ أنا بجمعهم؟".

"وكيف تجمعهم؟".

"أجمع مجموعات صغيرة منهم عندما ينهارون في الأماكن التي

يكثرون فيها مثل المستشفيات، ودور العبادة، والمناجم. وأبقيهم بأمان طيلة الأربعين يوماً، ثم أصطحبهم إلى مفارق الطرق وأتركهم هناك".

"هل بصحبتك أحد منهم الآن؟".

فأجابني بإحباط واضح: "حقاً أيها الطبيب!؟".

شعرت ببعض الخزي لأنني استهزأت بالفكرة، فقلت: "لماذا تجمعهم إن كانوا سيذهبون إليه في كل الأحوال؟".

فقال الرجل المحصّن: "لأن مهمته تصبح أكثر سهولة عندما يعرف أنهم بأمان، وأنهم قادمون إليه. فهم في بعض الأحيان يتيهون ولا يعثرون على طريق العودة بعد أن تنقضي الأيام الأربعون. وعندئذ، يصبح من الصعب العثور عليهم، ممّا يجعلهم يشعرون بالحقد والخوف الذي يمتد أحياناً إلى أحبائهم من الأحياء". واكتسب صوته نبرة حزن وهو يقول هذا وكأنه يتحدث عن أطفال ضائعين. وواصل كلامه قائلاً: "وفي هذه الحالة، يتولى الأحياء معالجة المسألة، فينبشون الجثث ليباركوها ويدفنوا أغراضها. إن هذا يشكل فائدة في بعض الأحيان. وفي أحيان أخرى، يعيد تصرفهم هذا الروح، فأصطحبها إلى مفترق الطرق حتى لو مضت سنوات طويلة على الموت". ثم أضاف قائلاً: "ولكنني أعترف أنني فعلت كل هذا على أمل أن يسامحني عمي".

خطر ببالي أن غافران قد توصل إلى طريقة جيدة يروي بها قصته، إن كانت صحيحة، وهي ليست كذلك، حيث إنه جعل نفسه يبدو سمحاً وخدوماً في حين أن نواياه الحقيقية من وراء تلك المساعدة موجهة إلى نفسه فقط، ولكنني لم أصرح له برأيي هذا بالطبع.

وبدلاً من ذلك، سألته: "لماذا تخبرهم أنهم سيموتون؟".

فأجابني على الفور: "لكي يستعدوا للموت. ومن المفترض أن يسهل هذا الأمور عليهم أيضاً. إذ لطالما أبدى الناس مقاومة لحقيقة الموت. ولكن، إن عرفوا الحقيقة مسبقاً وفكروا فيها ملياً، فستخفّ

مقاومتهم وسيخضعون للأمر الواقع أكثر".

"ومع ذلك، لا يبدو من الإنصاف في شيء أن تخيف المحتضرين وتخصّهم بهذه العقوبة".

"ولكن الموت ليس عقوبة".

فقلت له بعد أن تملكني غضب مفاجئ: "إنه كذلك من وجهة نظرك فقط لأنك حرمت منه".

"أنا وأنت لا نفهم بعضنا". قال لي ذلك بصبر شديد. وتابع قائلاً: "إن الموتى يحظون بكل الحفاوة، وينالون الحب والاهتمام. إنهم يمنحون الكثير للأحياء. عندما تدفن شيئاً في الأرض يا دكتور، فأنت تعرف دائماً أين تعثر عليه".

تمنّيت حينها أن أقول له إن الأحياء أيضاً يحظون بالحفاوة وينالون الحب والاهتمام، ولكنني فكرت في أن هذا الحديث استغرق وقتاً أطول مما يجب، وأظن أن ذلك كان رأيه أيضاً.

قال الرجل المُحصّن بنبرة صوت أشبه بصوت رجل ينهض بعد تناول وجبة ثقيلة: "الآن، أيها الطبيب. لا بد لي أن أطلب منك أن تسمح لي بالخروج من هنا".

فأجبته: "لا أستطيع ذلك".

"يجب أن تخرجني. فأنا بحاجة إلى شرب الماء".

"هذا مستحيل. لو أنني أملك المفتاح، لأخرجتك من هنا. ألا تظن أنني كنت سأعطيك ماء للشرب بحلول هذا الوقت؟". ولكنني كنت أتساءل في سرّي إن كنت سأخرجه لو كانت المفاتيح معي فعلاً. لم أصرح له بما يشغل فكري، ولكنني شعرت بالسرور لأنه لا يستطيع أن يخرج ويأخذ الكتاب مني؛ مع أنني لم أصدق أنني خسرت الرهان، وكنت أعتقد أنه سيأخذه بغير حق إن أعطيته إياه فعلاً. فقلت: "إنني أتساءل - وهذا لو افترضنا أنني أصدقك، وأنا لا أصدقك بالطبع -

كيف أتحمل مسؤولية إخراجك من هنا لتجمع مرضاي وتصطحبهم إلى مثواهم الأخير؟".

ضحك الرجل المُحصّن لدى سماعه هذا الكلام، وقال: "سواء أكنت هنا أم هناك، فسوف يموتون. إنني لا أرشدهم إلى طريقهم، بل أمهده لهم قليلاً فقط. تذكر أيها الطبيب: الرجل المصاب بالسعال، والرجل المريض بسرطان الكبد، والرجل الذي يبدو أنه يعاني من عسر الهضم".

أشعرني كلامه بأنني أخوض معركة مع الموت. فقلت له هذا على أمل أن أضحكه قليلاً، ولكن كل ما قاله لي هو: "تذكر للمرة القادمة أيها الطبيب، أنك مدين لي بمنحي الكتاب".

ظللت جالساً بجانب ذلك الباب لوقت طويل ثم أيقنت أنه استغرق في النوم. فنهضت وتابعت جولاتي. ولكنني سأخبرك يا ناتاليا، بكل صدق وصراحة، أنهم ماتوا في تلك الليلة الواحد تلو الآخر: الرجل المصاب بالسعال، ثم الرجل المريض بسرطان الكبد، ثم الرجل الذي يبدو أنه يعاني من عسر الهضم. فارقوا الحياة جميعاً بهذا الترتيب. ولكن، بحلول الوقت الذي فقدنا فيه المريض الأخير، كان رجال الدين قد عادوا، وبدأوا بمساعدتي، وبتأدية الطقوس اللازمة. وتملك القلق والخوف المحتضرين من حولي جميعاً. وصاروا يتحسّسون أجسامهم وهم يسألونني: لم يحن دوري بعد أيها الطبيب، أليس كذلك؟

وعندما عدت أدراجي لأرى الرجل المُحصّن، اكتشفت أن رجال الدين قد فتحوا الزنزانة، وأطلقوا سراح الرجال الذين كانوا محتجزين فيها قبل عودتي. وهكذا، رحل غافران غاليه قبل أن أراه.

# الفَصْل السَّابع

# الجزّار

عاد لوكا وجوفو من الجبل حاملين معهما بندقية الحداد الذي سقط صريعاً. وأخذا يلفقان أحداثاً حول مصيره ولحظاته الأخيرة، لدرجة أن القصص التي تتحدث عن مهارة الحداد وشجاعته ظلت تروى في البلدات المجاورة بعد نهاية الحرب بوقت طويل. سرّ جدي سروراً عظيماً عندما اكتشف أن المطاردة باءت بالفشل. إذ طيلة تلك الفترة التي غاب فيها الصيادون عن القرية، راح يفكر في اللقاء الذي جمعه بالنمر في معمل حفظ اللحوم. وتساءل في سرّه: ترى ما الذي أحضر الفتاة إلى المعمل؟ هل بقيت هناك وقتاً طويلاً؟ ماذا كانت تفعل؟

لقد أيقن جدي أنها لم تهدف إلى إيذاء النمر لأنها ابتسمت له ابتسامة معبّرة عندما عرف الجميع أن النمر قد لاذ بالفرار. لذا، فكر في ما أراد أن يقوله لها عندما يراها في المرة المقبلة، وكيف سيسألها - رغم معرفته أنها لا تستطيع أن تجيبه - عمّا رأته في تلك الليلة، وعن شكل النمر. فقد أدرك أن النمر بات من الآن فصاعداً اهتماماً مشتركاً يجمع بينهما.

توقع جدي أن يقابل الفتاة خلال جنازة الحداد التي أقيمت يوم الأحد عصراً، فوقف في أحد الصفوف الأخيرة في دار العبادة التي علقت على نوافذها ستائر بيضاء مطرزة، وراح يتأمل وجوه أفراد الرعية المحمرّة والمتجمدة، ولكنه لم ير وجهها بين تلك الوجوه. ولم يرها في الخارج بعد ذلك، أو في وقت لاحق من ذلك الأسبوع في سوق

الأربعاء.

لكن المعلومة التي لم يعرفها جدي هي أن لوكا أحضر معه شيئاً آخر بالإضافة إلى البندقية، ألا وهو كتف الحيوان التي وجد النمر يأكلها عندما عثروا عليه في الغابة. ولم يعرف جدي أن لوكا قد دخل بيته الهادئ في أطراف المرعى عصر يوم عودته، ووضع بندقية الحداد بجانب الباب، ثم قذف بكتف ذلك الحيوان في وجه الفتاة الصماء والبكماء التي وجدها راكعة على ركبتيها في زاوية الغرفة ويداها على بطنها. ولم يعرف جدي كذلك أن الجزار قام بخلع كتف الفتاة من مكانها، ثم جرها إلى المطبخ من شعرها، وأحرق يديها بنار الموقد.

لم يعرف جدي أياً من تلك الأمور، ولكن القرويين الآخرين كانوا يعرفون أن لوكا رجل عنيف من دون أن يتوجب عليهم الحديث عن ذلك. ولاحظوا أن زوجته ظلت مفقودة لأيام، وحين ظهرت كانت هناك كدمات جديدة على أنفها وبقعة دم في عينها. فلم يعد يخفى عليهم ما يحدث في بيت لوكا.

قد يكون الأمر سهلاً بالنسبة إليّ أن أشرح الوضع بكلمات مبسطة. وقد يكون حتى من المبرر القول إن لوكا اعتاد أن يعنّف زوجته بوحشية، ولهذا استحق مصيره، ولكنني أحاول الآن أن أفهم ما لم يعرفه جدي في ذلك الوقت. لذا، الأفضل أن أقول: "لقد كان لوكا رجلاً عنيفاً، وإليكم السبب".

* * *

ولد لوكا - كجميع أهالي القرية تقريباً - في غالينا، وظلّ مقيماً في بيت عائلته إلى حين موته. عرف منذ بداية أيامه وحتى نهايتها الفأس ولوح الجزار ورائحة الذبح في الخريف الرطب. وظل سماع صوت أجراس الخراف في ساحة السوق، حتى خلال العقد السعيد الذي أمضاه بعيداً عن دياره، يولّد في نفسه اندفاعاً غريباً أكثر تعقيداً من أن

يكون مجرد حنين.

كان لوكا الابن السادس لرجل يحتل المرتبة السابعة بين إخوته. ولازمه سوء الطالع طوال حياته. فقد كان والده، واسمه كورتشول، رجلاً ضخماً وملتحياً، وذا أسنان كبيرة، وهو على ما يبدو الشخص الوحيد الذي اعتاد أن يضحك في البيت من دون أن يجد ما يُضحك. أمضى كورتشول خمسة عشر عاماً من شبابه في الجيش. وإن سأله أحد عن ذلك، أتى ردّه دائماً بأنه تطوع في الجيش؛ من دون أن يكترث بذكر أنه تطوع في الواقع بعدة جيوش، وأنه لم يُبدِ طوال تلك الفترة أي اهتمام باختيار هدفه، وبالجانب الذي يريد الانحياز إليه والقتال في صفوفه طالما أنه يرى الرايات التركية تخفق من بعيد في الصف الأول. وعلى مدى عدة سنوات، جمع كورتشول تشكيلة مدهشة من تحف الحرب العثمانية، فصار الأهالي يرونه في بعض أيّام الآحاد جالساً صباحاً في المقهى في أعلى منحدر في القرية، وهو يمسك فنجان القهوة بإحدى يديه، وكأس الشراب باليد الأخرى، ويتبادل القصص مع المحاربين القدماء الآخرين، مبدياً حماسته الدائمة لدى عرضه رصاصة أو حربة أو قطعة من خنجر، وتحدثه عن كيفية حصوله عليها في المعركة. قبل ولادة لوكا بوقت طويل، تناقل الناس إشاعة مفادها أن مجموعة كورتشول النفيسة تحوي أشياء أقدم بكثير مما يستطيع أحد أن يتذكره، مثل الخوذ ورؤوس الرماح وهلم جراً... وأن الجزار أراد زيادة مجموعته عن طريق سرقة القبور، ونبش ساحات القتال القديمة بحثاً عن الملابس والأسلحة التي حملها رجال ماتوا قبل قرون. فاعتبر الناس هذا عملاً لا يغتفر بكل المقاييس، وإثماً يجلب اللعنة على رأسه صاحبه. ولهذا السبب توقعوا أن لا أحد من أولاد كورتشول سيعيش وينجب أطفالاً.

ولهذا السبب أيضاً، لم يستطع القرويون الذين أخذوا يخمّنون

مجريـات الأحـداث فـي منزل الجزار عـن بعد، أن يجدوا ما يجمع بين كورتشـول وأم لـوكا، وهـي امـرأة بدينة ومؤدبة تتمتـع بعينين صبورتين وطبع هادئ. فقد كانت ليديا ابنة تاجر من المدينة، وانحدرت من حياة التـرف والثـراء في شـبابها من جراء إفلاس تجـارة والدها. منحت تلك المـرأة أطفالهـا حبـاً لا حـدود له، ولكنها خصـت طفلها الأصغر بحبّ عظيم؛ وهو موقع احتله لوكا لثلاث سنوات فقط، ثم نزلت درجته منه بعد ولادة طفلة العائلة الأولى والوحيدة. أنجب كورتشول وليديا خمسة صبيـة قبـل لوكا، أكبرهم يكبره بعشـر سـنوات. وبينمـا راح لوكا يراقب إخوته وهم ينخرطون واحداً تلو الآخر في طقوس الرجولة التي وفرتها لهم تربية أبيهم الجزار، وجد نفســه يتشـبث بأسـس حياة أمه، وقصص أسـفارها فـي طفولتهـا، وإصرارهـا على التعليم نظراً إلـى أهمية التاريخ والكلمة المكتوبة.

وهكذا، كبر لوكا وقد نما في داخله شعور بوجود عالم أكبر بكثير من العالم الذي تراه عيناه. وبينما ازداد إدراكه لنفســه أكثر فأكثر، ازداد يقينـاً بـأن والـده - ذلـك الرجـل المهـاب والمحترم ولكـن الأميّ - لا يعـرف شـيئاً عـن العالـم الأكبـر، ولا يفعل مـا يؤمّن به مسـتقبل أولاده في ذلك العالم. وخلال الوقت الذي أمضاه مع والده، وهو يتلقى إلى جانب إخوته مبادئ حياة الجزارين، أدرك أن معرفة والده قد اقتصرت علـى تقطيـع اللحم، وعلى أنواع السـكاكين، والعلامات التحذيرية التي تشير إلى مرض الحيوانات أو رائحة فسـاد اللحم، والطريقة الصحيحة لسـلخ الجلـد. ورغـم نجاح كورتشـول فـي مهنته، فقد بـات لوكا يجد جهـل أبيـه وعـدم اكتراثه لحياة أوسـع من ميداليات الحـرب أمراً رهيباً ومكروهاً. وازداد مقته لميل كورتشول إلى تجاهل غسل مئزره، وتناوله الخبز بأصابعه الملطخة بالدم. وبينما شـغل أشـقاؤه أنفسـهم بالمبارزة بالهراوات، ملأ لوكا أوقاته بقراءة التاريخ ودراسة الأدب.

ومع ذلك، لم يستطع لوكا أن يتجنب الطقوس العائلية رغم مقاومته إيّاها. فعندما بلغ العاشرة من عمره، بدأ بذبح الخراف. وعندما بلغ الرابعة عشرة، قام والده وفقاً لتقليد انتهجته عائلته لأجيال، بإعطائه سكيناً لتقطيع الخبز، وحبسه في الحظيرة مع ثور صغير بعد أن ملأ أنف الثور بالفلفل. وتوقع الجميع من لوكا أن ينجح كبقية إخوته في تهدئة الثور وقتله بضربة سكين واحدة على رأسه. ورغم أن لوكا أمضى معظم حياته وهو يخشى هذا الطقس، أي العنف غير المجدي، إلا أنه أخذ يمنّي نفسه بأن يحرز نجاحاً باهراً غير متوقع، وأن تمكنه موجة قوة عجيبة من تخطي الموقف على الرغم من جسمه الضعيف ويديه النحيلتين. ومع ذلك، هجم الثور على لوكا، وأطاح به إلى آخر الحظيرة، ولطخه بالوحل على مرأى من الجزار وأبنائه الخمسة الآخرين، وعشرين أو ثلاثين رجلاً من أهل القرية أتوا لمشاهدة العرض. وأخبرني أحد الذين شاهدوا الحدث أن المشهد بدا أشبه برؤية دبابة تحطم عمود كهرباء. (فخمنت منذ ذلك الحين أن هذا التشبيه الغني أتى فقط بعد مرور عقد من الزمن على الأقل على وقوع الحادثة نفسها؛ أي عندما سنحت الفرصة للشاهد لرؤية الدبابة لأول مرة في حياته). وقف الثور فوق رأس لوكا مثبتاً إبطي الصبي بقرنيه. وعندما استشعر الثور نصره الوشيك، انقض على قمة جذع لوكا، وألقى بكل ثقله عليه، وراح يجرف التراب ويضرب الأقفاص والمعالف ورزم القش، إلى أن أتى دوبران ميديك - وهو طبيب اجتاز مسافة طويلة من غورتشيفو - وتسلق الحظيرة، وضرب الثور بفأس على ظهره، فأصيب لوكا بارتجاج في المخ، وكسر ثلاثة من أضلاعه. وبعد بضعة أيام، كسر والده ذراعه اليسرى خلال إحدى نوبات غضبه.

بعد ذلك، اشترى لوكا قيثارة مستعملة من بائع غجري متجول، وانطلق إلى الحقول ليرعى أغنام بعض العائلات المحلية التي تحتاج

إلـى أيـد عاملـة مسـتأجرة. لا بـد أن الكثير من أحداث هـذا التاريخ قد تعرض للتحريف بعد أن تناقلته الألسـن، ولكن الناس يقولون إن لوكا كان شـخصاً ليناً ولطيف المعشـر، ويتمتع بصوت عذب وذهن صاف؛ ولا سـيما فـي الأمسـيات الهادئـة عندمـا اعتـاد أن يعـزف علـى قيثارته الجديدة. ولطالما شعر بحماسة شديدة للسباحة في البحيرة الجبلية مع الشـبان الآخرين فوق المرعى. ورغم ذلك، لا أحد الآن يرغب في أن يتهم الشبان الآخرين من جيله بأنهم أبدوا حماسة شديدة للسباحة معه؛ والسبب في ذلك على الأرجح يرجع إلى أن الشبان من جيل لوكا هم آباء الرجال الذين يروون هذه القصص الآن.

إلـى جانـب كل هـذا، اشـتهر لوكا بالجلوس في ظل الأشـجار في فصل الصيف، وبتأليف أغاني الحب. فقد سـمعت من أكثر من مصدر أن لـوكا تمتـع بموهبـة طبيعيـة فـي هذا مع أنه لم يبـد واقعاً في الحب، ورغم أن موهبته الموسـيقية لم ترق قط إلى براعته ككاتب أغان. ومع ذلك، فهناك من يقول إن الرجل كان يتأثر لدرجة ذرف الدموع لمجرد سـماعه لـوكا وهـو يعـزف على القيثـارة. وفي ربيع إحدى السـنوات - وهـذا علـى الأرجـح كـذب كحـال الكثير مما يقال عن شـخص ما من فرط الإعجاب - أتى ذئب إلى المرعى ليصطاد، فقام لوكا بتهدئته عن طريق عزف الموسيقى بدلاً من أن يرمي عليه الصخور أو يستدعي كلب أبيه ليهاجمه.

عندمـا أفكـر فـي فتـرة شـباب لـوكا، أتخيـل صورة صبي شـاحب ونحيـل، ذي عينيـن كبيرتيـن، وشـفتين ممتلئتين؛ من نـوع الصبية الذين قـد يراهـم المـرء حفـاة الأقـدام ويحملون حملاً بيـن أذرعهم في لوحة زيتية عن الريف. من السهل أن يتخيله المرء بهذه الصورة عندما يسمع القروييـن يتحدثـون عـن أغانيه وعن جاذبية موسـيقاه ونضجها. في هذه الصورة المبكرة، يبدو لوكا ابناً محبباً من أبناء غالينا. وهكذا، لا بد أنهم

يجـدون سـهولة أكبـر بالتفكيـر فيه على أنه صبـي لطيف، بدلاً من ذلك الشـاب الغاضـب الـذي تحـول إليه في ما بعد، أو ذلـك المراهق الذي عانـى فـي حياتـه، وفـي ما بعد ذلـك الرجل الذي يرتدي مئـزراً ملطخاً بالدم، ويضرب عروسه الصماء والبكماء.

تدل المعلومات الأكيدة التي جمعتها على أن الغضب والتصميم قد بلغا لدى لوكا قدراً كافياً دفعه إلى الرحيل عن غالينا في سن السادسة عشـرة، والتوجـه إلـى ميناء سـاروبور النهري على أمـل أن يصبح عازفاً مشهوراً.

في تلك الآونة، كان عازفو سـاروبور مجموعة من الشـبان الصغار الذيـن جـاءوا مـن المناطق المحيطة كافـة، واجتمعوا معاً صدفة، وبدأوا يتجمعون ليلاً على ضفتي نهر غرافا لكي ينشدوا الأغاني الشعبية. سمع لوكا عن هؤلاء العازفين أول الأمر من أمه التي وصفتهم له على أنهم فنانون وفلاسفة وعشاق للموسيقى. وأمضى سنوات وهو يقنع نفسه بأن ينضم إليهم، ثم عبرَ ثلاثمئة ميل مشـياً على الأقدام ليذهب إلى هناك، وذلك من دون أن يسمع كلمة اعتراض واحدة من والده الذي لم يوجه إليـه كلمـة واحـدة من أي نوع منذ حادثـة الثور. تبادرت إلى ذهن لوكا صورة رجال ذوي ملامح جادة يجلسـون على رصيف ممتد في النهر، وأقدامهم مغمورة بالماء، ويغنون عن الحب والمجاعة، ويروون قصص أسلافهم الذين تعلموا الكثير عن الحياة.

في الأسبوع الأول الذي أمضاه لوكا في ساروبور، بعد أن استأجر غرفة ذات سقف رقيق فوق أحد المقاهي في الجزء الشرقي من البلدة، علم بوجود تسلسـل صارم متبع في مسـألة العزف على ضفة النهر. إذ لـم يكـن الموسـيقيون يجتمعـون، كما كان يظن، في جـو بهيج ليتبادلوا الأغاني ويتشاركوا العزف. ولم يجدهم عازفين لائقين. فبدلاً من كونهم موسـيقيين منعزلين يعزفون على القيثارة ذات الوتر الواحد التي يعرفها

ويحبها، وجدهم عبارة عن زمرتين متناحرتين؛ إحداهما تفضل الصوت الجهوري القادم من الغرب، والأخرى تفضّل الموسيقى التي تعود إلى العصور العثمانية. واعتادت المجموعتان، اللتان تحوي كل منهما عشرين عازفاً على الأغلب، أن تجتمعا ليلاً على الجانبين المتقابلين من النهر، وتبدآ العزف. وكان الناس المستمتعون بالموسيقى والعطور والحرارة الرطبة يملأون المكانين شيئاً فشيئاً بينما تحتل كل فرقة جزءاً صغيراً من الجسر، وتتقدم بين أغنية وأخرى وبين رقصة وأخرى على طول القوس المرصوف بالحصى حسب حجم جمهورها، ورشاقة الراقصين من أفراد الجمهور، وحماسة المارة الذين يتوقفون للانضمام إلى الكورس. لم تكن الأغاني - كما تمنى لوكا - عبارة عن تأملات جادة تتحدث عن طبيعة الحب المتقلبة وصعوبات الحياة تحت حكم السلطان، بل كانت أغاني للعربدة والخفة والمرح، مثل أغنية: "ها هو طفلنا الأخير" وأغنية: "بعد أن هدأت العاصفة، هل نعيد بناء القرية؟".

أما بالنسبة إلى الموسيقيين أنفسهم، فقد وجدهم لوكا أكثر تعقيداً مما توقع، واعتبرهم فوضويين وعشوائيين ومشردين وثملين بشكل يفوق الخيال. ولاحظ أيضاً سرعة تغير أعضاء الفريقين لأن أحدهم كان بين الحين والآخر يقع في الحب ويتزوج، أو يموت من جراء إصابته بالسل أو الزهري، أو يعتقل إثر ارتكابه جنحة صغيرة ويشنق في ساحة البلدة ليغدو عبرة لمن اعتبر.

توثقت معرفة لوكا بالموسيقيين أكثر فأكثر بسبب اختلاطه بالمجموعة الثانية منهم ليلة تلو أخرى من دون أن يعزف شيئاً؛ باستثناء مرة أو مرتين عزف فيهما أغنية من أغنياته في أحد المقاهي. وتعرف إلى مرتادي الجسر المنتظمين؛ أي أولئك الذين اعتادوا التسكع هناك منذ سنوات، ومن بينهم قارع طبل تركي ذو شعر لامع بسبب ما وضعه عليه، ويُشاع عنه أنه ذو حظوة بين الشابات الثريات، وشاب آخر ذو

شـعر أشـقر يخطئ الجميع في لفظ اسـمه تم قطع لسـانه بسبب ارتكابه خطـأ غامضـاً، ولكنـه أمضـى وقتـاً طيباً بالقـرع على الـدف. أما عازف الأوكورديـون، فقـد كان اسـمه غريكاليـكا بركيك. وقـد أطلق عليه هذا الاسـم لأنـه فـي لحظـات البهجـة العظمى؛ ولا سـيما إن عبرت إحدى النسـاء الممتلئـات الجسـر وتوقفت لتصغي إليـه، أو إن وصلت الأغنية التي يعزفها إلى المقطع الذي يبهجه أكثر من غيره، بدأت أسنانه تصطك من فرط انفعاله. أما عازف الكمان، فقد أطلق عليه الجميع اسم رجل الديـن. ويقـول البعـض إنه كان رجل دين فعلاً في وقت مضى، ثم ترك الأخوية البنديكتية لأنه اكتشف أنه يميل إلى الموسيقى أكثر. ومع ذلك، أطلق الناس عليه ذلك الاسـم في الواقع بسـبب قصّة شـعره الغريبة. إذ رغـم أنـه كان شـاباً فـي الثلاثين مـن عمره، فقد كان أصلـع الرأس من الجبهـة وحتـى الأذنيـن - بمـا في ذلك الحاجبـان - وذلك نتيجة كارثة تعرض لها وهو ثمل، عندما اقترح على أحدهم، بعد أن عجز عن إشعال النـار فـي الموقـد، أن يصعد ويصب الزيت مـن المدخنة بينما يضع هو بنفسه الخشب في الأسفل.

لـم يكـن أحـد منهـم يعرف الكثير عـن التاريخ أو الفـن، أو يتمتع بطمـوح كبيـر للانتقـال إلـى وضـع أفضل من ذلك. ولم يُبـدِ أحد منهم اهتمامـاً بالقيثـارة التقليديـة التي يعزف عليها لـوكا، ولكنهم وجدوا أنها أضافـت صوتـاً مثيـراً للاهتمام إلى فرقتهم التـي تعج بالهواة. فظل لوكا يعزف معهم لأشهر إلى جانب رجل الدين إلى أن توصلوا إلى الإدراك أنـه لـن يتمكـن مـن تحقيق أي شـيء ما لم يصبح عضـواً دائماً ومرحباً بـه بيـن العازفيـن، ونديمـاً لهم في الشـرب، وكاتم أسـرارهم، وشـاعراً بارعاً بصياغة الكلمات. وأصبح الناس يحفظون أغنياته عن ظهر قلب، ويرددونها في بيوتهم، ويترنمون بها في السـوق، ويرمون القطع النقدية في قبعته لكي يسمعهم إياها مجدّداً.

وبينما هو مستمر على هذا الحال، لم يتخلَّ قطّ عن إخلاصه لقيثارته أو رغبته في المضي إلى موقع يضمن له سمعة أكثر تميزاً. وبعد مرور بعض الوقت، أجبر نفسه على الاعتراف بأن سكان ساروبور سئموا من الأغنيات الحزينة التي تمثل بالنسبة إليه شغف حياته، ولكنه لم يتخل عن قناعته بأن الطلب على تلك الأغنيات موجود بلا شك في مكان آخر. ففي فترات العصر المليئة بالخمول، حين اعتاد الموسيقيون الآخرون أن يناموا في أقبية المقاهي، أو في ظل ستائر الشرفات، أو بصحبة نسوة لا يعرفون أسماءهن، صمم لوكا على السعي وراء عازفي القيثارة الحقيقيين، وهم مجموعة من الرجال المسنين الواهنين الذين امتنعوا منذ وقت طويل عن العزف. فطردوه مرة تلو أخرى، ولكنه ظل يتردد عليهم بلا كلل. وفي نهاية المطاف، وافقوا على استقباله. وبعد احتساء بضع كؤوس من الشراب، بدأ الرجال المسنون الذين شدهم الحنين إلى الماضي وإلى صوت النهر ورؤية السفن التجارية التي تمخر عباب المياه الخضراء في النهر، يمدون أيديهم إلى قيثاراتهم ويشرعون بعزف الألحان.

استغرق لوكا في تأمل حركات أيديهم، وضربات أقدامهم، وأنين أصواتهم التي تروي قصص ذكريات ملفقة أو حقيقية. وكلما أمضى في صحبتهم وقتاً أطول، ازداد يقيناً بأن هذه هي الطريقة التي يريد أن يحيا بها ويموت عليها. وكلما أثنوا على موهبته المتنامية، تعمقت ثقته بنفسه وبقدرته على تحمل ما اعتبره حقارة في أصوله، وازداد تقبّله للتفاوت بين الحب الذي تغنّى به في ألحانه وقلة ميله إلى النساء؛ بدءاً من أولئك الفتيات اللواتي اعتدن أن يبتسمن له على الجسر، ووصولاً إلى النسوة الرخيصات اللواتي كن يتحرشن به وهو جالس في قبو المقهى بصحبة الموسيقيين الآخرين.

لم يكن يملك ما يكفي من المال لينتقل إلى مكان آخر، ولهذا بقي

في ساروبور أولاً لسنة واحدة، ثم لسنتين أخريين، ثم ثلاث سنوات. وأمضى وقته في العزف في حفلات الزفاف، وفي تأليف المقطوعات الموسيقية والكفاح لنيل حيز خاص به بين عازفي الجسر.

بعد مضي عشر سنوات على حياته كعازف، قابل لوكا المرأة التي دمرت حياته، وهي فتاة مرحة وذكية وجذابة تدعى آمنة، وهي ابنة تاجر حرير تركي غني اسمه حسان أفندي. كان صيت آمنة ذائعاً كالأسطورة في البلدة، لأنها أقسمت وهي في سن العاشرة أن تبقى عذراء إلى الأبد، وأن تمضي حياتها في دراسة الموسيقى والشعر ورسم اللوحات. (ورغم أن لوحاتها لم تكن جيدة جداً، إلا أنها اعتُبرت ذات قيمة). وانتشر الكثير من الأقاويل حول حياتها بسبب ميل حسان أفندي إلى كثرة الشكوى؛ ولا سيما خلال زيارته اليومية إلى المقهى حيث اعتاد أن يفشي - وربما حتى أن يبالغ في سرد - تفاصيل كل نزعة متمردة جديدة تبنتها آمنة. ونتيجة لذلك، تحولت قصص آمنة إلى مادة للثرثرة في الأسواق، واشتهرت بغرورها وفتنتها وذكائها وتصميمها وإبداعها وتهديدها بالانتحار بين الحين والآخر كلما اقترح عليها والدها عريساً جديداً. وعُرف عنها أيضاً تسللها كل ليلة من منزل والدها بلا خمار لتنضم إلى المتسكعين على الجسر. وأصبحت هذه عادة متكررة لديها يعرفها الجميع باستثناء حسان أفندي.

رآها لوكا عدة مرات من بعيد، وميزها على أنها الفتاة ذات العينين البراقتين والضفيرة والابتسامة اللطيفة، ولكنه لم يتبادل الكلام معها قط، إلا بعد أن أثارت قيثارته فضولها. ففي مساء أحد الأيام، وبعد أن انتهت الفرقة من عزف إحدى أغنياتها الشهيرة، رفع لوكا نظره عن آلته، فوجدها واقفة قربه تماماً، ويدُها على خصرها، فيما يدها الأخرى تمسك قطعة نقدية ذهبية فوق قبعته القديمة التي كان يضعها عند قدميه.

قالت له بصوت مرتفع: "ماذا تسمي هذه الآلة، أيها الشاب؟".

وذلك رغم معرفتها باسمها. ولمست أخمص قيثارته بصندلها.

قال: "إنها قيثارة". ووجد نفسه يبتسم ابتسامة عريضة.

عندها، قالت آمنة بصوت جعل جميع من نهضوا ليعطوه المال يتوقفون ويحومون خلفها بتوتر: "يا لها من قيثارة مسكينة! إن لها وتراً واحداً فقط".

قال لوكا: "قد يقدمون لي قيثارة أكبر في المستقبل، ولكنني لن أتخلى أبداً عن قيثارتي ذات الوتر الواحد".

"لماذا؟ ما الذي يمكنها فعله؟".

شعر لوكا بوجهه يتوهج من فرط الإحراج، ثم قال: "إن خمسين وتراً تعزف أغنية واحدة، ولكن هذا الوتر الوحيد يعرف آلاف القصص".

ألقت آمنة القطعة المعدنية في قبعته، وقالت من دون أن تتحرك من جانبه: "حسناً، اعزف لي أغنية أيها العازف".

أخذ لوكا قوسه وراح يعزف وحده لمدة عشر دقائق، فيما ساد الصمت في سائر أنحاء الجسر. قيل لي إنه عزف أغنية "ابنة الجلاد"، ولكن لوكا نفسه لم يستطع قطّ أن يتذكر ما عزفه. وظل لسنوات بعد ذلك يتذكر الطريقة التي بعث فيها الوتر الوحيد نبضاً مثيراً بين أضلعه، والصوت الغريب الذي غنى به، ويد آمنة التي وضعتها على خصرها من دون أن تحركها.

بدأ الناس يتكلمون عنهما عندما رأوهما جالسين على الجسر معاً عند بزوغ الفجر، وعندما جلسا في المقهى وهما يميلان برأسيهما قرب بعضهما وينظران إلى ورقة يكتبان عليها معاً.

كان حبهما مؤكداً، ولكن طبيعة ذلك الحب لم تكن بسيطة كما ظن الناس. فقد عثر لوكا فيها على شخص يعجب بموسيقاه، ويرغب في سماع كل أغنية يعزفها، ويعرف عن الشعر وفن المحادثة وعن الثقافة الراقية التي يئس أخيراً من محاولة التوصل إليها بصحبة الموسيقيين

الآخرين. ووجدت آمنة أن الوزن الفكري خلف طموحات لوكا أمر مثير للإعجاب، كما وجدت الرحلة التي قام بها فعلاً وما زال يأمل أن يتابعها أمراً مدهشاً. ومع ذلك، وقفت في طريقهما عقبة، وهي أنها قررت منذ وقت طويل أن تزهد في حياتها، وألاّ تتزوج. لم يكلف لوكا نفسه عناء إقناعها بعكس ذلك، لأنه أدرك قبل وقت طويل أنه لا يريد أن تربطه أي علاقة بالنساء. لقد صممت آمنة على أن تبقى عذراء طوال حياتها، بينما تقبل لوكا قرارها برحابة صدر على أمل أن تتقبله هي على حقيقته أيضاً. إنني آمل، على الرغم مما حدث لاحقاً في حياة لوكا، أن يكون قد عثر على السعادة خلال الأيام والليالي التي لم يبح بشيء من أسرارها.

طوال عام كامل، استمرت الصداقة بين آمنة ولوكا من خلال الأغاني والمناقشات الفلسفية والقصص والجدالات التي لا طائل منها عن الشعر والتاريخ. وأمضيا معاً أمسيات منعشة على الجسر بعيداً عن الفرقتين الموسيقيتين. فكان لوكا يغني وهو جالس على كرسي مكسور الظهر والقيثارة على حضنه، بينما تجلس آمنة وذقنها على كتفه وهي تغني على إيقاع موسيقاه وتزيدها جمالاً. لم يكن أي منهما مغنياً متميزاً بحد ذاته، ولكن صوتيهما شكلا معاً مزيجاً حزيناً وخافتاً، وجذبا أكثر الحشود تفاؤلاً، وأبعداها عن صخب الموسيقى التقليدية التي تعزف على الجسر.

مضى لوكا بمساعدة آمنة في الحياة التي حلم بأن يعيشها لسنوات طويلة. وبدأ يؤلف أغنياته الخاصة بشكل عفوي أحياناً وهو جالس على الجسر. وأسس فرقة من العازفين الصغار. ومع ذلك، ظل مفتقراً إلى الوسيلة التي تعينه على الانتقال إلى المدينة؛ حتى لو حصل على تمويل أفضل. وكان يرفض بالطبع أن يترك آمنة وحدها، ولكنه لم يتجرأ على طلب يدها من دون أن يتوفر لديه ما يقدمه لها بالمقابل. وفي هذه

الأثنـاء، ظهـر فـي سـاروبور عالـم ملتح يدعى فوك تقول الإشـاعات إنه أمضى عشر سنوات تقريباً وهو يرتحل من بلدة إلى أخرى ليصغي إلى الأغنيات ويدوّن القصص.

وأشاع بعض مرتادي الجسر الذين رفضوا أن يتحدثوا إليه أنه لص، وأنه يسـرق الألحان الموسـيقية والأغاني، ونصحوا لوكا بأن يطرده إن حاول التحدث إليه.

تبـادل العالـم حديثـاً خاصاً مع لوكا في المقهى في إحدى الليالي، وشـرح له عن مدرسـة للموسـيقى تم تأسيسـها حديثاً في المدينة. ففي محاولة منها لكسب المزيد من الشعبية والتأييد، بدأت المدرسة برنامجاً مشـتركاً مـع الحكومـة يهـدف إلى منح أي موسـيقي تقليدي من خارج المدينـة أجـراً صغيـراً مقابـل أي أغنية يقبل بأن يقدمها للتسـجيل. وقال العالم للوكا إنه اختاره ليمثل ساروبور، ويغني في هذا البرنامج بصحبة تلك السـيدة الرائعة التي ترافقه؛ مع أنه لم يكن أمراً تقليديًّا أن تشـارك النساء في العزف على القيثارة.

كان لـوكا قـد رأى أول جهـاز راديو في حياته في ربيع ذلك العام. فشـكل هـذا الأمـر بالإضافـة إلى المقابلـة التي دارت بينـه وبين الرجل فـي المقهـى سـبباً كافيـاً لكـي تبدأ الأحـلام بمداعبة مخيلتـه، ولكنه لم يعـرف كيـف سـيتمكن مـن الوصـول بصحبـة آمنـة إلـى هنـاك، وكيف يمكنـه تبريـر رحلـة كهذه على الإطلاق. فخطر الحل بباله بعد أسـبوع، عندما تلقى رسالة من شقيقته الصغرى التي كتبت له بحجة إبلاغه أنها تزوجـت مؤخـراً رجـلاً يملك والده مصنع سـيارات فـي برلين، ولكنها فـي الحقيقـة كانـت تهدف إلى إبلاغه بوفاة والدتـه بلطف، وإلى إقناعه بالعـودة إلـى غالينـا بنـاء على وصية والده الـذي بات الآن رجلاً وحيداً وعاجزاً. وتحدثت عن أخيه الوحيد الباقي على قيد الحياة - وهو الابن البكـر - الـذي توفـي في الشـتاء الفائت بمـرض ذات الرئة. وكان اثنان

مـن إخوتـه الأربعـة الذين التحقـوا بالجيش قد ماتا قبل وقت طويل في خدمـة القيصـر، بينمـا مات الابن الأصغر في أثناء شـجار يرتبط بإحدى النسـاء في أحد مقاهي غالينا، ولـم يعرف أحد ما جرى للأخ الخامس، ولكـن قيـل إنـه وقـع في غرام فتـاة غجرية ورحل معها إلى فرنسـا قبل سنوات عديدة. أضافت أخت لوكا أن والده أصبح على وشك الموت، وأنه أصبح الآن المسؤول الوحيد عن حمل اسم العائلة وتولي أعمالها؛ على الرغم من حادثة الثور المؤسـفة وكل ما قيل عنه أو لم يقل على امتداد كل تلك السـنوات. وحرصت أخته على أن تضيف إلى الرسـالة ما يلي: وسـتقترن بامرأة ذات شـخصية راقية، وأخلاقيات رفيعة لتنجب لك العديد من الأطفال.

وفجأة، وجد لوكا الذي قاوم ماضيه طوال حياته، نفسـه يفكر في العودة إلى غالينا لأسباب استراتيجية. فقد بات والده رجلاً عجوزاً هدّه الحـزن والمـرض. وكان يـدرك انعـدام الحب بينهما حتى لـو عاد إليه، ولكنـه أدرك كذلـك أن والـده لن يعيـش طويلاً، وأن الميراث الذي من المفترض أن يقتسمه مع أشقائه الستة سيصبح ملكاً له وحده. فإن ضحى الآن بعامين يمضيهما بإتقان الأغنيات في غالينا بينما ينتظر موت الرجل العجوز، فسوف يضمن مستقبله بعد حصوله على ثروة كورتشول الذي حوّل حياته في الماضي إلى جحيم. شعر لوكا أن مستقبله أصبح أخيراً على بعد خطوات منه، ولكن شـدة قربه ووضوحه جعلاه هشـاً وسـريع الزوال.

طـوال عـدة أيـام، لم يتحـدث إلى أحد قط. وبعـد منتصف الليل، صعد إلى نافذة غرفة آمنة وطلب يدها.

فقالـت وهـي جالسـة علـى سـريرها: "حسـناً، لطالمـا عرفت أنك مجنون، ولكنني لم أدرك أنك أحمق".

شرح لها الأمر، وحدثها عن والده وثروته، وعن إذاعة المدينة التي

تنتظر بث أغنياته. وأكد لها أنهما سيغنيان معاً لأنه لن يتخيل نفسه يقوم بذلك الأمر من دون وجودها إلى جانبه. وعندما أنهى كلامه، قال: "إننا صديقـان حميمـان منذ سـنوات يا آمنـة". كان راكعاً على ركبتيه بجانب سـريرها، فنهـض علـى قدميـه، وجلس إلـى جانبها على السـرير، وتابع قائلاً: "سوف يأمرك والدك عاجلاً أو آجلاً بأن تتزوجي شخصاً ما. ألا تفضلين أن تتزوجيني أنا بدلاً من أن تتزوجي رجلاً آخر يفرض نفسـه عليك؟ إنني أعدك بألا ألمسك مطلقاً، وأن أحبك كما أحبك الآن إلى أن أموت. لن يعدك أي رجل يدخل هذه الغرفة ويطلب يدك هذا الوعد وهو واثق بأنه سيفي به".

كانت تلك هي المرة الأولى التي يعلن فيها عن حقيقته بكلام أكثر مـن مجـرد اعتـراف بينه وبين نفسـه. ولكن آمنة كانـت قد أدركت تلك الحقيقة قبل وقت طويل، فمدت يدها ولمست وجهه.

بـدآ يخططـان لزواجهمـا. ووافقـت آمنة على أن تحبس نفسـها في البيـت، وتتجنـب فضـح وضعهمـا. وأمضـى لـوكا شـهرين وهـو يهندم نفسـه كل ليلة، ويذهب إلى بيتها ويتناول الطعام والشراب مع حسـان أفندي. فكان الاثنان يدخنان النارجيلة ويعزفان الموسيقى إلى أن تشرق الشـمس. أما حسـان أفندي، الذي توقع سـريعاً أن يسمع عرضاً للزواج من لوكا عما قريب، فقد استسلم لفكرة القبول بصهر جزار مغامر بدلاً مـن أن تبقـى ابنتـه العنيـدة عـذراء طوال حياتها. وترك لـوكا يتقرب منه بصبر لأطول وقت ممكن لكي يضمن أن يقوم بطلب يد ابنته بأسلوب ملائم اجتماعياً.

ولـو كان لـوكا أكثـر براعة بقليل بالحكم على الشـخصيات، لعرف أن حسـان أفندي قد استسلم على الفور، ولطلبَ يد آمنة فوراً، ولانتهت القصـة نهايـة مختلفـة كليـاً. ولكن، بـدلاً من ذلك، بينما اسـتمر الاثنان بالقيام بواجباتهما الاجتماعية والجلوس على الشـرفة ليسـتمعا إلى آراء

بعضهما، أبقيا آمنة بعيدة تماماً عن مفاوضاتهما وتركاها منتظرة. وبينما كانت تنتظر وتفكر في مستقبلها كزوجة للوكا وفي انتقالهما في نهاية المطاف إلى المدينة، بدأ يخطر لها أن حياة العزلة، التي صرحت برغبتها فيها كثيراً في الماضي، ستؤمن لها الراحة في الكثير من المناسبات. فلم يعد يتوجب عليها أن تخاف كما خافت طوال حياتها من وجود زوج مسيطر وأخرق، ومن محنة ليلة الزفاف، والعمل الشاق طوال زواجها، واحتمال خوضها تجربة الحمل والولادة، إذا اتخذت قراراً واحداً اختفت معه كل تلك الاحتمالات. وبدأت ترى حياتها ممتدة أمامها من دون كل ما يخيفها. ففي البداية، سرت سروراً عظيماً، ولكنها بدأت تفكر في تلك الحياة الطويلة التي ستعيشها، وكيف ستبدو الحياة التي تخيلت نفسها ستعيشها بوجود تلك المخاوف وذاك الصراع. وخطر ببالها أن الجهد الذي بذلته لم يأت عظيماً بقدر الصراعات التي أمضت حياتها تقوي نفسها ضدها، وترافق مع ذلك كله احتمال آخر لم تصرح به قط؛ وهو احتمال أن تغير رأيها. وفجأة، شعرت أنها عاشت حياتها كلها في لحظات معدودة.

وقبل أسبوعين من زفافها، سقطت آمنة طريحة الفراش وجسمها يلتهب بالحمى. وانتشرت الأقاويل في البلدة عن شدة مرضها. فقد قال الناس إن ستائر غرفتها لم تعد تُفتح، وإنها أخذت تتشبث بغطاء سريرها وتتصبب عرقاً وتهذي، وإن مجرد قيامها بتحريك رأسها كان يسبب لها ألماً مبرحاً.

لم يكن لوكا صديقاً للعائلة، أو أحد أفرادها، أو خطيباً معلناً. لذا، أصغى إلى أخبار صحتها في السوق وعند الجسر، واكتشف أن الأطباء راحوا يترددون على منزل حسان أفندي؛ الواحد تلو الآخر، ولكن حالة الفتاة لم تتحسن. ومع ذلك، لم يسمع من حسان أفندي سوى الأخبار السارة، مثل: إنها بخير وتعاني من بعض السعال الموسمي،

ولكنها ستتحسن عما قريب. وبالرغم من ذلك، سمع لوكا في الشارع أن وضعها أصبح ميؤوساً منه، وأن طبيب الأعشاب كاظم آغا كتب لطبيب يعيش في الطرف المقابل من المدينة، ويُعرف عنه أنه قادر على القيام بأمور خارقة.

لم يلاحظ أحد في البلدة وصول ذاك الطبيب، أو يتمكن من التعرف إليه في الشارع، ولكنهم عرفوا أنه ظل واقفاً لثلاثة أيام بلياليها أمام سرير آمنة وهو يمسك برسغ يدها ويمسح جبينها. فاستطاع بنظراته الجادة، ولمسات يديه اللتين أخذتا تمرران الإسفنجة الباردة بلا ثبات على عنقها، أن يمحو كل أفكار آمنة عن العذرية والعزلة العلمية وكل الخطط التي وضعتها لحياتها وإخلاصها للموسيقى وللوكا. وحالما بدأت تتحسن، أصبحت تتسلل من غرفتها لتقابل الطبيب الذي أنقذ حياتها؛ بالضبط كما اعتادت أن تتسلل لتستمع إلى عزف الموسيقيين. إلا أنها الآن بدأت تتسلل إلى الطواحين المهجورة وعلّيات الحظائر وهي تضع العطر على رسغيها وعنقها.

أما لوكا، الذي شعر بالراحة لدى سماعه خبر شفائها على الرغم من أنهم لم يسمحوا له بزيارتها في أثناء مرضها، فلم يخامره أي شك. ولم يعرف أن آمنة قبلت يد والدها حسان أفندي عندما قال لها إنه سمح لها بالزواج من لوكا، ثم صعدت إلى غرفة نومها لتشنق نفسها بالستائر. ولم يعرف لوكا أن القصة ربما كانت ستنتهي عند هذا الحد لولا أن أختها زوجة النمر أتت في اللحظة المناسبة، ووجدت آمنة ممددة على سريرها وهي تبكي من خيبة الأمل لأنها لم تتمكن من الحصول على ستائر رقيقة بما فيه الكفاية لتلفها حول عنقها. فوضعت زوجة النمر رأس آمنة على ركبتيها إلى أن توصلت إلى خطة أفضل، وهي أن توصل بنفسها رسالة استرحام إلى الطبيب في صباح اليوم التالي. وبعد أن فشلت الخطة، وقفت زوجة النمر حارسة إلى جانب باب غرفة أختها

إلى أن تسلقت آمنة النافذة في الليلة التالية وقفزت منها. وبقيت جالسة في غرفة أختها إلى أن أتت أمها، ثم أعطتها رسالة الوداع التي كتبتها آمنة في صبيحة يوم زفافها.

وجد حسان أفندي، وهو واقف أمام المرأتين المتبقيتين في حياته، نفسه يتفوه بالكلمات التي لم يتخيل قطّ أن يقولها يوماً عن آمنة: "لعن الله تلك الابنة التي لطخت اسمي بالوحل". وفي تلك اللحظة، وبينما راحت زوجته تذرف الدموع الغزيرة حزناً، استغل الرجل الفرصة ليخلص نفسه من الابنة التي اعتقد أنها ستشكل عبئاً عليه طوال حياته. فألبس الفتاة الصماء والبكماء ملابس زفاف أختها آمنة ووضعها مكانها.

وهكذا، لم يعرف لوكا الذي أمضى حفل الزفاف بذهول وهو يفكر متأملاً حياته المستقبلية مع آمنة في المدينة، أن كل خططه من أجل الحصول على ثروة أبيه، وكل الأغنيات التي تمنى أن يغنيها، وكل أبواب الحرية التي رآها تنفتح أمامه ذهبت أدراج الرياح.

ولم يدرك الخدعة التي قام بها حسان أفندي إلى أن رفع الخمار عن رأس زوجته في أثناء طقوس الزواج ليرى وجهها للمرة الأولى، فقد وجد نفسه ينظر بغباء شديد إلى وجه فتاة غريبة لا يعرفها. وبينما شرب الرجال نخب العريس والعروس في ما بعد، لم يجد حسان أفندي ما يقوله للوكا سوى: "ومع ذلك، فهي زوجتك حسب التقاليد. إذ إنها شقيقة خطيبتك، لذا لديّ كل الحق بأن آمرك بالزواج بها، ولكنك ستلحق العار بنفسك إن رفضتها الآن". وهكذا، وجد لوكا نفسه متزوجاً فتاة صماء وبكماء لا تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها، تنظر إليه بعينين كبيرتين مفعمتين بالخوف، وتبتسم بين الحين والآخر، بينما راحت أمها تقبل جبينها وتبكي.

في تلك الليلة، ظل ينظر إليها ويرى الرعب الذي شل حركتها.

وأمرها بأن تشيح بوجهها ليغير ملابسه، بينما ملأ الترقب المكان بينهما. وفي صباح اليوم التالي، اصطحبها معه إلى غالينا ليعرف أهله إلى عروسه الطفلة التي تزوجت بابن الجزار. ولم يعد هناك ضحك ولا صداقة ولا أمل بالمستقبل. استغرقت الرحلة خمسة أيام. وفي اليوم الثاني، أدرك أنه نسي اسمها رغم أنه على الأرجح سمعه في وقت أو آخر.

وقال لها: "ماذا يدعونك؟". فلم تجب. عندها، أمسك بيدها وهزها قليلاً وقال: "اسمك... ما هو اسمك؟". ولكنها اكتفت بالابتسام.

ومما عقد الوضع أكثر، أن لوكا وجد المنزل الذي لطالما تذكره عامراً بالصخب والجري وبكاء الأطفال وقدور الطعام التي تغلي على الموقد طوال الوقت، صامتاً كالقبر. ورأى والده الذي حولته الشيخوخة إلى رجل مقعد محني الظهر جالساً وحده بجانب نار خفيفة مشتعلة في الموقد. فقال الوالد من دون أن يلقي أي تحية على ابنه الوحيد المتبقي على قيد الحياة عندما نظر إلى عروسه وهي تخطو على العتبة: "ألم تجد عروساً أفضل من هذه؟". لم يتحل لوكا بالقوة الكافية ليخبر والده باستمتاع أنه حاول التوصل إلى نتيجة أفضل من هذه ففشل، ولكنه سيعالج الوضع بعد وفاته.

بدأ هذا الأمل البعيد ينمو مجدداً في قلب لوكا، فاستسلم لحياته الجديدة المؤقتة. ووجد نفسه يخطط مجدّداً للعزف على قيثارته حتى من دون آمنة، ويحلم بأغنياته وبمدرسة الموسيقى. وفي غضون ذلك، لم يجد في حياته سوى الفتاة الصماء والبكماء، والرجل المسن العاجز، وثغاء الخراف التي ستذبح قريباً، ومعمل حفظ اللحوم، وغضبه من الإجحاف الذي حرمه من المستقبل الذي لطالما حلم به.

دهش لوكا من السرعة التي اعتاد فيها على وجود زوجته. فقد كانت تتمتع بعينين كبيرتين ومشية هادئة. وأصبح ينظر إليها في بعض الأحيان

ويرى وجه آمنة. دعاها باسمها عدة مرات، ووجد أنها تحتاج إلى بعض الإرشـاد، فتوجـب عليـه أن يعلمها كيف تشـعل الموقد، ويرشـدها إلى مكان حوض الماء، وأن يصطحبها إلى القرية عدة مرات ليعلمها كيف تتسوّق، ولكنه اكتشف أنها بدأت تتولى تلك الأمور حالما تعلمت كيفية القيام بها للمرة الأولى. لذا، أصبحت تتولى كل المهمات، وتساعده في معمل حفظ اللحوم، وتغسل ثيابه، وتغير ملابس والده الملوثة، وتجلب الماء من البئر، وتسـاعد الرجل العجوز على المشـي على درج الشـرفة كل يوم ليتنشق الهواء المنعش من دون أن تتذمر أو تنطق بحرف. وفي بعض الأحيان، شـعر بالسّـرور عندما كان يأتي إلى البيت في مسـاء كل يوم ويراها تبتسم له.

ألـم يكـن مـن الممكـن أن يتركها لوكا هناك فـي غالينا مع الرجل العجـوز بعـد أن تعافـى من الصدمـة الأولية لما حدث له؟ ألم يكن في وسعه أن يأخذ القليل من المال الذي خبأه والده في الخزنة تحت ألواح الخشـب فـي أرضيـة المنـزل ويغادر إلى المدينة وحـده ويعثر على فتاة أخرى تحل محل آمنة؟ بلى، بالتأكيد. ولكن، بعد أن تبع زوجته الصماء والبكماء عدة مرات إلى البلدة ليبعد عنها الأطفال الذين بدأوا يتجمعون خلفها ليسـخروا منها ويصيحوا عليها بالكلام البذيء الذي تعلموه من آبائهـم، أدرك أنـه عقـد الأمور أكثر عندمـا أحضرها إلى القرية. فقد بدأ النـاس يتحدثـون مـن وراء ظهره قائلين: انظـروا إلى تلك الفتاة الصماء والبكمـاء التـي أحضرهـا إلـى البيت. من أين أتى بهـا؟ ما الذي يحاول أن يخفيه؟

وفـي عصـر أحـد الأيـام، عـاد إلى البيـت ووجد والده كورتشـول بصحبـة الفتـاة فـي العلية. وكان الرجل قـد أخرج علبة تذكاراته الحربية ليمثل عليها دور العطف والحنان. صعد لوكا إلى الأعلى، ووجد الفتاة الصماء والبكماء جالسة هناك متصالبة الساقين والصندوق على ركبتيها.

ورأى الرجل العجوز جالساً قربها ويده تمتد إليها.

ظل لوكا يصيح لفترة طويلة بعد أن دفع أباه بعيداً عنها قائلاً: "إنها طفلة! إنها طفلة! إنها طفلة!".

رد عليه كورتشول بصوت عال وهو يبتسم: "نعم، إنها طفلة!". ثم تابع: "ولكن، إن لم تبدأ بإنجاب الأبناء من زوجتك، فسأجد بنفسي حلاً لهذا الوضع".

عندها، أدرك لوكا أنه لم يعد يستطيع أن يتركها هناك لأنه خشي أن يؤذيها كورتشول؛ إن لم يكن قد فعل هذا مسبقاً وأجبرها على ذلك في أثناء غيابه عن البيت. ولا بد أنها عجزت عن مقاومته.

وهكذا، اضطر لوكا إلى البقاء. وكلما مكث مدة أطول، ازداد الحلم الذي يتوق إليه بعداً عن متناول يده. وكلما ازدادت إهانات كورتشول له، ازدادت معها الأسئلة التي بدأ الناس الذين يدخلون متجر الجزار يطرحونها عليه عن زوجته، حتى أصبح يرى أنها السبب في بقائه هناك. في تلك اللحظات، أصبح صمت زوجته يرعبه لأنه أيقن أنها كانت تستطيع أن ترى كل فكرة تخطر بباله. فقد بدت أشبه بحيوان صامت حقود كالبومة. ومما زاد الأمر سوءاً – على الرغم من اعتقاده أنه من حقه أن يفكر في ما يريده – أنه تعرض للخداع والغش. فما الذي أرادته منه تلك الفتاة في الوقت الذي شل فيه ذلك الحظ السيئ حركته؟ وجد نفسه يتمنى أن يشرح لها ويخبرها أن أياً من ذلك ليس ذنبها؛ فالصمت والزواج ومعاملة كورتشول السيئة كلها لا علاقة لها بها. وأراد أن يشرح لها أيضاً أن أياً من ذلك ليس ذنبه هو أيضاً، ولكنه عانى من وقت عصيب بما فيه الكفاية وهو يحاول أن يقنع نفسه بذلك.

وذات يوم صيفي، وفيما كان الطقس شديد الحرارة، انفجر الوضع أخيراً. فقد عجز لوكا عن تحمل ذلك الجو المزعج بينما كانت الفتاة منشغلة بغسل الثياب في زاوية المطبخ، فيما والده يشخر في إحدى

غرف النوم الفارغة العديدة. كان لوكا قد عاد إلى البيت ليستريح في فترة العصر بانتظار مرور أسوأ فترات النهار قبل أن يتوجه عائداً إلى المتجر. وكانت ثمار الخوخ قد نضجت في البستان، فأحضر ثلاث حبات إلى المطبخ، وراح يقطعها على الطاولة الفارغة، ثم شغّل المذياع. وعندئذ ميز مقطوعة شعرية من إحدى أغنياته تُذاع مشوّهة وقد تحوّلت إلى دعابة فظيعة. وعندها، شعر بجسده كله يوشك على الانهيار.

كانت تلك هي الأغنية التي ألفها مع آمنة وعنها، ولكن الأغنية تحولت من أغنية حالمة تُعزَف على القيثارة إلى أغنية صاخبة. حاول أن يقنع نفسه أنه سيستيقظ بعد لحظات، ويكتشف أنه تحت تأثير الشراب الذي احتساه في الليلة الفائتة. ولكنه لم يستيقظ، بل جلس بصمت على كرسي المطبخ، بينما تواصل ترداد كلمات الأغنية إلى أن انتهت، ثم انتقل المذياع إلى بث أغنية أخرى. لقد مضت أغنياته في طريقها من دونه ووصلت إلى مدرسة الموسيقى.

رفع نظره ورأى الفتاة واقفة فوقه، وقميصه المبلل معلق على كتفها وكأنه بشرة ثانية.

قال لها: "أصغي!". ولمس أذنه، ثم أشار إلى الراديو، ومرر أصابعه على قمة صندوق من الخشب الماهوغاني. ولكنها وقفت بصمت وابتسمت له. وفي تلك اللحظة، كان لا يزال على طبيعته. وبعد ذلك، هزّت كتفيها، ثم انحنت إلى الأمام، وأخذت إحدى شرائح الخوخ، ووضعتها تحت لسانها، واستدارت لتخرج من المطبخ. في تلك اللحظة، نهض بسرعة قبل أن يدرك ما يفعله، ودفع الطاولة باتجاهها، فسقطت على الأرض، ووقعت الطاولة بكل ثقلها فوقها. رن الصوت الذي أحدثه جسمها عندما لامس الأرض في أذنيه، ولكنه وقف أمامها، وراح يركل أضلاعها ورأسها بقدميه إلى أن خرج الدم من أذنيها.

لقد شكل كل ما حدث مفاجأة كبيرة له. فقد فوجئ بشدة غضبه الثائر، وبالصوت الذي يصدره حذاؤه حين يضرب جسدها، وبسكوتها وفمها المفتوح بصمت وعينيها المغمضتين. وأدرك أنه مضى في ضربها أكثر بكثير مما كان ينوي لأنه توقع منها أن تصيح من شدّة الخوف أو الألم. وأدرك بعد ذلك بينما كان يساعدها على النهوض أن فضوله حيال قدرتها على التفوه بأي صوت قد أشبع تماماً. والآن، بعد أن حدث ذلك، تفاقمت في داخله حدة الغضب من نفسه ومنها، لأنها بدت متفاجئة وبائسة وخاضعة جداً عندما أحضر الماء من الخارج لينظف الدماء التي لطخت وجهها.

أقنع نفسه بأن هذا لن يتكرر أبداً، ولكنه تكرر بكل تأكيد. فقد انفتح في داخله باب لم يعد يستطيع أن يغلقه. حدث ذلك في ليلة جنازة والده، عندما لم يعد هناك سوى لوكا والفتاة والبيت والصمت الذي يكتنف المكان. وفكر في سرّه: لن يأتي بعدي أبناء آخرون إلى هذه العائلة. وهكذا، سيختفي اسمها إلى الأبد. حاول أن يقنع نفسه بأنه يستطيع أن يتقرب من زوجته، ولكنه وجدها صغيرة ومتوترة وساكنة كالموت، فلم يستطع أن يجبر نفسه على إيذائها بهذا الشكل. ولم يقدم له ضربها أي مساعدة أيضاً، ولكنه جعله يشعر أنه حقق شيئاً ما على الأقل، ومنعها من إصدار حكمها عليه؛ ذلك الحكم الجائر الذي شعر بوجوده ولكنه لم يستطع أن يجبرها على التفوه به صراحة ولا على التخلي عنه ونسيانه.

في نهاية المطاف، لم يعد يرى سوى الخوف في عينيها عندما يدخل البيت، والطريقة التي تنكمش بها كتفاها وهي تمسح الأرض عندما تشعر بخطواته على ألواح الخشب. وبدأت طريقة نظرها إليه تظهر له جانباً خفياً من شخصيته أدهشه وفاجأه. في بعض الأحيان، اعتاد أن يرمي عليها فاكهة وأطباقاً، أو قدراً من الماء المغلي الذي

يحـرق جسـدها، ويبلـل ثيابها وهي تلهث، وعيناهـا تنظران إليه برعب. وذات مرة، ثبتها إلى الجدار بجسده، وراح يضرب وجهها بجبينه بقسوة إلى أن وصل دمها إلى داخل عينيه.

* * *

إن الناس الآن يقدمون ألف تبرير لزواج لوكا من زوجة النمر. إذ يقول البعض إنها ابنة غير شـرعية لمقامر سـيئ السـمعة أجبر لوكا على الزواج بها ليسدد له ديناً ضخماً، وهذا سر مخز ظل يلاحقه طوال تلك السـنوات التي أمضاها في تركيا. ووفقاً لما يقوله آخرون، فقد اشـتراها من لص في اسطنبول يبيع الفتيات في سوق النخاسة، فظلت الفتاة واقفة بهدوء بين أكياس التوابل وجبال الفاكهة إلى أن عثر لوكا عليها.

أيـاً يكـن السـبب الـذي دفع لوكا إلى الزواج بالفتاة، فقد سـاد بين النـاس اتفـاق عـام بأن الهدف من وجودها في حياته إخفاءُ أسـراره لأن الفتاة صماء وبكماء؛ لذا فهي لا تستطيع أن تفشي حقيقة رذائله العديدة التي يفترض أنه قام بها خلال غيابه الذي دام عشر سنوات؛ وهذا صحيح من بعض النواحي. إذ ربما سمح لنفسه بأن يعثر على فتاة يضعها حائلاً بينـه وبيـن أهـل القرية، ويسـاعده مظهرها - وربمـا إعاقتها - على منع الناس من التواصل معه ليعزل نفسه عن محيطه، ويعود إلى التفكير في حلمـه المسـتحيل. وقصـد لوكا أيضاً من وجودهـا أن يذكرهم بالحرب الماضية، وبمخاوف آبائهم، وبالقصص التي سـمعوها عن الأبناء الذين خسـرهم أهلهم في حروب السـلطان. ففكر القرويون في أنه عثر لنفسـه علـى زوجـة لا تسـتطيع أن تطالبـه بـأي شـيء، ولا أن توبخه أو تطلب منه أي مال.

لكـن احتفـاظ لـوكا بهذه الزوجة أقحمه فـي وضع غير مرحب به. فقـد اسـتخف بالقـوة التـي تنطـوي عليها غرابـة أطوارهـا، وبإمكانية أن يصبـح أهـل القريـة مفتونين بها. وبدأ النـاس يتبادلون الأقاويل أكثر من

أي وقت مضى، وتحوّلت السرية التي كان يسعى إليها في حياته إلى موضوع عام للثرثرة والإشاعات. وأصبح في وسعه الآن أن يسمعهم وهم يثرثرون ويكذبون بكل وقاحة عندما يتحدثون عن المكان الذي أتت منه، وكيف عثر عليها، ويتساءلون عن الكدمات على ذراعيها، وعن سبب ندرة رؤيتهم لوكا وزوجته مع بعضهما في مكان عام، وعن سبب عدم إنجابهما الأطفال حتى الآن. وأدى كل جواب محتمل إلى توالد المزيد من الأسئلة والمزيد من الإهانة والذل. وازداد الوضع سوءاً عما كان عليه في أول شتاء لزواجهما عندما اصطحبها إلى دار العبادة في الميلاد. إذ صار الجميع يتهامسون حولهما قائلين: "ما الذي يعنيه بإحضارها إلى هنا؟". ثم تفاقم الوضع أكثر في الميلاد التالي عندما لم يحضرها. فقالوا: "ما الذي يعنيه بتركها وحدها في البيت؟".

والآن، بدأوا يتكلمون عما حدث في معمل حفظ اللحوم. ففي اليومين التاليين للعثور على النمر في القرية، انتشرت الأقاويل في كل مكان. وبدأ الجميع يتساءلون وهم يقفون عند مداخل البيوت قائلين: "ما الذي كانت تفعله في معمل حفظ اللحوم مع ذلك النمر؟ وما الذي يعنيه هذا؟ ترى، هل يعجز لوكا عن السيطرة عليها؟".

ظل لوكا طوال أسابيع يشك في أن اللحم ينقص من معمل اللحوم، ولكنه لم يتوصل إلى حكم أكيد لأنه رفض أن يصدق أنها تتمتع بالجرأة الكافية لكي تسرق منه. وبعد ذلك، رأى النمر بأم عينيه، وصعقته رؤية كتف الحيوان بين فكي النمر الضخم. ففكر في سرّه في أن تلك الغجرية الصغيرة التافهة تتسلل إلى معمل حفظ اللحوم، وتعطي النمر قطعاً من اللحم وتجعله يبدو كالمغفل.

وفي الليلة التي عاد فيها من مطاردة النمر، أخرجها من البيت، وربطها في معمل حفظ اللحوم، وأقنع نفسه بأنه يريد فقط أن يعاقبها. ولكن، بينما كان يتناول عشاءه ويستعد للنوم، أدرك أنه تمنى في قرارة

نفسه أن يأتي النمر إليها في تلك الليلة ويمزقها إرباً، فيستيقظ هو في الصباح ولا يجد شيئاً.

* * *

إن ذهب المرء إلى غالينا، فسيقص عليه الناس روايات متضاربة حول اختفاء لوكا. ففي إحدى تلك الروايات، يستيقظ حطاب القرية من حلم نسيت فيه زوجته أن تضع الفطيرة في الفرن فقدمتها له نيئة، وينظر عبر النافذة فيرى لوكا يتجول في الطريق مرتدياً ثياب نومه، وهناك وشاح أبيض مربوط حول رأسه لكي لا يسقط فكه، ومئزره الملطخ بالدم معلق على إحدى كتفيه. في تلك الرواية، يبدو وجه لوكا رخواً كوجه الدمية المتحركة، وهناك ضوء ساطع يشع من عينيه وكأنه دليل على بداية رحلة جديدة. يقف الحطاب وستائر النافذة مفتوحة على وسعها، وساقاه مسمّرتان من شدة الخوف وقلة النوم، ويشاهد تقدم الجزار البطيء عبر ندف الثلج التي تتساقط على قدميه الحافيتين.

أما الآخرون فيقولون إن ابنة الخباز الكبرى نهضت باكراً لتشعل الأفران، وتفتح النوافذ، وتدع هواء الشتاء البارد يدخل الغرف، فرأت صقراً جاثماً كتمثال أثري على الثلج المتساقط على أرض حديقتها. بدا جناحا الصقر داكنين بسبب الدم. وعندما سمعها وهي تفتح النافذة، استدار ونظر إليها بعينيه الصفراوين، فسألت الفتاة الصقر قائلة: "هل كل شيء على ما يرام، يا أخي، أم لا؟". فأجاب الصقر قائلاً: "لا". ثم اختفى.

أياً تكن التفاصيل، فقد أجمع أهل القرية على وجود وعي مباشر لديهم بدنوّ أجل لوكا، واعتراف فوري بمسؤولية زوجة النمر عن موته. ولكن العديد من الناس الذين يروون القصة لم يكونوا قد ولدوا بعد عندما وقعت أحداثها. وبعد ذلك، أصبح من الواضح أنهم جميعاً يروون لبعضهم قصصاً مختلفة أيضاً.

لا يمكن لأحد أن يقول إن أربعة أيام أو خمسة مضت قبل أن يبدأ الشك بالتسلل إلى نفوس أهل القرية. إذ إنهم لم يستلطفوا لوكا طوال حياتهم، ولم يزوروا منزله قط. ولطالما وجدوا وقوفه بنظارته المتدلية من عنقه في دكانه الأبيض الواسع ويداه على اللحم أمراً لا يبعث على الراحة. ومع أن ابنة الخباز ذهبت لتشتري اللحم ووجدت مصاريع دكان الجزار مغلقة والمكان مظلماً، فقد مرت بضعة أيام قبل أن يذهب أحد إلى هناك مجدداً.

هناك احتمال بأن الناس ظنوا أن لوكا قد رحل لينصب الفخاخ للأرانب من أجل ولائم منتصف الشتاء، أو أنه تخلى عن القرية وقرر أن يجازف بعبور الممرات الثلجية ويشق طريقه إلى المدينة بينما لا يزال الاحتلال الألماني هناك في بداية عهده. ولكن الوضع برمته لم يفاجئ أحداً بشكل خاص إلى أن ظهرت الفتاة الصماء والبكماء في البلدة بعد أسبوعين ربما، ووجهها نضر ومشرق، وثغرها يفتر عن ابتسامة توحي بوجود شيء جديد حدث لها.

أمضى جدي فترة الصباح تلك وهو ينقل الحطب إلى البيت. وبينما كان يزيل الثلج عن أخمص حذائه عند عتبة الباب، رآها قادمة من آخر الطريق وهي متدثرة بمعطف لوكا المصنوع من الفراء. كان الجو شتوياً، والسماء صافية، فبدأ بعض القرويين يمدون رؤوسهم من أبواب بيوتهم. في البداية، لاحظها بضعة أشخاص منهم. ولكن، بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى الساحة، أصبح أهل القرية جميعاً يسترقون النظر إليها عبر الأبواب والنوافذ، ويراقبونها وهي تشق طريقها إلى متجر الأقمشة. وبعد ذلك، رأوها من واجهة المتجر وهي تتجول داخله بخفة، وتشير إلى الحرائر التركية المعلقة على الجدران، وتمرر يديها بشغف على الأقمشة التي فردها صاحب المتجر على الطاولة. وبعد بضع دقائق، رآها جدي وهي تعبر الساحة متأبطة رزمة من الأقمشة الحريرية، بينما

يتبعها موكب من نساء القرية من بعيد بفضول شديد منعهن حتى من التظاهر بعدم الاكتراث.

ترى، من أطلق عليها اسم زوجة النمر؟ لست أدري فعلاً لأنني لم أتمكن قط من معرفة السبب الحقيقي. فقد ظلت الفتاة حتى لحظة اختفاء لوكا تعرف باسم الفتاة الصماء والبكماء. وفجأة، لم يعد لوكا، لأسباب غير محددة بالنسبة إلى القرويين، يشكل عاملاً مساعداً على فهم شخصيتها. فقد ظهرت في ذلك اليوم لأول مرة، واتشحت بالحرير التركي، وتأملت نفسها معجبة أمام المرآة في متجر الأقمشة. واتضح للقرويين أكثر من أي وقت مضى أن لوكا لن يعود، وأنها لم تعد تخشاه بعد الآن. ورغم كل ذلك، لم يطلق عليها أحد اسم أرملة لوكا، بل باتوا يدعونها باسم زوجة النمر. فظل ذلك الاسم ملازماً لها دائماً، ولكن أحداً لم يتعجب من السبب الذي دفع أولئك الناس الذين وجدوا طرائق عديدة لتجنب تسميتها باسم زوجة لوكا إلى نسبها مباشرة إلى النمر. فقد أوحى إليهم حضورها المفاجئ في البلدة وهي تبتسم وتبدو خالية من الكدمات بإمكانية مثيرة وغير متوقعة لما يمكن أن يكون قد حصل للوكا؛ وهي إمكانية ظل أهل غالينا متشبثين بها لسبعين عاماً بعد موتها.

* * *

لو أن الأمور آلت إلى نتيجة مختلفة، ولو حلت مصائب الشتاء بترتيب آخر مختلف، ولو لم يسهر الخباز إلى وقت متأخر في سريره تلك الليلة ويرى، أو يظن أنه يرى، شبح حماته واقفاً عند مدخل الباب، ويتقلب تحت عبء هواجسه الخاصة، ولو نضجت فطائر عمة الإسكافي بشكل ملائم ولم تعكر مزاجها، لوصلتنا الإشاعات التي انتشرت حول زوجة النمر بشكل مختلف ربما، ولتبادل الناس محادثات أكثر منطقية وتسامحاً، ولأصبحوا ربما ينظرون إلى زوجة النمر كما لو أنها بطلة

قصة حب ورمزٌ للقرية برمتها. بدأت الفتاة – من دون أن يأذنوا لها بذلك – تتحول إلى شخصية مهمة وكيان يحول بينهم وبين النمر الذي يتربص بهم على التل. ولكن شتاء ذلك العام امتد لمدة أطول مما يستطيع أحد أن يتذكر، وأتى مليئاً بآلاف الإزعاجات الصغيرة، وآلاف الشجارات التي لا معنى لها، وآلاف المخازي الشخصية، بينما أخذت الحرب تلوح في الأفق أكثر يوماً بعد يوم. ولهذا، تحملت زوجة النمر وحدها عبء النحس الذي حل بالقرويين.

هكذا، تواصل نشر الأقاويل عنها بشكل مستمر وغير مبال أو محمل بالأعباء. واعتاد جدي أن يصغي إلى تلك الأحاديث وكتاب الغابة مخبأ في جيبه. وانتشرت ثرثرة الأهالي في كل ركن من أركان القرية، وعلى كل عتبة باب من أبوابها. فسمعهم وهو يدخل بيت الأم فيرا أو يخرج منه. وراحت القصص الحقيقية والقصص الملفقة وتلك التي تدمج الحقيقة والخيال معاً تتسلل كالظلال إلى أحاديثهم التي لم يكن من المفترض به أن يسمعها.

فقد اجتمعت أرملة بريكتيك ذات مرة بمدير المدرسة، وذقنُ كل منهما يبدو متدلياً كالقلادة فوق عنقه، بينما وقف جدي قرب نضد البقال ليشتري ملحاً من أجل المخلل. قالت الأرملة: "لقد رأيتها اليوم".

"من؟ أتقصدين زوجة النمر؟".

"رأيتها تخرج من منزلها وحدها كما يحلو لها".

"لقد طردته من البيت، أليس كذلك؟ لن يعود لوكا إلى هنا أبداً".

"طردته! تخيل ذلك. أتتصور رجلاً مثل لوكا يرحل بسبب فتاة صماء وبكماء؟ لوكا الذي نعرفه! لقد رأيت لوكا يأكل ذات مرة رأس خروف نيئاً".

"إذاً ماذا حصل؟".

"حسناً، إن الأمر واضح، أليس كذلك؟ لقد أخذه النمر. نعم، أخذه

النمـر. والآن، باتـت تعيـش وحدها مـن دون أن يزعجها أحد. فلا أحد يأتي إليها الآن سوى النمر".

"لا يسـعني القول إنني آسـف لهذه النهاية. إنني لسـت حزيناً جداً على المصير الذي آل إليه لوكا".

"ولكننـي حزينـة، إذ ليـس هنـاك مـن يسـتحق نهايـة كهـذه النهاية البشعة".

"ماذا تقصدين؟".

"حسـناً، أليـس الأمـر واضحـاً؟ أليس معروفـاً؟ لقد عقـدت الفتاة اتفاقيـة مـع النمـر، أليـس كذلك؟ لا بـد أنها أجهزت على لـوكا بيدها. فقـد قطعـت رأسـه على الأرجح خلال الليـل، وتركت الجثة ليأتي إليها النمر ويفترسها".

"تلك المخلوقة الصغيرة!! إنها بالكاد أكبر حجماً من الأطفال".

"إننـي متأكـدة ممـا أقولـه. نعم، هذا هو ما حدث. فقد منحها ذلك النمر الملعون القوة لتجهز على زوجها. والآن، أصبحت زوجة للنمر".

أصغـى جـدي إلـى هـذا الكلام بفضـول حذر مـن دون أن يصدق منـه شـيئاً. ونبـأه حدسـه بأن هنـاك أكاذيب وضيعة يتـم تبادلها في تلك المحادثات، وأحداثاً ملفقة لا تصل إلى حدود أفق خياله الخصب. فقد أدرك أن النمر يتمتع بكل تأكيد بجانب من صفات شريخان. وكان جدي قـد شـعر طـوال حياته بالتعاطف مع شـريخان. أما هـذا النمر، الذي لم يكن وضيعاً أو حاقداً، فلم يأت إلى القرية ليقتل الناس أو الماشية. فقد بـدا ذلـك المخلـوق الـذي قابله في معمل حفظ اللحـوم ضخماً وبطيئاً وحـار الأنفـاس، ولكنـه وجده مخلوقاً لا يخلـو من صفة الرحمة. ودار بين جدي وبين زوجة النمر تفاهم متبادل حول شيء لم يكن يبدو على القرويين أنهم يشعرون به. ولهذا، لم يثق بما دار على ألسنتهم من أقاويل عـن زوجـة النمـر لأنهم لم يكونوا يعرفون - كما يعرف هو - أن النمر

مخلوق وحيد ومختلف وملموس. ولم يثق بهم عندما بدأوا يتهامسون بأنها مسؤولة عن موت لوكا، أو عندما بدأوا يطلقون على النمر صفة الملعون. ولم يثق بهم عندما تحدثوا - بعد بضعة أسابيع على ظهورها في متجر الأقمشة - عن التغير الذي طرأ عليها. فقد بدأ شكل جسدها يتغير - على حد قولهم - وأصبحت أكبر حجماً، وأكثر إثارة للخوف. أصغى جدي إلى الأهالي في المحال والساحة وهم يقولون إنها بدت مفعمة بالقوة والغضب، وعندما قرروا في ما بعد أن روحها لم تكبر بل بطنها. فقد أخذ بطنها يبرز ويزداد حجماً. وكانوا يعرفون جميعاً دلالة هذا التغير.

فقالت سفيتلانا الحسناء لصديقاتها عندما تجمعن حول بئر القرية: "إنكم لا تظنون أن هذا حادث، أليس كذلك؟ لا بد أن تلك الفتاة قد شعرت بما سيحدث. أما لوكا، فلم يكن قط ذكياً جداً. ومع ذلك، فإنه يستحق مصيره لأنه تزوج فتاة مجهولة الأصل على شاكلتها. إن تلك الفتاة كالغجر. ولا بد أنها قد علقته على خطافات اللحم وتركته هناك ليأتي النمر ويجهز عليه".

"لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً".

"حسناً، إن صدقت أم لم تصدقي، فإنني أؤكد لك أن ما حدث للوكا ليس حادثاً، وأن ذلك الطفل الذي تحمله في أحشائها ليس حادثاً أيضاً".

"ليس هناك طفل. إن بطنها يكبر بسبب الطعام؛ فقد ظل لوكا يجوعها لسنوات، والآن أصبحت حرة لتأكل قدر ما تشاء".

"ألم تريها؟ ألم تنظري إليها وهي تمشي في البلدة ببطء شديد وثوبها يزداد انتفاخاً من الأمام؟ إن لتلك الفتاة بطناً يصل إلى هنا. هل أنت عمياء؟".

"ليس لديها بطن".

"آه، بل لديها بطن. وسـوف أؤكد لك شـيئاً آخر أيضاً؛ إن الطفل الذي تحمله ليس طفل لوكا".

* * *

لـم يخطـر ببـال جـدي قـط أن يتقبل ما فكر الآخـرون فيه، أي أن الطفل طفل النمر. فقد شكل الطفل من وجهة نظر جدي حدثاً عارضاً، ولكـن مـن دون أن يتوجـب عليـه أن يخمن ما خمنته أنا؛ أي أن الطفل أتى نتيجة غيبوبة ثمالة من غيبوبات لوكا، أو اغتصاب تعرضت له الفتاة على يد أحد القرويين، وأن ذلك حدث قبل أن يأتي النمر إلى غالينا.

مع ذلك، لم يعد ثمة مجال لإنكار أن زوجة النمر بدأت تتغير. وأياً يكن مصدر ذلك التحول، ومهما دار من إشاعات في القرية حوله، فقد أدرك جدي أن الشـاهد الحقيقي الوحيد عليه هو النمر. فقد فهم النمر الفتـاة كمـا فهمتـه هـي: أي من دون أحكام مسـبقة أو خوف أو حماقة، ومن دون أن يتبادلا صوتاً واحداً. فتوصل جدي إلى ذلك الإدراك غير متعمـد؛ فـي تلـك الليلة في معمل حفظ اللحوم. وأصبح يتمنى من كل قلبه أن يشكل جزءاً من تلك العلاقة التي تربط بين النمر والفتاة. وشعر أن توقه متعلق بأبسـط مسـتوياته بالنمر وحده ولا شـيء غيره. فقد كان جدي مجرد صبي يعيش في قرية صغيرة ترزح تحت وطأة شتاء شديد القسوة. لقد أراد من أعماقه أن يرى النمر، ولكن هناك ما هو أكثر من ذلك. فأخذ يرسـم، وهو جالس قرب الموقد في منزل الأم فيرا، شـكل النمـر علـى الرمـاد، ويفكـر في كيفية معرفـة الجميع – من دون أن يروا ذلك – أن لوكا قد مات، وأن النمر الملعون هو الذي قتله، وأن الفتاة تحمل طفل النمر. فتسـاءل: لماذا لم يخطر ببال الجميع أن يدركوا ما خفي عنهم من حقائق، وأن يعرفوا كما عرف هو أن النمر لم يقصد أن يتسـبب بالأذى لأحد، وأن ما يجري في ذلك البيت لا علاقة له بلوكا أو القريـة أو الطفـل؟ فتخيـل الليل وهو يخيم على القرية ويفرش عليها

ملاءة من الصمت، ثم النمر وهو يتسلل بهدوء من أعلى التل حاملاً معه تلك الرائحة القوية الرطبة بسبب الثلج الذي يبلل أذنيه وظهره، ثم رآه في عين خياله مضطجعاً لساعات بجانب الموقد وهو يشعر بالدفء والراحة، فيما الفتاة متكئة على جنبه وهي تزيل الأشواك عن فرائه، بينما يستلقي بجسده الضخم، ويخرخر بصوت خافت، ويلعق الثلج العالق بقوائمه.

لقد أدرك جدي أن هذا ما يحدث، ولكنه أراد أن يراه بأم عينيه. والآن، بعد أن رحل لوكا، لم يعد هناك سبب يمنعه من الذهاب. وهكذا، عندما أسرع إلى زوجة النمر ذات يوم وهي عائدة إلى البيت من دكان البقال وذراعاها محملتان بعلب المربى والفاكهة المجففة، وجد نفسه يتحلى بالشجاعة الكافية لكي يبتسم لها ابتسامة عريضة، ويربت على معدته بشكل يدل على السرور والتفهم. لم يعرف إن كان قد فعل هذا استحساناً لاختيارها المربى، أو لأنه أرادها أن تعرف أنه لا يكترث لأمر الطفل. ابتسمت له الفتاة منذ اللحظة التي رأته فيها في الطرف المقابل من الساحة، وظلت تبتسم. وعندما توقف ليحييها، وهو أول شخص يفعل هذا منذ أسابيع، وضعت أربع علب من المربى بين ذراعيه، وتمشيا جنباً إلى جنب على طول الطريق وعبر المرج، ومرا بجانب معمل حفظ اللحوم الفارغ، ثم دخلا عبر بوابة البيت.

* * *

لم تتوان النسوة اللواتي يهيئن الشموع في دار العبادة عن الثرثرة وتبادل الإشاعات حول زوجة النمر. فقالت إحداهن: "سوف تعاني وقتاً عصيباً مع ذلك الطفل من دون أن تجد لنفسها زوجاً سوى النمر. إنني أؤكد لكم أن هذا يجعل جلدي يقشعر اشمئزازاً. ينبغي لهم أن يطردوها من القرية. إذ لا بد أنها ستطعم النمر أطفالنا".

"إنها غير مؤذية".

"غير مؤذية! اسألي المسكين لوكا عن الأذى الذي ألحقته به وسوف يخبرك عن مدى براءتها إن استطاع ذلك".

"حسناً، إنني واثقة أن لديها بضعة أشياء لتقولها عن لوكا إن استطاعت ذلك. يا الله! إنني مسرورة لأنها قتلته؛ إن كان هذا صحيحاً. أنسيت الضرب والإهانة اللذين تعرضت لهما على يده؟ آمل أن تكون قد أطعمته لذلك النمر ببطء شديد؛ القدمان أولاً".

"هذا ما سمعته فعلاً. فقد سمعت أنها قطعته إلى أجزاء هناك في معمل حفظ اللحوم، ثم أتى النمر لتناول العشاء، فراحت تطعمه أجزاء من جثة زوجها الميت وكأنها تقيم وليمة".

"جيد".

"حسناً، ألا تدركين لم قتلته؟ لم تفعل ذلك من أجل نفسها بل لتحمي الطفل، أليس كذلك؟".

"ماذا تعنين؟".

"إن طفل النمر ينمو في أحشائها. تخيلي ما كان سيحدث عندما يولد الطفل، وعندما يراه لوكا وهو في تلك الحالة. كان سيقتلها لا محالة، أليس كذلك؟ وقد يفعل ما هو أسوأ من ذلك".

"ماذا تعنين بالأسوأ؟".

"حسناً، قد يفعل ما يفعله الذئب".

"وماذا يفعل الذئب؟".

"ألا تعرفين؟ إن الذئب يقتل جراء الذئب الآخر عندما ينضم إلى القطيع. إنه في بعض الأحيان يقتل الذئبة التي تلدها. ألا تعرفين شيئاً؟".

"لم أكن أعرف ذلك".

"حسناً، لهذا السبب قتلته، أليس كذلك؟ لكي لا يجن جنونه كالذئب ويقتل طفلها المنسوب إلى الملعون عندما يولد".

"إن هذا يبدو منطقياً جداً من وجهة نظري. لا بد أنها قتلته لتفسح

مجالاً للنمر. ومع ذلك، فقد كان لوكا أكثر لؤماً منها بعشر مرات. كيف تظنين أن ذلك الطفل سيبدو؟".

"لا أعرف هذا. وأنا واثقة بأنني لا أريد أن أعرفه. آمل أن يطردوها من القرية. طوال خمسين عاماً من حياتي لم تقع عيناي على ملعون. ولست أنوي أن أبدأ بذلك الآن. آمل أن تتحلى تلك المرأة بالفطنة الكافية لكي تبقي ذلك الطفل في المنزل ولا تخرجه منه كي ينظر إليه أطفالنا".

"سأقول لك شيئاً واحداً: إنني لست فيرا، لذا لن أدع أطفالي يلعبون مع ذرية الملعون".

ضبطته الأم فيرا قبل أن يصل إلى البيت عائداً من بيت الجزار. فقد كانت واقفة على الدرج المؤدي إلى الشرفة بانتظاره عندما عاد عند الغسق في المرة الأولى. وبينما كان يتسلل عبر الحقل، رآها واقفة بانتظاره. طأطأ رأسه متوقعاً أن يسمع منها توبيخاً، ولكنها لم تفعل شيئاً - وهذا ما أثار دهشته - بل تأملته قليلاً ثم سحبته إلى داخل المنزل. إذ بعد أن سمعت ما يدور حولها من أقاويل، ملأت بنفسها سلة طعام بالفطائر والمربيات والمخللات وبعض الملابس وغصن من إكليل الجبل، وأرسلت جدي ليوصلها إلى زوجة النمر عصر ذلك اليوم نفسه؛ على مرأى من جميع أهل القرية، بينما وقفت هي عند مدخل البيت وهي تصيح وتطلب منه أن يحث الخطى. راح جدي يبتسم بلطف للمارة وهو يثبت السلة على خصره، ويشق طريقه عبر ركام الثلج. وعندما وصل إلى وسط الحقل، سمع الأم فيرا تصيح من خلفه قائلة: "ما الذي تنظرون إليه، أيها الحمقى؟".

* * *

طيلة شهر كامل، ظل جدي يحمل الطعام وأغطية الأسرة لزوجة النمر، وظل الشتاء جاثماً بقسوة على جبال غالينا، ومحكماً قبضته على

العالم. وواصل جدي أخذ الماء وحطب الموقد إلى بيتها، ثم أخذ قياس رأسـها لتحيـك لهـا الأم فيـرا قبعة جديدة، وهـذه مهمة قامت بها المرأة العجوز علانية؛ متحدية كل القرية، وجلسـت على الشـرفة لكي يتمكن جميع الأهالي من رؤيتها وهي ملفوفة بسـت أو سـبع بطانيات، ويداها مزرقتان من البرد. لم تعبر المرج قط لتحيي زوجة النمر، ولكنها كانت بيـن الحيـن والآخر تعطي جـدي القبعة نصف المنتهية، وهي عبارة عن قبعة منسوجة من الصوف الأصفر والأسود. فكان بدوره يحملها بلطف كما يحمل المرء عش عصافير، ويعبر الطريق، ثم يصعد الدرج المؤدي إلى الشـرفة، ويزيل الإبر منها، ويدس شـعر زوجة النمر اللامع تحتها، ثـم ينظـر إلـى منزلـه في الطرف المقابل مـن المرعى بينما تومئ له الأم فيرا باستحسان.

لـم تسـمح الأم فيـرا لجـدي بأن يتلـكأ في منزل الفتـاة بعد حلول الظـلام، ولهـذا لـم يتمكن من أن يلمح النمر قط، ولكنه لم يفقد الأمل في رؤيته. فاعتاد في معظم فترات العصر أن يضع البطانيات على الأرض بجانـب الموقـد فـي منـزل الفتاة، ويسـاعدها على الجلـوس، ثم يخرج كتاب الغابة. ولكنه اسـتغرق عدة أيام ليدرك أنها لا تجيد القراءة. فقد جلس ذات يوم بجانبها والكتاب مفتوح على ركبتيه ظناً منه أنه يسـمح لها بذلك بالقراءة معه بصمت، ولكنه لاحظ في ما بعد أنها راحت تقلب الصفحـات بنفـاد صبـر لتنظر إلى الصـور، ففهم حقيقة الوضع. لذا، بدأ يرسم لها أحداث قصة ماوغلي وشريخان وشخصياتها بأشكال مشوهة وغيـر متناسـقة علـى رماد الموقد. فرسـم النمر والفهـد والذئب والذئبة الأم والجـراء الرضيعـة، ثم رسـم ابـن آوى تاباكي أو حاول على الأقل أن يتخيـل شـكله لأن الكاتـب روديـارد كيبلينغ لم يرسـمه في الكتاب. لذا، رسم مخلوقاً يشبه السنجاب أو سنجاباً غريب الشكل وكبير الأذنين يحوم بيقظة حول العرين وفريسة شريخان. ورسم قطيع الذئاب وصخرة

المجلس، وعبّر لها من خلال عدة رسومات على الرماد كيف علّم بالو الإنسان-الجرو قانون الغاب. ورسم ضفدعاً ليشرح لها ما يعنيه اسم ماوغلي. فبدا الضفدع الذي رسمه غبياً ولكنه لطيف.

اعتاد جدي أن يبدأ رسوماته وينهيها برسم لشريخان لأن رسمه ذلك الهر الضعيف ذا الأنف المسطح والخطوط الشبيهة بالندوب جعلها تبتسم. وكانت زوجة النمر بين الحين والآخر تمد يدها وتصلح الرسم، فشعر جدي أنه بدأ يقترب من تحقيق هدفه.

* * *

جلس جدي على مقعد بجانب باب متجر الصيدلي بانتظار أن يعد له مرهماً ليدي الأم فيرا. وحينها، رأى امرأتين - وهما زوجتا رجلين لا يعرفهما - واقفتين عند النضد تراقبان الصيدلي وهو يحضّر المرهم من الأعشاب. فقالت إحداهما: "يقول رجل الدين إنه إن أتى طفل الملعون إلى هذه البلدة، فقد انتهى أمرنا جميعاً".

"لن يختلف الأمر كثيراً إن أتى طفل الملعون إلى قريتنا. فالملعون نفسه موجود هنا".

"ماذا تعنين؟".

"النمر. لقد رأيته يقطع المرج تحت ضوء القمر. وبدا ضخماً وذا عينين ضاريتين. أؤكد لك هذا. إنهما عينان بشريتان. وعندئذ تجمد الدم في عروقي".

"ما الذي كنت تفعلينه في ذلك الوقت المتأخر من الليل؟".

"إن هذا ليس مهماً، بل المهم هو أن النمر اجتاز كل تلك المسافة إلى باب بيت لوكا، ثم نهض وخلع جلده وتركه على العتبة في الخارج، ودخل كي يرى زوجته الحامل".

"تخيلي هذا".

"لا يجب علي أن أتخيله. فقد رأيته بأم عينيّ".

"مـن المؤكـد أنـك فعلت هذا. أما أنا فلا أزال أتسـاءل حيال ذلك الطفل".

وعندئذ قال جدي: "أعتقد أنها محببة".

فالتفت المرأتان إليه، وبدا وجهاهما محمرين، وشـفاههما متشـققة مـن البـرد. عندهـا، تحرك جدي في مكان جلوسـه على المقعد، وقال: "أقصد الفتاة. إنني أجدها لطيفة".

فعلـق الصيدلـي مـن دون أن يرفع نظره عـن الهاون والمدقة قائلاً: "ليس هناك شيء ألطف من امرأة تحمل طفلاً".

وقفـت المرأتـان عندئذ بصمت، وأدارتا ظهريهما نحو جدي الذي شعر بأذنيه تحمرّان من فرط الإحراج، ثم دفعتا ثمن أعشابهما، ولبستا قفازيهمـا علـى مهل. وعندما رحلتا، أصبـح متجر الصيدلي مليئاً بفراغ غير مرحَّب به لم يتوقعه جدي. وكان طائر "أبو منجل" واقفاً في قفصه على أحد طرفيه، فيما يبدو الطرف الآخر متوارياً تحت ريشـه الأحمر القاني.

أخذ الصيدلي المراهم عن الرفوف المصفوفة في الجزء الخلفي من المتجر. وراح يفتح أغطية العلب والمرطبانات ويمزج البلسـم الأبيض في الوعاء. وقال بهدوء: "إن الجميع خائفون من شريخان".

قـال جـدي: "ولكننـي لـم أر شـريخان فـي القرية يوماً. هـل رأيته أنت؟". نظر الصيدلي إلى جدي متأملاً، ثم عاود مزج المرهم الأبيض بملعقة خشبية ملتوية. فسأله جدي: "هل أنت خائف؟".

قال الصيدلي: "ليس من شريخان".

* * *

وبينما كان جدي يعبر الساحة في صباح أحد الأيام وفي يده سلة خبز يحملها إلى زوجة النمر سمع أحدهم يقول: "ها هو يذهب مجدّداً".

"عم تتكلم؟".

"عـن ذلـك الصبـي الصغير حفيد فيرا. إنه يذهب حاملاً سـلته إلى تلك الفتاة البائسة. انظر كيف يبدو مرتعباً، إنه يرتعد من شدة الخوف. من الخطأ أن يرسل المرء طفلاً إلى بيت الملعون".

"إن ما لا أفهمه هو كيف يمكن لذلك الصيدلي أن يجلس مكتوف اليدين ويراقب ذلك الصبي وهو يذهب إلى ذلك المنزل ويعود منه من دون أن يتفوه بكلمة واحدة؟ إنه لا يقول أبداً لتلك المرأة: اسمعي، أيتها العجوز، أبعدي طفلك عن منزل الملعون".

"إن ذلـك الرجـل الصيدلـي لا يعـرف ما يجـري. إنه ليس من هذه القرية، لذا فهو لا يعرف شيئاً ليقوله لها".

"أؤكد لك أنني سأقول ما يمليه علي ضميري عندما يتعرض ذلك الصبي للافتراس".

"أعتقد أنك مخطئ حيال هذا. فالفتاة لن تلحق به الأذى".

"نعم، لن يحدث هذا على الأرجح حسـب الأسـلوب الذي تتبعه فيرا. هل تعرف أن هذه هي السـلة الثالثة التي ترسـلها إليها خلال هذا الأسبوع؟ ما الذي ترسله فيها؟".

"إنها مياه. فليحفظنا الله".

"لماذا ترسل إليها السلال؟".

"إنها ربما تشعر بالأسى".

"لماذا؟ من يشعر بالأسى على فتاة تحمل طفل الملعون؟".

"لسـت أدري. لقـد عملـت فيـرا قابلـة فـي الماضـي، ولهـذا أظن أنهـا تشـعر أنـه مـن واجبها أن تسـاعد تلك الفتـاة. إذ لا ينبغي أن تترك وحدهـا، لـذا فهي ترسـل لها الطعام. لقد رأيـت ذلك الصبي وهو يعيد مـلء تلـك السـلة عندمـا سـقطت منه مرة أو مرتين. وكانـت دائماً مليئة بالخبز والحساء أيضاً".

"تخيـل أن تطعـم تلـك الفتاة اللعينة فـي الوقت الذي لم يعد لدينا

فيـه أي لحـم. إنهـا تطعـم زوجة النمر في الوقـت الذي حُرمنا فيه نحن من اللحم لأن الفتاة تدخره كله للنمر".

* * *

قص جدي على زوجة النمر قصة جذع الباندر وكوتيك، أو الختم الأبيض، ولكنه كلما وصل إلى نهاية قصة شريخان لم يستطع أن يجبر نفسـه علـى إخبارهـا نهايتهـا الحقيقية. فقد وجد النمر نفسـه في أخدود الـوادي مـع رامـا وجواميـس المـاء التي فـرّت جماعياً بنـاء على أوامر ماوغلـي. لـم يسـتطع جـدي أن يفصـح لها عـن الطريقة التـي أنهى بها الإنسان-الجرو حياة النمر، أو أن يجبر نفسه على رسم صورة شريخان على الرماد وهو يبدو جثة هامدة، أو صورة جلده المجعد الملقى على صخرة المجلس. وبدلاً من ذلك، رسم لها أحداثاً مختلفة في كل يوم. ففي بعض الأحيان، كان يجعل راما يتعثر ويستسلم. وعندما نشب عراك بين شـريخان والجواميس، مرر جدي أصابعه على الشـخوص الرمادية وأثـار غيومـاً مـن الرمـاد وفوضـى إلـى أن عثـر على طريقـة أخرج بها شـريخان مـن الشـجار حيـاً. وفي أحيان أخرى، لـم يكن الموقف يصل إلـى رامـا مطلقـاً؛ ولا سـيما إن أخاف ماوغلي النمـر الأعرج بالنار، أو نصـب لـه قطيـع الذئـاب كميناً وأبعده عنه. وبيـن الحين والآخر، كانت الشـجارات تنتهـي بحالـة ركود، فيأتـي الجميع لعقد الهدنـة عند الماء، ويشعر باغيرا بالغيرة من هذا السلم المزيف والمتردد.

من يدري إن كانت زوجة النمر قد فهمت القصص التي رواها لها جـدي، أو سـبب تقديمـه هذه الخدمـة لها؟ من الممكن أن يدرك المرء بسـهولة، أن جدي غير القصة عدة مرات، وأنها أدركت عمق المأسـاة التي أخفاها عنها، فبدأت تشعر تجاهه بامتنان مساو لامتنانها للنمر. إنه ذلـك الامتنـان الـذي شـعرت به لما قدّمه لها من رفقة ومسـاعدة عندما رسم لها الصور التي تظهر الأحداث على رماد الموقد. أياً يكن السبب

الذي دفعها إلى ذلك، وقبل بضعة أيام من وصول داريشا الدب، كسب جدي منها كيساً ورقياً صغيراً جدًّا، وقد رُبط بخيط. وعندما فتحه في ظلام بيته في وقت لاحق من تلك الليلة، لامست أصابعه شعرات قصيرة وخشنة تركت على أصابعه آثار تلك الرائحة الحيّة التي تعرف عليها لأول مرة في معمل حفظ اللحوم؛ في تلك الليلة التي لا تنسى.

# الفصل الثامن

## القلب

في طريق عودتي من جريفكوف، توقفت في كولاك لأشتري بعض الحلوى للأطفال، واعترضت طريق الموظفة في المتجر وهي توشك على إغلاقه. لم تكن قد بقيت معي أي أوراق نقدية. فتجادلت معها لعشرين دقيقة، ثم أقنعتها أخيراً بأن أدفع ضعف المبلغ بعملتنا تعويضاً عن تكلفة ذهابها لاستبدال النقود في الصباح. لذا، ساعدتني على تحميل صندوقين من الشوكولاتة المحلية في سيارتي، ثم انطلقت مبتعدة بسيارتها المعطوبة ذات المحرك الصاخب؛ مطلقة سحابة من الدخان الكثيف.

وجدت هاتفاً بجانب مضخة الوقود المهجورة، فاستخدمت آخر أربع قطع نقدية بقيت لديّ لأتصل بجدتي. كان الكيس الأزرق مطوياً داخل حقيبة ظهري. وقد أدهشتني البرودة التي تركتها عليه ثلاجة الموتى، فلم ألمسه طوال طريق عودتي من جريفكوف.

أمضت جدتي اليوم بطوله وهي تعد إجراءات الجنازة. وعندما سألتني إن أصبحت جاهزة للعودة إلى الديار، أخبرتها عن رحلتي إلى عيادة المحاربين القدماء في جريفكوف، وعن شدة المواساة والترحاب اللذين استقبلني بهما الموظفون هناك. أصغت إليّ بصمت، فأدركت أنها لم تستوعب ما قلته لها؛ تماماً كما لم أستوعب أنا بدوري خبر وفاة جدي. إذ إن الخبرين لم يشكلا بالنسبة إلى كل منا سوى كلمات نقلها خط هاتف متقطع. شعرت أن وقوع جريفكوف على بعد مسافة قصيرة

بالسيارة بعث شيئاً من الراحة في نفسها، وأكد لها نوعاً ما أنه كان قادماً لمقابلتي فعلاً. لذا، بدت مستعدة للتسامح مع سوء التفاهم ولكن ليس مع الكذب الصريح. وبينما كنت أقود سيارتي خارجة من شبه الجزيرة، فكرت في الرجل المحصّن، وكيف سمع جدي عن الصبي الذي خطا على اللغم. غير أنني لم أذكر أياً من هذه الأمور لجدتي.

قالت: "هل خاب أملهم؟ هل توقعوا ألا يأتي أحد ليستعيد أغراضه؟". ولا بد أنها تخيلت أحداثاً حقيرة أدخل فيها المستشفى، وأكتشف أنهم وزعوا أغراض جدي على أفراد الطاقم الطبي، وأرى قبعته على رأس الحاجب، وساعته تزين معصم يد موظف الاستقبال.

قلت: "لقد منعتهم شدة انشغالهم من إرسال الأغراض، ولكنهم اعتذروا بشدة عمّا حصل". ولم أتحل بالشجاعة لكي أصف لها نوعية المكان هناك وأقول إنه من حسن حظنا أنهم تمكنوا من العثور علينا، ومن حسن حظه أنه لم ينته به المطاف مرمياً في المنحدر المواجه للبحر خلف العيادة. أضفت قائلة: "هل تودين أن تخبريني عما يوجد في الكيس؟".

خيم الصمت قليلاً، ثم قالت جدتي أخيراً: "هل فتحته؟".

"ليس بعد".

فقالت: "لا تفتحيه. إياك أن تتجرئي على فعل ذلك. كيف يمكنك حتى أن تفكري في هذا؟". وبدأت تتحدث مجدداً عن الأربعين يوماً، وعن مقاطعة رحلة الروح عن غير قصد، وتقول إن الكيس يشكل نعمة بحد ذاته لأن أحداً لم يلمسه بعد. وسألتني مجدّداً عمّا كنت أفكر فيه، وبدأ صوتها يعلو لدرجة الصراخ وهي تقول: "ما الذي تبقى لديّ غير ذلك لأقدم به احترامي، يا ناتاليا؟ في الوقت الذي لم أدرك فيه حقيقة مرضه لأنك لم تقولي لي شيئاً مع أنك كنت على علم بكل شيء؟".

صفر الهاتف مرتين. وعندما انقطع الخط، رن جهاز البيجر مباشرة

تقريباً، وظل يرن إلى أن عدت بسيارتي إلى بريجيفينا، ولكنني لم أعد أملك أي مال لأعاود الاتصال بها. وبدأ المساء يحل، فاستسلمت جدتي في نهاية المطاف. واصلت القيادة ونوافذ السيارة الأربع مفتوحة، وهدير التيار الهوائي يمنعني من الاستسلام للنوم.

وبحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى المعتزل، وجدت البوابة مغلقة. ورأيت الشمس تميل إلى الغروب، ولكن الحديقة بدت فارغة. وعلى طول الممشى الخشبي، وجدت المحالّ مظلمة ومغلقة بالمصاريع، وأكشاك البطاقات البريدية وأدوات الغوص مغلقة بأبواب شبكية حديدية. وبعد أن اجتزت مئة ياردة أخرى، وصلت إلى إحدى القنوات، ورأيت أهالي بريجيفينا والسياح المسفوعين بالشمس متجمهرين في حشود عارمة، وهم يدخنون ويتكئون على السيارات، أو يشقون طريقهم ببطء بين أشجار الأوكاليبتوس والكروم. انعطفت بالسيارة إلى أحد الخنادق وتركتها هناك، ثم صعدت المنحدر وحقيبة ظهري بين ذراعي، والكيس لا يزال داخلها. شعرت بهواء ساكن وحار قادم من البحر يغطي كل شيء من حولي حتى الكرم. نظرت من حيث أقف عند البوابة ورأيت الحفارين متوغلين في مكان أعمق داخل الكروم مما كانوا عليه في صباح ذلك اليوم. ووجدت ديوريه ذا الأذنين البارزتين واقفاً هناك كالفزاعة، وظهره منحن ومؤخرته بارزة، بينما وقف ذلك الرجل الممتلئ الذي صادفته في الصباح وهو يشرب علبة من الكولا ورقبته محمرة من أشعة الشمس. وكان الصبيان الصغيران جالسين على عربة مليئة بالتراب بين الكروم، ولكنني لم أجد أثراً للشابة والطفلة الصغيرة.

رآني أنطون أقف قرب بوابة الكرم، وفتحها لي من دون أن ينبس بكلمة واحدة. فأبديت اعتذاري، وشرحت له عن صعوبة القيادة في المنطقة وعن الحلوى، ولكنني واثقة أنه أدرك أنني كنت أكذب عليه. بدا أن جسمه يتصبب عرقاً تحت ردائه، فيما بدت نظارته مكسوة

بغشاوة، وشعره متجعّداً في خصلات صغيرة حول عنقه.

وبينما أنا واقفة فوق التل، رأيت الشمس من بعيد تغرق متمهلة في مياه البحر، والعبّارة تعود من الجزر، والمكان الظليل حيث جلس إيفان. وبدا الناس مصطفين على طول سياج الكرم كل الطريق نحو الأشجار خلف المنزل. وجدت نادا واقفة على الشرفة في الطابق السفلي وهي تدخن بصحبة ست أو سبع نساء أخريات؛ وهن أرامل محنيات الظهور يبدون كالغربان في فساتينهن السوداء، كما رأيت بضع سيدات في منتصف العمر يجففن أنفسهن بمناشف ملونة بعد أن ابتعدن لتوهن عن الشاطئ. وضعت نادا طاولة مستطيلة تحت شجرة الزيتون، ووضعت عليها صواني الطعام. وأصبحت بين الحين والآخر تقدم صينية طعام لحشد المتفرجين عند السياج.

وجدت زورا واقفة بجانب برميل وقود مشتعل خلف الحفارين، وهي تنظر بوجه عابس إلى شيء في الأسفل. وعندما استقامت في وقفتها ونظرت إليّ، رمقتني بنظرة وفرتها في الماضي لأستاذها آيرونغلوف، ومدير السجلات الذي يعمل في مكتب تسجيل الجامعة. وقفت هناك مسلحة بمبيدات الجراثيم، وبضعة ليترات من الماء، ومعرفة مسبقة عمّا سيقع بهدف إنقاذ ثقة المجتمع بنا من خلال الحيلولة دون وقوع كارثة طبية. ولم يبد عليها أنها تريد مساعدة مني.

رأيت ديوريه واقفاً بين الكروم، ومنحنياً فوق شيء ما، وبيده قطعة قماش رطبة يمرّرها على شيء ما ببطء من أوله إلى آخره، ويبذل جهداً واضحاً لئلا يحركه أو يقوم بأي حركة عنيفة. كان ذلك الشيء عبارة عن حقيبة سفر قديمة الطراز مصنوعة من جلد مشقق، ومقبضها رمادي مهترئ. أدركت أن هذا هو السبب الذي جعل ديوريه واثقاً تماماً من ظهور الجثة في نهاية المطاف، ودفعه إلى إغفال أمر الكلاب والفيضانات. فلقد حمى ابن عمه - الذي تصورته في السابق

يحتل قبراً سطحياً - بأن وضعه داخل حقيبة سفر. راح ديوريه يمسح الجوانب ببطء وعناية كبيرين، بينما بدت الراحة الشديدة التي شعر بها لدى توصله إلى حل للمسألة أخيراً واضحة على ملامح وجهه. إذ بعد أن أمضى اثنتي عشرة سنة وهو يتذرّع بعدم قدرته على إعادة الجثة، بدأ يشعر بالذنب لأنّه ترك أحد أفراد العائلة وراءه، وجعل من نفسه عرضة للشك والريبة. لذا، أراد الآن أن يدافع عن نفسه ضد الاستنتاجات التي لا بد وأنهم توصلوا إليها، والتساؤلات التي دارت في نفوسهم: ترى هل تخلى عن رجل محتضر؟ هل قتله وتخلص من الجثة؟ وعندما بدأ الوباء ينتشر بين أفراد أسرته، توصلت أفكاره على الفور إلى التفكير في الجثة؛ ولا سيما بعد أن بدأت زوجته وأطفاله يسقطون مرضى واحداً تلو الآخر. وتذكر الذنب الذي ارتكبه، وشعر به يثقل على صدره بينما هو يفتش عن حلّ لدى عجوز القرية؛ إلى أن أدركت المرأة الحقيقة وأخبرته بما أراد أن يسمعه، وأشارت إلى تهوره وعدم تحليه بالمسؤولية حيال الجثة وحلّته من ذنبه، وأكدت له أن عبء اتخاذ القرار يقع على عاتقه هو.

بدأت تلك الأمسية بقراءة ابتهالات مكتوبة على ورقة فوسفورية اللون بخط يد يفترض أنه غير مقروء، ولكن ديوريه قرأ ما كُتِب على الورقة ببطء وبصوت مرتفع وهو يتلعثم بالكلمات، ومر على كلمات الابتهال الكثيرة التي حيرته لدرجة أنه اضطر إلى الاستعانة ببعض الحفارين الآخرين. وبينما هم يحاولون عبثاً أن يفكوا شيفرة إرشاداتها، تخيلتُ المرأة العجوز التي أرسلتهم إلى هنا جالسة وحدها في بيتها البارد في آخر قرية ديوريه، بعينيها الدامعتين، وأطرافها الخدرة، وهي تكرس كل ذرة من قوتها لتكتب هذه الابتهالات التي تحفظها عن ظهر قلب ولكنها لم تكتبها من قبل قط. كانت ملاحظاتها تحث الحفارين على العويل، ولكن ترددهم جعل جهودهم تبدو فاترة. ولو

كانت العجوز محنية الظهر ذات الكتفين المغطّاتين بشالها موجودة ربما لمنحت العملية بعض الوقار، ولأطلقت صوتاً طويلاً وأجوف يفرق جمهور المتفرجين المحتشدين على طول سياج الكرم. ولكن، بدلاً من ذلك، دفع الصياح المتنافر الصادر عن الحفارين المتفرجين إلى ترداد ثابت للجملة التالية: اغسلوا العظام وأحضروا الجثة واتركوا القلب مكانه. بدأ أكثر الرجال ثمالة بالإنشاد أوّلاً، ولكن سرعان ما ردّد الجميع هذه الجملة من أول الصف حتى آخره.

حرّك الرجل البدين يده بشجاعة، وصاح بأعلى صوته قائلاً للجميع: "عليكم اللعنة".

قال له ديوريه: "كفّ عن التفوه بالشتائم. فهذه ليست جزءاً منها". ثم استدار نحو أنطون وقال: "هل ينبغي لي أن أعيدها؟".

قال رجل الدين: "إنني لا أعرف حقاً".

كان أنطون يحمل بخوراً. وأخذ يؤرجحه بعجز يمنة ويسرة فوق حقيبة السفر، بينما واصل ديوريه القراءة. وسعل الحفارون ورسموا رمز النصارى الديني على صدورهم. تلفتُّ حولي مرة أخرى فلم أر أي أثر للفتاة الصغيرة.

تركت شدة الحرارة، إضافة إلى الصباح المبكر الذي أمضيته في الكرم آثارهما عليّ، فشعرت أنني انتظرت سنواتٍ للعثور على الجثة رغم أنني لم أسمع عنها سوى في صباح ذلك اليوم. لا بد أن ذهابي إلى جريفكوف قد أحدث تغييراً كبيراً بي، فلم أعد أعرف ما الذي أنتظره بعد الآن. كانت حقيبة ظهري موضوعة على ركبتي، وأغراض جدي مطوية داخلها، فتساءلت عما ستبدو عليه الآن ساعته ومحفظته وقبعته ونظارته التي تحولت في غيابه إلى أشياء يمكن للمرء العثور عليها في سوق الأشياء المستعملة أو في علية أي بيت من البيوت.

قبل فتح حقيبة السفر، تم رشّها بالماء من إحدى قوارير الحفارين

المخصصة للأعشاب الطبية. ورشها أنطون بالماء نفسه، ثم حاول ديوريه فتح السحاب. ومما لا يثير الدهشة، ولا سيما بعد أن أمضت الحقيبة عقداً من الزمن تحت الأرض، أن السحاب لم يتزحزح من مكانه. وفي النهاية، قرروا أن يمزقوا الحقيبة ليفتحوها. فجرى أحدهم ليحضر سكين مطبخ من البيت، وسلمته نادا إياها من الشرفة. أخذ الحفارون يتشاورون حول المكان الذي ينبغي لهم أن يحدثوا الشق فيه. وساد الصمت المطبق بين المتفرجين عندما أرجع ديوريه يده إلى الوراء ثم أدخل السكين، فسمعنا صوت تمزّق، وتبعته مباشرة رائحة عفونة. وأنّت الجثة بصوت مشدود كصوت الوتر، وراح شخص من خلفي يستنجد. وتحركت الأذرع على الفور من أول السياج حتى آخره والناس يرسمون رمز النصارى الديني على صدورهم.

وفي تلك الأثناء، ظلت زورا مسمرة في مكانها وهي تراقب مجريات الأحداث وجسمها بأكمله مشدود كوتر. اكتشفت لاحقاً أنها سألت ديوريه، قبل أن تصبح الأمور في طور الإنجاز، إن كان يتوقع فعلاً أن يجد قلباً في الحقيبة. فقال لها: "هل تظنين أنني معتوه أو ما شابه؟". فلم تجب زورا على كلامه، وهذا أمر غريب. ولكن الأنين الذي خرج من الحقيبة هز البلدة بكاملها، وراح الجميع يبتهلون ويتضرعون بكل خشوع. فلم تعد تستطيع أن تكبح لسانها أكثر من ذلك، وقالت بصوت مرتفع من دون أن توجه كلامها إلى أحد معين: "إن هذا صوت الغازات التي تتحرر من الضغط".

ولكن، لم يكن من الممكن ثني الحفارين عن عزمهم. لذا، استمر الإنشاد والعويل. وظل أنطون يرفض أن يمس زجاجة الأعشاب وينفر من مياههم، ولكنه استمر بأرجحة البخور بصبر فوق الحقيبة وأشعة الشمس الغاربة تنعكس على الكرم. انتظرت زورا فرصة أخرى لتعرض رأيها، ولكن مرت دقائق من دون أن تتفوه بحرف. فانسحبَتْ

إلى الجانب الذي وقفتُ فيه، وصعدت المنحدر، وراحت تمسح يديها على معطفها، ثم وقفت بجانبي، فحشرت نفسي قرب السياج الحجري لأفسح لها المجال.

قالت: "لديّ رسالة لك". سلمتني معطفها، وخلعت كنزتها ثم وضعتها على الأرض بجانبي وجلست عليها، وبعد ذلك استعادت المعطف ووضعته على ركبتيها. وتابعت قائلة: "تقول لك جدتك: افتحي الكيس. ومن الأفضل ألا تزعجي نفسك بالعودة إلى البيت". قالت زورا هذا من دون أن تنظر إليّ. بدا عنقها يتصبّب عرقاً بسبب وقوفها قرب النار. ثم أضافت: "لقد شدّدت كثيراً على تلك النقطة".

كانت زورا قد بدأت تضع عطراً جديداً قبل شهرين، فلم أستطع الاعتياد على رائحته بعد. ولكن، بينما كنت جالسة بجانبها وأنا أشم رائحة الدخان التي تملأ شعرها، ورائحة الصابون والسجائر، ورائحة المنظف الذي تستعمله أمها تفوح من معطفها، ورائحة الحديد الصادرة عن قرطيها، شعرت أنها عادت إليّ كلياً. فقد تركت كل شيء توقعت منها أن تقوله معلقاً بيننا. ولم أعد أستطيع أن أتذكر الأجوبة التي هيّأت نفسي للتفوه بها.

بلل ديوريه خرقة نظيفة بالماء من زجاجة الأعشاب. وبدأ يخرج عظام ابن عمه من الحقيبة عظمة تلو أخرى. فمسح عظمتي ساقيه المصفرتين الطويلتين بلطف بقطعة القماش، ثم وضعهما على ملاءة نظيفة مفرودة على الأرض. وتحلق الحفارون الآخرون حوله وهم يدخنون وظهورهم نحو السياج. وهكذا، جعلوا الطقس سرياً، وراحوا يتحدثون بهدوء، ويومئون لبعضهم. أمّا المتفرجون فقد أدركوا أن أكثر أجزاء الطقس إثارة قد انتهى، فبدأوا يفقدون الاهتمام في كل الأحوال.

قلت: "ماذا ستفعلين لو كنت مكاني؟".

فقالت زورا: "حسب الحالة. ما الذي كان جدك سيقوله في هذه الحالة؟".

قلت: "كان سيطلب مني ألاّ أنفذ ما طلبته جدتي، وألا أفتح الكيس". وبعد قليل، أضفت قائلة: "سيطلب منك أن تشهدي".

قالت لي زورا: "لن نتمكن من العودة بحلول يوم السبت، ولكنك تعرفين ذلك". وأمسكت بيدي ووضعتها على ركبتها من دون أن تضيف شيئاً آخر.

أخذت الخرقة الرطبة تتنقل بين يد وأخرى؛ وهم يعصرون الماء منها على العظام وعلى الجمجمة المكسورة، ويمسحون محجري العينين الفارغين والخطوط المعقوفة بين الأسنان. وبدا العمود الفقري مجسداً على الملاءة، وفقراته تشبه الألعاب. امتدت أيد كثيرة داخل الحقيبة، لذا أصبح من الصعب أن نعرف من الذي يخرج العظام، ولكن العمل بدا دقيقاً ومنظماً جداً فقد صُنِّفت العظام على الملاءة: المفاصل هنا، والأصابع هناك، رغم أن الملاءة ستُجمع من كل الجهات لاحقاً، وستختلط العظام ببعضها. وبعد ذلك، كسروا عظمتي الفخذين باستخدام ساطور لكي لا يجوب الميت الأرض ويسبب المرض للأحياء. لف ديوريه الخرقة بقوة حول قبضة يده وسماها القلب. فشعرت بمدى غبائي لأنني لم أفكر في هذا الاحتمال، أي القلب المجازي، ولأنني شككت في تلك العجوز أياً تكن.

ساد الصمت بينما بلل ديوريه الخرقة مجدّداً بثلاث رشات من الماء لتنظيف القلب الذي بدا ملتوياً ومشدوداً داخل قبضة يده. أحضر الرجل البدين قدراً نحاسية صغيرة، فوضع ديوريه الخرقة داخلها بحرص، وصب عليها الزيت، وأضرم فيها النار. ظلت القدر النحاسية الصغيرة لوقت طويل على الأرض بينما انحنى أفراد العائلة وأمعنوا النظر إليها. ولم أستطع أن أفكر خلال هذه المدة ونحن ننتظر نهاية

الطقوس إلاّ في الرجل المحصّن وفنجان قهوته.

صبوا الماء على القدر النحاسية التي بدأ الدخان ينبعث منها الآن، ثـم وضعوهـا على برميل الوقود المشـتعل، فيما قـام ديوريه برش الماء الذي بقي في الزجاجة على النار والعظام قبل أن يرمي الزجاجة جانباً. تفـرق جمـع المتفرجيـن الواقفين عند السـياج بعد أن زال فضولهم عند هذا الحد. وراح بعض الصبية يلعبون كرة القدم على طول سياج الكرم.

بـدأت الميـاه تغلـي، فأبعـد ديوريـه القدر عن النـار. وأخذ الرجال يمرّرونهـا بهـدوء بينهـم، مـن دون أن تبـدو عليهـم أي مشـاعر، وهـم يحاولـون ألا يسـكبوا شـيئاً منهـا. ونـزع بعـض الرجـال قبعاتهـم وهـم يفعلـون هـذا، بينمـا لم يزعج البعض الآخر أنفسـهم بإطفاء سـجائرهم. حمل أنطون بخوره إلينا، ووقف قربنا مراقباً أفراد العائلة وهم يمررون القدر النحاسية ببطء بينهم، ووجوه الرجال.

سألته: "أين الفتاة الصغيرة؟".

قـال أنطـون: "إنهـا نائمة في الداخل. لقـد أخرجوها إلى هنا عصر اليوم وهي مصابة بالحمى. فهددتهم أمي بأن تتصل بالشرطة إن حاولوا أن يخرجوها إلى هنا مجدّداً".

بدأ الظلام يحل الآن بعد أن غاصت الشمس خلف شبه الجزيرة. واصطبغ لون السـماء في الغرب بلون الشـفق. وبينما كنا نراقب، اعتمر أحد الصبية من مجموعة الحفارين قبعته، وتقدم نحونا بسرعة. حاولت زورا أن تقـدم لـه بعـض المـاء والسـائل المعقم، ولكنـه تجاوزها وعبر البوابة في آخر الكرم. وهكذا، انفض الاجتماع السري المحكم للدائرة المحيطة بالحقيبة. فمسح أحد الرجال فمه بيده وضحك حول شيء ما.

قالت زورا: "ماذا سيفعلون الآن؟".

قال لها أنطون: "الآن، حان وقت الصلاة".

قالت: "إلى أين ذهب ذلك الصبي؟".

"ليستدعي شخصاً ليس من أفراد العائلة ليدفن الرماد في التل".

"لماذا لا يفعل هذا بنفسه؟".

قال أنطون: "إنه من أفراد العائلة، لذا لا يمكنه أن يفعل هذا".

"وماذا عنك أنت؟".

"حسناً، لن أفعل هذا". وراح يرنو إلينا من فوق إطار نظارته. فبدا أشبه بيعسوب كبير. ثم قال: "سيعاني من وقت عصيب حتى يعثر على أحد يبدي استعداداً للذهاب إلى مفارق الطرق".

"مفارق الطرق! لماذا؟".

قال أنطون: "من أجل المورا".

فقلت له من دون أن أفسح مجالاً لعقلي ليدرك ما أقوله: "أنا سأفعل هذا".

قالت زورا وهي تنظر إليّ: "لا تكوني غبية". وراح أنطون يعضّ أظفاره ليتركنا نحن الاثنتين نتفاهم معاً.

قلت: "قل لديوريه وعائلته إنني على أتم الاستعداد للذهاب إلى مفارق الطرق نيابة عنهم إن وافقوا على إرسال المرأة والأطفال إلى العيادة غداً".

# الفصل التاسع

# الدب

في العام 1975، تم إطلاق سراح بوبان بيتروفيك، أو بوبا المجنون - وهو شاعر وموسيقي يعمل مديراً للأوبرا الوطنية - من المصح العقلي الذي تم احتجازه فيه بعد العرض الكارثي لأوبرا عايدة الذي قدمه على المسرح الوطني حين أعاد صياغة الأحداث على شكل صراع بين مخلوقات خرافية بدلاً من الأحداث الأصلية التي تتضمن صراعاً بين المصريين والأثيوبيين. ظل بوبا مستمراً بالعمل في دار الأوبرا لسنوات عديدة، فبحث مجلس الدار عن طريقة لبقة ليطرده بها. فقد كان منظر البطل وهو يعاني الأمرين ليغني ويحافظ على توازنه فيما كان مرتدياً زي المخلوق الخرافي، بالإضافة إلى زي البطلة عايدة كارثة إبداعية لا محالة كافية لضمان طرد بوبا من منصبه. عاد المجنون بوبا إلى الديار ليجد ورقة إنهاء عقده بانتظاره على طاولة في الردهة. وعندها، طرد ممرضته، وحاول أن يضرم النار في أرض غرفة المعيشة. وعندما لم ينجح في ذلك، ابتلع الكثير من الأمفيتامينات وأصبح في حالة هياج. وبعد مرور ساعة، أخذ يجري من أول ممر مبناه القديم الفخم إلى آخره وهو يدق على أبواب الجيران، ويضربهم على جباههم بمقلاع محمل بثمار سفرجل بمجرد فتحهم الأبواب. حينها تم استدعاء الشرطة والاتصال بالأطباء، وبدأت مطاردة محمومة عبر ممرات القصر النمساوي ذي الطوابق السبعة، واستمرت لمدة عشرين دقيقة، ثم انتهت في قبو حفظ المشروبات عندما انهارت الأرض أخيراً تحت قدمي بوبا

المسكين وسقط في مكان ظن البعض أنه قبو ثان مهجور.

كلما قرأتُ تقرير الشرطة عن ذلك الحادث في أرشيف الصحف في المكتبة الوطنية، تخيلتُ غرفة مليئة بالغبار، وحفرة في أرضية قبو حفظ المشروبات، ورجال الشرطة الجالسين القرفصاء حولها وهم ينادون باسم بوبا في الظلام، وأحدهم - وهو على الأرجح ضابط ذو رتبة دنيا - يمد رأسه في الحفرة بانتظار أن تعتاد عيناه الظلام. وعندما يسأله أحدهم عما يراه، يلتزم الصمت لوقت طويل، ثم يقول: "أرى أشياء رائعة".

لقد رأى دببة. فقد اكتشفت الشرطة في ذلك اليوم أن القبو الثاني مليء بالدببة السوداء والبنية والحمراء. بعضها جالس، والبعض الآخر منبطح، وغيرها منتصب أمام أشجار مرسومة. وقال الضباط لاحقاً إن منظر عيون الدببة أرعبهم؛ حتى إنهم ظنوا أنها ستعود إلى الحياة مجدّداً في أي لحظة، وستنفض شبكات العنكبوت عن أكتافها وتتمطى. ولاحظ الضباط كذلك ترتيب الغرفة ودقة تنظيمها. ورأوا كومة من جلود الحيوانات على فراش في الزاوية، وصفوفاً لامعة من الدلاء المقلوبة، بينما بدت الجدران مكسوة بورق عليه رسومات بيانية للجهاز العضلي للدب، ورسومات بقلم الرصاص للدببة وهي تتحرك. ووجدوا رفوفاً عليها مرطبانات مليئة بالعيون الزجاجية، وملفات، وميزان نحاسي رقيق، وأنصال نظيفة مصفوفة بعناية. وإلى جانب كل هذا، عثرت الشرطة على صورة لصاحب الغرفة، وسرير متنقل صغير فارغ عليه حوض غسيل. ولا بد أن الغرفة انتظرت عودة ساكنها لسنوات طويلة، ولكن ذلك الساكن لم يعد قطّ.

أعلنت الجمعية التاريخية الوطنية أنّ القبو موقع ممنوع على الزوار، وأمضت ستة أشهر وهي تفحص الغرفة، وتعد بياناً بعدد الدببة والجلود، وتلتقط لها صوراً وتعد الرسومات، وتسبر غور كل قصاصة

ورقية، وتحوّل كل ذلك إلى وصولات لمبيعات الحيوانات المحنطة. وبعد مرور ستة أشهر، ومن دون أن يكتشف أحد اسم الفنان الحقيقي، نشر المتحف الوطني مقالاً في الصحيفة يطالب فيه بإحضار القطع المحنطة إلى المدينة، وأعلن أنها غير متوفرة للبيع للأفراد. وتسبب هذا التصريح بازدياد اهتمام الناس بها، وانتهى المطاف ببعض النماذج في أيدي السياسيين والشخصيات الأجنبية المرموقة أو في صالات استقبال بعض زعماء العصابات وعشيقاتهم. ومع أن صاحب فندق بيترسبرغ المتموضع في مركز المدينة ادّعى أنه اشترى القطعة التي لديه من أحد تجار التحف قبل اكتشاف وجود الدببة بوقت طويل، فلا أحد يتذكر أنه رأى الدب المحنّط المعروض بجانب موقد الفندق قبل العام 1978.

مهّد افتتان المدينة قصير الأمد بهذا الحدث الطريقَ لنشوء نظريات لا حصر لها عن أصول الرجل الذي يقف وراء العمل في القبو الذي عثر فيه على الدببة. وكان وصف شخصيته دائماً نابعاً من تلك الصورة المهجورة التي خلفها وراءه، ومن أسطوانة موسيقية لموزارت متروكة تحت إبرة الفونوغراف. وبدت كل لمسات ذلك الرجل في غرفته معبرة عن التميز والرقي. وبغض النظر عن عمله، الذي تضمن بلا شك سلخ جلد الدببة ونزع أعضائها، فقد أعطت نوعية القطع وترتيب الغرفة فكرة غير صحيحة عن اتصافه بالحساسية والثقافة العالية. كما تضمنت معظم القصص التي تم تداولها عن الفنان وجود أشرار يقبضون عليه، ويتركون عمله فريسة للنسيان. أما الفنان نفسه فقد صوره الناس في كل تلك القصص على أنه رجل هادئ وبسيط وربما أكبر بقليل من سنه. وهو إنسان رائع وغريب الأطوار، ولكنه غير ودود، ويجد متعة بالغة في عمله؛ كتلك المتعة التي يجدها صانع ألعاب في عمله.

* * *

ورغم أن أهل قرية غالينا يُظهرون في الغالب ممانعة للحديث عن النمر وزوجته، إلا أنهم لا يترددون مطلقاً في التحدث عن قصص أحد المشاركين الأخيرين في قصتهما.

وإن سأل المرء أحد سكان غالينا عن داريشا الدب، بدأ هذا الأخير حديثه بقصة خيالية مختلقة كلياً، مثل أن الدببة هي التي ربّت داريشا، أو أنه لم يأكل سوى لحم الدببة. وفي بعض الروايات، يقولون إنه أمضى عشرين سنة وهو يطارد دباً أسود كبيراً نجح لوقت طويل جداً في تضليل الصيادين الآخرين؛ حتى الصياد فوك سيفيك الذي قتل ذلك الذئب الخرافي كولوفاك. في النهاية، يقول مؤيدو هذه القصة إن الدب سئم كثيراً من مطاردة داريشا، لدرجة أنه ذهب إلى مخيمه في الليل، وتمدد بجانبه ليموت، فتحدث داريشا إليه وهو يحتضر فوق الثلج إلى أن صعدت روحه عند بزوغ الفجر. ومع ذلك، إن قصتي المفضلة هي القصة التي تعزو نجاح داريشا الكبير كصياد إلى عدم قدرته على التحول إلى دب، والتي تقول أيضاً إنه لم يقتل كما يقتل الناس، أي باستعمال المسدس أو السم أو السكين، بل بالأنياب؛ مقطعاً اللحم بوحشية بأنيابه الضخمة المماثلة لأنياب الدب، والتي تقبض على حنجرة خصمه وتكسرها مصدرة ضجة مرتفعة كصوت انهيار الجبال.

ومع ذلك، إن كل تلك القصص المتنوعة تخلص إلى حقيقة واحدة، وهي أن داريشا كان أعظم صياد دببة في المملكة القديمة. ويمكن اعتبار هذا الكلام على الأقل حقيقة، إذ ثمة دليل عليه. فهناك صور لداريشا تعود إلى ما قبل الحادث مع زوجة النمر، ويبدو فيها داريشا ذا عينين فاتحتين ووجه صارم، وهو واقف فوق كومة من جلود الدببة بصحبة رجل من الطبقة الأرستقراطية يبتسم ابتسامة عريضة يهدف منها إلى إخفاء الرعشة التي ما زالت تسري في ركبتيه بسبب المطاردة. في تلك الصور، يبدو داريشا ساذجاً ومتجهم الوجه وخالياً من أي جاذبية. لذا،

من الصعب أن يعرف المرء كيف تمكن داريشا من الحصول على كل ذلك الولاء من قِبَل قرويي غالينا. إن الدببة في تلك الصور تروي قصة مختلفة أيضاً، قصة عن الإفراط في القتل. ولكن، لا أحد ينظر إليها بحثاً عن أي تفسير.

اعتاد داريشا أن يأتي إلى غالينا مرة واحدة في السنة بعد احتفالات الميلاد على الفور ليمتع نفسه بترحيب أهل القرية، ويبيع الفراء استعداداً لازدياد قسوة البرد في الشتاء. كان وصوله متوقعاً ومفاجئاً في آن معاً. فلم يكن الناس يرونه عندما يصل قط، بل يستيقظون في الصباح ويدركون بسرور أنه وصل، وربط لجام حصانه، وأنزل البضاعة عن بغاله وعرضها على الأرض على سجادة زرقاء باهتة. كان داريشا رجلاً قصيراً وملتحياً قد يظنه الإنسان العابر متسولاً، ولكنه لطالما جلب معه - إلى جانب طبعه الهادئ وميله إلى التسامح مع فضول الأطفال - عالماً برياً ومثيراً للإعجاب. واعتاد أن يأتي محملاً بالأخبار السارة، وأن يروي بين الحين والآخر قصصاً غريبة عن البراري والحيوانات التي تسكنها. لذا، أصبح سكان غالينا يربطون بين زياراته وبين الحظ الموفق والمواسم المستقرة الهادئة.

طوال فصول الشتاء الماضية، تعوّد جدي أن يترقب زيارة داريشا الدب السنوية بحماسة كبيرة كأي شخص آخر في القرية، ولكن ذهنه تشتت قليلاً في شتاء ذلك العام بسبب النمر وزوجته. فنسي كل شيء يتعلق بداريشا. ومع ذلك، لم ينس القرويون ذلك. فقد ظلت حتمية ظهوره تلوح في أفقهم وكأنه شيء لا مفر منه، ولكنهم تجنبوا ذكره صراحة لئلا يؤدي اتكالهم الكلي على وصوله إلى منع حدوث ذلك. وهكذا، عندما خرجوا من بيوتهم في صباح أحد أواخر أيّام شهر كانون الثاني، ورأوه هناك وهو يبدو أسمر البشرة وقذراً وساراً كوعد وردي، انشرحت صدورهم وامتلأت قلوبهم بالآمال.

راح جدي، الذي كان ربما في وقت آخر سيقف في أول الصف، ويتمشى أمام السجادة الزرقاء الباهتة متأملاً رؤوس الدببة ذات الأفواه المفتوحة والأعين الزجاجية أو الحجرية أو المفقودة، ينظر عبر النافذة ويدرك برعب ما سيحدث. وعلى الأرجح، نظرت زوجة النمر إلى داريشا أيضاً من الطرف المقابل من الساحة، ولكنها لم تفهم خطورة هذا التجمع الذي بعث الحياة في القرية بأكملها. ولم تخمن، كما فعل جدي بلا شك، أن رجل الدين الذي أتى مسرعاً نحو داريشا فاتحاً ذراعيه لم يرحب به وحسب، وإنما قال له أيضاً: "حمداً لله لأنك وصلت إلى هنا سالماً. يجب أن تخلصنا من ذلك الملعون ذي الجلد الناري".

طوال الوقت، منّى جدي نفسه بحدوث أمر خارق، ولكنه توقع الكارثة. ورغم أنه كان في العاشرة من عمره، إلا أنه أدرك منذ ذلك اللقاء في معمل حفظ اللحوم أنه يخوض إلى جانب النمر وزوجته معركة خاسرة. فهو لم يفهم طبيعة خصومه ولم يشاء فهمها. وشكلت مساعدة الأم فيرا غير المتوقعة بارقة أمل، ولكنه لم يعرف إلى أين سيؤدي ذلك الأمل. والآن، أدرك جدي بشكل لا مفر منه أن معظم الاحتمالات أصبحت ضد النمر. وبات داريشا الدب، الذي لطالما مثّل في نظره شخصية مثيرة للإعجاب، شخصاً خائناً ومجرماً وقاتلاً للنمور وشاحذاً للسكاكين وناصباً للفخاخ وأداة بيد الموت الذي يتجه للنيل من شيء مبجل. ولم يخامر جدي أيُّ شك في أن داريشا، إن منحته الظروف الوقت الكافي، سوف ينتصر حتماً في هذه المعركة.

* * *

خلافاً لمعظم الصيادين، لم يمارس داريشا الصيد من أجل المتعة الناتجة عن التمكن من اصطياد الطريدة، بل من أجل ما ينتج عنها لاحقاً. فقد انغمس في المهنة التي عُرف بها ليتمكن من التمتع بما يحبّه لاحقاً؛

ألا وهو تحضير الجلود، والسلخ، والتخلص من الأحشاء، ورائحة زيوت المعالجـة، والقـدرة علـى الاحتفاظ بذكـرى عن عملية الصيد من خلال إعادة تشكيل البيئة التي يعيش فيها مغامرته في البراري داخل بيته. إن هذه حقيقة داريشا الفعلية؛ فقد كان الرجل محنِّطاً في الصميم.

في سبيل فهم طبيعة داريشا، على المرء أن يعود بالزمن إلى طفولته، وأن يعرف عنه أشياء لم يسمع عنها أحد في القرية، ولن يتمكن أحد من المدينة المفتونة بقبو الدببة الذي تم اكتشافه من الجمع بينهما من دون أن يعـرف اسـمه الحقيقـي. ويجب على المـرء كذلك أن يعود إلى حي مهـم مـن أحيـاء المدينة، وإلى منزل قرميدي أحمر في طريق عام مضاء بالمصابيح يطل على متنزهات الملك المشذبة، وإلى والد داريشا الذي كان مهندسـاً نمسـاوياً مشـهوراً خسـر زوجته، وأمضى القسم الأوفر من حياته خارج البلاد، وإلى شقيقة داريشا، واسمها ماجدالينا، التي منعهما مرضهـا العضـال مـن اللحـاق بأبيهمـا عندمـا غاب عن البيت لسـنوات للإشـراف علـى بنـاء المتاحف والقصور في مصـر، وأبقاهما محتجزين وحدهما بانتظار رسالة منه بين الحين والآخر.

كانـت ماجدالينـا تعانـي من داء الصرع، ولهذا احتجزها مرضها في مسـاحات صغيرة، وحرمها متعاً كثيرة، ومن بينها الالتحاق بالمدرسـة. استطاعت الحصول على أكبر قدر ممكن من التحصيل العلمي على يد مدرس خصوصي، وتعلمت الرسم بنفسها. وكان داريشا - وهو يصغرها بسبع سنوات - شغوفاً بها، ويعشق كل شيء تعشقه؛ فنشأ وترعرع وهو يعتبر أن سـعادتها مسـؤوليته وواجبه. وبينما كان يقف عند مدخل بيتهم مراقبـاً الحمّـال الذي ينقل حقائب السـفر الخاصـة بأبيه إلى العربة التي تقف بانتظار هذا الأخير، تشـبـث داريشـا بحاشـية معطف أبيه، فقال له والـده: "إنـك صبـي صغير جداً، ولكنني سـأجعلك رجـلاً محترماً. هل تعرف كيف يصبح الصبي الصغير رجلاً محترماً؟".

سأله داريشا رغم معرفته الإجابة مسبقاً: "كيف؟".

فقال الوالد: "عندما يتولى مهمة، ويحمل على عاتقه مسؤولية العناية بالآخرين. هل أمنحك مهمة؟".

"نعم، يا سيدي".

"ساعدني على التفكير في مهمة أوكلها إليك. ما الذي تعتقد أنه يحتاج إلى عناية خلال غيابي عندما تصبح أنت رجل المنزل الوحيد؟".

"إن ماجدالينا تحتاج إلى من يرعاها".

"هلا قمت أنت برعايتها من أجلي".

خلال الأشهر التي تلت ذلك، شغل داريشا نفسه ببذل أقصى جهده من أجلها، وبتأسيس نظام للبيت على مستوى صغير ولكنه جاد جداً. كانت لديهم مدبرة منزل اسمها برانكا تعد الوجبات وتنظف المنزل، ولكن داريشا اعتاد أن يحمل صينية الفطور ويصعد بها إلى غرفة أخته، وأن يحضر لها الشرائط لتربط بها شعرها، وأن يحضر لها الفساتين والجوارب ثم يقف حارساً خارج باب غرفتها بينما ترتدي ملابسها لكي يتمكن من سماعها إن شعرت بالدوار ونادته. وظل داريشا يربط شريط حذائها، ويضع رسائلها في صندوق البريد، ويحمل أشياءها، ويمسك بيدها عندما يذهبان في نزهات سيراً على الأقدام، ويجلس معها في أثناء دروس البيانو وهو عابس الوجه، ويتدخل إن تصرف الأستاذ معها بصرامة، ويرتب لها سلال الفاكهة وزجاجات الشراب وشرائح الجبن لكي تتمكن من رسم لوحات الطبيعة الصامتة. وكان داريشا يحضر الكتب ونشرات السفر إلى طاولتها ليلاً لكي يتمكنا من القراءة معاً في وقت الخلود إلى النوم. أما بالنسبة إلى ماجدالينا، فقد أغدقت عليه دلالاً لا يوصف لأنه شكل بالنسبة إليها عوناً لا يقدر بثمن. وأدركت أيضاً أنه تمكن من خلال عنايته بها أن يتعلم العناية بنفسه كذلك، فأكسبته جهوده تلك مكانة خاصة في رسائل ماجدالينا التي

ترسلها إلى أبيها، والتي اعتادت أن تبدأها بجمل مثل: والدي العزيز، ليتك ترى كم يعتني بي داريشا...

كان داريشا في الثامنة من عمره عندما شاهد أولى نوبات مرضها. فقد تسلل ذات ليلة إلى غرفتها ليحدثها عن كابوس راوده، ووجدها تتلوى على أغطية فراشها وجسدها مشدود ومتشنج، وعنقها وكتفاها مبللة بالعرق وبمادة بيضاء دبقة. شعر فجأة وهو ينظر إليها أنه تعرض لمباغتة غير متوقعة من قبل شيء صامت دخل الغرفة معه عندما فتح الباب، فتركها وغادر المنزل من دون أن يرتدي معطفه أو ينتعل حذاءه، وجرى مسرعاً على طول الشارع بملابس نومه إلى منزل الطبيب في وسط البلدة، وقدماه الحافيتان تطآن الرصيف المبلل. ولم يعد يشعر بأي شيء من حوله سوى بالغياب الذي أثقل على صدره كالجبل. فقد شعر بغياب الناس في الشارع، وبغياب والده، وغياب أي شيء يؤكد له أنه سيجد ماجدالينا لا تزال على قيد الحياة عندما يعود إلى البيت. ذرف الدموع قليلاً فقط، ولكن عندما صعد إلى عربة الطبيب، لم يعد يبكي مطلقاً.

قالت له ماجدالينا بعد يومين وهو لا يزال يرفض أن يبتعد عن سريرها: "لنتفق على ألا نخبر والدنا عمّا حدث. هل أنت موافق؟ لقد أثبتّ أنك خير مثال للرجل المحترم والشجاع يا عزيزي. ولكن، دعنا لا نخبره بأي من هذه الأحداث لنجنبه الشعور بالقلق".

بعد تلك الحادثة، تعلم داريشا أن يقيم حساباً لليل ليس لأن الظلام مرعب بحد ذاته، أو لأنه خشي أن يختطفه مخلوق بشع وغريب، ولكن لأنه أدرك فجأة مدى عجزه في وجه الموت. فقد شعر أن الموت الهادئ يشاطره منزله مع أخته، ويحوم في الفراغات بين الأشياء، وبين سريره والمصباح، وبين غرفته وغرفة ماجدالينا، ويتسلل إلى الغرف؛ ولا سيما عندما تسافر أفكاره إلى مكان آخر بشكل مؤقت، أو عندما يخلد إلى

النوم. لذا، قرر داريشا أن يتخذ جانب الحيطة والحذر، وأن يكتفي بالنوم لمدة ساعتين فقط خلال النهار، وبعدها يظل مستيقظاً وهو يتجول في البيت ليلاً، ويتسلل إلى غرفة ماجدالينا وأنفاسه مكبوتة، ويقف واضعاً يده على بطنها بانتظار شعوره بحركة أضلاعها. وبات أحياناً يسهر إلى جانبها في الغرفة طوال الليل، ولكنه اعتاد في أغلب الأحيان أن يترك الباب مفتوحاً، وأن يتجول في أنحاء المنزل من غرفة إلى أخرى باحثاً عن الموت، ومحاولاً أن يباغته في مخبئه. وبدأ يبحث في خزائن الصالة، وبين أدوات المائدة، وفي الخزائن الكبيرة التي يحتفظون فيها بعلب مليئة بالصحف القديمة، وفي غرفة نوم والده الفارغة دائماً، وفي خزانة الثياب التي يحتفظ فيها والده بملابسه العسكرية، وتحت الأسرّة، وخلف أبواب الحمامات. وهكذا، كان يمضي لياليه وهو يذرع المنزل جيئة وذهاباً، ويفتح النوافذ ويغلقها بتصميم لا طائل منه متوقعاً في أي لحظة أن ينظر إلى داخل الفرن ويرى الموت جالساً القرفصاء بانتظاره، كأيّ لص صبور ذي عينين محدّقتين.

وقرر داريشا أن يبادر الموت قائلاً: "وجدتك! هيا، اخرج الآن". ولكنه لم يخطط لأي عمل يقوم به في حال رفض الموت الرحيل.

أمضى داريشا بضعة أشهر على هذا الحال. وفي تلك الأثناء، تمت إعادة افتتاح قصر أمين باشا الشتوي الذي ظل مصيره لعدة سنوات موضوع الكثير من المداولات والمناقشات بين مسؤولي المدينة. فقد بقي ذلك القصر مهجوراً لسنوات لأنهم اعتبروه ممثلاً لذكرى التاريخ العثماني في المدينة. غير أن قاضي فيينا الذي لم يستطع أن يستولي عليه، ولم يرغب في تخليص المدينة منه كلياً جعله متحفاً، وحوله إلى مصدر متعة للأتباع الملكيين الذين يعتبرون أنفسهم رعاة للفن، ويترددون بشكل منتظم إلى أماكن مثل دار الأوبرا الوطنية، والمكتبة الملكية، وحدائق الملك.

امتـلأت أعمـدة الكهربـاء في الحـي الذي يقطنه داريشـا بإعلانات حمراء وذهبية يقول كل منها: تعالوا لتكتشفوا الدهشة والعظمة، وألقوا نظرة باهرة على هذا العالم المثير والغامض!

تحول الطابق العلوي من القصر إلى نادٍ للسيجار يرتاده كبار السادة، ويحوي قاعة للعب الورق ومكتبة ومتحفاً للفروسية مليئاً بتماثيل لجياد مطهمة من سـلاح فرسـان الباشـا، ولأفراس ذات ألجمة مزيّنة بالذهب، وبأسـرجة سـلطانية مزدانة بزينة فخمة، وعربات ذات عجلات مصقولة، وصفوف كثيرة من الأعلام التي تحمل رمز النجمة والهلال السلطاني. وتميـز الطابـق السـفلي بوجود حديقة تملأها أزهار الياسـمين وأشـجار النخيـل، وممرّ مقنطر مليء بالوسـائد للقـراءة في الهواء الطلق، وبحيرة يعيـش فيهـا ضفـدع أبيـض نادر يقال إنه يعيش فـي جمجمة مثبتة تحت أوراق الزنبـق المائـي وضعهـا هنـاك أحـد القتلة سـعياً إلـى إخفاء هوية ضحيتـه التـي فصل رأسـها عن جذعها. وكانـت ثمة قاعات للفنون فيها سـتائر مزينة، ومصابيح نحاسـية، ولوحات للولائم والمعارك. كما كان هناك بناء ملحق بمكتبة صغيرة مخصصة لمطالعة الشابات، وغرفة شاي تُعرض فيها أواني الباشا الخزفية وكتب الطهي وأطقم فناجين القهوة.

استغلت ماجدالينا الفرصة لتصطحب أخاها الصغير إلى هناك على الفور. كانت قد بلغت السادسة عشرة من عمرها، وأصبحت مدركة تماماً المرحلة الحرجة التي وصل إليها مرضها. وازداد عذابها ومعاناتها لدى تفكيرهـا فـي أنهـا لم تذهب إلى أي مكان على الإطلاق، وأنها المُلامة على العزلة التي عاشـها داريشـا (رغم أنه لم يتذمر منها قط) وجولات داريشا الليلية الدائمة (التي رفض أن يتخلى عنها). قرأت ماجدالينا في الصحيفة أن القصر يحوي شيئاً يدعى قاعة المرايا الخاصة بالباشا، لذا رافقت داريشا إلى هناك لأنها أرادت أن تساعده على رؤية شيء يتجاوز حدود شارعهم وحديقتهم والجدران الأربعة لمنزلهم.

لكي يدخل المرء قاعة المرايا، يجب عليه أن يعبر الحديقة، وينزل درجاً صغيراً يؤدي إلى منبسط يبدو أشبه بعتبة مزار توجد فيه صورة تنين محفورة على الجدار، وامرأة غجرية معها شبل واقفة أمام صندوق صغير مهدّدة بأن تصب لعناتها على أي إنسان لم يدفع لها المال لقاء إرشاده إلى الطريق، وهذا بمعظمه مخصص لمنفعة الأطفال؛ لأن كلا من الغجرية والشبل مدوّنان على جدول رواتب المتحف. فإن وضع الزائر قطعة نقدية في قبعة الغجرية، قالت له: "انتبه إلى نفسك"، ثم أدخلته وأغلقت الباب خلفه. نصح طبيب العائلة ماجدالينا بألا تدخل حرصاً على سلامتها، لذا دخل داريشا وحده.

بدا الجزء الأول من المتاهة موحياً بالبراءة التامة ومشتملاً على صف من المرايا الخادعة التي تقسم المرء إلى نصفين، أو تجعل رأسه يبدو مثل المنطاد. ولكن، بمجرد المرور أمامها وتخطيها تصبح لديه فجأة فكرة عن الوقوف رأساً على عقب. رأى داريشا السقف والأرض مرصوفين بالبلاط الذهبي الذي حفرت عليه أشجار النخيل. وكانت المرايا منصوبة بهيئة تجعله في كل خطوة يخطوها يرى تسع نسخ منه أو عشر نسخ أو عشرين أو ربما آلاف النسخ. أخذ داريشا يتقدم إلى الأمام بينما يتحرك البلاط تحته، ويغير شكله، وتنحرف زوايا المرايا إلى داخل الحقيقة وخارجها، بينما تلمس يداه الزجاج والمزيد من الزجاج؛ وأخيراً فراغاً لم يتوقع وجوده. وعندما انعطف حول بعض الزوايا الخفية، بدأ يصادف بين الحين والآخر واحة مرسومة أو طاووساً واقفاً ويبدو بعيداً ولكنه في الحقيقة خلفه تماماً. وعندئذ، رأى دمية تمثل رجلاً هنديًّا معه أفعى كوبرا خشبية تخرج من سلة. شعر داريشا وهو يشق طريقه خلال المتاهة أن قلبه قد يتوقف في أي لحظة، ولم يعد يعرف وهو يرى نفسه في كل مكان أياً من تلك الصور شخصه الحقيقي. وشعر أن حركته باتت مقيدة بالتردد، والخوف من الضياع، والخشية من ألا يعثر

علـى طريـق الخـروج عبر هذا الضباب. وعلى الرغم من نوايا ماجدالينا الحسنة، فقد بدأ يشعر بالضيق نفسه الذي شعر به في غرفته في البيت. وأخذ وجهه يرتطم بالمرايا بين الحين والآخر مخلفاً بقعاً طبشورية على الزجـاج. وكان يبكـي بحلـول الوقت الذي وصل فيه إلى واحة الباشـا، وهي عبارة عن ردهة مكسـوة بالسـتائر فيها سـتة أو سبعة طواويس حية تتجول حول نافورة خضراء، وخلفها باب يؤدي إلى غرفة التذكارات.

كانت غرفة التذكارات عبارة عن قاعة طويلة جدرانها مكسوة بورق جـدران أزرق، وأرضهـا مفروشـة بسـجادة تركيـة مزينة بشـرابات. وبدا جدارهـا الجنوبـي مزينـاً بجماجـم خرفان برية وظبـاء وبقرون جواميس ومـوظ، وبصناديـق مليئة بالخنافس والفراشـات، وبأنياب فيلة موضوعة بجانـب علبـة تحـوي قرن كركدن بحري لولبيًّا وبجعة كبيرة صامتة وقد فردت جناحيها. وفي نهاية القاعة، رأى داريشا جسم ماعز، وبضع صور للحيوانات الحية توثّق لحظات حياتها لدى الباشـا، وتثبت أن وجودها حقيقي ولم يتم تلفيقه بعد موتها.

بـدا الجـدار المقابـل مضـاء بمصابيح مسـلطة على علـب زجاجية ضخمـة عُرضـت فيهـا تشـكيلة مـن الحيوانـات البرية من أنحـاء العالـم بهيئـة توحـي بصمت غاضـب. وكانت كل علبة منها تمثل أحد الأماكن التـي زارهـا الباشـا أو ابنـه، وقامـا برحلات صيد فيها. رأى داريشـا بين تلك العلب علبة مفروشـة بالعشـب الأصفر، رُسـمت عليها قمم أشجار مسـطحة ومتدرجة، وتحوي أسـداً وشبله ونعامة وحيواناً وحشياً وغزالاً صغيـراً متقوقعـاً فـوق كومة من الأشـواك. وشـاهد علبـة أخرى تحوي غابـات مظلمـة، وشـلالات مصنوعـة مـن القماش، وفتحة كهـف، ودباً واقفـاً بشـكل منتصـب، وعينـاه تنظران إلى الأعلى وأذنـاه متجهتان إلى الأمـام، بينمـا يقـف خلفه أرنب بري أبيـض ذو عينين حمراوين، وطائر تَـدْرُج معلـق علـى الجـدار. وكان في العلبة نهر سـماوي اللون تتزاحم

عليه رؤوس حمير وحشية وأبقار وحشية لتشرب، وقرونها متجهة إلى الأعلى، وآذانها متجهة هنا وهناك لتلتقط أي صوت. وأظهرت صورة مسائية غابة خيزران خضراء، ونمراً متوهج اللون كالنار واقفاً في الأجمة، فيما عيناه تحدقان عبر الزجاج.

عادة، يفتتن الصبية الصغار بالحيوانات، ولكن الحلم الهستيري الذي عاشه داريشا في تلك المتاهة الذهبية، بالإضافة إلى الصمت في غرفة التذكارات لم يرقيا في نظره سوى إلى فكرة أبسط من ذلك بكثير؛ وهي الصمت والعزلة، وفي آخر كل ذلك الموت الذي يتمثل بآلاف الصور بكل صراحة ووضوح. فقد رأى أن للموت حجماً ولوناً وشكلاً وملمساً ورشاقة وجانباً ملموساً وواقعياً. وشعر أن الموت قد دخل هذه الغرفة وانصرف منها مخلفاً وراءه سراب الحياة، فأدرك أنه من المستحيل بالنسبة إلى الإنسان أن يجد حياة في الموت.

لم يفهم داريشا بالضرورة حقيقة الشعور الذي تملكه في تلك اللحظة. فقد أدرك فقط أن وقتاً طويلاً قد مضى عليه وهو يخشى الغياب، ولكنه الآن رأى حضوراً واضحاً. وأدرك أن هذا الأمر متعلق بحفظ الروح والحفاظ على صورة يحبها المرء كثيراً أو يخشاها أو يحترمها. وفي وقت لاحق، أصبح داريشا يأتي إلى قاعة المرايا في أغلب الأحيان بمفرده، ويذرع غرفة التذكارات جيئة وذهاباً، ويتأمل الأشكال الشمعية الثابتة، والتفاف العظام والعضلات والعروق في وجوه الأيائل والخرفان.

استهل داريشا تدريبه على يد السيد بوغدان دانكوف قبل وفاة ماجدالينا بوقت طويل. حدث هذا نتيجة لقاء جمعه مصادفة مع السيد بوغدان في القصر عندما أتى المعلم القديم إلى هناك ليصلح تمثال ثعلب يحتاج إلى إعادة ترتيب فروه. وما إن رآه داريشا ذو الاثني عشر عاماً حتى اعتبره فناناً من العيار الثقيل. إذ كان زبائنه من الدوقات والجنرالات

وأولئـك النـاس الذيـن يعيشـون في الأماكن التي يكتـب عنها والده في رسائله ويصطادون فيها. بدأ داريشا يسرع صباحاً إلى ورشة بوغدان في جنـوب البلـدة لينتظر وصول البضائـع المطلوبة، وخدم الرجال العظماء الذين يأتون ليحضروا الجلود والجماجم والقرون والرؤوس. ومع ذلك، لم يستمتع كثيراً برؤية كل هذا؛ ولا سيما الرؤوس التي تفوح منها رائحة غريبة، والجلود المسلوخة الملقاة هناك في كومة متلبدة. ولكن ذلك كله استحق المكافأة التي حظي بها؛ ألا وهي مشاهدة السيد بوغدان عندما يرسـم الرسـومات من أجل صنع التمثال، ثم يرفع الهيكل الخشـبي بعد مرور أسابيع، وينحت على الجص والشمع العضلات والخطوط حيث تلتقي الأنسـجة معاً تحت الجلد، ويختار العيون، ويمط الجلد ويخيطه حول الجسم إلى أن يصبح مكتملاً مجدّداً، وكذلك عندما يضع الآذان والذيول وإلى ما هنالك. وبعد ذلك، يحين دور رسم الأماكن القاسية، وكَسْوِ الأنف، وصقل القرون.

أنشـأ داريشـا لنفسـه ورشـة صغيرة في قبو بيت أبيه ليتدرب فيها. وشـكلت بالنسـبة إليه حلاً دائماً وآمناً لمشـكلة الأرق الذي لم يبارحه طوال حياته. ومع ذلك، ظل يعتبر نفسـه شـرطي البيت، واعتاد أن يقرأ إلى أن تنام ماجدالينا ومدبرة المنزل، ثم ينزل إلى ورشته ويأخذ الجلود من صندوق الثلج ليبدأ بعملية جعل التماثيل تنبض بالحياة. ولا بد أنه أقنـع نفسـه بطريقـة مـا أن المـوت - إن كان يشـاطرهم المنـزل فعلاً - سـوف ينجذب إلى نشـاطه هذا، وسـيحتار ربما من الطريقة التي يتمكن بهـا مـن نصـب الجلود التي لا شـكل لها على أكتاف وأجسـام وأعناق جديدة. فإن استطاع أن يبقي الموت إلى جانبه ويشغل ذهنه بالتفكير في الأمر وهو يشاركه القبو، فإنه بهذه الطريقة لن يتجول مجدّداً في أنحاء البيـت. تـدرب داريشـا أولاً على الحيوانات الصغيـرة التي كان يلتقطها مـن القمامـة؛ كالقططـة التـي لقيـت حتفها تحت عجـلات العربات، ثم

السناجب التي بدأ ينصب لها فخاخاً بدائية في الحديقة الخلفية. وبعد أن نفق طائر الرفراف الخاص بماجدالينا، أرى داريشا السيد بوغدان الطائر بعد أن حنطه، فسمح له معلمه بأن يتولى بعض المهمات في البيت مثل تحنيط الثعالب وحيوانات الغرير وغيرها. ومع ذلك، لم يعترف لنفسه أو حتى للغرفة الفارغة الهادئة حوله بأي رضا شعر به لإنجازه مشروعاً ما.

ظل داريشا على هذا الحال سنين؛ حتى بعد النوبة التي أودت بحياة ماجدالينا في عصر يوم مشمس من شهر آذار، حين كانا يمشيان في الحديقة. فما إن ترك يدها لحظة ليربط شريط حذائه حتى أصيبت بنوبة، وسقطت على الأرض وشج رأسها. وبعد أن أمضت وقتاً طويلاً في المستشفى، فارقت الحياة من دون أن تستيقظ من غيبوبتها، ومن دون أن تقول له كلمة واحدة. وبعد ذلك، بدأت أشياء أخرى تنهار وتتساقط من حوله. فقد انهارت المملكة أولاً، ثم أتت الحروب مما أدى إلى إفلاس أبيه. عندها، شنق الأب نفسه من أحد الجسور العديدة التي تعبر فوق نهر النيل في مصر. وعندما وجد داريشا نفسه وحيداً ومفلساً وبلا مهمة في الحياة، انتقل إلى قبو السيد بوغدان الذي استمر بتدريبه على مهنة التحنيط. إذ أقنع داريشا نفسه بأن هذا على الأقل شيء يجيد القيام به. وتكرر تردده إلى قاعة المرايا ليتقن مهنة التحنيط إلى أن سُمِح له أخيراً بأن يلمس الحيوانات البرية الكبيرة الخاصة بالباشا في نهاية المطاف في مكتب الماريشال رغم أن داريشا لم يعرف تلك المعلومة قط. في ذلك الوقت، رسم داريشا خططاً لافتتاح مشروع خاص به أو للحلول محل أستاذه السيد بوغدان عندما يتقاعد. ولكن، عندئذ اندلعت الحرب الكبرى، وتلتها سنوات مريرة. وأدى هذا الأمر إلى فشل أي مشروع خطّط للقيام به، لأنّ الأثرياء فروا، أو لقوا حتفهم، أو أشهروا إفلاسهم، أو تخفّوا وراء هويات مختلفة، أو تبنوا ممالك أخرى.

عندما بلغ داريشا العشرين من عمره، وبعد أن دفن معلمه السيد بوغدان ووزع نقوده بأمانة على كل أولاده الشرعيين وغير الشرعيين لكي يتمكن من الاحتفاظ بالقبو لنفسه، بدأ يستجدي العمل استجداء. فوجد نفسه يؤدي بعض الخدمات لصاحب مقهى يمقته مقتاً شديداً، وهو رجل غجري عجوز مصاب بالسّلّ وشاحب الوجه اسمه كاران، رغم أنه أصر على أن يدفع له بالعملة القديمة. كان المقهى عبارة عن كوخ من غرفة واحدة، لذا لم تكف مساحته لجلوس الزبائن في الداخل. واعتاد الزبائن المنتظمون الخروج إلى الساحة التي ملأها كاران بالصناديق والعربات المتحركة وممخضات الزبد وبراميل المخللات المقلوبة أو أي شيء لا حاجة إليه، ويمكن أن يستخدم كطاولة.

لكنّ لولا هي التي ساهمت في شعبية مقهى كاران؛ ولا سيما في نظر الأولاد. وهي دبة كاران الراقصة وعشق حياته. كانت لولا دبة مسنة وناعمة الأنف، وعيناها كعيني الظباء، وقد أمضت سنوات لا حصر لها وهي تجوب العالم مع سيدها وتؤدي الحركات البهلوانية في نواصي الشوارع والسيرك والمسارح والمهرجانات. وذات مرة، نفذت لولا عرضاً للأرشيدوق الراحل نفسه، فعرض كاران صورة لذلك العرض على الجدار بكل فخر. كبرت الدبة كثيراً لدرجة أنها لم تعد بحاجة إلى رسن يقيدها. وبدت راضية بتمضية آخر سنوات حياتها في ظل شجرة البلوط خارج المقهى، بينما تسمح لأولاد الجيران بالتسلق على ظهرها واستراق النظر إلى داخل أنفها. وفي إحدى المناسبات النادرة، نهضت للرقص من دون أن يجبرها أحد على ذلك، وتحركت بخفة ورشاقة ذكرت الناس بما مضى من مجدها.

لم يكن داريشا حينها قد رأى دباً حياً طوال حياته. لذا، ما إن كان يُنهي غسل الصحون أو تقطيع اللحم صباحاً، حتى يمضي وقته في الخارج مع لولا التي أنهك التقدم في السن حاستي البصر والشم لديها.

وفي أغلب الأحيان، لم تكن تفعل شـيئاً يتعدى النهوض على قوائمها، والانتقـال مـن بقعـة ظليلة إلى أخرى. ولكن تنـوع تعابير وجهها أوحى ببقـاء شـيء مـن طبيعـة الحيوان البـري لديها. فقد اتسـمت نظرة عينيها بصفة وحشية؛ ولا سيما إن أرادت شيئاً ما لا يفترض بها الحصول عليه: مثل قطعة كبيرة من اللحم على سـبيل المثال، أو بعض الشـراب الذي سـمح لها صاحبها بالحصول عليه بين الحين والآخر لتدلل به نفسـها، أو إن شعرت بالرضا عند سماعها صوت كاران. ولكن تعبير وجهها لم يخل أيضاً من ذلك التوتر المفاجئ الذي يصيب عضلاته عندما تسـمع صوت كلب من بعيد، أو من تلك النظرة القاتمة المتحفظة التي تستولي عليها عندما يحين وقت إطعامها.

عندما نفقت لولا أخيراً في شـتاء ذلك العام، لم يسـتطع كاران أن يتمالك نفسه من شدة حزنه عليها. فأغلق أبواب المقهى، وأبقاها ملفوفة بملاءة ضخمة في غرفة الطعام لأربعة أيام قبل أن يسمح لداريشا أخيراً بأخذها. وضعها داريشا في قبو السيد بوغدان، وبدأ يعمل على تحنيطها قليـلاً كل يـوم، بينمـا حاولـت يـداه أن تتذكـرا حركـة السـكين والإبرة بسلاسـة قدر المسـتطاع، وحاول ذهنه أن يركز على صورة الدب التي رآهـا فـي المتاهـة الذهبيـة. وعندمـا أعادها إلى كاران بعد شـهر تقريباً، صعق الغجري من فرط الدهشة. فقد جعلها داريشا تقف منتصبة القامة، وجسـدُها فـي حالـة نصـف التفاتة، وأذناها منتصبتـان، وهي في وضعية بين الرقص والوقوف لتنظر بشـكل أفضل إلى فريسـتها. وبدت قوائهما مشـدودة، فيما بدا فراؤها مسـرّحاً ونظيفاً، وعيناها واسـعتين ومركزتين نحو الأفق. وهكذا، نجح داريشا في تحنيطها بهيئة تتراوح بين طبيعتها الطيعة السلسـة، ووقارها الوحشـي المفقود منذ زمن بعيد. عندها، منح كاران داريشـا زيـادة علـى راتبـه، ووضـع لـولا المحنطة علـى المنحدر تحت شجرتها، فيما أنفها المزين بالشرابات الفضية مختفٍ تحت إحدى

قائمتيها الخلفيتين الكبيرتين.

ظلت لولا منتصبة هناك خارج المقهى بالوضعية نفسها لعدة أشهر. وعندما أعاد فصل الربيع الصيادين من الجبال بعد نهاية موسم الصيد، تعجبوا من الإتقان الذي تم به تحنيطها، وطلبوا أن يقابلوا الرجل الذي وفاها حقها بهذه الصورة البديعة الجديرة بالملاحظة. كان الصيادون رجالاً صارمين وقبيحي الوجوه، ولكنّ قبحهم كان يتناقص كلما أسرفوا في احتساء الشراب. شربوا كثيراً في تلك الليلة، وراحوا يبتاعون الشراب لداريشا، وقالوا له إنه لم يعد من الممكن جني الكثير من الربح من العمل بالتحنيط في المدينة، ولكنهم أشاروا إلى وجود غابات كثيرة في أنحاء العالم كافة، منها ما ينتمي إلى ملوك ونبلاء، وأخرى لا تنتمي إلى أحد؛ وهي غابات تعج بالدببة والذئاب والحيوانات الأخرى التي باتت جلودها الآن تساوي الكثير لرجال المدينة الذين يحاولون تمييز أنفسهم في الحلقات الاجتماعية التي ليس لديهم الحق في الانتساب إليها بأصولهم وأنسابهم. وقال الصيادون لداريشا إن الأرستقراطيين في هذا العالم تخلوا عن اهتماماتهم المبتذلة، لذا لم يعد بالإمكان الاعتماد عليهم ليجلبوا له العمل. وبدلاً من ذلك، صار من الضروري أن يخرج ويبحث عن الحيوانات البرية بنفسه، وأن يصطادها بمهارته الخاصة. وإن صادف أحداً من الأثرياء المغفلين، فإن تلك نعمة إضافية تستحق الحمد. ولكن، أصبح من الصعوبة بمكان العثور على أولئك الأثرياء المغفلين، ولم يعد بإمكان المرء الاعتماد عليهم حتى إن أبدوا اهتمامهم به فعلاً. كما لم يعد بإمكانه الوقوف مكتوف اليدين طوال حياته بانتظار أن يصادف أحداً منهم.

واصل داريشا عمله بمسح الأرض طوال الربيع والصيف. ولكن، عندما حل فصل الخريف، تبع الصيادين إلى الجبال وهو يقنع نفسه بأن الصيد مجرد طريق جديد يؤدي إلى الموت. وشعر أنه سيؤمن له بطريقة

أو بأخرى عودة إلى الاستقلالية، وإلى العمل الذي لطالما أحبه. لذا، ذهب إلى الصيد وهو يعتزم في قرارة نفسه أن يحضر جلود الحيوانات ليعيد العمل في ورشة السيد بوغدان إلى سابق عهده، وأن يقتل الدببة التي يشتري الأطباء والسياسيون جلودها من الأسواق، والتي يزخرف الجنرالات المتقاعدون قصص موتها الغامض في جلساتهم قرب نيران المواقد في بيوتهم.

في تلك السنة بالذات، وبعد أن تبع داريشا الصيادين واحداً تلو الآخر إلى الجبال، أصبح صياداً ماهراً، وقيل عنه إنه اعتاد الصيد وكأنه وُلِد صياداً، ولكن إمكانية حصوله على هدف يحيا من أجله ربما كانت هي التي أوقدت حماسته لينخرط في حياة جديدة بتلك الطاقة القوية والإخلاص الشديد. لذا، تعلم كيف ينصب الخيام ويصلح الأسلحة، وكيف يختبئ ويجلس بلا حراك لساعات، وكيف يقتفي أثر طريدته في الظلام وتحت المطر. وحفظ عن ظهر قلب كيفية تحرّك قطعان الغزلان عبر الجبال لكي يتمكن من توقع وصول الدببة التي تأتي لتصطاد الغزلان الشاردة. وتعلم أن يصطاد في أواخر الخريف، عندما تصبح الدببة بطيئة الحركة وسمينة، وتغدو عنيفة في الشهور الأخيرة قبل سباتها الشتوي. وتمكن من استيعاب كل ما علمه الصيادون الآخرون إياه بنهم شديد. أما ما لم يستطيعوا تعليمه إياه، فقد تعلمه بنفسه بالخبرة والتجربة. وبدأ يصطاد باستعمال الفخاخ والبنادق والأشراك واللحم المسموم. واعتاد طريقة موت الدببة الصاخبة وكريهة الرائحة، وطريقة سلخ جلودها عن أجسادها. وتعلم أن يحب العزلة التي لا يمكن لشيء أن يقاطعها سوى لقاء عابر سبيل بين الحين والآخر مع أحد الصيادين الآخرين، أو حسن الضيافة غير المتوقع في إحدى المزارع البعيدة حيث يجد الرجال غائبين دائماً والنساء مسرورات لرؤيته. وتعلم أن الصيد لمدة سبعة أشهر في الجبال هو ما يكسبه متعة العمل لثلاثة أشهر في قبو السيد بوغدان في

عزلة عن العالم؛ ليعيد تشكيل الجلود التي أحضرها معه من الصيد.

علّم داريشا نفسه أيضاً أن يتحمل، ويتفهم ضرورة الاعتياد على الأثرياء المغفلين، وهم مجموعة صغيرة من الشبان الذين يحاولون التشبث بأصولهم النبيلة العائدة إلى آبائهم أو أجدادهم. وبحلول السنة الثالثة على عمله بالصيد، بدأ أولئك الشبان يتبعونه عبر الأجمات بخطى متزعزعة كصغار الظباء، وبرعب جامح وصاخب يتعذر توقعه. فهم من نوع الرجال الذين يأتون محملين بمؤن زائدة ولكن باستعداد قليل، والذين تصطك أسنانهم وتتخدر أذرعهم في اللحظات الحاسمة. وبين الحين والآخر، كان أحدهم يستغل اللحظة بأعجوبة، ويطلق طلقته بصوت مدوٍّ كالرعد، وبتصويب دقيق في الوقت المناسب. ونادراً ما كان أولئك الفتيان على قلتهم يتعافون تعافياً تاماً من الصدمة التي تصيبهم في المرة الأولى التي يقتلون فيها؛ وهذا ما يجعل صورهم التذكارية عن رحلة الصيد بعد أسابيع على انتهائها تظهر وجوهاً تعلوها ابتسامات ذاهلة ونظرات زائغة.

بمرور الوقت، بدأ داريشا يزداد رغبة في اصطياد نوع معين من الدببة، وهي الدببة المستعصية على غيره من الصيادين. وانتشرت القصص والأقاويل عن شجاعته وبسالته. وأخذ المراسلون يطوفون الغابات بحثاً عنه. ولجأ إليه الناس لاصطياد بعض الدببة المزعجة؛ مثل دب أسود اختطف طفلاً في زلاتيكا، ودب خفي يأتي إلى مزرعة في درفينو ليذبح الأحصنة في الحقول، ودب افترس صغار أنثى حيوان بري حمراء في جيسينيكا؛ مما جعلها تحرس حقل الذرة الذي ماتت فيه صغارها، وتهاجم المزارعين خلال موسم الحصاد، ودب رمادي مسن التجأ إلى حظيرة في بيرليف واتخذ منها مكاناً ليمضي فيه سباته الشتوي.

اصطاد داريشا هذه الحيوانات الواحد تلو الآخر. وبعد أن قتلها،

أخذ جلودها معه إلى القرية التالية، فرحب به القرويون، واستضافوه، وقدموا له الطعام والكساء، واشتروا منه الجلود التي لم يرغب في الاحتفاظ بها لنفسه. وعندما حان وقت مساعدته إيّاهم أيضاً، وقفوا مصطفين برهبة على طول شوارع القرية وهم يشاهدونه فيما كان يغادر القرية منطلقاً نحو الغابة. إن توخي داريشا الحيطة والحذر بدفنه أسلحته في مكان ما في الغابة أمر غير مرتبط بالموضوع. إذ يكفي القول إن منظره بدا مدهشاً وهو يتوارى عن الأنظار داخل الغابة من دون أسلحة وجلد الدب الكبير معلق على كتفيه.

هذا هو داريشا الدب الذي انطلقت معرفته من المتاهة الذهبية نحو الهدف الذي وضعه نصب عينيه؛ ألا هو الدببة ولا شيء سواها.

* * *

الآن، هناك نمر بانتظاره. يُقال بالطبع إن داريشا تدخل نيابة عن غالينا حالما سمع بالمصيبة التي حلت بالقرويين. ومع ذلك، فالحقيقة هي أن داريشا لم يُبدِ اهتماماً كبيراً بصيد النمر في الشتاء القارس. فقد بلغ أواخر العقد الرابع من عمره بحلول ذلك الوقت، ولم يعد راغباً في التورط في مهمة جديدة لا يألفها. وبالإضافة إلى ذلك، كان قد أدرك أن الحرب وشيكة، واستشعر دنوها من القصص التي سمعها على طول الطريق، وشعر أنه ليس مجبراً على المكوث في هذا الجزء من الجبال بينما تتقدم القوات بسرعة على سفوح التلال، وتتهيأ لصعودها عند أول بوادر فصل الربيع. ورغم أنه عبَّر عن رفضه الحازم لرجل الدين، إلا أن الصيدلي أقنعه أخيراً بالبقاء. فالصيدلي وحده من لامس إحساس داريشا بالتعاطف، ولكن من دون أن يلجأ إلى المبررات الأخلاقية، أو إلى اليأس، أو حتى إلى الطريدة التي يسعون وراءها.

من المعروف تماماً أن داريشا خلال فترة مكوثه في القرية اكتفى بالجلوس في الساحة ليشحذ سكاكينه، ويسترق السمع إلى أحاديث

النســاء الخافتـة، أو يغيظهـن في الســوق عندما يقفـن متصالبات الأذرع خلف الأكشاك وعيونهن يقظة وثابتة. لقد امتد تعاطف داريشا مع النساء ليصبح كرهاً لكل الأشـياء التي تؤذيهن أو تذلهن؛ مثل صخب الرجال أو سلوكهم الجلف أو مغازلتهم غير المرغوب فيها. لا يسعني القول إن هذا ناجم عن تلك الأيام التي أمضاها أخذاً على عاتقه مسـؤولية أخته ماجدالينا، ولكنه اشـتهر في كل الأمكنة التي سـافر إليها بخلعه أكتاف الرجـال المعتديـن علـى حرمات النســاء، وشـدّه آذان صبية الحي الذين يقفون في الأنحاء ليصفروا للشابات وهن عائدات من المراعي.

وهكـذا، اصطحب الصيدلي داريشـا عند طلـوع الفجر إلى أطراف الغابة بذريعة مشاهدة آثار النمر، وقال له:

"تعال على الأقل لترى أي ملعون لدينا هنا وأخبرني برأيك".

انحنى الرجلان كلاهما ليتأملا آثار قوائم النمر التي خلفها في الليلة الفائتة، فتعجب داريشا من كبر حجمها، ومن مشية النمر القوية والثابتة التي ظهرت واضحة بفضل تلك الآثار التي أظهرت سيره بشكل متعرج صعوداً في الجبل ثم تواريه بين الأشـجار. تسـلق داريشـا الجبل حتى وصل إلى الأجمة، ثم تتبّع آثار النمر من خلال بوله وفرائه العالق على الأشـواك القصيـرة. وعندمـا عاد، تبـع الرجلان آثار النمـر باتجاه القرية والمرعـى، فأوصلتهمـا بالطبـع إلى بيت الجـزار. عندها، خرجت زوجة النمـر مـن منزلهـا، ووقفـت عند المدخـل، وراقبتهما وهمـا يعبران أمام بيتها. بدا الحمل واضحاً عليها حينئذ، ولكن شيئاً ما - ربما كان الحمل نفسه أو غياب لوكا أو سبباً آخر تماماً - أضفى عليها حسناً ورشاقة.

رفـع داريشـا قبعتـه عندما رآها، وأمسـك بها بيـن يديه بينما راحت زوجة النمر تتأمله بفتور. أمسك الصيدلي بيد داريشا وقال له: "يبدو أن النمـر معجـب بهـا"، ثـم كذب عليه قائلاً: "إن هـذا يقلقني. فهي تعيش وحدها".

سأل داريشا: "أليست تلك زوجة الجزار؟".

فأجابه الصيدلي: "بل أرملته. فقد ترملت منذ عهد قريب".

لا شيء في هذه القصة يدل على أن داريشا أبدى أي رد فعل مختلف حيال الفتاة، ولكن موافقته عصر ذلك اليوم على البقاء لبعض الوقت ليرى ما في وسعه فعله حيال النمر، جعلت الناس يقولون إنه وقع في غرامها. ولا بد أنه كان مغرماً بها عندما مشى في الغابات عند سفح الجبال وراح يقتفي آثار قوائم النمر فوق الثلج، وعندما فتح فخاخ الدببة على طول السياج حيث توقع أن يمر النمر. لا بد أنه أغرم بها صباح اليوم التالي عندما ذهب ليتفقد الفخاخ، ووجدها مغلقة وخالية، وعندما أعلن لجميع من في القرية أنه يطلب تعاون الجميع لينجح في عمله، وأنه يجب ألا يقترب الصغار من الفخاخ مجدداً لأن الحظ قد لا يحالفهم هذه المرة، وقد يفقدون ذراعاً أو ساقاً بين تلك الأشراك الحديدية. وانتشرت الإشاعات في أرجاء القرية، وراح الناس يرددون: ما هذه الأعجوبة الجديدة؟ كيف يمكن أن تنغلق أفخاخه وحدها من دون أن يُداس عليها؟ لم يتجرأ أحد على أن ينقل لداريشا الرأي الذي توصل إليه أهل القرية، وهو أن زوجة النمر فعلت هذا بنفسها، وأنه بات بإمكانها السيطرة على المرعى والقرية، والجبل كله على الأرجح، وأن أحداً لا يستطيع أن يغيّر ذلك.

في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، شدت الأم فيرا أذن جدي وسألته قائلة: "هل فعلت هذا يا ولد؟ هل ذهبت إلى حيث توجد الفخاخ في الليلة الماضية؟".

فقال لها بحدة: "كلا".

ولم يكن قد ذهب إلى هناك فعلاً. ومع ذلك، فقد شرح لزوجة النمر عن جهود داريشا بواسطة الرسم على رماد الموقد. وأمضى ليلته ساهراً وهو يتمنى ألا يخطئ النمر ويدوس على الفخاخ، وكان يذهب

إلـى النافـذة لينظـر إلى الشـوارع الفارغـة تحت ضوء القمـر. ولم يمنعه إصرار الأم فيرا على أن ينأى بنفسه عن الأمر من استغلال تسامح داريشا مع الصغار، واللحاق به كلما توجه إلى عمله. ولم يمنع ذلك جدي من الجلوس ببراءة على جذع شجرة قريب وطرح آلاف الأسئلة عن الصيد فيما كان داريشـا يجهز فخاخاً للنمر، كما لم يمنعه من اللحاق بداريشـا إلى المرعى، ثم إلى طرف الغابة والتعجب من منظر الفخاخ الفارغة.

عندما اختفت الآثار من المرعى كلياً، علم الصيدلي أن زوجة النمر تتحمل نوعاً ما المسـؤولية عن فشـل داريشـا. لذا، بذل ما في وسـعه، واضعاً هذه الفكرة نصب عينيه، ليحول دون إفشاء داريشا أيًا من خططه لجدي.

قال الصيدلي لداريشـا مسـاء أحد الأيام: "إنه بالطبع لا يريدك أن تقتل النمر".

فأجـاب داريشـا مبتسـماً: "سـأدعه يحتفـظ بإحـدى أسـنانه عندمـا أصطاده. إن هذا الحل يساعد دائماً".

لكن النمر اختفى على ما يبدو من القرية، فأجبر هذا الأمر داريشا على التوغل عميقاً في الغابة. وبعد ذلك، حدثت أمور يصعب شرحها. إذ يقولون إنه بدأ يجد فخاخه مليئة بالغربان الميتة ذات الأجنحة المتيبسة، مـن دون أن يمـس أحـد الطعـم. ورغـم أن داريشـا أعـد فخاخـاً مخفية عـن الأنظـار جيـداً، إلا أن زوجـة النمـر عثرت عليها كلهـا. فقد أخذت تبحـث عنهـا ليلـة تلو الأخرى، وتملأها بالطيور الميتة. كيف اسـتطاعت وهـي بهـذا الحجـم الصغيـر إضافة إلى وزن بطنهـا الثقيل أن تقوم بتلك الرحلات الليلية، وأن تخفي آثار قدميها وآثار النمر؟ وكيف اسـتطاعت أن تدفن كل جثة مسـمومة تركها داريشـا - وهي ليسـت جثث أرانب أو سناجب، بل جثث غزلان وخراف - لكي لا يعثر أحد على أثر لها في الصبـاح؟ وعندمـا تملـك الإحباط داريشـا ودفعه إلى إحداث حفرة فوق

مجرى جدول متجمد وتغطيتها لتكون بمثابة فخ يقع فيه النمر، كيف استطاعت أن تجد هذا الفخ بنفسها وتترك ملاءة مهترئة مكان الأغصان والحبال؟ كيف استطاعت أن تفعل كل هذا بمفردها وتعود إلى القرية من دون أن تصيبها كدمة أو أذى، وعيناها تفيضان بالبراءة لدى رؤيتها القرويين وهم يتظاهرون بأنهم لا يعرفون أنها هي الفاعلة؟

إنني لا أجد تفسيراً لكل هذا، ولكن ابنة الخباز وجدت تفسيراً على هواها. فبعد أن عجزت عن كبح نفسها، أوقفت داريشا مساء أحد الأيام في الشارع، وتمسكت بذراعيه وأخبرته قصة الحداد ولوكا والطفل.

وقالت وعيناها مليئتان بالدموع: "لقد عرف جميع الناس الحقيقة. إن النمر زوجها، وهو يأتي إلى القرية كل ليلة وينزع جلده".

لست أدري إن صدق داريشا هذا الكلام أم لا، ولكنه كان رجلاً واقعيًّا، ومدركاً تماماً ميله إلى إفساد الخرافات التي يثق بها أهل غالينا. ولم يفاجئه أن يعرف أن القرويين كوّنوا نظرية خاصة بهم، ولكنه أدرك أن الصيدلي كذب عليه واستغله، وأن ذلك جعله - أي داريشا - يحمي الفتاة من دون أن يعرف شيئاً عنها، ومن دون أن يفكر في إمكانية رفضها هذه الحماية. وخامره شك في حدوث تخريب متعمد، فشعر أنه أحمق لتجاهله العلامات الدالة على ذلك. وفي تلك الليلة، ثارت ثائرة داريشا، وصاح في وجه الصيدلي قائلاً: "لقد كذبت علي. إن المسألة تنطوي على جوانب أكثر بكثير مما جعلتني أعتقد".

سأل الصيدلي داريشا وهو واقف بثبات بينه وبين الطير الجاثم في قفصه: "لماذا يجب علي أن أطلعك على القصص التي تدور في القرية؟ فهي ليست سوى مجرد خرافات. كيف يمكن للإصغاء إلى هذا الهراء أن يكون مساعداً لك؟". وعندما التزم داريشا الصمت ووجهه لا يزال أحمر ومتجهماً، قال الصيدلي: "إن تلك الفتاة لن تساعد النمر بعد الآن أبداً. سترى ذلك بنفسك. فنحن، سنسهر هذه الليلة ونراقبها

هي بدلاً من أن نترقّبه".

سهر الرجلان ليلتين بجانب النافذة وهما يراقبان شارع القرية، ونافذة بيت الجزار المُضاء من بعيد. ولكن، عندما بدأ الدخان يتصاعد من مدخنة بيت الفتاة عند منتصف الليل، غفا داريشا والصيدلي ساندين رأسيهما إلى عتبة النافذة، ولم يستيقظا حتى بزوغ الفجر. ورغم أنهما اتفقا على تبادل الأدوار للمراقبة، إلا أن داريشا وجد نفسه يسبح في أضغاث أحلام لم يجد لها أي معنى. فقد رأى حلماً يقف فيه أمام بيت زوجة النمر مترقباً عودة زوجها. وشاهد النمر ذا الكتفين العريضتين والجلد الأحمر اللامع تحت ضوء القمر يعبر الساحة ويمشي إلى آخر الطريق كالشبح والليل ينجر خلفه كذيل فستان. وفجأة، انفتح باب بيت الجزار، واستطاع داريشا أن يرى من خلال النافذة النمر ينهض على قائمتيه كالإنسان ويعانق الفتاة. وجلس الاثنان إلى طاولتهما معاً ليتناولا طعامهما. فأكلا رؤوس خرفان وماشية وغزلان، ثم رأس الماعز الذي تذكر داريشا أنه رآه في غرفة التذكارات في قصر الباشا.

لم يندهش القرويون عندما وجدوا داريشا يستعد للرحيل في صباح اليوم التالي. ووقفوا جميعاً تحت الثلج المتساقط وهم صامتون وشاحبون، وشاهدوه وهو يلف بساطه، ويكوم الجلود المتبقية لديه على عربته من دون أن ينظر إلى أي منهم. لم تصبهم الدهشة من تصرّفه بل شعروا بالغضب. فقد شكل في نظرهم خط دفاعهم الحصين والوحيد، وآخر سلاح متوفر لديهم لمجابهة النمر، ولكن تأثير الفتاة أثبت أنه قوي جداً حتى فيه هو. وهكذا، أصبحوا بمفردهم إلى الأبد من دون أي معين يساعدهم على التصدي للنمر وزوجته.

* * *

ظل النمر مختبئاً في الأجمة فوق معتزل سفيتي دانيلو لأيام، وأذناه مرهفتان لسماع أكثر الأصوات الصادرة عن الصياد خفوتاً. فقد أخذ

الصياد ينصب الفخاخ على طول سفح التل، ثم اتضح للنمر جيداً من يكون، وبدأ يميز صوته ورائحته، ولكنه لم يقترب بما فيه الكفاية ليكتشف ما فعله. فقد أحضرته الفتاة إلى هنا، ومشت معه بصبر ويدها على ظهره بين كتفيه، وتركت له اللحم. مضى عليه أسبوع الآن من دون أن ينزل إلى القرية ويشعر بدفئها، ويشم رائحة معمل حفظ اللحوم التي تفوح من شعرها. وبدأ يظن أنه سيعثر على آثار طفيفة لرائحتها في الهواء؛ وخاصة في الليل. وصار يجلس بين الأشجار في الظلام منتظراً مجيئها. تمدد بين أطلال سفيتي دانيلو، بينما تساقط الثلج من خلال السقف المجوف فوقه، وراقب الطيور الجاثمة على طول القوس الذهبي وعيون التماثيل الصامتة والباردة كبرودة الغابات المتجمدة.

لم يخف النّمر من الصياد لأنّه لم يكن يعرف معنى الخوف، إلاّ أنه أدرك أنّ الرّائحة العالقة بهذا الإنسان مختلفة. فهي رائحة مقرفة؛ رائحة شبيهة برائحة العفن، لذا لم يشعر بأنها تجذبه. وأدرك النّمر أنّ ما يجذبه هو رائحة الغرير وليس رائحة الصياد.

اقترب النّمر من الجهة الخلفية للعربة، فيما كانت الرياح تهبّ من خلفه. وحين وصل إليها، تفاجأ من كبر حجمها، فجثم خلفها مراقباً. وأتاح له موقعه خلف نبات السرخس ووراء عجلتي العربة اللتين غاصتا في الثلج مجال رؤية ممتازاً، فشاهد الثورين المخصيين اللذين يقفان متجاورين وهما يحكّان جسديهما ببعضهما التماساً للدفء. وشمّ رائحة الصياد التي كانت منتشرة في كلّ مكان.

بقي النمر مختبئاً خلف العربة لفترة طويلة منتظراً شيئاً ما. في تلك الأثناء، غيّرت الريح اتجاهها، فشمّ الثوران رائحته، وبدآ يتحركان بعصبيّة؛ ممّا جعل سلاسل النير التي تربطهما إلى العربة تصدر صوتاً عالياً. عندها، ابتعد النمر عنها، فيما تحرّكت العربة إلى الأمام مصدرة صوت قعقعة.

بعـد قليـل، تحرّكـت غريزة النمـر فهاجم الثور الواقـف إلى يمينه، وأعمـل مخالبـه فـي وركيـه، فيمـا نهشـت أسـنانه كفله؛ ممّا دفـع الثور الآخـر الـذي كان قـد تلقـى ضربة قويّة على وسـطه إلى محاولة التحرر من السلاسل التي تشدّه إلى العربة.

* * *

كان يجدر بجدي أن يكون مرتاحاً لرحيل داريشـا، ولكنّه اسـتيقظ في تلك الليلة بسـبب نوبات من الهلع سـرت عبر جسـده في الظلام، وانتشـلته مـن عالـم أنصـاف الأحـلام الذي ظـلّ يتأرجح فيه لسـاعات. عندها، جلس على سـريره وهو غير قادر على تصديق أن ثمة شـيئاً قد تغيّر بينه وبين النمر وزوجة النّمر باسـتثناء المسـافة التي صارت أقرب. وشعر بأن فكرة الذهاب إلى منزلها قد استنزفته. لذا، نظر عبر النافذة إلى السماء الصافية، ورأى ضوء القمر الذي ألقى بظلاله على أرضية الغرفة بجانب سريره، ثم ألقى نظرة على الموقد فلاحظ أن النار قد خمدت فيه باسـتثناء جمرة وحيدة كانت لا تزال تومض في الظلام. وعندها، اتخذ قـراره، فنهـض من سـريره، وانتعل جزمته، ثـم ارتدى معطفه فوق ثياب نومـه، وخـرج مـن المنزل مسـرعاً من دون أن يعتمـر قبعته، فيما كانت الرياح الباردة تلسع وجهه وأصابعه.

كان الظـلام مخيّمـاً علـى القرية بكاملها. وكان المرعى يشـعّ بفعل الثلـج ناصـع البيـاض. وفـي مـكان ما خلفـه، نبح كلب فـردّ عليه آخر، وتردد صدى نباحهما في الظلام. اجتاز جدي المسـافة بسـرعة، ووقف قرب منزل لوكا؛ أسـفل الشـرفة، وحدّق إلى العلية المظلمة عند زاوية المنزل، ثم إلى النوافذ المظلمة أيضاً. بدا المنزل غريباً بالنسبة إليه وغير مألوف بسبب الظلمة. ولم يتمكن من استجماع شجاعته ليدخله ويلتقي زوجة النمر. في تلك الأثناء، رأى جدي آثاراً على الدرج والشرفة، فظنّ أن النمـر قـد عـاد إلى المنزل. غير أنّه عندما دقّق النظر إليها لاحظ أنها

صغيرة جدًّا وناتجة عن قدمين صغيرتين، وأنها تقود إلى خارج المنزل وليس إلى داخله. فكّر جدي قليلاً، ثم سمح لنفسه بالدخول، ولكنه وجد المنزل فارغاً.

عندها، خرج جدي من المنزل، وركض باتجاه المرعى متتبّعاً آثار الأقدام التي أصبحت أعمق فأعمق كلّما ازدادت كثافة الثلج. لم يكن قد سبق لجدي طوال فصل الشتاء أن ابتعد كما فعل في تلك الليلة. ولكنه سار على غير هدى، فيما جزمته تصدر صوتاً فوق الثلج، وأنفاسه تشكل غمامة حوله. وكانت عيناه تدمعان من شدة البرد. وحين وصل إلى طرف المرعى، انحدرت الأرض نحو مجرى جدول. وفجأة، وجد نفسه عالقاً بين الصخور المتجمدة، قبل أن ينحدر نحو الغابة.

وهناك، كانت آثار الأقدام عميقة، وتدلّ على تردّد صاحبها، كما كانت تقود في مسار متعرّج، وفوق حفر غير مستوية؛ ممّا جعل جدي يدرك أن زوجة النمر كانت تغير اتجاهها حين يعلق معطفها أو شعرها ببعض أغصان الأشجار. أبقى جدي رأسه منخفضاً، واستند إلى جذع شجرة حين شعر بأنه منهك. وبعد قليل، حثّ نفسه على المضيّ قدماً، فيما الثلج المكوّم على أغصان الأشجار ينهمر عليه وهو يمشي. شعر أن يديه أصبحتا متورمتين، وأنه يوشك على الاختناق من شدة الخوف، ومن عجزه عن التوغل في الغابة أكثر أو الصياح لتحذير زوجة النمر. سقط على الأرض عدة مرات. وفي كل مرة، كان يجد الثلج أشد عمقاً من ذي قبل. وعندما كان ينهض، كان يشعر بالثلج يملأ أنفه ويلسع عينيه.

لم يدرك إلى أي مدى سيتوجب عليه أن يتوغل داخل الغابة، إذ ربما غادر داريشا قبل مجيئه بساعات. وربما مضت ساعات وهو يمشي من دون أن يشعر بذلك، وربما واجه داريشا الفتاة أو حتى تبعها كل الطريق إلى مخبأ النمر؛ وهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث. شعر جدي أن المعركة قد تصبح حاسمة في أي لحظة الآن. وبينما هو يشق طريقه

وذراعـاه متشـابكتان، وقلبـه يرتعـش بين ضلوعه، أرهف سـمعه بانتظار سـماع صوت الطلقات النارية، أو صوت أي شـيء باسـتثناء وقع قدميه وتـردد أنفاسـه المتسـارعة. ازداد الجهـد الـذي كان يبذله وهو يمشـي. وعندما توقف فجأة داخل الغابة، رآهما.

وفي المكان الذي بدت فيه الأشجار منحنية قليلاً نحو سفح الجبل، شاهد زوجة النمر راكعة، وهي تحمل قطعة كبيرة من اللحم في يدها. لم يجد أثراً للنمر، ولكنه رأى داريشا الدب على بعد خمس عشرة أو عشرين قدماً يتقدم عبر الثلج متخفّياً وهو مسلح ببندقية.

أراد جدي أن يصيح محذراً، ولكنه مشى متعثراً، وأنفاسه متسارعة، وهو يرفع ذراعيه ليمنع نفسـه من السـقوط فوق ركام الثلج. لم تسـمع زوجة النمر شـيئاً، بل ظلت راكعة بهدوء في الفسـحة وهي تحفر الثلج بيديهـا. وعندئـذ انقـض داريشـا الـدب عليهـا. ورآه جدي وهو يمسـك بزوجـة النمـر ويشـدها لتقف على قدميها، فبـدأت تتلوى كحيوان عالق في فخ. أمسك داريشا بكتفيها بينما راحت تتلوى محاولة الابتعاد عنه، ويدهـا الحـرة تتحـرك فوق رأسـها لتخدش وجهه أو تشـدّ شـعره، فيما كانت تُصدر صوتاً أجش وخشـناً يشـبه السـعال طوال الوقت. واستطاع جدي أن يسمع صوت أسنانها التي أخذت تصطك ببعضها بشدة.

تحركت الفتاة بتثاقل بسبب ضخامة بطنها. فجأة، تعثر داريشا إلى الأمـام ودفعهـا علـى الثلج، فسـقطت واختفت عـن الأنظار. لم يعد في وسـع جـدي أن يراهـا بسـبب الظـلام، ولكنـه ظل مسـتمراً بالجري بلا توقـف. وعندئـذ، نهض داريشـا على قدميه. مد جـدي يديه إلى الأمام، وصـاح صيحـة طويلـة لا نهايـة لهـا نابعـة من شـدة الخـوف والكراهية واليأس، وانقض بسرعة الصاروخ على كتفي داريشا وعض أذنه.

لم يُبدِ داريشا رد فعل فوريًّا كما قد يتوقع المرء، لأنه على الأرجح ظـن للحظـة أن النمـر هـو مـن انقض عليه. وبعد ذلـك، لا بد أنه أدرك

أن كائناً صغيراً وبشرياً هو من يعض أذنه، فمد يده إلى الخلف ليقبض عليه، وظل جدي متشبثاً به إلى أن أمسك داريشا بمعطفه أخيراً، وأبعده عنه بذراع واحدة، وألقى به على الأرض. تمدد جدي على الثلج بلا حراك وهو مصعوق، ورأى الأشجار فوقه منحدرة وحادة ومبهمة في الظلام، واختفت الأصوات المحيطة به. وعندئذ رأى جدي وجه داريشا الدب الغاضب، وعنقه المضرج بالدم، وشعر بأن شيئاً ثقيلاً يكاد يهبط على صدره، وهو إما ركبة داريشا أو مرفقه. وفي تلك اللحظة، قبضت يد جدي، من دون أن يدرك ما يفعله، على شيء بارد وقاس على الثلج، وقذف به نحو الأعلى بسرعة باتجاه أنف داريشا، وسمع صوتاً قويًّا، ثم سقط داريشا فوق جدي كالجثة الهامدة.

لم ينهض جدي من مكانه، بل ظل ممدداً بلا حراك، وشعر بمعطف داريشا الخشن في فمه، وأصغى إلى صوت ضربات قلب خافتة من دون أن يعرف إن كان ذلك قلبه أم قلب داريشا. وفي تلك اللحظة، قلبت يدا زوجة النمر الملوثتان بالدم الرجل لتبعده عن جدي، ثم شدَّته وأوقفته على قدميه. وبدت شاحبة الوجه، فيما بدا جلدها مشدوداً ورمادياً من شدة الخوف. وأخذت تدير وجهه إلى هنا وهناك وهي تحاول أن تدثره بمعطفه؛ ولكن من دون جدوى.

وعندئذ، بدأ جدي يجري وزوجة النمر تجري بجانبه وهي تمسك بيده وكأنها تخشى على نفسها من السقوط. وأخذت تتنفس بقوة وسرعة وأنفاسها تصدر أصواتاً خفيفة. تمنى جدي أن تستدعي النمر بطريقة ما، ولكنه لم يعرف كيف تفعل ذلك، ولم يعرف ما إذا كان ينبغي له أن يمسك بيدها أو العكس. لقد أدرك بشكل مؤكد أنه قادر على الجري أسرع من ذلك، ولكن زوجة النمر وضعت يدها الأخرى تحت بطنها، ولهذا حاول التماشي مع سرعتها وبطنها المكوّر وقدميها الحافيتين، وأحكم قبضة يده على أصابعها الباردة.

# الفصل العاشر

## مفترق الطرق

قال ديوريه لأنطون: "كلا، لا أريدها. أحضر لي شخصاً آخر".

لكن الحشد المتجمهر على طول السياج بدأ يقل عدداً، وأضيئت ساحة التخييم، وبدأت المطاعم على طول الرصيف تعيد فتح أبوابها، ولم يعد الولد الذي انطلق للبحث عن متطوع. رغب ديوريه أن ينتظره، ولكن الليل بدأ يخيم على المكان. وبعد مرور بضع دقائق فقد فيها أي أمل بعودته، توجب عليه أن يراجع ورقته الخضراء بحثاً عن أيّ قواعد قد تمنعني صراحةً من أخذ رماد القلب المحروق والمصنوع من الخرق إلى مفترق الطرق.

أخيراً، قال وملامحه موحية بالاستسلام: "حباً بالله! هل لديك على الأقل من يرعاك؟".

قلت له محاولة أن أنظر إلى الورقة: "أين كتب هذا؟".

فقال ديوريه: "هذا لا يهم. من الصالح الذي يرعاك؟".

قلت له وأنا غير متأكدة من كلامي: "لازاروس". وحاولت أن أتخيل الأيقونة المعلقة على درج الخياطة الخاص بجدتي. بدا هذا الكلام مقنعاً بالنسبة إلى ديوريه، فاستسلم أخيراً.

وقال: "غداً. سأرسل الصبيين غداً".

قالت زورا: "والطفلة الصغيرة".

اعترفت بيني وبين نفسي أن رغبتي في دفن القلب نيابة عن العائلة ليست لها علاقة بالنية الحسنة، أو بالإخلاص لمهنة الطب، أو بأي

جانب من جوانب الكرم، بل لها علاقة بالمورا، وبذلك الرجل الذي يخرج من الظلام لينبش المرطبانات، وهو على الأرجح رجل من القرية يحب القيام بالدعابات، ولكنه كان يجمع الأرواح عند مفترق الطرق على بعد ستين كيلومتراً من المكان الذي توفي فيه جدي، والذي يمكن الوصول إليه على متن العبّارة، ويبعد عن ساروبور ثلاث ساعات بواسطة السيارة. هيأت نفسي بالطبع لمصادفة ذلك الشخص المازح، أو للقاء أخرق أضبط فيه ثلاثة مراهقين ينبشون المرطبان ليسرقوا القطع النقدية من الحفرة، ثم يطفئون سجائرهم في رماد القلب المحبوب. ووجدت أنه من المحتمل كذلك - أو ربما كان أكثر الاحتمالات الواردة فعلاً - ألا يظهر أحد، وأن أمضي الليلة بطولها وأنا أنتظر عند مفترق الطرق، وأراقب الرياح التي تعصف بأوراق الأشجار المتساقطة. وتوقعت أيضاً أن أغفو لشدة إرهاقي، أو أبدأ بالهلوسة، أو أن يظهر الرجل المُحصّن مرتدياً معطفه وهو يمشي عبر حقول الأعشاب الطويلة فوق البلدة مبتسماً ابتسامته المعهودة. وفي تلك الحالة، قررت أن أجلس مكتومة الأنفاس بين الأجمات أو تحت شجرة ما بينما ينبش المرطبان وهو يصفر ليسلي نفسه. وحين يصبح المرطبان في يده، فسأخرج وسأطرح عليه أسئلة عن جدي.

بعد أن غابت الشمس تماماً وأظلمت السماء، وانتشرت سحب رقيقة في الأفق المصطبغ بحمرة الشفق، وارتفع المد المفاجئ وهو يبدو ثقيلاً وجارفاً على الشاطئ، تطوع أنطون ليرشدني إلى كيفية الوصول إلى مفترق الطرق. سلكنا طريقاً من الكرم متجهين إلى المساحة الفارغة بين البلدة والجبل، ومشينا على طول الجسر، وعبرنا حقلاً من الأشواك والأزهار الأرجوانية والحمراء المبعثرة التي تتساقط منها كالسهام جنادب سوداء. سبقني أنطون ببضع خطوات وهو على الأرجح يفكر في صمت محاولاً العثور على فرصة مناسبة ليطرح موضوع اختفائي في

وقت مبكر من عصر ذلك اليوم. تبعته وأنا أضع رفش حديقة صغيراً في جيبي، وأمسك المرطبان الطيني الصغير بين يدي بحرص شديد خشية أن يسقط، أو أن يميل وينسكب منه الرماد الممزوج بالماء علي. كانت حقيبة ظهري معلقة على إحدى كتفيّ. وبينما راحت تتأرجح إلى الأمام والخلف، استطعت أن أسمع صوت الكيس الأزرق الذي أحضرته من جريفكوف. مررنا بشاب يقتاد ستة رؤوس من الأغنام رمادية الوجوه، ولكننا سمعنا صوتها قبل أن نراها. وبقينا بعد وقت طويل من اختفائها نسمع صوت رنين أجراسها الخافت.

استدار أنطون نحوي فجأة وقال: "إنك لطيفة جداً لأنك وافقت على القيام بهذه المهمة". فهززت رأسي.

قلت: "على الأقل، سيحضرون الآن لتلقي الرعاية الطبية". وفكرت في زورا هناك وهي تنتظر بفارغ الصبر أن نبدأ بمسح أفواه المرضى وتسليمهم الماء.

قال: "إنني واثق أنه يمكنك استغلال وقتك في القيام بعمل أفضل". وظننت للحظة أنه أراد بذلك أن يؤنبني، ولكنه عندئذ استدار نحوي وابتسم. فابتسمت له وواصلت المشي.

قلت في نهاية المطاف: "إنك تعتني بستين طفلاً، أما أنا فلن أفعل شيئاً سوى دفن هذا المرطبان الصغير". رفع أنطون حاشية ردائه، واستطعت أن أرى صندله وسرواله المهترئ، وقلت: "هناك لوحات كثيرة لكلبك في البلدة وفي المعتزل وفي منزل والدتك".

قال لي: "إن بيس ليس كلبي أنا بل كلب شقيقي آرلو".

"هل رسم أخوك هذه اللوحات في منزل نادا؟".

قال: "رسم بعضها، ولكن الكثيرين من الناس تولوا تلك المهمة بعد الحرب".

قلت: "يبدو أن الأطفال مولعون به كثيراً". وبدا هذا منطقياً في

نظري، ثم قلت: "هل يحضر آرلو الكلب إلى المعتزل لكي يلعب الأطفال معه؟".

أجابني باختصار: "إن أخي متوفى". وصلنا إلى مكان مرتفع قليلاً، وهناك بدأ الطريق ينحرف في هذا الاتجاه أو ذاك عبر العشب صعوداً في التل، ولكن أنطون واصل شق طريقه داخل الحقل حيث تنمو أعشاب رفيعة ودبقة ومتشابكة. واصلت المشي خلفه وأنا أحاول أن أفكر في شيء أعبر به عن أسفي إلى جانب عبارة أنا آسفة. وعندئذ، توقف فجأة وقال: "لقد عانت أمي كثيراً". فأومأت. حك أنطون مؤخر عنقه بيده وقال: "كان آرلو في الخامسة عشرة من عمره عندما اندلعت الحرب. وكان على علاقة وطيدة بفتيان أقاموا لدينا خلال فترة الإجازة. وذات يوم، خرجوا جميعاً للتخييم في بوغومولجكا لليلتين. مرت بضع ليال من دون أن يعودوا. وكان أخي في الخامسة عشرة، كما قلت لك، فظننا أنه يسيء التصرف أو ينفس عن غضبه بشكل غير مباشر. لقد حدث هذا قبل اندلاع الحرب ببضعة أشهر، فلم نبحث عنه. وبعد مضي أسبوع على غيابه، خرج والدي ليلقي القمامة في حاوية شارعنا، وهناك عثر عليه".

قلت: "إنني آسفة". وندمت على ذلك فوراً لأن الكلمة خرجت من فمي بعفوية، غير أنني لم أفعل شيئاً.

تابع من دون أن يبدو عليه أنه سمعني: "خلال الأسبوع الذي اختفى فيه أخي، ظل بيس جالساً بجانب الحاوية من دون حراك. ظننا جميعاً أنه أراد بذلك الجلوس بجانب الطريق بانتظار عودة آرلو، ولكننا أخطأنا التقدير. فقد كان ينتظرنا نحن لنعثر على آرلو". نزع أنطون نظارته ومسحها بردائه، وأضاف قائلاً: "وهكذا، اكتشفنا بعد بضع سنوات أن أولئك الأولاد الذين خرج أخي للتخييم معهم كانوا يخدمون مع الميليشيات عند الحدود. والآن، أصبح جميع الناس يرسمون بيس".

دس أنطـون يديـه داخـل جيبـي ردائـه، ثم كرر حديثه عـن المعاناة الشديدة التي عانتها أمه. وددت أن أقول له إنني أفهم شعورها، ولكنني لم أفهمه فعلاً. كان في وسعه أن يقول إن تلك المليشيات تابعة لبلادي، ولكنه لم يقل ذلك. انتظرت منه أن يقول ذلك، ولكنه فضّل السـكوت علـى مـا يبـدو، فتركته يلتزم الصمـت والتزمت الصمت بـدوري. وبعد ذلك، قال: "لم يعد بعيداً الآن". ظللنا نمشي جنباً إلى جنب صاعدين التـل، ثـم نزلنـا قليلاً على منحدر بسـيط فـي الحقل حيث غطى ضباب مسائي منخفض المكان. وفي أسفل المنحدر تحتنا، شاهدنا طريقاً ترابياً يؤدي إلى أكثر الأجزاء انحداراً؛ حيث توجد أجمة كثيفة وداكنة يمرّ في وسطها طريق آخر يؤدي إلى خارج الحقل ويتوارى داخل الكرم.

وعندمـا وصلنـا إلـى مفترق الطرق رأيت تمثالاً محفوراً في صخرة قائمـة علـى العشـب فـي مكان التقاء طريقين علـى الجانب المطل على البحر. وعلى بعد بضع أقدام، وجدت مساحة من العشب الأخضر حيث انتشرت علب الشراب وأعقاب السجائر. بدأ أنطون يلتقطها بيده، بينما انحنيت وأخرجت رفشـي وغرسـت مقدمته في التراب، فوجدته قاسـياً ومتراصـاً. وفـي نهايـة المطاف، قـررت أن أجرف التراب جرفاً بدلاً من أن أغرفه بالرفش. وبين الحين والآخر، أخذت أنظر من فوق كتفي إلى أنطـون، ورأيتـه يكـوم العلب والزجاجات والبقايـا فوق مئزر كان يضعه حول وسطه. وعندما فرغ من ذلك العمل، أشعل شمعة، فيما وضعت أنا المرطبان في الحفرة التي حفرتها، ثم أسقطت ثلاث قطع نقدية داخله. كومت التراب - كما علمني - ورصصته على قمة المرطبان، ثم ملسته ونظفـت يـدي. سـألته إن كان مـن الصعب علـي أن أعود إلى البلدة في الظلام في حال أردت العودة قبل طلوع الفجر.

فنظر إليّ بدهشة وقال: "هل تفكرين في البقاء هنا؟".

"قلت لك إنني سأبقى".

فقـال بنبـرة جـادة: "لا أحـد يبقى هنا أبداً. إذ توجد ثعالب هناك يا دكتورة. إنها ثعالب مصابة بداء الكلب. ومن الواضح أن ثمة أشـخاصاً يأتون إلى هنا ليحتسوا الشراب، لذا لا يمكنني أن أدعك تبقين هنا".

قلت: "سأكون على ما يرام".

حـاول أنطـون أن يقنعنـي مجدداً فقال: "هناك رجال يأتون إلى هنا ليثملوا". شعرت أنه أراد أن يجد طريقة ما ليجبرني على المغادرة معه. وقال: "إنني مصر على عودتك معي".

قلـت لـه: "لقـد ذهبت إلـى جريفكوف في وقت مبكـر من اليوم". فعلت هذا لأحلَّه من الشـعور بالذنب حيال القرار الذي اتخذته، ولكنه خلع نظارته ومسح عدستيها مجدّداً ببطء شديد.

وقال: "أيتها الطبيبة".

فقلـت: "سـأبقى هنـا". وأضفـت قائلـة: "إن هذا جـزء من خدمتي الإنسـانية". ولـم يكن هذا الكلام كذباً صرفاً، فلم يسـتطع أن يجادلني في هذه المسألة. ولـم يكن في وسعي أن أخبره الحقيقة.

تأمل المكان من حوله، وقال: "إذاً، سـأطلب منك أن تقفي داخل الكرم. ويجب أن تعديني بألا تغادريه حتى الصباح".

"لماذا؟".

فقال: "يقال إن الكروم مبجلة". وضع نظارته بانفعال، ثم أمسـك بذراعي ومشينا معاً مسافة عشرين قدماً مبتعدين عن الطريق، ودخلنا بين صفوف الكروم، فأدركت أنه أراد بهذا أن يجعلني أتوارى عن الأنظار في أعمق مكان ممكن داخل الكروم. أمسك بيدي، وظل ينظر إلى الجبل، ثم إلى الماء، ويشق طريقه عبر الكروم. وحالما اختار بقعة مناسبة، قال: "إن هذا لا يهم بالطبع. إذ لن يأتي أحد بالفعل إلى هنا يا دكتورة. إنك تدركين هذا، أليس كذلك؟". فأومأت بقوة، فيما تابع مبتسماً: "ولكنني سـأحظى براحـة البـال عندما أعرف أنك بعيدة عـن الطريق. لا أحد منا

معصوم عن الاعتقاد ببعض الخرافات".

راقبته وهو يبتعد بين الكروم. ولوّح لي حالما خرج منها. لم يعد في وسعي رؤيته بوضوح، ولكنني لوحت له بدوري. تسمرت في مكاني وشاهدته وهو يعبر الحقل متمهلاً من دون أن ينظر من فوق كتفه، وهو ما توقعت منه أن يقوم به. وبدأ القلق يساورني بعد أن أصبحت وحدي. سمعت صوت احتكاك العلب المعدنية التي يضعها داخل ردائه من بعيد. وظللت أسمع صوتها حتى بعد أن اختفى أنطون وهو يمضي في الطريق المؤدي إلى دار العبادة.

تأخّر الوقت، فتلاشى ضوء الشفق الأحمر من الأفق خلف قمم الجبال البعيدة. بلغت الساعة الحادية عشرة مساء في ليلة صافية يسبح فيها القمر فوق قمة جبل بريجيفينا، ويلقي بضوئه الشاحب، ويشكل ظلالاً جديدة على الأرض. لم أجد مكاناً أجلس عليه، لذا ظللت واقفة وأشجار الكرم ترتعش من حولي إلى أن أصابني التعب، فجلست القرفصاء فوق التراب، وراقبت ضوء الشمعة المرتعش من بين أشجار الكرم. وضعت حقيبة ظهري على الأرض أمامي، وفتحتها لكي أتمكن من رؤية الكيس الأزرق، ولكنه في ذلك الظلام بدا رماديًّا ككل شيء آخر من حولي.

طوال الساعتين الأوليين، لم يقصدني أي زوار، وربما غفوت لبضع دقائق لأنني لا أتذكر كيف مر ذلك الوقت. وعندما استيقظت، كان الوقت قد تأخر بما فيه الكفاية لتبدأ المخلوقات التي تنشط ليلاً تحرّكها. فطارت بومة من مكان ما خلفي، وجثمت على إحدى الأشجار في الحقل، والريش الأبيض حول عنقها يتحرك وهي تحاول أن ترهف السمع إلى شيء ما عجزت أنا عن سماعه. بقيت معي لوقت طويل وهي ترنو إليّ بعينيها الواسعتين بصمت وتلتفت من جانب إلى آخر. وعندما نهضت لأمرّن ساقيّ طارت. كانت هناك فئران في الكرم. فقد

شعرت بحركتها السريعة. وأخذت الجنادب تهمهم وصوتها يصل إليّ من الحقل. وقرابة الساعة الثانية والنصف من بعد منتصف الليل، سمعت شيئاً ظننت أنه وقع أقدام. فنهضت وحاولت أن ألقي نظرة، ولكنني لم أجد سوى حمار نزل لتوه من الجبل. بدا بني اللون، وكبير الرأس، وشارداً، ويتمتع بعينين خجولتين. دخل الكرم، ووقف على بعد مسافة قصيرة مني. أصغيت إلى وقع حوافره على أوراق الأشجار، وإلى صوت نهيقه الخافت، ثم اختفى مخلفاً وراءه رائحة جميلة.

أدركت أن جدي كان سيوبخني توبيخاً صارماً لبقائي هنا لو كان على قيد الحياة. ولم يخطر ببالي أن من يأتي إلى هنا من الممكن أن يدخل الكرم أيضاً، وأنه قد تحدث مفاجأة غير سارة. وفي كلتا الحالتين، قد أتعرض لإطلاق النار أو الطعن، أو لما هو أسوأ من ذلك.

عند الساعة الثالثة والنصف، خرج ثعلب يعدو من مكان مجهول، فتسمرت في مكاني بلا حراك. وعندئذ، أطلق الثعلب صيحة هزت كياني بأكمله، فقد بدت أشبه بصيحة طفل. بدأت أتلفت حولي باحثة عنه قبل أن أنهض على قدمي، ولكنني عندئذ رأيته، ولاحظت عينيه اللتين تشبهان حلقتين، وذيله الأبيض وهو يختفي بسرعة في الظلام. قلت في سرّي: ليذهب إلى الجحيم!

أحسست بقدمي خدرتين، فانتظرت أن يزول الخدر منهما، ثم توجهت إلى مدخل الكرم. ولاحظت أن الشمعة التي وضعها رجل الدين قد انطفأت.

وفي تلك اللحظة، لاحظت وجود شخص آخر.

من حيث وقفت، ميزت الشكل المنحني لظهر إنسان جالس القرفصاء على الأرض بجانب الصخرة. وعندما رأيته، تراجعت إلى الكرم على الفور، وواصلت التحديق إليه من بين الأوراق. لم أعرف من أين أتى. ولم أستطع أن أفهم كيف لم أسمع صوته وهو يقترب.

بدأ الشخص يحفر ببطء ونظام بكلتا يديه، ويلقي بقبضات صغيرة من التراب الأسود جانباً. وبدا ظله منتشراً كالجناح على الصخرة البيضاء. وفي تلك اللحظة، عثر على المرطبان. سمعت صوت احتكاك القطع النقدية على راحة يده وهو يعدها: واحدة، اثنتان، ثلاث. ها قد أتى هذا الرجل ليكذِّب ظني بأن أحداً لن يأتي إلى هنا! وجدت نفسي بالكاد أقوى على الوقوف، ناهيك عن الخروج من مخبئي ومبادرته بالسؤال قائلة: هل أنت الرجل المُحصّن؟ هل أنت هو؟ مستعملة نبرة صوت مقنعة بما فيه الكفاية لأجعل سؤالي يستحق جواباً.

أخذ الرجل المرطبان واستدار مبتعداً. لم يتجه للذهاب إلى بريجيفينا، بل بدأ بدلاً من ذلك صعوداً بطيئاً نحو الجبل. انتظرت إلى أن أصبح في وسعي أن أميز شكله من بعيد، من حيث أقف تحت الأشجار، ثم مضيت في أعقابه.

# الفصل الحادي عشر

## القصف

### غافران غاليه

قبل وفاة جدي بعامين، بدأت القنابل تنهال على المدينة. وشكل ذلك انهيار آخر حصن بعد سنوات على بداية الحرب التي وصلت إلينا أخيراً. وتعرضت المباني الحكومية والمصارف وبيوت مجرمي الحرب كلها للقصف الشديد. ولكنها لم تقصف وحدها، بل قصفت كذلك المكتبات والحافلات والجسور التي تجتاز النهرين. أتت عملية القصف مفاجئة، ولا سيما لأنها بدأت بصورة طبيعية. فقد أعلنت الحرب، وبعد ساعة واحدة، سمعنا صوت صفارة الإنذار التي تدل على بدء الغارات الجوية. ظلت الحياة تسير بشكل طبيعي في الخارج نوعاً ما حتى بعد أن بدأ صوت انفجار القنابل يصل إلينا من خلال النوافذ المفتوحة، وحتى عندما بدأنا نخرج من البيوت ونحن نقول لأنفسنا إن ما يجري مجرد ضجة صادرة عن آلات البناء، وإن السيارة التي رأيناها مندفعة داخل واجهة بناء قرميدي على ارتفاع خمس وسبعين قدماً مجرد دعابة سخيفة.

ظلت القنابل تنهال على المدينة، وتمّ إغلاقها بالكامل. وطوال الأيام الثلاثة الأولى، لم يعد الناس يعرفون كيف يتصرفون، وسادت بينهم حالة من الهستيريا، فبدأوا يهربون أو يحاولون إخلاء المدينة، ولكن القنابل بدأت تقصف النهرين. ولم يعد هناك أي مكان آمن

يمكنهـم أن يختبئـوا فيـه لتجنّبها. أما أولئك الذين بقوا في المدينة، فقد أقنعوا أنفسهم بأن الحرب لن تستمر أكثر من أسبوع، وأنها حرب شرسة ولا طائل منها، وأن الأعداء سيستسلمون ويرحلون لا محالة، لذا ليس هنـاك مـا يسـع المـرء أن يفعله سـوى ألا يبـارح بيته. وفـي اليوم الرابع على بداية القصف، بدأ الناس - ربما بدافع حاجتهم الملحة إلى فسحة من الحرية على الرغم من الظروف السائدة، أو ربما بسببها - يرتادون المقاهي أو يجلسون على الشرفات ويمضون أغلب أوقاتهم في الخارج ليحتسوا الشراب ويدخنوا حتى بعد أن يسمعوا صوت صفارات الإنذار. منح الجلوس في الهواء الطلق الأهالي شعوراً وهمياً بالأمان. فقد أقنع البعض أنفسـهم بأن بقاء الإنسـان في الخارج يجعله يبدو هدفاً متحركاً صغيـراً جـداً فـي حيـن أن مكوثـه فـي بيته يبدو أشـبه بانتظـار طائرات العـدو لتخطـئ هدفهـا وتقصفه بـدلاً من ذلك. وهكـذا، ظلت المقاهي مفتوحة طوال الليل، وأضواؤها خفيفة، وصوت التلفاز خافت في الغرفة الخلفية، فيما الناس جالسون بهدوء ومعهم أشربتهم وهم يتفرجون على شـلالات الأضـواء الحمراء التي تطلقهـا المدافع المضادة للطيران على التل من دون أي فائدة.

فـي أثنـاء تلـك الأحداث، لم يقرأ جـدي أيّ صحيفة لمعرفة أخبار الحرب أو يناقش مجرياتها؛ حتى مع أمي التي باتت خلال الأيام الثلاثة الأولى للقصف تصيح وهي تشاهد التلفاز، وترفض أن توقفه عن العمل حتـى عندمـا تخلـد إلـى الفـراش؛ وكأن إبقاءه على ذلـك الحال يعزلها عما يجري في الخارج، أو وكأن ظهور مدينتنا على الشاشة يحتوي ما يجري، ويضفي عليه سمة العقلانية وعدم الأهمية.

كنت حينذاك في الثانية والعشرين من عمري، وأعمل طبيبة مقيمة في الأكاديمية العسكرية للطب. ظننت آنذاك أن استمرار طقوس جدي يعنـي أنـه لـم يتغيـر، وأنه لا يـزال يعيش بالنظام نفسـه، وبالاسـتمرارية

والرزانة نفسيهما. ولم ألاحظ أو أدرك أن الطقوس نفسها بدأت تتغير، وأن هناك اختلافاً بين الطقوس التي تدل على الراحة والطقوس الوقائية التـي تأتـي فـي نهاية العمر. فقد واصل جدي الخروج من المنزل وكأن لديه لائحة كاملة بأسماء من ينبغي له أن يزورهم، ولكن مرضاه الذين مضـى عليـه عمـر كامل وهو يعالجهم بدأوا يموتـون واحداً تلو الآخر، وأخـذت حياتهـم تذبـل رويـداً رويـداً مع التقدم في السـن. واسـتمرت تمارينـه الرياضيـة اليوميـة، ولكنهـا باتـت عبـارة عـن تماريـن روتينيـة للمسنين. فقد اعتاد أن يقف أمام نافذة غرفة المعيشة في ضوء الصباح الباهت، وساقا سرواله الرياضي الفضفاض مرفوعتان فوق جوربيه، فيما يضع يديه المشـبوكتين خلف ظهره بطريقة روتينية، ويرتفع على مقدمة قدميـه، ثـم يعاود الهبوط على كعبيه بشـكل إيقاعـي، بينما يتردد صدى حركاته في كل الغرفة. واظب جدي على أداء هذا التمرين بشكل يومي، وبلا انقطاع؛ حتى عندما كانت صافرة الإنذار تنطلق مدوّية في الشـارع المجاور.

طوال عشرين عاماً، تعودنا على متابعة برنامجنا المفضل على التلفاز عنـد السـاعة الرابعـة عصـراً، ولكـن جدي جعل ذلـك الوقت مخصصاً للقيلولـة. فقـد أصبـح يغفو وهو جالس، ورأسـه منحـن، وقدماه مثبتتان أمامه بشكل مستقيم، بينما يشبك أصابعه فوق بطنه الذي يصدر أصواتاً مسـتمرة. وإلى جانب كل ذلك، بات يتذمر بشـكل غير مسـبوق بسـبب الأطعمة الدسمة التي اعتادت جدتي أن تطهوها لنا، وهي أطعمة أتذكر أنـه اعتـاد فـي الماضـي أن يتلذذ بأكلها مسـتمتعاً خلال وجبات عشـائنا الصامتة. واكتشفت في ما بعد أن جدتي بدأت تحضر له وجبات منفصلة لأنها لم تود أن تلزمنا جميعاً بعقوبة تناول الخضراوات المسلوقة مرتين في الأسبوع، واللحم المسلوق على العشاء، وهذه هي الحمية التي ألزم جدي نفسه بها بصرامة ومن دون أي تذمر.

تحولـت نزهـات جـدي إلى حديقة الحيوانات إلى ذكرى عابرة من الماضي؛ حتى قبل أن يجبر القصف الحكومة على إغلاق بواباتها. وساد بيـن النـاس الكثيـر من اللغط حول هذا الإغلاق. فقد استشـاط الجميع غضبـاً، وليـس جـدي وحـده، وشـعروا أن هـذا دلالة على الاستسـلام، واتهمـوا الحكومـة باسـتخدام القصـف كذريعـة لذبـح الحيوانـات مـن أجل توفير النفقات. لذا، لجأت السـلطات إلى نشـر عمود أسـبوعي في الصحيفة نشرت فيه صوراً حديثة للحيوانات، وتقارير عن صحتها وعن وضعهـا صغارهـا، والخطـط التي تم التوصل إليهـا لإعادة إحياء حديقة الحيوانات حالما تنتهي الغارات الجوية.

بـدأ جـدي يقتطـع قصاصات من الصحف عن حديقـة الحيوانات. وعندمـا عـدت إلـى البيـت باكـراً في أحد الأيام بعـد مناوبتي الليلية في المستشـفى، وجدته يتناول الفطور بمفرده وهو ينزع القسـم الأخير من الصحيفـة وينظـر إليـه بسـخط. وقال لـي إن هناك كارثـة حلت بحديقة الحيوانات.

قال: "إن هذا خبر سيئ جداً". ورفع رأسه إلى الأعلى قليلاً لينظر إليّ عبر نظارته ثنائية العدستين. رأيت أمامه صينية مكسرات عليها كمية مـن البـذور وكأسـاً من الماء المصطبغ بلون مكمـلات الألياف الغذائية البرتقالي.

ركـزت القصـة المنشـورة في الصحيفة علـى النمر وحده لأن بارقة الأمل ظلت تلوح في الأفق بالنسبة إليه على ما يبدو. ولـم يذكر المقال شـيئاً عن تعرض اللبؤة للإجهاض، ولا عن الذئاب التي أكلت جراءها واحداً تلو الآخر وهي تعوي من الألـم وتحاول أن تهرب. ولم يتحدث عـن البومـة التـي كسـرت بيوضهـا التي لم تفقس حتى سـال منها المح الأحمـر، أو عـن الثعلـب القطبـي الرائع الذي انتزع أحشـاء أنثاه إلى أن توقف قلبه تحت أضواء الغارات المسائية.

بـدلاً مـن ذلـك، ذكـر المقـال خبـراً عـن نمـر تـم إبعاده عـن أنثاه لحمايتهـا، فبـدأ يـأكل قوائمه واحدة تلو الأخرى. ونُشـرت صورة للنمر واسـمه زبوغـوم، وهـو أحد النمـور التي اعتدت أن أراهـا في طفولتي. بـدا فـي الصـورة ممدداً على الأرضية الحجرية لقفصه، وقوائمه متيبسـة كالألواح الخشـبية وموثقة. واسـتطعت أن أرى العلامات السـوداء على لحـم قوائمـه حيـث تم تضميدها. قالت الصحيفة إنهم فشـلوا في وضع حد لهذا الدافع الغريب. فقد جربوا المهدئات والسلاسـل والضمادات المغموسة بالكينين، ولكن كل تلك المحاولات باءت بالفشل. فقد أكل النمر إصبعين من أصابعه خلال إحدى الغارات.

بعد نشر المقال عن النمر بيومين، تم قصف الجسر الذي يعبر فوق النهـر الجنوبـي. وقبـل مرور سـاعتين على انهيـاره، ضرب العدو مصنع السـيارات المهجـور بجانـب حديقـة الحيوانـات، فمات فيلنـا الأفريقي المتبنى المحبوب جالب الحظ ومحب الفستقَ والأطفالَ الصغار.

طوال أسابيع، ظلت المدينة تحاول أن تستوعب سبب اندلاع الحرب المفاجئ. وتعاملنا معها على أنها واقع مؤقت وغير مألوف، ولكن وقوع تلك الغارة بالذات أحدث تغييراً غير متوقع، وجعلنا نستغل كل السخط والتقدير الأخلاقي اللذين تسللا إلينا منذ نهاية الحرب الأخيرة. فبدأت مجموعة من الناس تخرج كل ليلة بمسيرات لأميال ليقف البعض كتفاً إلى كتف عند بوابة القلعة، بينما أخذ البعض الآخر في تلك الأثناء يقف فـي صفـوف متراصة عند الأقواس الحجرية للجسـور المتبقية. وتوجب على من يشارك في حراسة الجسر أن يتحلى بمقدار كبير من التهور لأن إمكانية تعرضه للقصف كانت كبيرة. وبعد ذلك، ازدادت إمكانية تعرض المتظاهرين للموت لأن الوقوف على كلا الجانبين لم يكن ليحميهم من السقوط في الماء إذا تعرض وسط الجسر للقصف.

بـدأت زورا - وهـي التـي تتحلـى بالشـجاعة أكثر من أي شـخص

أعرفـه - بتطبيـق خطتهـا الدفاعيـة. وأمضـت لياليهـا معتصمة مع آلاف الناس بجانب تمثال حصان الماريشال المتوفى عند الضفة الشرقية لنهر كورتشونا معتمرة قبعة على شكل أحد أنواع الطيور، تضامناً مع حراس حديقـة الحيوانـات. حدثتني عن قصف المصرف الوطني الأول، وكيف أنها شاهدت قذيفة تسقط على ذلك المبنى القرميدي القديم عبر النهر، وعن الصوت الذي سمعته عندما تم تسليط ضوء أزرق مشع من خلال سقف البناء، ثم انفجرت النوافذ والأبواب والمصاريع الخشبية واللوحة البرونزية التي تحمل اسـم المبنى واللوحات التي تخلد ذكرى الموتى. وحالمـا انقشـع الدخـان، اتضح أن المبنى لـم يتداعَ على الرغم من كل شـيء، بل ظل قائماً هناك كجمجمة بلا فك، بينما هلل الناس وعانقوا بعضهم بعضاً مهنئين.

خـلال الحـرب، رجـوتُ جدي أن يتخلى عن الزيـارات التي يقوم بها إلى مرضاه ليلاً، وعن الطقوس التي أصر على الاستمرار بها ليشعر أنـه منتـج، فرفـض أن يتخلـى عنهـا، وهـذا مـا عبر عنه بمفردات شـتى تتجاوز الحد الذي كنت سأسمح به لنفسي حتى وأنا في الرابعة عشرة مـن عمـري. اعتدت السـهر قرب حديقـة الحيوانات في أيام الإجازات، ووجدت الحشـد هناك مختلفاً عن حشـد الجسـر أو ربما أكبر سناً. فقد اعتاد الناس أن يصلوا قرابة السـاعة السـابعة؛ في وقت آخر جولة لعربة الفشار، ثم يتجمهروا في مجموعات صغيرة على الرصيف الذي يحيط بجـدار القلعـة، مرتدين ثياباً تدلّ على حيواناتهم المفضلة. فقد صادفت امـرأة ترتـدي زي الأسـد وتضـع كتلـة صفراء اللون على شـعرها، بينما رأيـت رجـلاً آخـر يربـط علاّقـات سـلكية حول رأسـه ويضـع جوربين أبيضيـن عليهـا لتبـدو كأذنـي الأرنـب الأيرلنـدي الضخـم. وأتى بعض الأشـخاص متنكريـن كقطيـع من الذئاب، بينمـا ارتدت امرأة - لم تأت إلـى حديقـة الحيوانـات سـوى مرة واحدة وهي طفلـة - ملابس توحي

بمظهر أول زرافة رأتها في حياتها: أي صفراء ولها قرنان قصيران. لم أتحل بالشجاعة الكافية لأقول لها إنها نسيت الرقع. أما أنا فقد تنكرت بهيئة النمر بالطبع، ولكن لم يسعني سوى رسم خطوط برتقالية وسوداء على قبعة أخرجتها من صندوق ملابسي القديمة في القبو. ووقفت في حديقة الحيوانات وأنا أضع ذيل راكون مزيّفاً وضخماً. رأيت رجلاً متنكراً بزي الثعلب، ومرتدياً بذلة حمراء، وواضعاً ربطة عنقه ونظارته. لم تكن الحديقة تحوي دب باندا قط، ولكن ذلك لم يَحُل دون حضور ستة أو سبعة دببة باندا، ووقوف المتنكرين بتلك الأزياء لحراسة بوابة القلعة وهناك ذيول مستديرة معلقة من سراويلهم. أما الرجل الذي تنكر بزيّ فرس النهر، فقد ارتدى كنزة أرجوانية ووضع وسادة تحته.

بدأ المعتصمون يجلسون على سياج حديقة الحيوانات وبحوزتهم طباشير وطلاء بخاخ. وبعد بضعة أسابيع، بدأ المعتصمون يجلبون معهم لوحات تظهر موقفاً أكثر ودية من الشتائم المعهودة التي اعتاد الناس كتابتها على الجسور. فظهر رجل متشح باللون الرمادي وهو يضع منشفة زهرية على رأسه في مساء أحد الأيام عند بوابة الحديقة حاملاً لافتة كتب عليها: "سددوا هنا. فأنا فيل". وكان هناك رجل مشهور من درانجي السفلى اعتاد التنكر على شكل بطة. في ما بعد، ظهر ذلك الرجل على الرصيف في اليوم الذي تلا قصف معمل الملابس القطنية معلناً: "لم تعد لديّ ملابس داخلية نظيفة". وامتلأت الصحف بصور تظهر إعلاناته المكتوبة بحروف حمراء، وقفازيه المهترئين الرماديين الممسكين باللوحات. وظهر مجدّداً بعد أسبوع أو اثنين حاملاً رسالة تقول: "لم تعد لديّ ملابس داخلية على الإطلاق". فرفع أحدهم لافتة أخرى تقول: "وأنا أيضاً".

أصبحت وزورا نتبادلَ القصص في أثناء مناوبتنا في العيادة حيث نضمد الرؤوس والأذرع والسيقان، ونساعد على إفساح مجال للجرحى،

ونساعد في قسم الولادة، ونشرف على توزيع الأدوية المسكنة. فتمكنا من النظر من خلال نافذة المكتب في الطابق الثالث في مستشفى سفيتي يارمو ورؤية الشاحنات التي تأتي من مواقع التفجير، والقماش المشمع المفرود على الباحة الحجرية والمحمل بأشلاء الموتى. لم تبد تلك الأشلاء شبيهة بالأشلاء التي اعتدنا أن نراها في حصة التشريح، أي إنها لم تكن مرتبطة بأنسجتها، بل بدلاً من ذلك، باتت مجردة من أي شكل منطقي على الإطلاق؛ فهي ليست سوى أشلاء حمراء أو متفحمة ومكومة في أكوام لا يمكن للمرء أن يميز فيها الأذرع من السيقان من الرؤوس. لقد تم انتشال تلك الجثث من الخنادق، ومن بين الأشجار وأنقاض الأبنية المتهدمة حيث عصفت انفجارات القنابل، فلم يعد بالإمكان التمييز بينها ناهيك عن تصنيفها على أنها أجساد ووجوه تخصّ أشخاصاً لديهم أقارب وأحباء في مكان ما.

* * *

عدت إلى البيت ذات يوم ووجدت جدي واقفاً قرب المدخل مرتدياً معطفه ذا الأزرار الكبيرة ومعتمراً قبعته. وحين دخلت رأيته يربط حزامه بعناية، ويدس كتاب الغابة في الجيب الداخلي لمعطفه، ورأيت الكلب مربوطاً بطوقه، وجالساً على عتبة الباب بينما راح جدي يتحدث إليه بتلك النبرة اللطيفة المعهودة.

قبلته، وسألته: "إلى أين أنت ذاهب؟".

فقال لي متحدثاً عن نفسه وعن الكلب: "كنا بانتظارك. فسنذهب معك الليلة".

كانت تلك هي المرة الأخيرة التي ذهبنا فيها إلى القلعة معاً. مشينا طوال الطريق في تلك الأمسية الخريفية الصافية، وحين وصلنا إلى جادة الثورة، انعطفنا نحو الطريق المرصوف بالحصى المجاور لطريق الحافلات الكهربائية. ورأينا الحافلات الكهربائية تسير بجانبنا

بهدوء وهي تبدو قديمة وفارغة فيما سكتها ملساء بسبب هطول المطر طوال فترة العصر. هبت علينا رياح خفيفة وباردة من الجادة، وراحت تحرّك أوراق الشجر والصحف، وتجعلها تدور حول سيقاننا وترتطم بوجه الكلب الذي أخذ يجري بيننا بخطوات قصيرة وهو مفتوح الفم. وضعت قوساً برتقالياً على ظهر الكلب تكريماً للنمر، وعرضت قبعة الراكون على جدي، ولكنه نظر إليّ وقال: "من فضلك، امنحيني بعض الوقار".

توقعت الإذاعة ألا تقع غارة جوية في تلك الليلة، ولهذا بدا رصيف حديقة الحيوانات شبه خال. رأيت المرأة المتنكرة بزي الأسد هناك متكئة على عمود إنارة. فتبادلنا التحية ثم عادت لقراءة صحيفتها. وصادفت كذلك رجلاً رأيته عدة مرات جالساً على سياج الحديقة وهو يعمل على ضبط المذياع. جلسنا على المقعد الخاص بموقف الحافلات، ووضع جدي الكلب ذا القوائم السمينة الملوثة بالطين على ركبتيه. أمضينا عشرين دقيقة ونحن نشاهد الارتباك السائد عند مفترق الطريق بسبب إشارة المرور المكسورة التي لم يزعج أحد نفسه بتصليحها خلال شهر كامل. وعندئذ، انطلقت صافرة الإنذار عبر البلدة، وتبعتها صافرة أخرى أقوى منها. وبعد دقيقتين، رأينا القنبلة الأولى تسقط في الجهة الجنوبية الغربية للنهر، حيث تم البدء بتشييد مجمع وزارة المالية. أتذكر أن الدهشة اعترتني تماماً لدى رؤيتي الكلب الجالس بهدوء ولامبالاة بينما راحت سيارات الإسعاف الخاصة بمستشفى سفيتي بافلو تنطلق من مرأبها نحو الشارع، وأضواؤها تومض بقوة. حاولت أن أخفف عن جدي وقع الكارثة التي حلت بالنمر، فحدثته عن كيفية تعامل الناس في أمريكا مع القططة والكلاب الكسيحة، وأنهم يصنعون لهذه الحيوانات كراسي متحركة يثبتونها على الجزء الخلفي من أجسامها. وهكذا، يصبح الكلب أو القط قادراً على

أن يعيش حياة طبيعية بشكل مثالي وهو يجر نفسه على هذه العربة في أنحاء المنزل.

قلت: "إنهم يظنون أنفسهم أفضل من الآخرين".

مضى وقت طويل لم ينبس فيه جدي بحرف واحد، بل ظل يُخرِج الحلوى من جيبه بصمت ويطعمها للكلب الذي أخذ يلتهمها بسرعة ثم يشم يدي جدي طلباً للمزيد.

طول فترة الحرب، عاش جدي وهو يمنّي نفسه بالآمال. ففي العام الذي سبق القصف، وعندما كانت الحرب الأخيرة لا تزال ذكرى بعيدة، توسلت إليه زورا لكي يتوجه بطلب إلى المجلس الوطني للأطباء لإعادة تشكيل العلاقات الماضية واستئناف التعاون الطبي عبر الحدود الجديدة، ولكنه أدرك الآن بشكل واضح، كما أدركت أنا كذلك، أن وقف إطلاق النار لم يزودنا إلا بوهم مضلل بدلاً من الوضع الطبيعي، ولم يمنحنا سلاماً حقيقياً. إذ عندما يقاتل الإنسان لهدف - مثل تحرير نفسه من الاستعباد، أو التدخل دفاعاً عن أحد الأبرياء - ففي تلك الحالة يصل القتال إلى نهايته المحتومة. وعندما يقاتل من أجل كشف الحقيقة، أو بسبب اسمه أو أصله، أو علاقة اسمه وأصله بمعلم أو حادثة ما، فلا يبقى هناك شيء سوى الكره، وسلسلة طويلة من الناس الذين يتغذون على ذلك الكره لأن من سبقوهم يجبرونهم على ذلك. وهكذا، يستمر القتال إلى ما لانهاية، ويأتي في موجات متلاحقة؛ ولكنه يحافظ دائماً على قدرته على مفاجأة أولئك الذين يعيشون على أمل قرب نهايته.

كانت سهرتنا في حديقة الحيوانات تلك الليلة قبل أكثر من عام على اكتشافنا مرض جدي وبدء زياراتنا السرية إلى طبيب الأورام الذي أصبح آخر حليف لنا، ولكن جسم الإنسان يعي ما يجري داخله. ولا بد أن جزءاً من جسد جدي أدرك حقيقة المرض الذي بدأ ينهشه من

الداخل في ذلك الوقت الذي التفت فيه إليّ وحدثني للمرة الأخيرة عن الرجل المُحصّن.

* * *

فرك جدي ركبتيه بكفيه وقال:

حدث ذلك في أثناء حصار ساروبور. لم نتحدث عن ذلك قط. فقد ساءت الأوضاع كثيراً في تلك الآونة، ولكن ذلك لم يَحُل دون وجود فرصة لكي تتحسّن الأمور، ولا نقع في هاوية سحيقة لا قرار لها. كنت أحضر مؤتمراً في منطقة قريبة من شاطئ البحر. وعندما أوشكت على ركوب سيارتي للعودة إلى البيت، تلقيت مكالمة تستدعيني لإسعاف بعض الجرحى في مارهان.

وحين وصلت إلى مارهان، رأيت الفوضى التي تعم المكان، والخيام والرجال والجرحى الذين تعرضوا لإطلاق الرصاص في إحدى المناوشات في مكان يبعد بضعة أميال عن الطريق. وبينما كنت أضمد جراحهم وأنتظر وصول المعونات الطبية، قالوا لي إنهم أتوا ليدمروا مصنع الطائرات في وادي مارهان بالمدفعية الثقيلة أولاً ثم بالأسلحة الخفيفة التي يحملها الجنود. وبعد ذلك، سيقتحمون ساروبور. أتتخيلين هذا؟ إنها ساروبور التي ولدت فيها جدتك. ولهذا، بحثت عن الجنرال وسألته: "ما الذي يجري بحق الله؟". أتعرفين بماذا أجابني؟

قال: "إن المسلمين يريدون أن يصلوا إلى البحر، ولهذا سنرسلهم إليه عبر مجرى النهر؛ واحداً تلو الآخر".

ما الذي يسعني أن أقوله لك حيال هذا؟ وما الذي يمكن أن يقال؟! لقد تزوجت جدتك في دار العبادة، ولكنني كنت سأتزوجها حتى لو طلبت عائلتها أن نتزوج في مكان آخر. ما الذي يضرني إن تمنيت لها عيداً سعيداً مرة في العام، في الوقت الذي تَسْعد فيه كثيراً من أجلي، وترافقني إلى دار العبادة؟ لقد تربيت حسب المبادئ الأرثوذكسية

الصارمـة، لـذا تمنّيـت أن أربـي أمك على المبـادئ الكاثوليكية لأجنّبها التشـدّد. ففـي النهايـة، كل مـا يريده الإنسـان هو أن يكـون مرتاح البال قبل أن يُوارى الثرى.

غـادرت مارهـان، ولكننـي لـم أعـد إلـى الديار. في ذلـك الوقت، كنـتِ برفقـة أمـك وجدتـك فـي الديار. ولكـن، ليس ذلك هـو المكان الـذي توجهـت إليـه. كانت الإمدادات تصلنا من خلال طبيب شـاب لا أتذكر ملامح وجهه. ودّعته فوراً، ثم خرجت إلى الطريق، ومشيت طوال فتـرة العصـر إلـى أن وصلـت إلى سـاروبور. كانت درجـة الحرارة تبلغ خمسـين درجـة مئويـة فـي وادي أموفـاركا، ويبدو كل شـيء من حولي جافاً وأخضر باهتاً وشـديد الهدوء؛ باسـتثناء القصف بالمدافع الذي بدأ فـي تلـك اللحظـة في مارهان. حصلت هذه الأحداث قبل ثلاثين سـنة، وقبـل أن تصبـح الحـرب حربـاً بـكل ما للكلمة من معنـى، وفي الوقت الذي كنا لا نزال نملك فيه بستان زيتون كبيراً على التلال فوق المدينة. إنك على الأرجح لا تتذكرين ما كان عليه شـكل تلك المدينة قبل أن يقصفوها ويدمروا الأحياء السكنية فيها، ويغرقوا الجسر القديم في النهر كجذع شجرة مقطوع وكأن شيئاً لم يكن.

دخلـت سـاروبور ووجدتهـا مهجـورة. وكان الليـل قد بـدأ بإرخاء سدوله. وفي الحي التركي، سمعت صوت رجالنا وهم يقصفون المعمل فـي وادي مارهـان، ورأيـت الأضواء التي تسـطع من التـل، فأدركت ما سـيحدث تالياً. كان الجميع يعرفون ما سـيحدث جيداً، ولهذا لم أجد أحداً في الخارج ولم تكن المصابيح منارة في المنازل. شممت رائحة طهي، إذ كان الناس يتناولون عشاءهم في الظلام. وفاحت رائحة طعام شهية جعلتني أفكر في الرغبة غير المنطقية التي يشعر بها الإنسان عندما يحسّ بقـرب النهايـة. إذ إنهـم بـدلاً من التوفير تحسـباً للحصـار كانوا يحتفلون في بيوتهم على طول النهر، ويتناولون لحم الحملان والبطاطا

واللبن الرائب. استطعت أن أشم رائحة النعناع والزيتون. وعندما مررت قرب بعض النوافذ، سمعت صوت أزيز ناجماً عن قلي الطعام. فجعلني ذلـك الصـوت أفكـر فـي الطريقة التي اعتادت بهـا جدتك أن تطهو في ساروبور وهي واقفة بجانب النافذة التي تظللها شجرة صفصاف كبيرة.

فـي الحـي التركـي في البلدة، يوجد شـارع ضيـق ممتد على طول النهـر، وفيـه مقـاه تقـدّم القهوة التركية، ومطاعـم يمكن للمرء أن يطلب فيها أشـهى الوجبات في العالم، وأماكن تباع فيها النراجيل، وورشـات لصنـع الزجـاج، ثـم حديقـة الزهور التي تم تحويلهـا بالكامل إلى مقبرة جديـدة. علـى طول الشـارع، وبينما كنت أمشـي بمحـاذاة النهر، نظرت إلى الجسر القديم من بعيد، ورأيت أبراج المراقبة المضيئة. وكل بضع أقـدام، كنـت أمـر بالنوافير التركيـة التي تمنح سـاروبور صوتها المميز. إن صوت سـاروبور يشـبه دائماً صوت المياه الجارية النظيفة والجميلة القادمة من النهر. وفي آخر الشـارع، مررت قرب المسـجد القديم ذي المئذنة الوحيدة المضاءة.

عبرت الجسر القديم، وتوجهت إلى فندق أموفاركا حيث أمضيت وجدتك شهر عسلنا قبل أن نعثر على شقة لنعيش فيها. إنه الفندق الذي كانت الشـخصيات الأجنبية رفيعة المسـتوى والسفراء يقيمون فيه عندما يأتون إلى ساروبور، ومنهم مدير مصنع الطائرات في مارهان - المعمل نفسـه الـذي كنـا نقصفـه - فهو يمضي هناك فترات تمتد إلى أشـهر في بعض الأحيان. إن ذلك الفندق مبني على ضفة النهر، ومحاط بأشجار الزيتـون والنخيـل، ومطل على قمة الشـلال. يتمتع الفندق بتلك النوافذ ذات السـتائر البيضـاء، وبشـرفة تبـدو مثـل تنورة امـرأة. وهناك مصابيح تركية نحاسـية على الشـرفة التي يمكن رؤيتها من الجسـر القديم. وإن خرج المرء من الفندق مساء، تمكن من الوقوف على الجسر، والنظر من فوق الشـلال ومطعم الشـرفة ورؤية الفرقة الموسـيقية المكونة من أربعة

عازفين يتنقلون من طاولة إلى أخرى ليعزفوا أغنيات الحب.

في الداخل، توجد ستائر وأقواس مطلية بالأبيض والأحمر. وهناك لوحات قماشية للباشا معلقة على كل جدار، وكراس وموقد في قاعة الاستقبال. دخلت القاعة، فوجدت المكان خالياً تماماً. عبرت من دون أن أرى أحداً على الإطلاق، ولا حتى عند نضد الاستقبال. واجتزت قاعة كبيرة، ثم وجدت نفسي في الغرفة الأمامية في مطعم الشرفة.

وجدت نادلاً وحيداً ذا شعر خفيف أشيب مسرح إلى الأمام وبقعة سوداء كبيرة على جبهته واضحة وضوح الشمس. إنها تدلّ على الإكثار من الصلاة التي يؤديها المسلمون الأتقياء. كانت بذلته تبدو مشدودة عليه، وربطة عنقه مربوطة. وهناك منديل معلق على ذراعه. عندما رآني أدخل، انبسطت أساريره وغمرته بهجة عارمة وكأن قدومي أهم شيء حدث في يومه. سألني إن كنت أود تناول العشاء بأسلوب شجعني فيه على البقاء رغم عدم وجود أحد يتناول العشاء غيري. فقلت له إنني بكل تأكيد أريد تناول العشاء. وبينما كنت أفكر في شهر عسلي، تذكرت أنهم يقدمون هنا طبق سرطان البحر وكل أنواع السمك التي يصطادونها من البحر.

سألني وهو يشير بيده في أنحاء الغرفة: "أين يود السيد أن يجلس؟". كان سقف المطعم عالياً وأصفر اللون، وعليه لوحة مرسومة تمثل معركة. وهناك مصابيح نحاسية وستائر حمراء معلقة من السقف. وكانت الغرفة كبقية الفندق خالية تماماً من الناس.

أجبته قائلاً: "على الشرفة، من فضلك". فقادني النادل إلى الشرفة، وأجلسني إلى أفضل طاولة في المطعم، وهي طاولة معدة لشخصين، ثم أخذ الطبق والشوكة والسكين والمنديل المخصصة للشخص الآخر.

قال لي: "عذراً، يا سيدي". كان صوت النادل أجش وخشناً رغم أنني لاحظت من شكل يديه وأسنانه أنه لم يدخن يوماً في حياته: "لدينا

شراب المطعم فقط لهذه الليلة".

فقلت: "هذا جيد جداً".

أضاف قائلاً: "وهو متوفر بالزجاجة فقط، يا سيدي". فطلبت منه أن يحضر لي زجاجة، وأخبرته أيضاً أنني سأنام ليلتي في الفندق، وسألته إن كان بإمكانه أن يتكرم بالعثور على شخص ما عند المكتب الأمامي يمكنه أن يساعدني. أعرف أنك تظنين أنها فكرة غير سديدة، وأنك تفكرين في أن أولئك الجنود الذين يقصفون فوق التل يستعدون للنزول إلى ساروبور في الصباح، ولكن البقاء هناك هو ما اعتزمت القيام به في تلك اللحظة، وهذا ما قلته للنادل. كان رجلاً مسنًّا جداً. لا بد أنك تعرفين كيف هم ندلنا. إنهم يتدربون جميعاً من أجل الخدمة في المطاعم القديمة بعد أن يرتادوا مدرسة معينة، وهي مدرسة خدمة الموائد الراقية هنا في المدينة. وهكذا، فهم يتعلمون حرفتهم وأسلوبهم ليصبحوا طهاة محترفين. ويستطيع النادل من هؤلاء أن يميز أنواع الشراب وهو مغمض العينين. إنهم يجيدون قطع اللحم بأنفسهم، ويعرفون أين يسبح كل نوع من الأسماك، وماذا يأكل، ويعملون لسنوات في حدائق الأعشاب قبل أن يتم السماح لهم بخدمة الموائد. إن النادل الذي خدمني في تلك الليلة واحد من هؤلاء، وهو مسلم أيضاً. شعرت بالمرض فجأة حين شاهدته وهو يغادر ليحضر لي شرابي.

جلست على الكرسي مسنداً ظهري، وأصغيت إلى صوت القصف في مارهان. إذ كل بضع دقائق، كان انفجار ما يضيء قمم التلال المحيطة بالوادي باللون الأزرق. وبعد بضع ثوان، يُسمع صوت المدفعية كقصف الرعد. كان هناك نسيم جنوبي يهب عليّ من الوادي محملاً برائحة البارود والحريق. نظرت بعيداً ورأيت شكل الجسر القديم، ورجلاً يصعد ليضيء المصابيح بالطريقة التقليدية التي اعتادوا إشعال المصابيح بها منذ طفولتي. وسمعت خرير مياه النهر الجاري

في الأسفل كصوت موسيقي عذب، فانحنيت إلى الأمام قليلاً لأنظر من بين الأزهار الموجودة قرب سياج الشرفة إلى الماء الذي يجري فوق الصخور البيضاء ويبدو قاتم اللون. وعندما اعتدلت في جلستي، شممت رائحة دخان السجائر في مكان قريب مني. التفتّ إلى الوراء وتفاجأت بوجود ضيف آخر جالس إلى طاولة في الزاوية المقابلة وهو يضع أحد مرفقيه على سياج الشرفة الحجري. كان الرجل مرتدياً بذلة رسمية وواضعاً ربطة عنق، ولكنه يحجب وجهه عني بكتاب يقربه من عينيه ويقرأ فيه. لاحظت أن الطاولة أمامه فارغة باستثناء فنجان قهوة، مما جعلني أظن أنه أنهى تناول عشائه، فسرني أنه سيغادر قريباً بعد أن ينهي شرب قهوته. أوحت لي طريقة جلوسه بأنه غير مدرك على الإطلاق أن الانفجارات تضيء السماء وكأنها ألعاب نارية. فقلت في سرّي: ربما يعتبر أن هناك احتفالاً فعلاً. إذ ربما عبرَ النهر هذه الليلة وراح يتأمل القصر الأثري بإعجاب. إنه يعتبر هذا على الأرجح شيئاً طريفاً وليلة سيظل يتحدث عنها لسنوات وسيخبر أصدقاءه عنها عندما يسألونه: كيف استطاع الجيش أن يغرق المسلمين في النهر.

في تلك اللحظة، عاد النادل العجوز حاملاً زجاجة شرابي. إنني أتذكرها الآن جيداً، فهي زجاجة تعود إلى كرم مشهور سيصبح في ما بعد تابعاً لدولتنا. قدمها لي وكأن ذلك لا يعني له شيئاً. وتملكني شعور بأنه مصمم على إظهار قوة الشخصية التي يتطلبها تقديمه هذا الشراب لي، وكأنه لا يكترث لحقيقة أن صاحب هذا الكرم يطعن ابنه الآن في معمل الطائرات. فتح لي الزجاجة، ثم قلب كأسي، وصب القليل من الشراب، ورنا إليّ وأنا أتذوقه ثم ملأ الكأس بكاملها وترك الزجاجة على الطاولة. اختفى للحظة ثم عاد وهو يدفع أمامه عربة عليها أوراق خس كبيرة، وبضعة عناقيد من العنب، وشرائح من الليمون تحيط بطبق من السمك يتوسط العربة. بدت الأسماك صافية العيون ومكتنزة،

ولكنني وجدتها أشبه بشيء قادم من السيرك.

قال لي النادل: "حسناً، يا سيدي. لدينا لهذه الليلة سمك موسى وسمك الأنقليس وسمك الجندوري. هلا أقترح عليك سمك الجندوري. إنه طازج تماماً. فقد تم اصطياده صباح اليوم".

لم يكن هناك الكثير من السمك على الطبق بل مجرد ست أو سبع سمكات، ولكنها بدت مرتبة ترتيباً جميلاً. إذ إن سمكتي الأنقليس ملفوفتان على الجانبين وتقبع في وسطهما سمكة الجندوري على جنبها وكأنها ورقة مسطحة. ومن بين كل الأسماك على العربة، بدت تلك السمكة الوحيدة التي تشبه الأسماك ولا تفوح منها رائحة غريبة. إنني أحب سمك الجندوري، ولكنني وجدت نفسي في تلك الليلة أشتهي أن أتناول السرطان البحري، لذا سألت النادل عنه، إلا أنه انحنى معتذراً وقال إنه نفد للتو.

طلبت من النادل دقيقة لأفكر فيها. فغادر وبحوزته اللائحة وتوارى عن الأنظار. شعرت بخيبة أمل كبيرة بسبب نفاد السرطان، فجلست وأنا أفكر في الأطباق التي تتلاءم مع السمك. لا بد أن لديهم أطباقاً من البطاطا تقدم بطرائق عدة، وسلطة مع الثوم، وبضعة أنواع من الصلصة المناسبة للسمك، ولكنني عجزت عن الكف عن التفكير في السرطان وكيف نفد من عندهم. ثم قلت في سرّي: يا الله، إنه لمن المريع فعلاً أن يكون ذلك الرجل المتباهي الجالس هناك والذي يقرأ كتاباً هو من تناول آخر سرطان لديهم؛ ذلك السرطان الذي توجب أن يكون من نصيبي أنا لأنني لم آت إلى هنا لأتباهى بأي شيء.

وفي تلك اللحظة، وبينما كانت تلك الأفكار تتضارب في رأسي، عاود النادل المسن الظهور مجدّداً وانحنى أمام طاولة الرجل الآخر.

وسمعته يقول للرجل: "والآن، يا سيدي. هل سنحت لك الفرصة للتفكير؟ هل هناك شيء يمكنني أن أقدمه لك لتشربه؟".

قال الرجل: "نعم، من فضلك. أريد ماء".

وضعت لائحة الطعام على الطاولة ونظرت إلى الرجل. وكان قد أخفض الكتاب قليلاً لكي يتمكن من التحدث إلى النادل. ميّزته على الفور. إنه غافران غاليه؛ الرجل المُحصّن. ذهب النادل ليحضر له الماء. ولكن غافران غاليه لم يرفع كتابه مجدداً ليقرأه. وبدلاً من ذلك، نظر عبر النهر ثم تأمل الشرفة من حوله. وأخيراً، استقرّ نظره عليّ. ورأيت في عينيه النظرة نفسها التي رأيتها حين كان في التابوت، والعينين نفسيهما، والوجه نفسه من دون أن تتغير ملامحه أبداً عما كانت عليه في الزنزانة في الليلة التي صادفته فيها في دار العبادة عندما لم تسنح لي الفرصة لكي أراه بأم عيني.

ابتسم الرجل المُحصّن لي. فقلت له: "هذا أنت".

نهض ونفض معطفه ثم أتى إليّ ليصافحني، فوقفت ممسكاً بمنديلي. وبينما نحن نتصافح بصمت، خطر ببالي سبب وجوده هناك. ولكن، لم يسعني القول إنني تفاجأت لرؤيته. كلا، إنني أدرك الآن أنني كنت غير متفاجئ على الإطلاق. فوجود هذا الرجل هناك يعني شيئاً واحداً فقط، وهو أنه يدرك كجميع الناس ما سيجري بعد قليل.

قال الرجل: "يا لها من أعجوبة جديرة بالملاحظة فعلاً!".

فقلت: "كم مضى عليك من الوقت في البلدة؟".

أجابني قائلاً: "مضت عليّ بضعة أيام".

شعرت أنني متعب ومثقل بأعباء العمل، فقلت له: "لا بد أنك كنت تبيع الناس الكثير من القهوة هنا".

لم يبتسم لدى سماعه هذا الكلام، ولكنه لم يوبخني أيضاً، ولم يؤكد كلامي ولم ينكره، بل وقف هناك ملتزماً الصمت. وخطر ببالي أنه رجل لا يبدو عليه التعب أو الإنهاك مطلقاً. دعوته لينضم إليّ لتناول العشاء وألححت عليه، فوافق بكل سرور، وذهب ليحضر كتابه وفنجانه

بينما أحضر النادل طبقاً وأدوات مائدة أخرى من أجله.

سأل النادل: "هل يعرف السيدان المحترمان ما يريدان أن يطلباه الآن؟".

فقال له صديقي: "ليس بعد، ولكننا سندخن النارجيلة".

انتظرت إلى أن ذهب الرجل المسن ليحضرها لنا، ثم قلت: "لقد تناولت أفضل وجبة في حياتي هنا". فأومأ الرجل المُحصّن موافقاً. وعندها تابعت قائلاً: "تناولتها في أثناء شهر العسل. إنك لم تقابل زوجتي قط. لقد مكثنا هنا في فترة شهر العسل وتناولنا السرطان. حدث ذلك بعد مرور عامين على المرة الأولى التي التقيتك فيها في تلك القرية الصغيرة. هل تتذكر ذلك؟".

أجاب: "نعم، أتذكرها".

فقلت: "كنت فتياً جداً آنذاك. لقد أمضيت شهر عسل رائعاً جداً. طوال أسبوع كامل، لم آكل سوى السرطان. ولا أزال أحب أن آكله".

"إذاً، ينبغي أن تفعل ذلك".

"لم يعد لديهم أي سرطان لهذه الليلة".

"هذا مؤسف".

فقلت: "ألست أنت من تناول آخر واحد؟".

أجابني قائلاً: "كما ترى، أنا لم آكل بعد".

التزمنا الصمت لبعض الوقت، ولم يسألني عما أفعله هناك. وعندئذ خطر ببالي أنه ربما يعرف شيئاً لا أعرفه، وأنه ربما لم يأت لمقابلة شخص آخر بل لمقابلتي أنا، وأنه جاء خصيصاً من أجلي. فشغلت تلك الفكرة تفكيري. إنني أؤكد لك أنه شيء لا أصدقه، ولكنني لم أستطع أن أنسى ذلك. ولا أعرف إن كان السبب هو القصف أو المساء أو الجسر القديم، ولكن هذا ما فعلته وأنا جالس هناك والمنديل على ركبتي؛ كنت أفكر في ذلك الاحتمال.

سألته: "هل كنت مشغولاً؟".

فقال لي: "ليس كثيراً". وكان سيضيف شيئاً آخر، ولكن الرجل المسن وصل في تلك اللحظة حاملاً النارجيلتين ثم وضعهما أمامنا، ونظف الأنبوبين ووضع الفحم فوق "التنباك". وعندما أنهى عمله، فاحت رائحة جميلة من الأنبوب، وعبير يشبه عبير العسل والورد. عندها، أخرج النادل قلم رصاص وقطعة ورق ليدون طلبنا.

سألني الرجل المُحصّن: "ماذا تود أن تطلب؟".

فقلت: "إنني من عشاق سمك الجندوري، وسأطلبه بسبب عدم توفر السرطان".

"إذاً، هل نطلب الجندوري؟".

"نعم، لنتناول الجندوري".

قال الرجل المُحصّن للنادل المسن وهو يرفع نظره إليه ويبتسم: "سنتناول الجندوري". فانحنى النادل وكأنه يعبر عن حسن اختيارنا، وهذا صحيح. إذ إن خيارنا جيد جداً، وهو على الأرجح آخر سمك جندوري باعه ذلك الفندق على الإطلاق.

قال النادل العجوز: "هل أنصح سيدّي ببعض المقبلات؟ لدينا حساء ممتاز مع الثوم، ولدينا كذلك سلطة الأخطبوط، وطبق رائع آخر بالجبن والزيتون".

قال الرجل المُحصّن: "أشعر أن بعض الإسراف مطلوب. إن الدلال مطلوب في هذه الليلة، لذا سنتناول كل ما ذكرته. وأحضر لنا مع السمك بطاطا مسلوقة مع الشمندر".

قال النادل وهو يكتب كل الطلبات بقلم الرصاص الثخين: "جيد جداً، يا سيدي".

"ونريد بالطبع صلصة البقدونس".

فقال النادل: "بالطبع، يا سيدي".

وأعاد ملء كأسينا بالشراب ثم غادر. جلست وأنا أنظر إلى وجه الرجل المُحصّن المبتسم والهادئ، وسألت نفسي لماذا يعتبر الدلال مطلوباً في هذا اليوم بالتحديد؟ أخذ الرجل أنبوب النارجيلة وبدأ بالتدخين، فتصاعدت سحب كبيرة من الدخان من أنفه وفمه وهو يبدو راضياً جداً بالجلوس هناك والقصف يهزّ وادي مارهان.

لا بد أنني بدوت مندهشاً جداً بسبب هذا لأنه سألني قائلاً: "هل هناك خطب؟". فهززت رأسي. وعندها، ابتسم قائلاً: "لا تقلق بشأن الفاتورة يا دكتور. إن الوجبة اليوم على حسابي. من المهم جداً أن يدلل المرء نفسه بهذه المأكولات الممتعة".

فقلت لنفسي: يا الله. سيحدث ما أتوقعه! لا بد أن هذه وجبتي الأخيرة التي سأتناولها مع رجل مُحصّن!

قال لي فجأة وكأننا نتحدث عن هذا الموضوع: "لقد تناولت أفضل وجبة لي في مطعم ذا بيغ بور قبل ثمانين عاماً". لست أدري لِمَ لم أسأله حينها: ماذا؟ كيف يمكن أن تتناول وجبة كهذه منذ ثمانين عاماً في حين أن ملامحك تدل على أنك في الثلاثين وربما أقل؟ وتابع قائلاً: "كان مطعم بيغ بور رائعاً في متنزه الملك المخصص للصيد. إذ يمكن للمرء هناك أن يطلق الرصاص على الحيوانات ويصطادها بنفسه، ثم يحضّر له الطاهي ما اصطاده بطريقته المميزة. لقد ذهبت بصحبة تلك المرأة التي أخبرتك عنها، المرأة التي توفيت، عندما هربنا معاً في أول الأمر من هنا".

فقلت: "لم أكن أدرك أنها من ساروبور".

"كل شخص لديه مكان ينتمي إليه، أيها الطبيب".

أحضر النادل سلطة الأخطبوط والفلفل والمقبلات الأخرى إلى طاولتنا ورتب الأطباق. فبدأ الرجل المُحصّن بالأكل على الفور. فاحت من الطعام رائحة رائعة، فوضع غافران أوراق الملفوف وقطع الفلفل

الأحمر على طبقه. وبدت مجسات الأخطبوط الزهرية والأرجوانية لامعة بفضل الزيت. وضعت القليل منها على طبقي وأكلت أيضاً، ولكنني كنت آكل ببطء لأن الطعام قد يكون مسموماً، من يدري؟ وربما يعمل ذلك النادل المسن بدافع الانتقام، ولهذا السبب أتى الرجل المُحصّن إلى هنا، ولكنني وجدت أنه من الصعب ألاّ آكل بعد أن انطفأت الأنوار في مارهان، وتوقف غافران غاليه عن التحدث عن طائر التدرج. ولكنه قرر ألا يلتزم الصمت أبداً خلال تلك الوجبة. إذ كلما اقترب النادل منا، رفع غافران صوته وهو يثني على روعة النكهات والزيت الطازج. إن كلامه صحيح بالطبع. فقد كان الطعام رائعاً، ولكنني شعرت أنه كان يحاول أن يسترضيني لأنها آخر وجبة لي. فقلت في سرّي: يا الله! ما الذي ألحقته بنفسي بحضوري إلى هنا؟

أحضر النادل سمك الجندوري، وبدا مدهشاً. فقد كان السمك داكناً ومقرمشاً من الخارج ومشويًّا جيداً. قطع النادل السمك بالسكين، فبدا اللحم طرياً وناضجاً. وضع قطعة في كل طبق، ثم وضع لكل منا القليل من البطاطا مع الشمندر. بدت البطاطا صفراء فاقعة والبخار يتصاعد منها، فيما بدا الشمندر متماسكاً وأخضر اللون. أكل الرجل المُحصّن بلا توقف، وأطرى على عظمة الوجبة، وهذا صحيح بالفعل. فقد كانت وجبة رائعة. ورغم أنه كان باستطاعتنا أن نسمع صوت القصف في مارهان، إلاّ أن تلك الوجبة التي تناولناها على الشرفة المطلّة على النهر والجسر القديم كانت رائعة.

شعرت أنني لا أطيق انتظاراً لأعرف الحقيقة، فسألته فجأة: "هل أتيت إلى هنا لتخبرني أنني سأموت؟".

نظر إليّ بدهشة وقال: "عذراً؟".

قلت: "إنني أتحدث عن هذه الوجبة وعن الدلال الذي تغدقه علي. إن أتيت إلى هنا لتدعني أستمتع بوجبتي الأخيرة، فإنني أود أن أعرف

هذا لأنني أريد أن أتصل بزوجتي وابنتي وحفيدتي".
"إنني أفهم من طرحك هذا السؤال بلا أي استفزاز أنك تقبلت حقيقتي. هل يعني هذا أنك مستعد لمنحي ما تعهدت بمنحي إياه، أيها الطبيب؟".
قلت: "بالطبع لا".
"أما زلت بحاجة إلى دليل آخر؟".
"لم نشرب القهوة بعد".
أمسك غافران غاليه طرف منديله ومسح به فمه.
"هل يمكنني رؤيته؟".
"ماذا؟".
"الكتاب الذي تعهدت بمنحي إيّاه أيها الطبيب. دعني أراه".
فقلت له وأنا متفاجئ: "كلا".
"هيا، أيها الطبيب".
"إنني لا أطلب منك أن تريني فنجانك". ولكنه لم يستسلم، ولم يأخذ سكينه وشوكته بل اكتفى بالتزام الصمت. وبعد قليل، أخرجت كتاب الغابة من جيبي وقدّمته له. فمسح أطراف أصابعه قبل أن يأخذه مني، ثم مرّر يده على الغلاف الخارجي.
قال وكأنه يتذكر القصة جيداً: "آه، نعم". وفتح الكتاب وقلب صفحاته متأمّلاً الصور، وقارئاً القصائد. اعتراني خوف شديد من أن يستولي عليه، ولكنني خشيت أيضاً أن ينزعج إن شعر بأنني لا أثق به.
قال لي وهو يسلمني الكتاب عبر الطاولة: "ريكي تيكي تافي! إنني أتذكره جيداً. فقد كنت أحبه أكثر من غيره".
قلت: "من المدهش أن يحب أحد ابن عرس". لم يوبخني غافران لقولي هذا رغم أننا كنا نعرف أنني وقح ومخطئ في آن واحد. إذ إن ريكي تيكي نمس بالطبع وليس ابن عرس.

راقبني غافران غاليه وأنا أعيد وضع الكتاب داخل جيبي. وابتسم لي وهو يقترب مني ثم همس قائلاً: "إنني هنا من أجله". وأومأ نحو النادل. لم يقل لي إنه لم يأت من أجلي، لذا شعرت أنني منهك الأعصاب. ولكن، انتابني فجأة شعور مريع من الأسى لحال النادل العجوز المسكين.

"هل يعرف ذلك؟".

"من أين له أن يعرف؟".

"لقد كنت في الماضي تخبرهم".

"نعم، ولكنني تعلمت درساً من ذلك، أليس كذلك؟ لا بد أنك رأيتني، أيها الطبيب، وأنا أتعلم. إن أخبرته الآن، فسيطعنني بسيخ "الكباب". وهكذا، سأعاني من صعوبة بالشفاء، وهذا ما لا يجب أن يحدث لأنني مشغول جدًّا". استند إلى كرسيه ومسح فمه بمنديله، ثم قال: "وبالإضافة إلى ذلك، ما الذي سيستفيده من معرفة ذلك؟ إنه سعيد الآن بتقديم وجبة فخمة لشخصين لطيفين في ليلة اندلاع الحرب. دعه يستمتع بهذا الشعور".

فقلت له وأنا مصعوق: "أدعه يستمتع! من الممكن أن يعود إلى بيته ويمضي آخر يوم له مع عائلته".

قال الرجل المُحصّن: "إننا ندلل نفسينا وندلّله هو أيضاً. إن هذا الرجل يشعر بفخر عارم حيال ما يقوم به، فهو يقدم وجبة رائعة وعظيمة. هذه الليلة، سيذهب إلى بيته وعائلته ويتحدث عن تقديمه آخر وجبة في فندق أموفاركا. وبعد أن يرحل غداً، ستبقى هذه الذكرى لدى الأحياء ليتحدثوا عنها. وسيظلون يتحدثون عنها بعد أن تضع الحرب أوزارها. أتفهم ما أعنيه؟".

وصل النادل، ورفع أطباقنا، والطبق الكبير الذي كان قد وضع سمك الجندوري عليه والحسك الصغير كله يبدو نظيفاً. وازن الأطباق

على إحدى ذراعيه، والمنديلُ الأبيض لا يزال مطوياً على ذراعه الحرة. شغلت هذه الوجبة الجديرة بالتذكر تفكيري، ولم أستمتع بها بسبب الخوف.

قال النادل العجوز: "هل يودّ السيدان تناول شراب أو حلوى؟".

فقلت له فجأة: "سنتناول الاثنين. أحضر لنا كل ما لديك من حلوى وشراب".

أضاف الرجل المُحصّن اسم نوع شراب قوي. وعندما غادر النادل، قال لي إنه مسرور لأنني أستمتع.

خيم الصمت علينا. ففكرت في سرّي في طريقة أستطيع من خلالها أن أقنع الرجل المُحصّن بأن يخبر النادل بأنه سيموت قريباً، أو أن أخبره بذلك بنفسي من دون أن يلاحظ الرجل المُحصّن ذلك. أحضر النادل الحلوى على صينية فضية ضخمة وضعها على الطاولة. بدت الحلوى ذهبية اللون وطرية وتقطر عسلاً. أما التفاح المشوي مع الجوز، فوجدته حلواً ولذيذاً. ومع كل ذلك، حرق الشراب القوي الذي طلبه صديقي حنجرتي. شعرت برأسي يدور قليلاً فيما كنت أراقب وهج النار الذي يضيء سماء مارهان، وافتقدت إلى طبخ جدتك لأن حلوياتها أشهى من هذه الحلوى.

وعندما أنهينا تناول طعامنا، دفع غافران غاليه كرسيه إلى الخلف، وقال: "رائع!". ثم وضع يديه على بطنه، وجعلني شيء ما حياله أيضاً أشعر بالحزن.

فقلت: "هل ستموت غداً أنت أيضاً؟ ألهذا السبب أنت هنا؟". إنه سؤال أحمق لكي أطرحه عليه. وأدركت ذلك حالما خرجت الكلمات من فمي.

"بالطبع لا". وربّت بأصابعه على بطنه، فبدت أصابعه كأصابع طفل صغير. ثم قال: "هل ستموت أنت؟".

لـم أضحـك رغـم أنني ظننت حينها أنه يمازحنـي، بل قلت: "بعد كل ما يجري، وبعد أن تسوى المدينة بالأرض، وهذا ما سيحدث غداً بلا شك، ألا تعتقد أنك ستمنح الإذن لتفقد حصانتك؟".

أجـاب غافـران وهـو يمسـح طبـق الحلـوى بشـوكته: "بالطبع لا". ومسح فمه بمنديله ثم رفع يده إلى النادل، فجاء النادل وجمع الأطباق. وقبل أن يسألنا عما نريده، قال الرجل المُحصّن: "والآن، سنشرب بعض القهوة".

عندهـا، جـال فـي ذهنـي أن غافران جـاد في ما يفعلـه. بعد قليل، أمسك أنبوب النارجيلة مجدّداً، وبدأ بالتدخين. وبين كل بضع نفخات، كان يعـرض علـيّ أن أدخـن فأرفـض. فاحـت من التبغ رائحة الخشـب والزهـور، وتصاعـد الدخـان وامتـزج مـع الضبـاب الـذي كان يكتنـف المكان مموهاً الأضواء فوق الجسـر. عاد النادل وبحوزته قهوتنا، وبدأ بترتيـب الطاولـة ليضـع فنجاني القهوة، ولكن الرجـل المُحصّن قال له: كلا سنشـر ب معاً من هذا الفنجان. ثم أخرج فنجانه الأبيض ذا الحافة الذهبية.

عندمـا وقـف النادل في مرمى السـمع، قمت بمحاولة أخيرة قائلاً: "أظـن الآن أنـك سـتطلب مـن هذا السـيد المحترم أن يشـاطرنا قهوتنا، أليس كذلك؟". تعمدت أن أقول هذا الكلام بوقاحة لكي يغادر النادل ولا يشرب من الفنجان.

ولكن الرجل المُحصّن قال لي: "كلا، كلا، سنشـرب نحن الاثنان فقـط. فقـد شـربنا قهوتنـا معاً عصر هذا اليوم، أليس كذلك؟". وابتسـم النادل العجوز وأحنى رأسه الأصلع. شعرت فجأة بحزن شديد، وبالألـم لحال ذلك الرجل العجوز. وتابع الرجل المُحصّن: "كلا يا صديقي، إن هـذه القهـوة لـي ولـك فقط". وعندما غـادر النادل، صب غافران القهوة الساخنة في الفنجان وسلمني إياه واستند بانتظار أن تبرد بما فيه الكفاية

لأشربها. استغرق هذا وقتاً طويلاً، ولكنني شربت ما في الفنجان كله في نهاية المطاف بينما كان صديقي ينظر إليّ مبتسماً.

ثم قال: "حسناً الآن". وأخذه مني. كان المكان مظلماً على الشرفة. أمعن غافران النظر إلى داخل الفنجان بينما اتكأت إلى الأمام، ونظرت إلى ملامح وجهه التي بدت قاسية كالحجر.

قال فجأة: "أصدقني القول، لماذا أتيت إلى ساروبور؟ أنت تنتمي إلى الجانب الآخر".

فقلت: "أتوسل إليك، لا تقل هذا مجدّداً. لا تتفوه بهذا الكلام بصوت عال مرة أخرى. هل تريد أن يسمعك الرجل العجوز؟". ظلّ غافران ممسكاً فنجاني بيده، فأضفت قائلاً: "إنني لا أنتمي إلى الجانب الآخر. لست مع أي جانب. فأنا لا أنحاز إلى أحد".

"ليس بالاسم".

قلت له وأنا أنقر على الطاولة بأصابعي: "لقد ولدت زوجتي هنا، وكذلك ابنتي. وعشنا هنا إلى أن بلغت ابنتي السادسة من عمرها".

"ولكن، يبدو أنك تعرف ما سيجري غداً، ولهذا السبب أسألك لماذا أتيت إلى هنا. لم يتم استدعاؤك، ولم تأت إلى هنا لتأخذ أي شيء ذي قيمة، بل أتيت لتتناول العشاء. لماذا؟".

"إن لهذا المكان قيمة في نظري، ومن الواضح أن له قيمة بالنسبة إلى ذلك الرجل العجوز الذي ترفض أن تمنحه فرصة ليمضي آخر أيامه مع عائلته".

قال غافران وهو لا يزال متحلياً بالصبر: "سيذهب إلى عائلته الليلة أيها الطبيب، عندما يعود إلى البيت". لم أستطع أن أصدق مدى صبره. وتابع قائلاً: "لماذا ينبغي لي أن أخبره أنه سيموت غداً؟ ألكي يعلن الحداد على نفسه في آخر ليلة يمضيها مع عائلته؟".

"إذاً، لماذا أزعجت نفسك بتحذير الآخرين؟".

"من تقصد؟".

"أقصد الرجل الذي أغرقك، والرجل المصاب بالسعال في دار العبادة. لماذا لا تحذره هو أيضاً؟ لقد كان من حذّرتهم يحتضرون فعلاً؛ مثله تماماً. وإن أخبرته فبإمكانه أن يغادر هذا المكان".

أجابني: "وكذلك أنت".

"سأفعل هذا".

"حقاً!".

"نعم، أعطني ذلك الفنجان أيها الوغد المبتسم. لا يوجد فيه شيء من أجلي".

ولكنه رفض أن يعطيني الفنجان، وقال: "لم تجب عن سؤالي أيها الطبيب عندما سألتك عن سبب حضورك إلى ساروبور".

احتسيت القليل من شرابي بسرعة، ثم قلت: "لأنني أحببت هذا المكان طوال حياتي. إن أولى ذكرياتي الجميلة مع زوجتي وطفلتي تعود إليه. والآن، سيتحول كل هذا إلى جحيم مستعر غداً".

"إنك بحضورك إلى هنا تدرك أنك تخاطر بحياتك، إذ من الممكن أن يطلقوا قذيفة الآن حالاً ويدمروا هذا المبنى".

"هل سيحدث هذا؟". وشعرت حينها أن غضبي يمنعني من الإحساس بالقلق.

"قد يحدث وقد لا يحدث".

"إذاً، أنت لا تحذرني أنا أيضاً؟".

فأجابني بصبر: "كلا أيها الطبيب، إنني أتحدث عن شيء آخر. لست أتحدث عن المرض، وعن الهبوط المتدرج نحو مصير محتوم، بل أتحدث عن الفُجَاءة. إنني أحاول أن أشرح لك. لن أحذر ذلك الرجل لأن حياته ستنتهي فجأة. ولا يجب أن يعرف ذلك لأن جهله سيحول دون شعوره بتلك المعاناة".

"الفجاءة!".

"نعـم، إن حياتـه - كمـا يعيشـها الآن - تبدو مفعمة بالحب ومليئة بالأصدقاء. صدقني أيها الطبيب، عندما تنتهي حياتك فجأة ستسر كثيراً لأنها انتهت كذلك. إن أيًّا كان يتمنى الموت فجأة، أيها الطبيب".

"ليس أنا. فأنا لا أفعل الأشياء فجأة كما تقول أنت، بل أتهيأ وأفكر وأشرح".

"نعم، يمكنك أن تقوم بهذه الأمور جيداً إلى حد معقول في كل شيء آخر إلا هذا". وأشار إلى الفنجان. فقلت في سرّي: نعم، لقد أتى إلى هنا من أجلي أنا. فيما تابع قائلاً: "في الأمور الفجائية، لا تتهيأ ولا تشرح ولا تعتذر، بل ترحل فجأة، وتأخذ معك كل التوقعات والتفكير. إن كل المعاناة التي قد تنجم عن المعرفة تأتي بعد رحيلك عن الدنيا، وهكـذا فإنـك لا تشـكل جـزءاً منها". ونظر إليّ وبادلتـه النظرات. وفي تلك اللحظة، عاد النادل وبحوزته الفاتورة. ولا بد أنه ظن أن شيئاً مريعاً وخاصاً جداً يجري بيننا لأنه غادر بسرعة شديدة.

قال الرجل المُحصّن: "لماذا تبكي أيها الطبيب؟".

فمسحت عيني وقلت له إنني لم أدرك ذلك.

فقال غافران غاليه: "ستقع الكثير من الأحداث المفاجئة على مدى السـنوات القليلة القادمة أيها الطبيب. وسـتمر سـنوات طويلة جداً. من المؤكد أنك تشك في هذا، ولكن السنوات ستمضي في نهاية المطاف، ولهذا السبب يجب أن تخبرني ما الذي جعلك تأتي إلى ساروبور، أيها الطبيب، وتخاطر بحياتك في كل دقيقة تجلس فيها هنا؛ رغم أنك تدرك أن هذه الحرب ستضع أوزارها لا محالة في نهاية المطاف؟".

"إن الحـرب لا تنتهـي أبـداً. لقـد أبصـرت النـور فـي هـذه الحيـاة ووجـدت الحـرب محتدمـة، وسـتظل كذلك دائماً. أتيت إلى سـاروبور لأنني أردت أن أسـتعد لموتها ودمارها. لا أرغب في أن أفقدها فجأة،

على حد قولك". طوال حديثي، كنت أجعد ملاءة الطاولة بيدي، لذا بدأت بتمليسها ما إن أنهيت كلامي. وضع الرجل المُحصّن على الطبق أوراقاً نقدية نظيفة وجديدة لم تعد لها أي قيمة في الصباح التالي. فقلت: "أصدقني القول يا غافران غاليه، هل يقول فنجاني إنني سأنضم إليك الليلة فجأة؟".

هزّ كتفيه وابتسم لي. فلم أجد في ابتسامته ما يدل على الغضب أو اللؤم، وقال لي: "ما الذي تريد مني أن أقوله لك أيها الطبيب؟".

"كلا".

فقال لي: "إذاً، اكسر فنجانك وانصرف".

* * *

بعد انتهاء القصف بأشهر، ظل النمر زبوغوم يأكل قوائمه لأسابيع. ورغم أنه ظل طيعاً وأليفاً مع الحراس، إلا أنه أصبح يتصرف بوحشية مع نفسه. فقد اعتادوا أن يجلسون معه في القفص ويربتوا على رأسه الكبير وهو يقضم قوائمه التي لم يبقَ منها شيء إلا الجذوع. وباتت جروحه ملتهبة ومتورمة وسوداء.

وفي النهاية، ومن دون أي إعلان في الصحف، تم إطلاق النار على النمر على أرضية قفصه الحجرية. وضغط على الزناد الرجلُ نفسه الذي رباه وأرضعه وغسله وحمله وهو صغير في أنحاء حديقة الحيوانات. يقال إن أنثى النمر قتلت أحد صغارها وأكلته في الربيع التالي. كان هذا يعني بالنسبة إلى النمرة ضوءاً أحمر، وحرارة، وصوتاً يصعد ويهبط كالصرخة، ولهذا أخذ الحراس الصغار المتبقية على قيد الحياة وربوها في بيوتهم مع أولادهم وحيواناتهم الأليفة. لقد ظلت بيوت أولئك الناس من دون كهرباء وماء جارٍ لأسابيع، ولكنها آوت بين جدرانها نموراً حقيقية.

# الفصل الثاني عشر

# الصيدلي

لا يزال الرجل الذي اكتشف موت داريشا الدب يعيش في غالينا حتى يومنا هذا. اسمه ماركو باروفيك، ويبلغ سبعة وتسعين عاماً. اشترى له أحفاده آلة جديدة لجز العشب، ومنذ ذلك الحين، يقوم بتشغيل هذه الآلة الرهيبة بنفسه - وهو رجل ضئيل الحجم وأسمر الذراعين ويعتمر قبعة - ويستطيع نوعاً ما أن يوجه تلك الآلة البرتقالية في خط مستقيم على طول مرجه. لا يتحدث هذا الرجل عن داريشا الدب ليلاً أبداً، ولا يتحدث من دون أن يشجعه أحد ببضع كؤوس من الشراب.

وعندما يتحدث عنه فعلاً، فهذه هي القصة الخرافية التي يرويها:

قبل الفجر بساعة، استعاد داريشا الدب وعيه فوق الثلوج المضرجة بالدماء. وعندما جلس ونظر إلى نفسه، وجد النمر يأكل قلبه. وبين أشجار غالينا السوداء، راح الملعون أصفر العينين ينشب أنيابه عميقاً داخل قلب داريشا الرطب، فشعر داريشا بالرعب. وعندما تحسس أضلاعه، وجدها فارغة. فاستجمع البقية الباقية من قوته؛ قوة الدببة التي استأصل قلوبها على مدى السنوات. وعندما اختفى قلبه البشري، خر داريشا راكعاً على قوائمه الأربع، وارتفع ظهره كالجبل، وأظلمت عيناه كسواد الليل، وتساقطت أسنانه من فكيه كالزجاج، ونمت مكانها أنياب دب صفراء. انقض داريشا على النمر أسود اللون تحت ضوء القمر، فاهتزت الغابة كلها تحت تأثير صوته المدوي.

وإلى يومنا هذا، لا يزال في وسع المرء أن يسمع في ليلة كتلك

الليلة صوت المعركة عندما تهب الرياح شرقاً، وتعصف بقمم أشجار غالينا. فقد انقض داريشا الدب بثقله العظيم على النمر، فما كان من ذلك الملعون أصفر العينين إلاّ أن غرز مخالبه في كتفي داريشا، وتدحرج الاثنان على الثلج وفكُّ كل منهما منطبق على جسد الآخر.

في الصباح، لم يبقَ أي أثر يشير إلى المعركة الرهيبة التي دارت بينهما سوى جلد داريشا الدب الفارغ، وحقل ملطخ بالدم لم تعد الزهور تنبت فيه إلى يومنا هذا.

* * *

بعد بضع ساعات على طلوع الفجر، أيقن جدي أن النوم سيجافيه، ولكنه سرعان ما استسلم لإرهاقه وللبرد الرهيب وللراحة التي ملأت قلبه بعد أن أعاد زوجة النمر إلى بيتها بأمان، واستغرق في نوم عميق. وعندما استيقظ، اكتشف أن جميع من في القرية علموا بموت داريشا الدب. إذ إن ماركو باروفيك عثر مصادفة على الجلد الملطخ بالدم وهو يتفقد فخاخه التي نصبها لطيور السمانى عند سفح الجبل، فأتى إلى القرية جرياً وهو يجره خلفه ويبتهل إلى الله طالباً الرحمة.

وبحلول الوقت الذي غادر فيه جدي سريره وذهب ليستطلع الأمر عند مدخل الباب، تجمع حشد كبير من الناس في الساحة، وراحت النساء، ورؤوسهن متشحة بمناديل مزركشة برسوم أزهار، يصحن بأعلى أصواتهن:

"مات داريشا، ومات معه آخر أمل لنا".

وقف جدي إلى جانب الأم فيرا مراقباً الحشد الذي كان يزداد شيئاً فشيئاً عند أسفل الدرج. وميز من بين الناس جوفو البقال، والسيد نيفين الذي يصلح الجرافات، وكذلك رجل الدين بردائه الأسود الملطخ، والشقيقات العوانس اللواتي يسكن على بعد بضعة منازل، كما وقفت أيضاً مجموعة من الناس. وبعد أن انتشرت موجة الذعر

الأولى التي سببها سماع الخبر الذي حمله ماركو باروفيك، راقب جدي وجوه الرجال والنساء الذين عرفهم طوال حياته وهي تحمل أمارات الشك وعدم التصديق. فقد رأى الخباز مسمراً في مكانه بوجهه المحمر وأصابعه الملطخة بالطحين، فيما راحت كتفا ابنته ترتعشان وهي تلهث وتفتل شعرها بأصابعها وكأنها أرملة تحضر جنازة زوجها. أما الصيدلي، فقد نأى بنفسه قليلاً عن الحشد، ووقف بهدوء مرتدياً زيه الأبيض ومتأملاً جلد الحيوان الممزق والملطخ بالدم، وهو كل ما تبقى من داريشا الدب؛ وكأن صاحبه لم يبصر النور على الإطلاق.

انحنى الصيدلي إلى الأرض والتقط أحد طرفي جلد الحيوان. فبدا وهو شبه مرفوع أشبه بجناح رطب مكسو بالشعر.

سمع جدي امرأة تقول: "يا للرجل المسكين!".

"إن هذا خبر لا يطاق".

"يجب أن نكرمه ونقيم له جنازة".

"اسمعوا هذا الكلام! ما الذي سندفنه في الجنازة؟".

سمع جدي الصيدلي يقول: "أنت يا رجل! هل أنت واثق من أنه ليس هناك أي دليل على وجوده؟".

قال ماركو باروفيك وهو يمد يديه: "لم أرَ هناك يا سيدي سوى علامات على الثلج تدل على وقوع معركة دامية".

سمع صوت همهمة بين الحشد تعبر عن الإعجاب ببطولة داريشا. وبدأ الناس يرسمون رمز النصارى الديني على صدورهم. أما بالنسبة إلى خيبة أمل أهل القرية من داريشا، وغضبهم منه لتخليه عنهم - والذي دفعهم لتشويه سمعته قبل ساعتين فقط - فقد زالا بمجرد سماعهم خبر موته.

قرر أحد كلاب القرية في تلك اللحظة بالذات أن يستكشف جلد الحيوان المفروش على الأرض، ويرفع إحدى قوائمه، فانطلقت صرخة

غضب من الحشد، وامتدت ست أو سبع أياد إلى الجلد لتخلصه منه، وركل أحدهم الكلب بجزمته. أما فلاديشا الذي لم تشفَ أعصابه قط منذ لقائه النمر سابقاً، فقد أغمي عليه على الفور.

قال رجل الدين: "حباً بالله، دعونا نأخذه إلى دار العبادة". وبينما حملت مجموعة من القرويين المذهولين جلد الحيوان باتجاه دار العبادة، عمل الصيدلي على إنعاش فلاديشا على درج الشرفة. ثم نظر للمرة الأولى باتجاه جدي الذي كان يقف قرب مدخل البيت.

قال الصيدلي: "أحضر ماء". فجرى جدي إلى حوض المطبخ وأحضر الماء، وهو مدرك أنه يتعرض لتفحص دقيق من قبل نساء القرية اللواتي رحن ينظرن إليه، وعيونهن تبدو كعيون الأشباح. ولكن جدي نظر فقط إلى الصيدلي الذي فاحت منه رائحة الصابون، فابتسم الصيدلي لجدي عندما أعطاه الماء.

وعندئذ اهتاجت النساء.

صاحت ابنة الخباز في وجه جدي بغضب: "إذاً، هذا أنت، أليس كذلك؟". تراجع جدي إلى أعلى درج الشرفة، وحدق إليها من الأعلى. فقالت: "إياك أن تعود إلى الداخل، بل ابق هنا وأرنا وجهك. انظر إلى ما قد حدث". خرجت الأم فيرا لتقف خلف جدي. فقالت ابنة الخباز: "ألا تشعر بالخجل؟ لماذا صادقت زوجة الملعون وجعلتها تشعر بالترحاب هنا؟ ألست خجلاً من نفسك؟".

قالت الأم فيرا: "هذا ليس من شأنك".

قالت ابنة الخباز: "إن هذا شأن الجميع الآن".

لم يقل جدي شيئاً، إذ بعد أن طلع النهار، وفصلت بينه وبين رحلة الليلة الماضية بضع ساعات من النوم، بدت الرحلة في مخيلته وكأن ألف سنة قد مضت عليها. ولم يعد ذهنه قادراً على تصورها كما يجب، وخامره شك - حتى بينما أخذت ابنة الخباز توجه إليه أصابع الاتهام

- في أن أحداً لم يدرك فعلاً الحقيقة في ما تقوله. ولكن، ظلّ هناك احتمال كبير في أن يأتي أحد ما ويقول إنه رآه يتسلل من القرية في الليلة الماضية، أو شهد عودته مع الفتاة، ورآه وهو يغوص في الثلج فيما هي تتكئ عليه من فرط إجهادها، أو عثر على آثار أقدامهما قبل أن يغطيها سقوط الثلج في منتصف الليل.

فحين كان مستلقياً على سريره، وقدماه باردتان، وساقاه ترتعشان وهو يحاول أن يهدأ، ويتخلّص من توتر أطرافه المرتعدة وهو واثق من أن قوة خفقان قلبه تكاد تصل إلى مسمعي الأم فيرا، سمح جدي لنفسه بأن يظن أنهم توصلوا إلى شيء ما. ومع ذلك، بات من المحال الآن أن يفعل أي شيء باستثناء الوقوف قرب مدخل البيت، ومراقبة الذعر الذي يهز القرية ويحررها من أي تفكير منطقي تبقى لديها. فقد راحت النساء ينتحبن، ولم يعد في وسعه أن يقف مكتوف اليدين.

قال الحطاب: "لقد زاد الأمر عن حده. سوف ترسلنا تلك المرأة إلى حتفنا واحداً تلو الآخر".

"يجب أن نغادر جميعاً".

قال جوفو: "بل يجب أن نطرد تلك الشريرة من القرية ونبقى نحن".

لاحظ جدي من خلال تحرك الرجال إحساساً جديداً بالتصميم والإصرار لديهم. فهم لم يوحدوا صفوفهم بعد، ولكنهم بدوا على وشك اتخاذ قرار ما، وشعر جدي بحتمية وقوع الكارثة؛ وكأنها نهر مندفع يعجز عن السباحة عكس تياره.

تمسك جدي بحقيقة واحدة فقط، وهي أن زوجة النمر باتت بحاجة إليه أكثر من أي وقت مضى. فقد أدرك ذلك في الليلة الماضية، عندما توقفا في فسحة في مكان ما على سفح الجبل، وراح يراقبها وهي راكعة على الثلج، ويشاهد أنفاسها التي تشكل سحباً من البخار، وهو يشعر أنه عاجز عن إفلات يدها. وتملكه إحساس بأن ما يجعلها امرأة ناضجة

ويحافظ على هدوئها ورباطة جأشها ويبقي بطنها مستديراً كالقمر تخلى عنهـا الآن، وتركهـا عرضـة لمخاوف الليل، وخلّفه وحده معها. وشـعر أنهمـا فقـدا النمـر أو أنـه تخلى عنهما. فلم يعد هناك أحد سـوى جدي وزوجة النمر.

في تلك الليلة، ساعد جدي الفتاة على صعود درج بيتها وقال لها، رغم أنها لم تسـمعه بالطبع، إنه سـيعود إليها في الصباح. فقد اعتزم أن يحضِّـر لهـا الشـاي الدافئ والماء والعصيدة لتتنـاول فطورها، وأن يبقى بصحبتهـا ويعتنـي بهـا كعادته، ولكنه أدرك الآن أن هذا مسـتحيل تماماً. فإن غادر بيته وعبر السـاحة - بينما يراقبه أهل القرية جميعاً - ودخل بيتهـا، فسـيؤدي هـذا إلى نتيجة لا تحمد عقباهـا، وإلى انهيار في هاوية لا قرار لها. لم يعد في وسـعه أن يفعل شـيئاً، ولم يعد يملك السـلطة أو حرية التصرف أو القدرة على حماية نفسـه من الصدمة التي تنتظره، ومن غضب الكبار الذين لا يقوى على مجابهتهم. وهكذا، باتت زوجة النمر وحدها تماماً. وكاد التفكير في ذلك يطبق على صدره ويخنقه.

أراد أن يشرح ذلك للأم فيرا عندما دفعته ليدخل البيت. وتمنى أن يخبرها عما جرى في الليلة الفائتة، وأن يصف لها كم شعرت تلك الفتاة بالبرد والرعب، ولكنه لم يجد وسـيلة تعينه على تفسـير كلامه. وخطر ببالـه عندئـذ أنهـا سـمحت له بالنوم في الصبـاح، وآثرت ألا توقظه عند الفجر ليؤدي واجباته المنزلية، أو عند الساعة الثامنة ليتناول فطوره، أو عندما أتى ماركو باروفيك من المرعى وهو يجري على غير هدى ومر بمنـزل الجـزار وبحوزتـه الجلـد الملطخ بالدم ثـم راح ينادي على أهل القرية. لقد تركته ينام لأنها شـعرت أنه بحاجة إلى ذلك النوم. عندها، لم يعد يريد أن يقول لها أي شيء آخر لأنه أدرك أنها عرفت كل شيء قبل أن يقوله، ولكنها لسبب ما نأت بنفسها عن ذلك الحديث. وأوحت له نظراتها بأنها لا تريد أن يكون لها دور في تلك المعركة.

وقـف جـدي أمـام النافـذة وراح ينظر بيأس، فـرأى طبقة رقيقة من الطين حيث بدأ ركام الثلج المتجمع من الليلة الفائتة بالذوبان. أخذت كلاب القرية المتسخة تدور في الأنحاء. وبدت أبواب بيوت القرية مبللة ومفتوحـة علـى مصاريعهـا. نظـر إلى بيت الجزار الـذي يقع في الطرف المقابـل مـن المرعـى، وإلـى مدخنته التي يتصاعد منهـا الدخان، ولكنه بدا الآن في نظره بعيداً بعد السماء عن الأرض. وعندما ساعد الصيدلي فلاديشـا علـى النهـوض على قدميه، ثم حث الخطـى إلى دكانه، انطلق جدي خارج البيت ليلحق به.

* * *

عندمـا يتحـدث النـاس عن صيدلـي غالينا، فإنهم نـادراً ما يصفون شـكله الخارجي. وقد اكتشـفت سـبب ذلك عندما تحدثت إلى ماركو باروفيك. فقد قال عن الصيدلي وهو يشير إلى وجهه: "إنه رجل وقور، ولكنه قبيح جداً".

يشـير مضمـون هـذا الكلام إلـى أن الناس اعتبـروا الصيدلي، على الرغـم مـن قسـمات وجهـه القبيحـة، وربمـا بسـببها، شـخصاً جديـراً بالاحترام، وواثقاً من نفسه، ويمكنهم أن يلجأوا إليه طلباً للنصيحة.

من الصعوبة أن يتخيل المرء حياته السابقة قبل حضوره إلى غالينا. فقد كان في العاشـرة من عمره عندما عثرت عليه عصابة من الفرسـان متشـرداً في الأنقاض المتفحمة التي بقيت من معتزل سـفيتي بيتار. فقد وصلـت تلـك العصابـة مباشـرة بعد وقوع غارة شـنتها كتيبة من الجيش العثمانـي. إذ اتهـم الجيـش رجـال الدين في سـفيتي بيتـار بإيواء متمرد قتل ابن أخ قائد الكتيبة في شجار في أحد المطاعم قبل بضعة أسابيع. وتولى ذلك القائد بنفسه مهمة الانتقام من ذلك المتمرد لقتله ابن أخيه وتشـويهه سـمعته. وبعـد أربعة أيـام من الحصار، وقعـت تلك المذبحة التي لـم تميز بين عدو وصديق. وبعد أن أمضى أولئك الرجال الفرسان

صباحهم وهم ينتشلون جثث الموتى من بين أنقاض دار العبادة، شكّل منظر الصيدلي وهو يزحف خارجاً من تحت عربة مقلوبة بجانب الجدار الجنوبي بالنسبة إليهم أعجوبة. فقد نجا أحد الأولاد بفضلهم، ولكنهم لم يعرفوا هويته، ولم يدركوا أنه يتيم من أيتام المعتزل، ولم يعرفوا شيئاً عن خوفه وكراهيته وتهوره الأعمى الذي جعله يفقد صبره وينطلق إلى الخارج ليواجه الأتراك وحده، فتعرض على الفور لطعنة بالسيف بين أضلاعه، وتمدد بلا حراك وهو يلهث طلباً للهواء في فجر ذلك اليوم، والدخانُ يملأ الجو، بينما وقف القائد محمد آغا فوق رأسه وراح يطالبه بأن يقول اسمه لكي يعرف هوية الشخص الذي يعتزم إعدامه على الخازوق. لم يخبر الصيدلي العصابة أو أهالي غالينا بما حدث. ولكن، ليس إعجاب الآغا بشجاعته ما أنقذ حياته ونجّاه من الموت، بل اسمه. فقد قال الصيدلي: "اسمي قاسم". وهو اسمه قبل أن يتم العثور عليه أمام باب المعتزل: "قاسم سليمانوفيك". وعندئذ، دبت الرحمة في قلب الآغا من دون توقع، وعفا عنه، ولكنه خلفه وحيداً وهو ينزف على الأرض المكسوة بالرماد. ورغم أن الاسم أنقذه مرة، إلاّ أن الصبي لم يتوقع أن ينقذه مرة أخرى. لذا، عندما سألته العصابة عن اسمه الحقيقي وهم يضمدون جرحه، قال إنه لم يعد يتذكره.

عندها، منحه أفراد العصابة اسماً جديداً، وهو نيناد، ويعني المولود بلا أمل، ولكن معنى الاسم الجديد لم يغير شيئاً من الحقيقة بالنسبة إلى الصيدلي. فقد استطاع تغييره مرة، وما زال بإمكانه أن يغيره مرة تلو أخرى. ومع ذلك، أدرك أن اسمه القديم ودلالته سيلاحقانه طوال حياته ولن يتخلص منهما أبداً.

ظل اسم قاسم سليمانوفيك يلازمه كظله طوال السنوات التي أمضاها مع أفراد العصابة الذين عاش معهم وشاركهم عمليات السلب والنهب بممانعة كبيرة إلى أن بلغ الثامنة عشرة من عمره. وتسلل إلى

نفسه نوع من الشك والترقب لخيانة لا تحمد عقباها. فقد جثم الاسم على كتفيه كالطير الجارح، وعزله عن بقية أفراد العصابة؛ وهذا ما مكّنه من ملاحظة العيوب التي جعلتهم يبدون حمقى. إذ أصروا على إعطاء الفقراء المال، ولكن سخاءهم غير المحدود تسبب في فشلهم في الاحتفاظ بأي مال لأنفسهم، وهذا ما جعلهم في أغلب الأحيان يقوّضون غزوهم الشجاع. ورغم توقهم إلى النصر، إلا أنهم وجدوا الهزيمة أكثر شرفاً وسروراً. وتطلبت مساعيهم توخي الكتمان والحيطة، ولكن أصواتهم اعتادت أن تصدح بأغنيات تمجد أعمالهم الجريئة عندما يلوح أول مطعم أمام أنظارهم. لم يستطع الصيدلي - في أثناء وجوده معهم ليحضّر وجباتهم ويشحذ سيوفهم ويعتني بجروحهم - أن يعبر عن تحفظاته تجاههم، أو يعترف بأنه اعتبر أن محاولاتهم الفاشلة هي التي تدفعهم إلى الإخفاق المؤكد، وأنه اعتبرهم أغبياء ومتهورين وعديمي المنطق. وهكذا، وجد الصيدلي في كل جهد مشترك تقوم به تلك العصابة محاولة متعمدة للتوجه نحو الهاوية والدمار.

لاحقه اسمه أيضاً عندما سقط مخيم العصابة بيد مجموعة من صائدي الجوائز المجر. وظل الاسم يثقل على كاهله عندما جر آخر زميل له بقي على قيد الحياة من بين زملائه، واسمه أورلو الأعمى، من تحت أنقاض معسكرهم إلى الغابة. اعتنى الصيدلي بأورلو، وضمد رأسه المصاب، وحاول معالجة ساقه التي أصيبت برصاصة وتورمت بفعل الالتهاب حتى تضاعف حجمها. كان فصل الشتاء في ذلك العام قارساً، فأبقى الصيدلي الرجل العجوز في الهواء الطلق قدر المستطاع ليطبب ساقه المصابة بالمراهم، ويبردها وهو يخشى أن يستيقظ في صباح أحد الأيام ويكتشف أن لونها قد تحوّل إلى الأسود خلال الليل.

بعد أن شُفِي أورلو الأعمى، أصبحت الفرصة سانحة أمام الصيدلي ليهرب ويبدأ أسلوب حياة جديداً، ويتبع نمطاً مريحاً يضمن له الأمان

ويتعارض تماماً مع أسلوب حياة العصابات. ولكن الصيدلي ظل يشعر بواجب يلزمه برعاية صديقه الأعمى، ولهذا بقي ملازماً إيّاه، وهذا ربما مجرد عذر نظراً إلى خوفه من العالم الذي لم يجد لنفسه فيه موقعاً واضحاً ومحدداً. فقد شعر على مدى السنوات العشر الماضية أنه محمي بين رجال الدين، وبين أفراد العصابة في ما بعد، لذا عجز عن التخلي عن الثقة واليقين اللذين تمنحه إياهما الأخوية المخلصة. وأدرك أنه سيصبح من دون تلك الأخوية مجرد مخلوق عاجز ومسلوب الإرادة.

في الفترة التي رافق فيها صديقه أورلو الأعمى، اكتسب الصيدلي أُسس الخداع الذي بات في ما بعد يمقته مقتاً شديداً. وأمضى سنوات وهو يتبع أورلو الأعمى من قرية إلى أخرى ليستغلا الخرافات التي يعتقد بها القرويون البسطاء الذين يسهل خداعهم. وأصبحا يمارسان الخدعة نفسها في كل بلدة يصلان إليها: أي خدعة الضالع الأعمى ورفيقه ذي الوجه المثير للشفقة. فقد اعتاد أورلو الأعمى أن يستغلّ سذاجة القرويين، ويدّعي توقعه ما سيحدث في حياة كل منهم من خلال أوراق الشاي والعظام والنرد والأحشاء وحركة طيور السنونو. وأضفت حالته صدقية على ادعاءاته، ولكن سرعة البديهة التي تطلبتها أكاذيبه زوّده بها صديقه الصيدلي عن طريق إشارات وإيماءات صامتة. فقد تعلم الصيدلي أن يستشف رغبات زبائنه ومخاوفهم من أفواههم وعيونهم وجباههم والحركات الدقيقة التي يقومون بها بأيديهم، ومن تنافر أصواتهم والإيماءات التي يقومون بها بطريقة غير شعورية. وبهذه الطريقة، استطاع أورلو الأعمى أن يقول لكل شخص ما يريد أن يسمعه.

فقال ذات مرة لمزارع ذي يدين مليئتين بالجُسآت(*): "سيزدهر محصولك هذا العام".

(*) الجُسأة: جزء متصلّب من الجلد.

وقال لفتاة عذراء حدقت إليه: "هناك شاب وسيم من القرية المجاورة يشغل تفكيرك. لا تقلقي، فأنت أيضاً تملكين قلبه".

في الوقت الذي عمل فيه الصيدلي نيابة عن عيني أورلو الأعمى، تعلم أن يكتشف الأكاذيب البيضاء، وأن يميز النظرات المسروقة التي يتبادلها العشاق السريون والتي تدفع نحو الزيجات المستقبلية، كما اعتاد أن يكتشف الأحقاد العائلية القديمة التي ينبشها الناس في أثناء محادثاتهم بجانب المواقد، ممّا سمح له بتوقع النزاعات والشجارات؛ وحتى جرائم القتل في بعض الأحيان. وتعلم أن الناس حين تفاجئهم الحياة بنوائبها ومشاكلها ومسراتها فإنهم يلجأون في بادئ الأمر إلى الخرافات ليجدوا لها معنى، وليربطوا بين الأحداث المفككة، وليفهموا حقيقة ما يجري معهم. وتعلم كذلك أن أكثر الأسرار أهمية - مهما بلغت درجة خطورته، ومهما تطلب من صمت مطبق - يعجز الإنسان عن عدم إفشائه. فهو يشعر دائماً بالحاجة إلى البوح به. كما أدرك أن إطلاق العنان للأسرار الدفينة تتبعه قوة رهيبة تحطم ما حولها.

وبينما أخذ الصيدلي يتعلم طرائق الخداع والحيل وأساليبها، وجد نفسه بمحض المصادفة يسلك طريق مهنة الطب الذي أدى به في النهاية إلى البراعة والاحتراف. بدأت مسيرته في ذلك الطريق عندما أخذ يؤدي خدمات ملحقة بما يقوم به: مثل بيع أعشاب لمعالجة الصداع، وتعاويذ لزيادة الخصوبة، وأدوية عشبية لمعالجة ضعفها، ولكنه سرعان ما بدأ أيضاً بتجبير الكسور، وبتحسس طحال المريض، ووضع أصابعه على العقد اللمفاوية المتورمة لدى مرضى الأنفلونزا. وذات مرة، قام من دون أي تدريب مسبق باستخراج رصاصة مغروزة عميقاً داخل كتف أحد رجال شرطة البلدة. فبدأ الأهالي يقولون إنهم لم يروا من قبل شاباً موهوباً مثله يتحلى بالهدوء والتعاطف ويكسب ثقة الآخرين بسهولة. وشعروا أن موهبته هذه هبة من الله لهم وله أيضاً. فقد حوله

عملـه بالمعالجـة إلـى مانح للأجوبـة، وقاهر للمخـاوف، ومعيد للنظام والاسـتقرار. تمتـع أورلـو الأعمـى بالقـوة والسـلطة عن طريـق أكاذيبه وخداعـه، ولكـن القـوة الحقيقية التي توصَّل الصيدلي إلى إدراكها، أتت من خلال الأشياء المؤكدة والملموسة، والتوقعات التي تدعمها الأدلة، ومن خلال استمرار حياة مريض ادعى أنه قادر على شـفائه، أو موت مريض آخر بعد أن أعلن أنه متجه نحو موت محقق.

لكن الصيدلي وأورلو الأعمى لم يستطيعا بكل تأكيد أن يبررا عدم قدرتهمـا علـى توقـع نتائـج مغامراتهما. ومع ذلك، لم يشـكل هذا على الأرجح أول خطأ خطير ارتكباه، بل الخطأ الوحيد الذي دفعا ثمنه غالياً. ففي بلدة سباشين، استشارهما تاجر موسر يفكّر في توسيع تجارته وفي توظيف شـاب طموح رغم الشـكوك الخطيرة التي راودته حيال أخلاقه وسمعته.

فقال له أورلو الأعمى: "امنح ذلك الشاب الوظيفة، فالشباب ينعش الروح".

ولـم يعرف أورلو أو الصيدلي أن الروح التي أنعشـها ذلك الشـاب هي روح زوجة التاجر، وأن الزوج عاد إلى بيته ذات يوم واكتشـف أن زوجته قد لاذت بالفرار مع الموظف الشاب وأخذت معها خزنة المال التي يخفيها زوجها في دار العبادة الخاصة بعائلته. ظل التاجر يحتسـي الشـراب لمدة ثلاثة أيام بلياليها، ثم أطلق النار على أورلو الأعمى في مسـاء أحد الأيام وهو عائد بصحبة الصيدلي من وليمة عشـاء في بيت الطحان.

بالكاد استطاع الصيدلي أن ينجو بجلده. وبعد بضعة أسابيع، أدرك أن الزوج المخدوع رجل مصمم لا يثنيه شيء عن الوصول إلى هدفه. فقـد خصـص الرجـل جائزة مغرية لمن يأتيه برأس الصيدلي، ووجَّه إليه تهمة الاحتيال، وهذا ما اضطر الصيدلي إلى الرحيل وهو يشـعر بحزن

شديد على موت زميله، واختفاء آخر ما يربطه بحياته الأولى. ولكنه بحلول ذلك الوقت بات يتوق إلى الاستقرار، وإلى عيش حياته وفقاً للقانون، وإلى الانتماء إلى وطن يأويه. وتمكن من تحقيق هدفه بعد بضع سنوات، في مكان ناء في الجبال الشمالية في قرية صغيرة مرّ بها ذات يوم مرور عابري السبيل. فقد توقف في تلك القرية ليطبب أماً لأربعة أولاد سقطت طريحة الفراش، فعالجها من مرضها، ثم قرر أن يستقر في تلك القرية.

لم يكن ماركو باروفيك موجوداً عندما بدأ الصيدلي يؤسس لنفسه عملاً في غالينا ببطء وإنما بثقة، ولكنه روى قصة وصول الصيدلي وكأنه شهدها بنفسه. فقد وصف العربة المليئة بالأغراض الطريفة والغريبة، وعشرات المرطبانات المحفوظة داخل الأقفاص التي حملها الصيدلي وعبر بها باب دكان الإسكافي المهجور. يتذكر ماركو الشهقة التي أطلقها الأهالي عندما شاهدوا وصول طائر "أبو منجل" في قفصه، وأن أطفال القرية ظلوا لسنوات يحاولون أن يعلموه الكلام، ولكن الصيدلي من فرط سروره لم يزعج نفسه قط بتصحيح خطئهم. ظلت أجرة الصيدلي لسنوات لا تتعدى قطعة حطب لموقده. وهكذا، استطاع أهالي القرية بمجرد منحهم الصيدلي قطعة من الخشب من أكوام الحطب التي في منازلهم نيل امتياز الجلوس على أحد الكراسي في دكان الصيدلي ليبوحوا له بأسرار وخبايا تقض مضاجعهم، أو كوابيس تؤرقهم، أو متاعب يعانون منها من جراء تناول أطعمة معنية، أو صعوبات في حيواتهم الخاصة، أو ليخبروه عن الصداع الذي يشعرون به. وتعوّد الصيدلي أن يصغي إلى مرضاه بكل اهتمام - وكأن لديه متسعاً من الوقت إلى الأبد - وهو ويومئ ويدون الملاحظات، ويطلب من المريض أن يفتح فمه، ويمعن النظر إلى عينيه، ويتحسس عظام عموده الفقري، وينصحه بشرب نقيع بعض الأعشاب المجففة.

لم يحدثني ماركو باروفيك - لأنه لم يكن مدركاً ماضي الصيدلي - عن المشاعر التي اختلجت في قلب ذلك الرجل خلال تلك السنوات التي كسب فيها أخيراً ثقة أهل القرية وإخلاصهم، وعن القوة التي استمدها من خلال افتتانهم بقدرته على معالجة آلامهم البسيطة، وشفائهم. ولا بد أنه شعر براحة عظيمة بعد حياة كاملة أمضاها وهو يعيش في كنف العنف عندما وجد أهل القرية يطلبون منه أن يشرف على نزاعاتهم التافهة حول الأراضي، أو التجارة في قرية لا تحوي سوى بندقية واحدة. لم يخبرني ماركو باروفيك بكل تأكيد أي شيء عما شعر به الصيدلي عندما شهد أول ظهور لعروس لوكا الصماء والبكماء أو حيال معاملة القرويين لها؛ التي عززت في داخله الحاجة إلى إخفاء حقيقته. وتركهم مبهورين به لئلا تخامرهم الشكوك حياله مهما تملكه من خزي وعار لأنه لم يتدخل دفاعاً عنها في سبيل الحفاظ على سلامته وأمنه.

كان بالكاد يتذكر طفولة لوكا، ولكنه بدأ يتوخى الحذر منه حالما عاد إلى القرية. فبعد أن انطلق لوكا إلى العالم الخارجي، استحال إلى وحش على صورة إنسان، وظهر ذات ليلة قبل عامين عند باب دكانه على الرغم من قلة الثقة بينهما وهو يبدو شاحب الوجه وأحمر العينين، وراح يصيح بصوت متهدج: "من الأفضل أن تأتي معي. فأنا أظن أنها قد ماتت!".

هناك، في بيت لوكا، شاهد الصيدلي أخيراً دليلاً يثبت له الشكوك التي دارت برأسه لأشهر. فقد وجد الفتاة في زاوية الغرفة ملتوية تحت طاولة مكسورة دفعها أحدهم على الجدار. وعجز عن تخيل كيفية وصول الطاولة إلى هناك، وسبب سقوط الفتاة تحتها. لم يجرؤ على جرها من تحت الطاولة، فقد بدا عنقها مكسوراً. ولو كانت لا تزال على قيد الحياة، فإن مجرد تحريكها سيتسبب بقتلها. لذا، جرّ الطاولة

علـى طـول الغرفـة، بينما اكتفى لوكا بالجلوس على أرض المطبخ وهو ينتحـب. بـدا وجـه الفتاة غير واضح المعالـم بسـبب الدماء التي تلطخه، وشـعرها المبعثـر، ورأسـها الذي تسـيل منه الدماء علـى الأرض. أدرك أن أنفها مكسـور من دون أن يلمسـه. وضع يديه على الأرض، وقرب وجهه منها، وظل راكعاً على تلك الحالة لمدة طويلة؛ إلى أن تأكد أنها ما زالت تتنفس عندما رأى فقاعة سميكة من اللعاب الممتزج بالدم بين شفتيها.

عمـل الصيدلـي علـى تقييم الضـرر الذي أصاب الفتـاة. فقد وجد ركبتها مكسورة، وفروة رأسها مثقوبة بشظايا وعاء فخاري، وكفّها اليسرى مسـحوقة وملتوية إلى الأعلى باتجاه ذراعها. واكتشـف عظمة مكسـورة وحادة بارزة من الجلد فوق معصمها تماماً. في البداية، ظن أن ثلاثاً من أسنانها مفقودة، ولكنه حين أدخل أصابعه في فمها وجد الأسنان مندفعة قليلاً إلى الوراء. وظل يشـعر بأسـنانها على أطراف أصابعه لأشـهر. لم تعد أسنانها منسقة كما يجب، ولكنها على الأقل لم تخسرها. نظف الدم عن وجهها بالإسـفنجة، وضمد رأسـها، وجبّر ما اسـتطاع من كسـورها، وثبّت الكسور الأخرى، وربط فكها بالشاش ليبقيه مغلقاً. أصبح جسدها بكامله ملفوفاً بالضمادات وكأنها مومياء، وهكذا بدت فعلاً وهي ممددة علـى سـرير صغيـر في الغرفة الأمامية. مرت أربعـة أيام إلى أن تمكنت من فتح عينها السـليمة. وظا الصيدلي يتردد على بيت لوكا مرتين في اليوم ليضع الثلج على وجهها وأضلاعها، وليضع المرهم الملطف على جروح وجهها؛ وهو مقتنع طوال الوقت أنها سـتفارق الحياة بين زيارة وأخرى. وصُعق تماماً عندما فتحت عينيها ونظرت إليه.

فـي المـرة الأخيـرة التي ذهـب فيها الصيدلي ليعايـن مريضته، قال للوكا: "إن كررت هذا السلوك مرة أخرى، فسوف أطردك من القرية".

كان يعني ما قاله فعلاً. ففي ذلك الوقت من الماضي، بات الصيدلي

يتمتع بما يكفي من النفوذ في القرية. ولكن، عندئذ تفشى ذلك الوباء الذي أودى بحياة الكثير من أطفال القرية، فرحلت صديقة جدي ميريكا وصديقه دوشان. وبعد ذلك، وقع شجار طويل ومرعب رأى فيه أهلَ القرية وهم يفلتون من قبضته واحداً تلو الآخر. وبدأ طابور المرضى الواقفين أمام باب دكانه يتضاءل. ولم يعد أحد يقصده سوى مرضاه القدامى الذين أصبحوا يترددون عليه مرتين أو ثلاث مرات في اليوم ليتأكدوا من أنهم في طريقهم إلى الشفاء، أو ليستفسروا عن الأعشاب التي وصفها لهم. وباتت سلطته التي رفعته حتى تلك اللحظة إلى مرتبة أعلى من مرتبة رجل الدين على المحك. فقد كان دائماً وأبداً غريباً عن القرية. وعندما انهارت ثقة الناس به، شعر بقبضته على القرية تضعف وتتراخى، وأمسى دفاعه الذي وعد الفتاة به ضحيةً للجهود التي بذلها لإعادة تأسيس حياته والحفاظ على أمنه واستقراره.

* * *

أضرم رجال القرية ناراً صغيرة في الساحة. وبدأت النار تطلق سحباً من الدخان إلى آخر الشارع. وعبر بعضهم المرعى إلى سفح التل بحثاً عن مخيم داريشا وعربته وأغراضه رغم أنهم توقعوا أن تكون قد اختفت كما اختفى صاحبها بلا أثر. وتوقّف البعض بجانب بيت الجزار ولم يتجرأوا على الاقتراب أكثر من ذلك. ووجد جوفو أن لديه الشجاعة الكافية لكي يذهب ويسترق النظر من خلال النافذة إلى بيت الجزار، ولكنه لم ير شيئاً.

وقف جدي منتعلاً جزمته الرطبة على شرفة دكان الصيدلي، وراح يراقب قطرات الماء المتجمدة فوق الباب وهي تتساقط على السياج وأوراق الأشجار محدثة صوتاً إيقاعياً هادئاً. وعندما فتح الصيدلي الباب، لم يقل جدي سوى كلمة واحدة: "رجاء". وراح يكررها مرة تلو الأخرى إلى أن جذبه الصيدلي من ملابسه إلى الداخل، واقترب منه

وبحوزته كأس من الماء الدافئ، وأمره أن يشربه ببطء شديد.

وعندئـذ أبعـد الصيدلـي الشـعر عن عيني جدي، وسـأله قائلاً: "ما الذي جرى؟".

* * *

صعـد الصيدلـي درجات منزلها المغطاة بـركام الثلج، ووقف على الشـرفة وهو يحمل في يده زجاجة تحتوي دواء مركباً خاصاً بالأمهات الحوامل. نقر على الباب بأصابعه بخفة في بادئ الأمر لئلا يصل الصوت عبر المرعى إلى السـاحة. وعندما لم تجب، راح يقرع الباب بقوة إلى أن تذكـر أنهـا صمـاء، فكـف عن ذلـك وهو يتعجب من شـدة حماقته. وعندئذ، حاول أن يدفع الباب ليفتحه فانفتح بسهولة، ولكنه تلكأ قليلاً وهـو يتذكـر بندقيـة الحداد التي لم تظهر فـي القرية منذ أن أعادها لوكا مـن الجبـل، ويتسـاءل إن كانـت الفتاة لا تـزال تحتفظ بها، ويفكر كيف يسـعه أن يعلـن عـن حضـوره. نظـر حولـه، ثـم دفع البـاب أكثر ودخل البيـت، فوجـد زوجـة النمر جالسـة علـى الأرض بجانـب الموقد وهي ترسـم شـيئاً على الرماد بإصبعها. بدت النار متوهجة في الموقد، وبدا شـعرها منسـدلاً حول عينيها، فلم يسـتطع أن يتبين ملامحها جيداً. ولم ترفع نظرها عندما دخل وأغلق الباب خلفه. رآها جالسة على الأرض، ومتدثرة بغطاء تركي حريري أرجواني وذهبي وأحمر، بدا منسدلاً على كتفيها كالشلال. وبدت ساقاها المطويتان تحت بطنها الضخم شديدتي النحـول. فاجـأه شـح الأثـاث فـي الغرفة أكثر من أيّ شـيء آخر. إذ لم يشاهد أكثر من طاولة وبضع أوان فخارية عليها، ولم ير أي أثر للبندقية.

لـم تكـن قـد رأتـه بعد، فلم يود أن يفاجئها، ولكنه لم يجد وسـيلة تعينـه علـى تنبيههـا إلى وجوده. لذا، خطى خطوة إلى الأمام، ثم خطوة أخـرى. وعندئـذ، التفتـت إليه فجأة، ورأته واقفـاً أمامها، فرفع يديه إلى الأعلى ليثبت لها أنه غير مسلح أو مؤذ.

قال: "لا تخافي". وانحنى قليلاً ولمس شفتيه بأصابعه ثم جبهته. لقد مرت أربعون عاماً منذ أن قام بتلك الحركة لآخر مرة.

نهضت بحركة سريعة ووقفت على قدميها، فانزلق الغطاء عن كتفيها، ولكنها ظلت واقفة وهي ترمقه بنظرات غاضبة من دون أن تشعر بأي خزي. واصل الصيدلي انحناءه ولم يحرك ساكناً. وبدت زوجة النمر ضئيلة الحجم، وذات كتفين نحيلتين وعنق طويل ونحيل تسيل عليه قطرات العرق. لم تأبه لوقوع الغطاء، ولم تحاول أن تغطي كتفيها وهي واقفة أمامه، وقبضتا يديها مشدودتان، وبطنها يبدو ضخماً ومستديراً لدرجة أنه دفع جسمها كله إلى الأمام.

قال وهو يشير إليها: "الطفل". وأمسك ببطنه من تحت معطفه وهزه قليلاً، ثم رفع الزجاجة وقال: "من أجل الطفل".

ولكنها رفضت أن تأخذ منه الدواء، إذ يبدو أنها استطاعت الآن أن تميز شكله. وأدرك أنها تذكرته، وتذكرت أنه تخلى عنها وتركها تتعرّض لغضب لوكا؛ واكتسبت ملامحها نظرة مليئة بالكراهية والنفور، وأخذ جسدها يرتعد.

حاول الصيدلي أن يشرح لها، وهزّ الزجاجة مجدّداً وهو يبتسم، ورفعها عالياً لكي تراها جيداً. وبدت المياه داخلها عكرة.

وقال مجدّداً: "من أجل الطفل". وأشار إلى بطنها مرة أخرى، وقام بحركة بيديه توحي بأنه يهز طفلاً، وأشار إلى نفسه، ولكن النظرة التي ارتسمت على وجهها لم تتغير إلى أن تقدم خطوة أخرى نحوها.

توقع أن يتغير شيء ما بينهما في تلك اللحظة. وفكر في سرّه أنها نجحت خلال وقت قصير جداً في أن تخيف القرويين وتدفعهم إلى حالة من الرهبة والخوف، فحسدها على تلك المكانة وأعجب بها رغماً عنه. فقد فعلت هذا من دون أي جهد أو تعمد، ولكنه يشك حتى في إدراكها أنها فعلت ذلك.

لا بد أن زوجة النمر لاحظت أمارات التردد على وجهه. ففي تلك اللحظة، ارتفعت شفتها العليا، وظهرت أسنانها، وأصدرت صوتاً خفيفاً بينما ارتفع أنفها باتجاه عينيها. إن ذلك هو الصوت الوحيد الذي سمعه يخرج من بين شفتيها رغم أنها لم تصدر أي صوت عندما هشم لوكا عظامها وبرحها ضرباً حتى امتلأ جسدها بكدمات كبيرة كالخرائط. سرى ذلك الصوت في جسمه كطلقة البندقية، وصعقه وجمده في مكانه. وبدأ الغضب في داخلها يتفجر كالبراكين، فأدرك الصيدلي أنها تعلمت أن تحدث هذا الصوت عن طريق تقليد كائن غير بشري. لذا، غادر المكان مسرعاً والزجاجة بحوزته من دون أن يلتفت إليها. وحين فتح الباب، لم يستطع حتى أن يشعر بالهواء البارد وهو يهب عليه، فقد لازمته حرارة المنزل كالحمى وهو يعود أدراجه إلى دكانه.

* * *

في مكان ما في الساحة، وجد الصيدلي جوفو بانتظاره. فبادره قائلاً: "عد إلى بيتك، يا جوفو".

قال جوفو وهو يتقدم خطوة إلى الأمام: "هل هي في الداخل؟".

ظل الصيدلي واقفاً في أسفل الدرج ونظر إليه قائلاً: "عد إلى بيتك". وبقي على ذلك الحال إلى أن توارى جوفو عن الأنظار.

في تلك الأثناء، وقف جدي إلى جانب طائر "أبو منجل" منتظراً عودة الصيدلي.

قال جدي: "هل هي بخير؟".

فراح الصيدلي يرنو إلى جدي من دون أن ينبس بحرف. إذ قبل أن يذهب الصيدلي إلى بيت الفتاة، وبعد أن أخبره جدي كل شيء، وعده بأن يمدها بالمساعدة. راقبه جدي حينئذ وهو ينير المصباح على طاولته، ويحضر المرطبانات والملاعق وزجاجة فارغة عن الرف. وشاهد جدي - بينما راح المخاط يسيل من أنفه بسبب البرد - يدي الصيدلي

الكبيرتيـن والمستـديرتين وهمـا تطحنـان الأعشـاب بالهاون وتمسـحان داخل الزجاجة، وتخرجان الميزان الذهبي، وتزنان المساحيق، ثم تصبان الماء الحار في الزجاجة وتضيفان السـكر وأوراق النعناع ومسـحوقاً لا يعرفه. ورأى الضباب الأبيض يملأها عندما سـدّ الصيدلي فوهتها بيده وأخذ يرجها، ثم مسحها بقطعة قماش وغسل يديه.

والآن، بعـد أن عـاد الصيدلـي حاملاً الزجاجة نفسـها وهي لا تزال مليئة، قال لجدي: "إنها لا تعرفني". وأعطاه الزجاجة، وتابع قائلاً: "لذا، خذهـا إليهـا أنـت. يجب أن تسـرع وتعطيها إياها بنفسـك، فهي بحاجة إليها".

قال جدي: "سيراني الأهالي".

"لقد غادروا جميعاً".

وهكـذا، عبـر جدي السـاحة بنفسـه حاملاً الزجاجـة وهو ينظر من فوق كتفه إلى الساحة الفارغة، ودخل بيت الجزار وهو يبتسم، وأمسك بيـده يـد زوجـة النمر عندما وضعت فوهة الزجاجة على فمها وشـربت محتوياتها ثم مسح ذقنها.

ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً بعد ذلك.

* * *

هنـاك شـجرة ضخمـة فـي مـكان ما خـارج قرية جـدي على ضفة جدول يتفرع من نهر غالينيكا. في فصل الشتاء، تبدو أغصانها الحمراء باسـقة ومجردة تماماً من أوراقها كالعظام، أو كأيد متشـابكة تبتهل إلى الله. تنتصب هذه الشجرة بجانب سياج حقول الذرة التي قال لي ماركو باروفيك إن أهالي غالينا يتجنبون المرور قربها بأي ثمن.

في ذلك المكان بالذات شهد ماركو باروفيك موت صيدلي غالينا قبـل أكثـر من سـتين عامـاً. اصطحبني ماركو إلى أطـراف القرية ليريني المكان، ولينقر على الجذع بعصاه، قبل أن يتراجع إلى الوراء مشيراً إلى

الشـجرة لكي أتمكن من اسـتيعاب الصورة وتخيل شكل الجلاد الشاب ذي العينين الخضراوين الذي جنّدته القوات الغازية وهي تجتاح البلاد، وطلبت منه أن ينفذ طوعاً عمليات الإعدام من بلدة إلى أخرى. فتم على يديـه إعـدام جميع زعماء المقاومـة، والمحرضين على الثورة، والرجال الذين يتمتعون بولاء للعدو؛ ذلك النوع من الولاء الذي أصبح الصيدلي يتمتع به مجدّداً بعد أن عرف الجميع - من دون أن يتحدثوا عن ذلك - أنه أنقذهم منها وتسبب بموتها.

وقـف الصيدلـي، الـذي وصفـه ماركـو وهو يشـير إلى وجهـه بأنه رجل قبيح ولكنه عظيم، على سـياج حقل الذرة وحبل المشـنقة ملتف حول عنقه، وهو يتساءل لِمَ لم يطلقوا عليه الرصاص؟ ويتمنى لو أنهم يفعلـون هـذا. من بين الرجـال الذين حضروا إلى القرية والبالغ عددهم سـتين رجلاً، كان عدد الألمان اثني عشـر رجلاً. ولكن أولئك الرجال لـم يأتـوا ليشـاهدوا عمليـات الإعدام، بـل ذهبوا إلى المقهى ليحتسـوا الشـراب، ويطفئـوا سـجائرهم علـى التـراب الجاف بين الثلـج الذائب. كان الرجال الذين وقفوا هناك بجانب الشـجرة عصر ذلك اليوم رجالاً يفهم ماركو باروفيك لغتهم، ويعي الصيدلي شدة كراهيتهم. فقد جمعوا أهالي القرية بأسرها ليشاهدوا إعدام الصيدلي، وليروه وهو يتلوى على الحبل كحيوان جريح. وهذا هو المثال الأول من بين العديد من الأمثلة التي لا طائل من ذكرها.

لا يتذكـر ماركـو أنـه رأى جـدي بين من شـهدوا الإعدام، رغم أنه وقف هناك على الأرجح وهو ينظر بعينين واسـعتين، ويشـعر أنه يائس، وأنه ضحية خديعة لم يستوعبها كلياً إلا بعد مرور سنوات. ومع ذلك، فقد انطوى على نفسه، والتزم الصمت منذ زيارته الأخيرة لزوجة النمر، وبعد أن عثروا عليها ميتة على شرفة منزلها. في ذلك اليوم، ظل ينتحب لسـاعات. وعندما نظر إلى جدته طلباً للمسـاعدة والمواسـاة - من دون

أن يعرف حتى نوع المساعدة التي يسعها أن تمده بها - بدت ملامحها من خلال غشاوة دموعه رقيقة وحازمة. فقد فهمته من دون أن يحتاج إلى التعبير عن نفسه بالكلمات. نظرت إليه الأم فيرا بهدوء لبضع دقائق، ثم قالت: "لقد انتهى الأمر الآن، لذا دعه لله ليتولاه". ولكنها أقسمت على أن يغادرا القرية بعد أن تضع الحرب أوزارها، وأن ينتقلا إلى مكان آخر ويبدآ حياتيهما من جديد، وهذا ما ساعد جدي على بدء صفحة جديدة في حياته. ففي صيف العام الذي توفيت فيه الأم فيرا، لم يعد جدي ذلك الطفل الصغير، بل بات رجلاً ناضجاً وطبيباً ناجحاً. وطوى النسيانُ صفحة ماضي حياته في القرية بكل ما فيها من آلام ودموع.

لكن ماركو يتذكر السكون المتوتر الذي هيمن على الصيدلي قبل أن يركل الجندي ساقيه ويبعدهما عن السياج. فقد بدت نظرة الصيدلي ثابتة ومستسلمة، وتلاشى كل أثر للمقاومة بفعل قوة خفية لم يدركها أحد من الحاضرين، ولكنهم حاولوا جميعاً في ما بعد أن يجدوا لها تفسيراً.

قال لي ماركو وهو يتكئ على عكازه ويشير بيده الأخرى إلى دار العبادة: "لم يدفنوه في المقبرة، ولكن توجب علينا أن ننقله إلى هناك بأنفسنا بعد أن انتهت الحرب".

فجأة سألته: "أين دفنت الفتاة؟".

فأجابني متسائلاً: "أي فتاة؟".

"الفتاة. أقصد زوجة النمر".

"وما علاقة هذا بالأمر؟".

# الفصل الثالث عشر

## النهر

في منتصف الطريق نحو قمة التل، توقف الرجل الذي كنت أتبعه ليستريح، فتوقفت أنا أيضاً تحت شجرة مائلة نحو الطريق بفعل الرياح العاصفة. داعبت رائحة نبات الخزامى والمريمية أنفي حتى كدت أعطس. رأيت الرجل يقف في منتصف الطريق وهو يتأرجح على قدميه ويجول بناظريه في أرجاء المكان. انتابني شعور بأنه يلتفت نحوي، وأنه يعرف بوجودي، ويحاول أن يقرر ما يريد أن يفعله بي. لم أخطط لما يجب عليّ أن أفعله إن رآني فعلاً واقترب ليواجهني. وللمرة الأولى، ندمت على ارتدائي الزي الأبيض، وحملي حقيبة الظهر التي أخذت طوال الطريق تصدر صوت حفيف على كتفي، ولكنني لزمت مكاني بينما راح الرجل يدير وجهه من مكان إلى آخر، ويبدو كما لو أنه يرقص ببطء، وهو يتنقل من قدم إلى أخرى، وظهره يتلوى بطريقة غير منطقية، وكتفاه مقوّستان لدرجة أنني وجدت نفسي أفكر في تلك الروح الخرافية التي يزعم الناس وجودها وأبتسم صامتة.

وعندئذ، ظهر القمر وأضاء التل بأكمله، وأضفى عليه مظهراً مريحاً ومألوفاً، وتشكلت ظلال الأشجار والصخور على طول جانب الطريق. رأيت الرجل يتابع سيره ببطء شديد متسلقاً التل، فانتظرت إلى أن توارى عن ناظريّ في أحد المنعطفات، ثم انطلقت في أعقابه. ظللت لوقت طويل أشعر بأنني أميل نحو الخلف، وبأن منحدر الجبل يزداد ارتفاعاً كلما تقدمت أكثر. وعندما سرت في أحد المنعطفات، وجدت الطريق

ينحرف يميناً ويصبح أشبه بمجرى نهر جاف فارغ وضحل يؤدي نحو البلدة عبر جانب التل المسطح والمجرد من العشب. رأيت في الأسفل شكل الشاطئ غير المحدد والمضاء بلافتات إعلانات المثلجات، وأنوار شرفات المطاعم، ومصابيح الميناء، كما رأيت دائرة الظلام المحيطة بالمعتزل حيث تقع حديقة أنطون الفارغة.

ظل الرجل يتقدم بثبات صعوداً قرب مجرى النهر الجاف، ونحو مرتفع مكسو بالأشجار يزداد عرضاً كلما صعدنا التل. مشيت خلفه في ذلك المكان المكشوف على أمل ألاّ يستدير إلى الخلف مجدّداً ليراني. إذ لم يعد في وسعي الاختباء بعد الآن. سكنت الرياح، واختفى أيضاً صوت غناء الجداجد. ولم يعد هناك صوت يُسمع سوى صوت خرير مياه النهر الخفيف، واحتكاك الحقيبة بظهري، وصوت حفيف العشب عندما تمر من خلاله بعض الحشرات.

رأيت الرجل من بعيد يمشي مشية غير مستقرة ويغوص في الماء. وبدا شكله من الخلف غريباً وهو يبدو منحني الظهر، وقدماه الكبيرتان تمشيان بهدوء على الأرض. لم أجد في ذلك الرجل ما يشجعني، أو ما يدل على أن فكرة اللحاق به فكرة حسنة. توقفت لبضع دقائق، وشعرت بأن حذائي قد ابتلّ بالكامل. نظرت إليه وهو يبتعد عني، وبدأت أفكر ملياً في أن أعود أدراجي.

رأيت الرجل من بعيد يهبط بحركة متأرجحة ومفاجئة. وبعد ذلك، وقف على قدميه، وواصل السير. تركته يبتعد عني وأنا أجهد عيني لتتبيّنا شكله بوضوح في الظلام. شعرت بوجود شيء ما يعترض تقدم الرجل نحو الأمام. وبينما كنت أقترب منه أكثر فأكثر، لاح لي شكل ذلك الشيء شيئاً فشيئاً، فأدركت أنه عبارة عن سلسلة معدنية صدئة معلقة بين شجرتين على كلا جانبي مجرى الجدول. سمعتها تصدر صوت صرير خافتاً. وبينما كنت أتقدم نحوها، رأيت ذلك المستطيل الأحمر المألوف

معلقـاً عليهـا: ألغـام. عندها، تلاشـت أي شـكوك انتابتني حول قصص جدي وسلامتي العقلية والمكان المظلم البري الذي أخذت أمشي فيه، وأصبحـت واثقـة تمامـاً أنني أتبع الرجل المُحصّن، وأن الجنون البحت الـذي ينجـم عـن لقائـه - وهو ذلك الجنون الذي دفـع جدي إلى ربط قدميـه بحجريـن ثقيليـن وإلقائـه فـي البحيرة - هو الجنون نفسـه الذي دفعنـي الآن إلـى إلقـاء حقيبـة ظهري مـن فوق السلسـلة والهبوط على يدي وقدمي والزحف فوق حقل الألغام، ثم الوقوف والمضي قدماً.

وفـي تلـك اللحظـة، تـوارى الرجـل بين الأشـجار، فتلـكأت قليلاً محاولـة أن أقـرر إن كنـت سـأتبعه أم لا. فقـد أدركـت الآن أنـه بـات قادراً على الاختباء خلف إحدى الأشـجار، وعلى مراقبتي وأنا أتلمّس طريقـي فـي الظـلام، ثـم على مرافقة روحـي عند مفتـرق الطرق عندما ينفجـر بـي أحـد الألغـام ويجعل دمائـي تتناثر في الأنحـاء. وأيقنت أنه مـن الممكـن أيضـاً أن أضـل طريقـي في الغابة وأظـل عالقة هناك حتى الصباح، ولكنني قررت ألاّ أتراجع بعد أن وصلت إلى هذا الحد. لذا، واصلت طريقي في تلك الظلمة الحالكة، ووسط ذلك الصمت الرهيب بين أشجار الصنوبر الكثيرة ذات الجذوع الثخينة والإبر الحادة. وجدت نفسـي أتنفس بصعوبة بسـبب ارتفاع المنحدر، كما أثقلت المياه حركة قدمي، وأبطأت من سرعة سيري. حاولت أن أهدئ من روعي لكي لا يسمعني الرجل وأنا أمشي خلفه. بدا مجرى النهر متعرجاً بين الأشجار. وراحـت قدمـاي تنزلقـان علـى الصخـور الرطبة وإبر الصنوبـر المكومة عليهـا. وأخـذت أكـواز الصنوبـر الجافة تتكسـر تحـت حذائي وتحدث ضجـة كبيـرة، فتوقعـت أن أرفـع ناظـريّ عن الأرض - وأنـا أحاول أن أعثر على موطئ قدم - وأجد نفسي أرتطم بالرجل، أو أجده واقفاً في مكانه بانتظار وصولي. عجزت عن تمييز أي شيء أمامي بسبب الظلام الحالك، ولكنني بدأت أتخيل صورته وهو يقف نافذ الصبر، وبيده قبعته

والمرطبان الصغير، وهو ينظر إليّ بعينيه الكبيرتين الحاقدتين، وابتسامته الثابتة التي وصفها لي جدي، وأنفه الحاد. وأيقنت منذ تلك اللحظة أن هذا اللقاء لا يمكن أن أحدّث عنه أحداً؛ حتى زورا.

عندما خرجت من الغابة، اكتشفت أنني أضعته. أصبح مجرى النهر جافاً، وتحول إلى طريق فارغ ومكسو بالعشب يرتفع بحدّة نحو التل. أجبرت نفسي على المضي صعوداً، ويداي ممدودتان على جانبيّ طلباً للتوازن. وعندما وصلت إلى القمة، وجدت الأرض مسطحة وأشبه بالمرج المنبسط، ورأيت جسراً حجرياً منخفضاً يعبر مجرى النهر. صعدت على الجسر، وعبرته إلى الجهة الأخرى. ومن فوق قمة الجسر المقوس، استطعت أن أرى أشكال البيوت المهجورة الموجودة على كلتا ضفّتي مجرى النهر الجاف، والتي تحيط بها أشجار كثيفة تصدر حفيفاً، وتبدو مختلفة كل الاختلاف عن أشجار الغابة التي عبرتها قبل قليل. كان أول منزل رأيته يقع إلى يساري ويبدو مختلفاً عن بقية البيوت، فهو ذو واجهة مستديرة فيها على ما يبدو ما يشبه النافذة الصغيرة في الطابق العلوي الذي نُزع سقفه وتحطم زجاج نوافذه. بدا العشب النامي في الحقل طويلاً حتى كاد أن يلامس ثلاثة أو أربعة مصاريع لا تزال معلقة على إطاراتها. خُيِّل إليّ أن الرجل الذي أتبعه دخل هذا المنزل ربما وأنه ينظر إليّ الآن من إحدى النوافذ. لم أستطع أن أتبيَّن ما يوجد في الداخل على الإطلاق. مررت بجانب المنزل متمهّلة وأنا أنظر من فوق كتفي، ورأيت جزءاً من الجدار المحيط بالمنزل مهدماً. وكانت هناك مساحة مرصوفة في الداخل تؤدي إلى مكان أشبه بالحديقة. دار بخلدي أن الرجل المُحصّن موجود هناك ربما، ولكنني لم أستلطف فكرة مصادفته في ذلك المكان الموحش.

رأيت منزلاً ثانياً في الجهة المقابلة تظلله شجرة باسقة. وأدركت أنه كان في الماضي نُزُلاً مكوناً من طابقين. وخطر ببالي أن هذه بلا شك

هـي القريـة القديمـة التي هجرها سـكانها بهدف العيش في مكان أقرب إلـى البحـر بعـد الحرب العالمية الثانية. كان للنُزُل درج حجري عريض متعـرج أمـام مقدمـة البناء، وسـياج عليه أصص زهور فخارية مكسـورة وفارغـة. وكانـت الشـرفة الطويلـة فـي الطابق الثاني تدعـم في ما مضى نافذة شبكية عليها نباتات معترشة، ولكنها الآن لم تعد سوى حفنة من القضبان الصدئة غير المستوية تحت سقف شبه منهار.

وجـدت بقيـة المنـازل متجمعة على طـول مجرى النهر ولها ظلال وارفة، ومشيت بمواجهة إحدى الضفّتين أولاً، ثم أمام الأخرى؛ مروراً بقناطر مهدمة وركام من المصاريع المكسورة وأكوام من الفُرَش. ورأيت باحات مهجورة مليئة بدلاء مبعثرة، وأدوات بستنة تقبع في مكانها بثقل بسبب الصدأ والإهمال، والعشبُ ينمو حولها. مررت بمكان أشبه بشرفة مفتوحـة منحشـرة بيـن زاويتـي بنائين، وتبدو وكأنهـا كانت في ما مضى مطعماً. إذ رأيت فيها طاولات وكراسـي مبعثرة على الأرض الحجرية. ولكنّ ما فاجأني هو أنني رأيت كرسـياً بلاسـتيكياً عليه هرّ ضخم نائم بهدوء ووبره يبدو رمادي اللون تحت ضوء القمر.

حاولت أن أتذكر - وكأن الموقف يسمح لي بمثل هذه التخيلات المرعبة - تفاصيلَ تلك القصص الخرافية عن أشباح الجبل التي تعيش فـي الحقـول والغابـات، وتتلذذ بتضليل المسـافرين الحمقى؛ ليس فقط بالاتجاه بل بالوقت والمساحة على حدٍّ سواء. أخبرتني جدتي ذات مرة قصّة خرافيّة عن رجل من ساروبور تسلق إلى أعلى التلال خلف خرافه، ووجد نفسه في منزل مليء بالموتى أرشدته إليه فتاة صغيرة تعتمر قبعة بيضاء، واتضح له في ما بعد أنها ليست فتاة صغيرة على الإطلاق، بل إنها مخلوق شـرير استطاع أن يُغيّر شـكله ويشـغل عقله إلى أن أدّى به إلى الهلاك.

فجـأة، وجـدتُ مجـرى النهـر أمامـي ينحـدر انحداراً شـديداً نحو

الأسـفل، ويشـقُّ طريقاً متعرجاً نحو الوادي. ورأيت بضعة بيوت أخيرة متجمعة حول ذلك المنعطف، ومن ورائها تنمو شجيرات وأجمات في مجموعات صغيرة. مشيت على طول الطريق بحذر كي لا أنزلق وأقع. ورأيـت منـزلاً حجريـاً صغيـراً ذا عتبـة مرتفعـة وباب أخضـر منخفض، وهـو البـاب الوحيـد الـذي لا يزال معلقاً من إطـاره في كل تلك القرية المهجورة. ورأيت نوراً يشع من الشق بين الباب والأرض.

فـي أي ليلـة أخـرى، كان مـن الممكـن أن أسـتدير وأعود أدراجي من حيث أتيت؛ لا بل في أي ليلة أخرى ما كنت لآتي على الإطلاق. ولكنني قلت لنفسي إن الرجل الذي طاردته دخل البيت من دون شك ما لم يكن واقفاً خلفي مباشرة أو يراقبني منذ أن دخلت القرية. ودفعتني تلـك الفكـرة وحدها إلـى صعود الدرج الحجري المتصدع. اسـتغرقت وقتاً طويلاً حتى فتحت الباب، ولكنني في النهاية فتحته فعلاً ودخلت.

وهممت بأن أقول: أنت غافران غاليه. وليحدث ما يحدث.

* * *

"مرحباً، أيتها الطبيبة".

"هذا أنت!".

"بالطبع. تفضلي، أيتها الطبيبة. ما الذي تفعلينه هنا؟ تفضلي وأغلقي الباب. تفضلي بالجلوس، أيتها الطبيبة. إن هذا عمل سيئ جداً. كان من الممكن أن تتعرضي للأذى أو تضلي الطريق. لم أدرك أنك تتبعينني".

"لقد تبعتك من الكرم إلى هنا".

"حسـناً، لـم ألحـظ وجـودك. ولـم أدرك أنـك سـتتبعينني فعلاً. لو أدركت ذلك لتوقفت وطلبت منك أن تعودي أدراجك. تعالي، اجلسي قرب الموقد. اجلسي. سأفسح لك مجالاً".

"لا بأس بذلك. سأظل واقفة".

"لا بد أنك متعبة. من فضلك اجلسـي هنا. سـأزيح هذه الأشـياء

جانباً. كنت أنوي أن أرتب المكان، ولكن ليس هناك متسع من الوقت. إن الوقت متأخر دائماً. تعالي واجلسي. لا تأبهي للأزهار. ادفعيها كلها جانباً واجلسي".

"لا أريد أن أتطفل عليك".

"يمكنك أن تقربي الأزهار من النار، أيتها الطبيبة. فالنار تجففها بشكل أسرع".

"عذراً!".

"كلما جفت بصورة أسرع خفّت رائحتها. إنني لا أرميها أبداً. هل تشعرين بالبرد، أيتها الطبيبة؟ هل تودين بعض الماء؟ أو القهوة؟".

"ينبغي أن أعود أدراجي".

"هذا غير وارد أبداً. لا بد أن تنتظري. يجب أن ننهي هذا هنا".

"لقد ارتكبتُ خطأً".

"ولكن، لا بأس الآن. فأنت بأمان هنا. تعالي وضعي هذه القطع المعدنية في البرميل".

"يا الله! كم عددها؟".

"هناك المزيد".

"إنني لا أميز حتى بعض هذه القطع النقدية".

"إن بعضها يعود إلى ما قبل الحرب، وبعضها الآخر أكثر قدماً".

"ما هذه؟".

"هذه عملة رومانية برونزية. إن التلال مليئة بقطع نقدية مماثلة لها. قد لا يعني هذا الكثير لك، ولكن هذه الأموال تدفع من أجل الموتى".

"ماذا ستفعل بها كلها؟".

"سأتبرع بها. إن تبرّع الأحياء بالأموال الخاصة بالموتى عمل سيئ. ولكن، من العار أن أتركها هنا ولا أسمح للآخرين بالانتفاع منها".

"أعتقد أنه يجب عليك أن تشرح لي بمزيد من التفصيل".

"إنـك تضعيـن قدميك على الرسـومات أيتهـا الطبيبة. دعيني أنقلها من هنا".

"إنني آسفة".

"يجـب أن أعثـر علـى مـكان آخر لأضعها فيه بعيداً عن الموقد. لا أريدهـا أن تشـتعل. إذ إن بعضهـا قديـم جـداً. انظري إلـى هذه اللوحة. إن الرجـل الـذي تركهـا هنا ميت الآن. إننـي أحضر النقود من قبره منذ العام الماضي".

"أنت المورا، أليس كذلك؟".

"ليس دائماً. لقد كانت المورا موجودة قبل أكثر من مئة سـنة. وبعـد ذلـك، اندلعـت الحـرب فلم يعـد أحد يعتقد بوجودهـا. ولم تعد زوجتـي تعتقـد بهـا كذلك؛ ولا سـيما بعد ما حـدث لابننا. فقد اعتادت أن تعود بعد زيارة قبره وتقول: إن الرسومات التي يضعها الناس هناك تبتـل وتسـيل ألوانهـا فـي كل مكان، والزهور تذبل وتتسـخ وتفوح منها رائحة كريهة. وكل ذلك من أجل ماذا؟ من أجل أن أشـعر بالتحسـن؟ كيـف يمكـن أن أتحسّـن وابني مدفـون في حفرة تحت الأرض الباردة؟ أعطيني ماء، أيتها الطبيبة".

"أرجو المعذرة!".

"أريد ماءً، من فضلك، لأغسل يدي. وذات ليلة، ذهبت إلى القبر، ونظفته، وأحضرت الزهور والرسـومات إلى هنا. لا أحد يأتي إلى هذه المنطقة. فعلى الرغم من أن معظم الألغام قد زالت، إلا أنهم يقولون إن المكان لا يزال خطراً. لا يطاوعني قلبي على التخلص من الأشياء التي توضـع علـى قبـر ابني. ربما أنا أيضاً أثـق بهذه الخرافات. عندما ذهبت زوجتي في الليلة التالية إلى القبر، شـعرت وكأن أحداً همس في أذنها سراً غيَّرَ حياتها. فسألتني إن كنت قد ذهبت إلى القبر ورأيته وهو يبدو نظيفاً ومرتباً، ووصفت لي كيف أنها وقفت بجانبه وشعرت أن ابننا يرقد

بسلام. وقالت إنّ يد المورا هي التي نظفت القبر، ولم تفعل يد بشرية ذلك، وإنها تدرك هذا في صميمها. وعادت في وقت لاحق ووضعت النقود على القبر. ما الذي يسعني أن أفعله سوى أن أحضرها إلى هنا؟".

"ولكن هذه النقود كلها ليست من قبر واحد".

"كلا، إذ سرعان ما بدأ الناس يضعون عملات معدنية على قبور أحبائهم، ويتركون المزيد من الزهور والملابس وأحياناً الطعام. فحسب اعتقادهم، إنهم بهذا يبقون الميت بأمان، ويغذونه، ويواسون قلوبهم الثكلى. إنني في بعض الأحيان أتسلق إلى هنا وبحوزتي ملء أكياس من العملة المعدنية. يقول الناس: إن هذه أرض مباركة. اترك شيئاً لموتاك هنا وسوف يصلهم حتماً. فالمورا ستأخذه إليهم".

"لا أحد يعرف هذا السر، أليس كذلك؟".

"هناك دائماً من يعرف الحقيقة أيتها الطبيبة، ولكنني سأسرّ كثيراً إن لم يعرفها أحد سواك".

"أليس هناك أحد من القرية يعرفها؟ ولا حتى ابنك؟".

"إن كان ثمة من يعرفون الحقيقة، فهم أولئك الذين لا يبوحون بالأسرار. لذا من الصعب أن يخبرهم أولئك الذين بالكاد يظنون أنهم يعرفون شيئاً. لا بد أن أحدهم يعرف بحلول هذا الوقت. لن يعرف ربما أنني أنا من يفعل ذلك، ولكن لا بد أنه يعرف أن إنساناً ما هو من يقوم بذلك. ومع ذلك، فهم لا يزالون يضعون الأشياء على قبور أحبائهم، وأواصل أنا إحضارها إلى هنا. لن تخبري زوجتي، أليس كذلك، أيتها الطبيبة؟ لن تبوحي لها بالسر، أليس كذلك؟".

ولكن، لم يكن يتوجب عليه أن يطالبني بذلك. فقد عرفت، ولطالما تعلّمت أن بعض القصص يجب أن تبقى دفينة في قلب من يعرفها.

إن الأشـخاص الذين يتحدثون عن وفاة جدي الآن يذكرون ذينك الصبيين من جريفكوف، واللغم الأرضي الذي مزق جسديهما؛ رغم أن أحـداً ممـن أعرفهـم لـم ير صورة أو يقرأ تقريـراً عن الحادثة. إن جميع الأطبـاء المسـنين، كمـا قيـل لي، يقدمـون احترامهم لجـدي، ويعجبون بذلـك الرجـل النحيـل والشـاحب الـذي لـم يمنعه ذلك المـرض الذي أخفـى سـره فـي صـدره كالعار عن التخلي عن كل شـيء، وعن السـفر مسافة مئة ميل لينقذ حياتَي الصّبيّين. وكلما اتصلت زورا بي من معهد الدراسـات العصبية في زيورخ برعب في سـاعات الليل - وهذا ما بدأ يزداد بعد أن بلغ ابنها السـن التي يحب فيها أن يستكشـف الأشـياء من خلال حشرها داخل أنفه - أخبرتُها أن عدم نجاة الصّبيّين من الحادث لم يشكل جزءاً هاماً من القصة.

إن معرفـة الأطبـاء لا تمتد لتشـمل كيس أغـراض جدي، والطريقة التـي تمكنـت بواسـطتها مـن إحضاره إلـى الديار، وتسـليمه إلى جدتي بعد مرور يومين على الجنازة، فوضعته على طاولة الصالة لثلاثين يوماً لنشعر بأن جدي لا يزال جالساً بيننا. وفي اليوم الأربعين، فتحتْ جدتي كيس المستشفى لتوضِّح أي سوء فهم تعرضنا له بالنسبة إلى وفاته، قبل أن تزيل بيجامته الحريرية من تحت وسادتها وتزيل خُفّه. وعندما عدت إلى البيت في تلك الليلة، رأيتها لأول مرة بعد أن أصبحت أرملة؛ أرملة جدي، جالسة بهدوء على أريكته الخضراء، وأغراضه مرتبة داخل علبة حلوى معدنية تضعها على حضنها.

جلسـتُ علـى كرسـي منخفـض بجانبها، وتأملتها وهـي تفتش بين

الأغراض. ووجدت أمي جالسة هناك وهي تبدو غير راغبة في إزعاجها، ولكنهـا متمسـكة برغبتهـا الملحة في النظر إلـى محتويات الكيس. خيم الصمت علينا لوقت طويل بينما أخذت جدتي تتحسـس أغراض جدي بأصابعها الملساء التي تضع فيها خواتم كبيرة. ثم قالت جدتي: "لنشرب القليل من القهوة". عندها، نهضت أمي لتعدها، وسـمحت لجدتي بأن تنتقدها وتصحح طريقتها في إعداد القهوة وتنبهها إلى كل ما هو واضح: "لا تضعي الركوة هناك بل استخدمي اللوح الخشبي حباً بالله".

* * *

لـم أخبـر أحـداً بالتأكيد عن الغرفة ذات النـار المتأججة في القرية المهجـورة، وعـن الطاولـة المكسـورة، والبرميـل الـذي يطفـح بالنقـود المعدنية، وعن سجادة الزهور الذابلة، وصفوف المرطبانات والزجاجات المصنوعة من الطين والخزف والزجاج وأغطيتها الشمعية المكسورة أو المفقـودة، وعـن قواريـر القرابين الفارغة التي نسـجت العناكب شباكها على فوهاتها. ولم أحدّث أحداً عن النار التي ألقت بظلال مستديرة على جوانـب تلـك القوارير وحوافها، وعن لوحات بيس المكدسـة كلفافات البردي على الجدار. ولم أخبر أحداً عن الوعد الذي قطعته بألاّ أفشـي سـر الغرفـة لأحـد، ومطالبتي بوعد مماثـل مقابل وعدي وأنا أركع على الأرض لأفتح الكيس خلسة في تلك الغرفة التي شعرت أنها تحلّني من أي تبعة لعملي لأنني أدركت أنها بالنسبة إلى الآخرين لا وجود لها.

عثـرت فـي الكيـس علـى محفظتـه وقبعتـه وقفازيه. ووجـدت زيّه الأبيـض مطويـاً بأناقـة، ولكننـي لـم أعثر على كتـاب الغابة الذي بحثت عنـه، وشـعرت بالحـزن لفقدانه وأنـا في تلك الغرفة الصغيرة الحارة في بريجيفينـا. واسـتغرقت وقتاً طويلاً لأتقبل فكـرة اختفائه تماماً وكلياً من معطفه ومن بيتنا ومن أدراج مكتبه ورفوف غرفة معيشتنا.

عندمـا أفكـر فـي آخر لقاء بين جدي والرجـل المُحصّن، أتخيلهما

يتبادلان حديثاً ودياً في أثناء جلوسهما على شرفة ذلك المطعم في جريفكوف وهما يضعان كتاب الغابة - الذي تعهد جدي بمنح الرجل المحصن إيّاه - مغلقاً على الطاولة بينهما. وأرى جدي مرتدياً أفضل بذلاته. فيصطحبه الرجل المُحصّن، ولكن ليس لتناول كوب من القهوة بل لاحتساء كأس من الشراب. فيضحكان طويلاً قبل أن يمضيا في رحلتهما معاً إلى مفترق الطرق. للمرة الأولى في تاريخ تعارفهما الطويل يمرّان من دون أن يلاحظهما أحد، فهما مجرد رجلين عاديين يمر بهما المرء في الشارع ولا يكترث لهما. ويسود جو من الراحة والصفاء بين هذين الرجلين اللذين عاش كل منهما حياة حافلة. وبالنسبة إلى الرجل المُحصّن، إنها أكثر من مجرد حياة واحدة، ولكن لا يمكن لأحد أن يعرف ذلك بمجرد النظر إلى وجهه. إذ يبدو، حسب وصف جدي، شاباً في الخامسة والتسعين من عمره. وسيظل شاباً بعد أن تمرَّ الأيام الأربعون بعد وفاة جدي، وعلى الأرجح بعد أن تمر تلك المدة على وفاتي أنا أيضاً.

قد يظن الأطباء الذين لطالما سخروا من الكتاب الذي اعتاد جدي أن يحمله أنه ضاع أو سُرق في جريفكوف، أو تُرك في غير موضعه في أثناء رحلة ذلك الرجل المحتضر، ولكن الكتاب اختفى. فهو لم يضع أو يسرق بل اختفى، وهذا يعني أن جدي لم يمت نتيجة الخوف - كما قال لي ذات مرة إن الرجال يموتون - ولكنه مات وهو يشعر بالأمل؛ أي كما يموت الأطفال، لأنه أدرك أنه سيقابل الرجل المُحصّن مجدّداً، وأيقن أنه سيفي بوعده، وسيعرف بالإضافة إلى كل ذلك أنني سآتي لأبحث عما تركه لي في جيب معطفه الطبي، وهو كل ما تبقى من كتاب الغابة. إنها ورقة مصفرة مطوية نزعت من آخر الكتاب، وفي داخلها شعرات خشنة وسميكة. كُتبت على الورقة كلمة غالينا بخط يد جدي فوق رسم طفولي للنمر رسمه بيده. وهكذا، فأنا أعرف أين أعثر

عليه مجدّداً؛ في غالينا، وفي القصة التي لم يقصصها عليّ قطّ ولكنه ربما تمنى لو أنه فعل ذلك.

* * *

في نهاية المطاف، أصبحت على دراية تامة بتفاصيل قصة طفولة جدي لأرويها لنفسي، ولكنني لن أشرح ما جرى بين النمر وزوجته. إذ أظن أن شرح هذا ممكن على الأرجح، ولكن لا طائل منه. إنني أستطيع بكل بساطة أن أبرر تعلق ذلك النمر بها. فقد كان نصف بري، وقد افتقدتْ وداعته المكتسبة - من دون أن يتمكن من التعبير عن ذلك - إلى الرفقة والحياة البسيطة التي عاشها في القلعة. ورغم أنه تعلم ببراعة أن يؤمن طعامه، فقد فَسُدت طبيعة النمر فيه منذ ولادته، وانطفأت ربما في داخله نار شريخان العظيم المرعب التي لطالما وثق جدي بها، فأصبح كليلاً بسبب حدة الظروف، وبات يجد أن الاستسلام للبشر لكي يطعموه أكثر سهولة. من الممكن أن يعزو الإنسان تعلق النمر بها إلى مصادفة بحتة من مصادفات الطبيعة، وأن يجعله غامضاً كدبّ ينبش كومة من علب القمامة المقلوبة، ولكن ذلك ليس نمر جدي وليس النمر الذي حمل بسببه كتاب الغابة في جيبه طوال السنوات الطويلة التي كابد فيها ظروف الحياة في المدينة بصحبة الأم فيرا وخلال دراسته. فقد ظلّ النمر ملازماً إيّاه عندما قابل جدتي ودرّس في الجامعة وقابل الرجل المُحصّن وعندما ذهب إلى جريفكوف.

قد يقول البعض إن الفتاة شابة وحمقاء، وإن الحظ حالفها بشكل عجيب لبعض الوقت، رغم كل الظروف التي اجتمعت ضدها، حيث إنها التقت نمراً لا يحمل كل صفات النمر، وتمكنت من رؤيته وجهاً لوجه لأوّل مرة وهي تحمل ربما رائحة مدربه القديم نفسها التي أحيت في داخله ذكرى ضائعة من الماضي، ولكن ذلك أيضاً مجرد تبسيط زائد للحقيقة.

قد يكفي القول إنه استمتع بالإحساس بيدها وهي تداعب وجهه، وإنها أحبت رائحته عندما استلقت واتكأت على جسده لتنام.

* * *

في النهاية، لا أستطيع أن أحدد من هي الفتاة أو ما هي طبيعتها. ولا يسعني حتى أن أعرف بشكل مؤكد ما جرى للوكا رغم أنني أميل إلى تصديق أولئك الذين يقولون في غالينا إنه استيقظ بعد أن ترك الفتاة مربوطة في معمل حفظ اللحوم ليجهز النمر عليها، ووجدها راكعة بجانب سريره ومعصماها مسلوخان وهي تسدد بندقية الحداد إلى وجهه.

لم يع أهل غالينا طبيعة الأحداث التي شهدوها، ولم يعرفوا ما يعنيه لهم وجود الفتاة. ولو أن الوضع كان مختلفاً، ولو أنهم أدركوا أن عزلتهم باتت وشيكة الزوال وأدركوا أكثر أن المسألة لم تعد سوى مسألة وقت فقط قبل أن تحكم الحرب قبضتها عليهم، لسارعوا أكثر إلى تقديم احترامهم للنمر وزوجته، ولقالوا: أليس هذا غريباً؟ إن هذه أشبه بقصة حب، قبل أن ينتقلوا إلى موضوع آخر من موضوعات الثرثرة. ولكنهم علّقوا حزنهم وقلقهم على الفتاة لكي يتجنبوا النظر إلى ما وراء ذلك، وليتجنبوا معرفة الأحداث التي تتربص بهم. وبعد موتها، لازمتهم ذكراها إلى أن حان فصل الربيع. فقد وصل الألمان أخيراً على متن شاحناتهم، وأجبروا القرويين على بناء سكتهم الحديدية في وقت لاحق، ثم أتى ضجيج القطارات التي باتت توقظهم فزعين في منتصف الليل. فكانوا كل مرة يقولون بابتهال: لا تتوقفوا! لا تتوقفوا هنا رجاء! إلى أن لم يبق شيء سوى القصة.

عندما يسأل المرء سكان غالينا: "لماذا لا تدعون الأطفال يخرجون بعد حلول الظلام؟". فإن أجوبتهم تأتي غامضة ومرتبكة، ويقولون: ما الهدف من البقاء خارجاً بعد حلول الظلام؟ لا يمكن رؤية أي

شيء. وليست هناك سوى المتاعب. لماذا ندعهم يتسكعون في الزوايا ويدخنون السجائر ويلعبون في حين أن هناك عملاً يجب عليهم إنجازه في الصباح؟ ولكن الحقيقة هي - سواء أوافقوا على الاعتراف بها أم لا - أن التفكير في النمر لا يزال يلازمهم في أثناء تحركهم وكلامهم وإجراءاتهم الوقائية التي باتت تشكل جزءاً من حياتهم اليومية. فهم يفكرون فيه عندما تركض الغزلان الحمراء إلى سفح الجبل، وعندما تفوح في الوادي كله رائحة الخوف، وعندما يجدون جثث الأيائل ممزقة وأضلاعها الحمراء مجردة من لحمها. إنهم يرفضون أن يناقشوا الأمر مع بعضهم لأنهم يدركون أن لا أحد تمكن من العثور على النمر ومن قتله. ولهذا السبب، لا يذهب الرجال لقطع الأخشاب بمفردهم. وبات الأهالي يمنعون الفتيات العذراوات من عبور المرج تحت ضوء البدر رغم أن أحداً منهم ليس واثقاً فعلاً من عاقبة هذه الأفعال.

إنهم يقنعون أنفسهم بأن النمر قد مات هناك جائعاً ووحيداً؛ وهو يذرع الجبل بانتظارها، وأنه ذبل وتغضن جسمه وتمدد بلا حراك وهو يشاهد الغربان تنتظر موته بفارغ الصبر. ومع ذلك، ففي معظم فصول الصيف، يأخذ الصبية الصغار خرفانهم إلى الجبل على أمل أن تغريه أصوات أجراسها بالخروج من مخبئه. وعندما يصلون إلى فسحة أو مكان شبيه بما يبحثون عنه، فإنهم يضعون أيديهم أمام أفواههم ويصيحون محاولين أن يصدروا ضجة تشبه أصوات الحيوانات، ولكن الأصوات التي تصدر عنهم لا تبدو مختلفة عن أصوات البشر.

ولكن النمر في نظر جدي لم يمت مطلقاً. إذ لم يره أحد يموت، ولهذا سوف يظل هناك دائماً مكان له في غالينا بين الأشجار النحيلة، وخلف مساحة واسعة تبدو فيها الشجيرات ملتوية، ويبدو النور ساطعاً على الثلج. يوجد هناك كهف ولوح حجري كبير تسطع عليه الشمس دوماً. إن نمر جدي يعيش هناك في مكان لا يبارحه الشتاء مطلقاً. إنه

صياد الأيائل، ومحارب الدببة، ومصدر ارتباك كبير لحيوانات الوشـق، ومعجب جَذِل بألوان ريش الطيور. لقد نسي أيام القلعة وليالي القصف ورحلته الطويلة الشـاقة إلى الجبل. وتلاشـت كل الذكريات من مخيلته إلا ذكـرى زوجـة النمـر التي يناديها في الليالي التي يشـعر فيها بالوحدة بصوته الحزين وخرخرته التي تسكن شيئاً فشيئاً. إن ذلك الصوت وحيد وخافت، ولـم يعد أحد يسمعه بعد الآن.

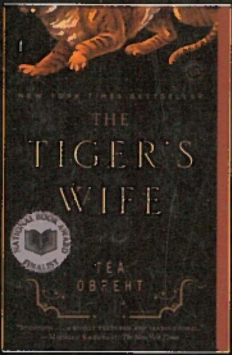


بعد التمحيص في كل شيء، أصبحت اليوم أعرف الكثير عن زوجة النمر، وصار بإمكاني إخباركم الكثير من الحقائق: ففي أواخر ربيع العام 1941، ومن دون سابق تحذير أو إعلان بدأت القنابل الألمانية بالتساقط على المدينة، ولم تتوقف طيلة ثلاثة أيام. إلا أن النمر لم يكن يعلم بشأن هذا القصف.

فرّ النمر من حديقة الحيوانات المحلية، وسار عبر الطرقات المدمَّرة إلى أن وصل إلى منطقة تشرف على قرية غالينا البلقانية. كان لغاراته الليلية على القرية وقع مخيف في نفوس القرويين. إلا أن أحد الأولاد في القرية اعتبر وجود النمر مثيراً: فقد ظهر شيرخان الذي لطالما قرأ عنه في كتاب الغابة.

بعد حرب أخرى عصفت بالبلقان، زارت الطبيبة ناتاليا - وهي حفيدة هذا «الولد» - داراً للأيتام. وخلال زيارتها تلك، وصلها خبر وفاة جدها المحبوب في مكان بعيد عن منزله، وفي ظروف يكتنفها الغموض.

وعندما تذكرت ناتاليا أجزاء من القصص التي كان يرويها لها جدها، خمّنت أن جدها ربما توفي بينما كان يبحث عن الرجل المحصن: ذلك المشرد الذي قال إنه محصّنٌ ضد الموت. عانت كثيراً وهي تحاول تفهّم سبب هدر رجل علم مثل جدها وقته في البحث عن الرجل المحصن. إلا أنها اكتشفت صدفة السبب الذي ربطته بنسخة بالية من كتاب الغابة الذي كان جدّها يحتفظ به دائماً معه، ثم بقصّة زوجة النمر التي عرفتها لاحقاً.

ولدت **تيا أوبرهت** عام 1985 في يوغوسلافيا السابقة، وأمضت طفولتها في قبرص ومصر قبل أن تهاجر في نهاية المطاف عام 1977 إلى الولايات المتحدة. وقد نُشرت كتاباتها في مجلة «نيويوركر»، و«ذي أتلانتيك»، و«نيويورك تايمز»، و«الغارديان» وغيرها. ولقد تم تصنيف أعمالها ضمن أنطولوجيا «أفضل القصص الأمريكية القصيرة». رُشّحت تيا أوبرهت من قبل مجلة «نيويوركر» باعتبارها واحدة من بين أفضل 20 كاتباً من كتّاب الخيال الأمريكي تحت سنّ الأربعين وأُدرجت في قائمة «المؤسسة الوطنية للكتاب» لأفضل 5 كتّاب تحت سن 35. تعيش تيا أوبرهت في إيثاكا، نيويورك.

ISBN 978-614-01-0500-3
9 786140 105003

nwf.com
نيل وفرات.كوم
جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com